Ahmad Zakī

السفر الى المؤتمر

وهى الرسائل التى كتبها على اوروبا



رئيس قلم بمجلس النظار
ومساعد السكرتير العام فى الجمعية الجغرافية الخديوية

سافروا تصحوا وتغنموا
(حديث كريم)

* * *

انما الارض والفضاء كتاب
فاقرأوه معاشر الاذكياء
(ا. صبرى)

الطبعة الثانية

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية
سنة ١٣١١ هـ
١٨٩٤ م

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 023632993

(RECAP) (Annex A)
D967
.A352
1894

قررت نظارة المعارف العموميه بناء على رأى اللجنة العلمية استعمال
هذا الكتاب لتدريس المطالعة فى بعض مدارسها الثانويه
والخصوصية والعالية

(حقوق الطبع والترجمه محفوظه للمؤلف)

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 023632993

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ❋ وصلاة وسلاما على نبى الهجرة الذى اختصه مولاه بمحامد لا تستقصى ❋ وعلى آله وصحبه الذين انتشروا فى الامصار ❋ وطافوا الاقطار ❋ فرفعوا للعلم أعلى منار ❋ وضربوا للناس الامثال فأصبح التمدن كما تراه جليل المقدار ❋ سامى الاعتبار

وبعد فان لكل عامل غاية يتوخاها ولكل مرتاد ضالة ينشدها وضالتى التى نشدتها فى هذه المجموعة العناية بتخييل ماشاهده العيان من المناظر الشائقة والمرائى الرائقة تخييلا تتجلى به للقارئ مواثل يتقراها بيده ويسبرها بساعده فانى حاولت ان أمثل له تأثير الحس وانفعال النفس اذ الباصرة تنقل والخيال ينقل والمفكرة تخبر والضمير يسبر فتنفعل الحواس فتملى على اليراع بحسب مايقع عليها من التأثير وحكمها فى ذلك راجع الى مزاج الانسان وطبيعته ومشربه وتربيته فقد كنت أعرف قبل تطوافى ببعض البلدان أمورا كثيرة ولكننى لما طوحت بى الايام الى تلك النواحى تناسيت الصور التى كانت

مرتسمة فى مخيلتى فمثلها الى الانفعال النفسانى بصورة توافق أو تخالف ما كنت أعرفه فهذا هو التأثير النفسانى الذى ابتغيت المبادرة بتمثيله بوقته فى رسائلى هذه قبل ان يضيع شئ منه أو يعرض مؤثر آخر عليه حتى إننى كنت اكتب رسائلى هذه وأنا بين حلّ وترحال تطوح بى الاسفار ولا يستقر لى قرار وليس لى من الوقت ما يكفى للمراجعة والتنقيح واعادة النظر والترجيح لأننى كنت أخذت على نفسى قبل السفر ان أمضى نهارى فى التنقل من مكان الى مكان أصعد الى أعالى كل مدينة نزلت بها وأدخل فى جميع آثارها وأطوف كل شوارعها وأزور كافة متاحفها وبالجملة أشاهد كل ما يمكن مشاهدته فى اليوم وأقضى شطرا من الليل ليس بقليل فى إتمام ما يتسنى أو تلزم رؤيته بالليل وتعليق المفكرات وكتابة البريد وكنت فى كل لحظة متخوفا من فوات القطر حتى لقد صدق على قول بديع الزمان الهمذانى

إسكندرية دارى * لو قر فيها قرارى
لكن بالشام ليلى * وبالعراق نهارى

أو ما قاله عبد الله بن أحمد بن الحرث شاعر ابن عباد

يوما بحذوى ويوما بالعقيق وبا * لـعذيب يوما و يوما بالخليصاء
وتارة أنتحى نجدا وآونة * شعب العقيق وأخرى قصر تيماء

بل قد كان وقتى من أقصر ما يكون حتى لقد كنت أسعى فى توفير الزمن

وتكثيره باتعاب نفسى وحرمانها من الراحة فافضل السفر ليلا فى أغلب الاحيان الا اذا لم يكن ذلك فى الامكان ولقد صدق رسول الله الكريم فى قوله (عليكم بالدلجة فان الارض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار)

وقد أفرغت وسعى فى التحقيق والتدقيق كما يشهد به المنصفون من الناظرين فى هذه الرسائل التى يعلى من رايتها ويرفع من ذكرها أننى حررتها وأنا أنظر الاشياء بعينى مصرى بحت ينفعل بانفعال المصريين ويكتب للمصريين فلم أعبأ بقول مصنف غربى ولم ألتفت الى نبأ مؤلف عربى الا حيثما تدعو الضرورة الى تحقيقات جغرافية أو علمية وذكر بعض الاحصائيات وفيما عدا ذلك أشهد الله انى لم يكن لى من معتمد فى استكناه الحقائق واستجلاء الماهيات سوى شعورى المصرى الخالص من أثر الشوائب والاستفسار ممن يوثق بعلمه وخبرته من أهل هاتيك الديار

هذا وقد باشرت طبعها بغاية العناية وأوردت الجمل التى كانت حذفت فى غيبتى أثناء طبعها فى الجرائد لاسباب اقتضاها الزمان فرددتها كما كانت يوم كتبتها باوروبا بالتمام غير انى أضفت هنا كثيرا من الحواشى والتعليقات لزيادة التحقيق والتدقيق فى بعض المواضع

وانى أنبه القارئ الى أن الرسالة الكبيرة على باريس لم يسبق طبعها فى الجرائد هى وكمالة الرسالة الاندلسية فى بيان امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاعلام وكذلك الخاتمة فضلا

عن الزيادات الكثيرة والاضافات الوافرة وانى أستلفت النظر الى رسالة باريس الثانية (وهى الخامسة عشرة) فانها تصور تلك المدينة للقارئ تصويرا وافيا جامعا بحيث ان من تمعنها واستكمل قراءتها يمكنه ان يقول انه يعرف باريس وما تحويه مما قد لا يعرفه كثير من المقيمين بها سواء كانوا من أهلها أو النازحين اليها وأكثر مما يقف عليه السائح الذى قد يقيم فيها شهرا أو أكثر من شهر وأما كمالة الرسالة الاندلسية فهى تستحق من العناية ما لا يقل عن ذلك وحسبى انى طرقت بها بابا جديدا توصلت منه الى منهاج من التحقيق يشهد الله بمقدار ما عانيته فيه من التعب والتنقيب والمراجعة وكل ذلك لا يخفى على فطانة أهل الانصاف ومحبى الحقائق العلمية

وأقول ان مادونته فى هذه الرسائل هو شئ قليل فى جانب ما عندى من البيانات والمعلومات التى عنيت بتعليتها وجمعها لتدوينها فى الرحلة الكبرى وغاية سؤالى للملك المتعالى ان يقدرنى على إتمامها وييسر الطريق الى طبعها وتعميمها فانى عزمت على إدارة سياجها وانتهاج منهاجها بحيث يكون موضوعها علميا محضا أتحرى البحث فيها بصفة كونى مسلما شرقيا يعنينى من عملى التنقيب عن آداب الشرقيين والغربيين والمقارنة بين اخلاقهم وعلومهم ومذاهبهم ونحلهم ومبلغ ارتقائهم ومقدار تأثير

الاولين على الآخرين أو الآخرين على الاولين فى القديم أو الحديث ومرجع ذلك فى الاغلب الى دواوين الفلاسفة ومصنفات الجهابذة من الفريقين والله الهادى الى سواء السبيل

مقدمة الطبعة الثانية

هذه الطبعة الثانية أقدمها للافاضل الاجواد الناطقين بالضاد فى جميع البلاد وقد كان السبب فى بروزها حضرة الوزير الجليل والمشير الخطير الآخذ بناصر المعارف المؤيد لابناء الوطن ممهد السبيل لكل مجتهد فى الكسب والتحصيل معين المشتغلين بعضده القوى المتين محط رحال الآمال صاحب الدولة والاقبال مصطفى رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية الجليلة والمعارف العمومية حفظه الله وأبقاه وأكثر من المستظلين بحماه

هذا وانى أجتزئ عن الرسائل الكثيرة والتقاريظ العديدة التى وردت لى أو ظهرت فى الجرائد العربية والافرنكية بالنبذة الآتية التى كتبها رئيس المنشئين وفخر الكاتبين حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الكريم سلمان وكيل ادارة الجرائد الرسمية قال حفظه الله

فوائد السفر ولو لغير المؤتمر

أرانى وأنا أقص على قومى مثل هذا القصص قد أحدّث عن معلوم وأتعرض لبيان مفهوم ولكنى مع ذلك لا إخالهم الا موافقين على أن فى الاعادة افادة وعلى أنه ربما سنح للمتأخر من فكر المتقدم بعض لوازم كانت غير بينة فادركها ثم صاغها على أسلوب جديد فرافت للناظرين ولكل زمان مقال كما أنه لكل مقال مجال

القرآن الشريف والسنة النبوية يحضان على الرحلة من دار الاقامة الى غيرها من الديار (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) (أولم يسيروا فى الارض) (قل سيروا فى الارض) الى غير ذلك من الآيات وعمل النبى صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة رضوان الله عليهم من بعده أكمل وأجلى فى الاستدلال

الحكمة فى مشروعية هذا الامر مبينة فى الآى الكريمة وهى تذكّر حال الماضين والاعتبار بما كان لهم فى زمانهم وما انتهى اليه أمرهم من عمار أو دمار وليس هذا الا ليزداد الفكر تنورا والعقل تبصرا وينفسح أمامه مجال النظر والتصرف وترتيب المسببات على الاسباب سنة هذا الشرع الحنيف فيما كلفنا به من الاعمال

أتذكر أنه وأنا فى التاسعة أو العاشرة كان يفد الى مقر اقامتى مع والدى وأهلى سفن شراعية كبيرة فيها تجار من الافرنج يبيعون

على أهل شواطئ النيل أمتعة المنازل و زينتها وحاجات الحياة فكنت ممن يخرجون مع آبائهم للشراء ولكن غرضى وغرض أترابى غير ما كان للوالدين فلم نك لنقصد الامشاهدة تلك السفن وكان اسمها عندنا (الغليون) وتعرّف من فيها من الباعة الافرنج ان كانوا من جنسنا وعلى زيّنا كما يقول آباؤنا أوهم على ما فى خيالنا يخالفوننا فى الطول والعرض والصورة والوضع فلما كانوا هم طبق الاصل كما أخبرنا لامخالفين كما تخيلنا نرجع وقد استفدنا بانتقالهم الينا وانتقالنا اليهم فى سفينتهم شيأ جديدا ما كان يتأتى لنا لولم يحضروا عندنا أو بقينا فى دورنا واندفع عنا ذلك الخيال قبل أن نصل الى سن الرجال فهذه فائدة صغيرة تناسب ذلك السن سنّ الاطفال

المشاهد أن أهل القرى وهم طبقات كثيرات يكون أولادهم مختلفين فى النجابة والذكاء الفطريين ولكن النجباء منهم يمتازان التاجر من بينهم بان له معلومات أوسع من سواه فتراه يحدّث أترابه بما ليس لهم به علم اذا رجع مع أبيه من بعض الاسفار ينبئهم بان البلد الذى كان فيه مع أبيه أطول بنيانا وأوسع عمرانا وباعمال البيع والشراء والكيل والميزان وغير ذلك من أطوار الآدميين مما يسعه عقل الصبى فى صباه وكذلك نجد طلاب العلم فى الازهر والمدارس فى مصر وبقية المدائن يحصلون شيأ آخر غير ذلك العلم الذى طلبوه فتجدهم وهم من أهل الريف يقتبسون معلومات عن

أحوال الناس وعشرتهم ليست من منقولات الكتب ولا مباحث تلك العلوم وكذلك نرى البدوى وهو فى بيته الشعر وعيشه الضيق ليس حوله غير الاجمال تنوء بالاجمال يتغير حاله اذا ترك البادية وحل بالحاضرة ونظر المزارع والزرّاع والدور والمتاع ولو غادرها وعاد ذكر لقومه أسماء ووصف لهم مادلت عليه من المسميات التى هم عنها بمعزل بعيد وكذلك توجد فى قطرنا قرى يشط مزارها ويتباعد جوارها ليس لأهلها بالناس اختلاط ولا للناس بهم ارتباط فنرى أهلها كأنهم قريبون من أول الخليقة أو حوالى زمن الطوفان وهذا على العكس من حال القرى المتجاورة وأهلها المتزاورة فانهم أوسع مدارك وأكثر معلومات ونرى الفرق بين كل طبقة مما تقدم وبين مقابلها بمقدار الانتقال عن المواطن عدما ووجودا وقلة وكثرة والتفصيل فى هذا مما لايحتمله المقام فلابد من الرجوع الى الاجمال

الفائدة العائدة من الانتقال ليست قاصرة على ذات المنتقلين ولكنها من الامور المتعدية للآخرين نعم انها لنفس المنتقل أكبر وأجمع فانه وحده الذى يمكنه التلذذ بالمناظر البهجة والتأثر بالمبصرات الغريبة والانفعال فى الرائين أشد منه فى السامعين الا أن هذا اذا رجع لقومه وحدثهم بما رأى عن علم وكمال توصيف أوجد عندهم شيأ مما ذاقه وبث فيهم روح الطلب الى

خير مما هم فيه من حيث المعيشة ولوازم الحياة الطيبة وقد يجدّ بهم السير الى اختيار الحسن مما سمعوه واجادة التقليد فيه فما هي الا أزمان قلائل حتى يعرف الحسن فى البلاد وتتسابق اليه الهمم فتنتشر المنفعة ويتقدم النفع كلما تقدمت الاجيال

الامة بالقياس الى غيرها من الامم لا تختلف عن القرية بالقياس الى سواها من القرى فان كانت احدى الامم راكدة فى موطنها ليس للكثير من أفرادها تردد على مجاوريهم كانت أقل معلومات وأقرب الى السذاجة عن سعة الادراك فكانت كالقرية البعيدة المزار المتنائية الجوار وحالها ما قدمناه من وقوف حركة الافكار فانها لم تشاهد ما ينبهها الى الجولان وان كانت واحدة من الامم قد نجب فيها أقوام وهموا بنيل الاوطار فاكثروا من الاسفار استفادوا مالم يعتادوا فافادوه مواطنيهم وانتشرت بذلك بين أهليهم أخبار مجاوريهم فأخذوا أحاسنها وترقت الامة بتمامها من حال الى حال

الشاهد على صدق هذه القضايا هو حال أمتنا المصرية فى زمانيها الغابر والحاضر فانها لما كانت غريبة فى باب الحضارة وأقل تنوّرا مما هى عليه الآن كان أمر السفر منها الى غيرها يعدّ من الاعاجيب ولا تنسى أننا كنا نفزع غرابة اذا قيل ان فلانا منا سافر الى (بحر بر ٣) أو قدم منه كان هذا اللفظ عندنا عنوانا على ما سوى

ديارنا سواء كان من البلاد الاوروبية أو الآسيوية (عدا الحجاز) أما الآن وقد تنورت العقول فقد بدلت تلك الغرابة عند العامة بشبه العادة وكثر تردد أهلينا على تلك الديار الخارجة عنا وعرفت الفائدة بما نقلوه الينا من أحوالهم العامة والخاصة وقد رأينا أن التقدم والتأخر فى حركة الفكر والاقبال على الانتقال والتناكص عنه متلازما الحصول حتى كأن كلا منهما علة لوجود الثانى والفصل بينهما من المحال

المأخوذ مما تقدم أن فائدة السفر تعود على المسافر نفسه وعلى قومه وقد ترجع أيضا على البلاد التى اليها السفر وليس ذلك بالامر البعيد على الادراك ولانذهب فى التمثيل له الى غير هذه البلاد المصرية فان أهل الديار الاوروبية كانوا لايعتقدون فينا الا أننا من متوحشة الافريقيين فيصدقون عنا كل خبر سمعوه ولايرون منا الا قوما عطلا من كل فضيلة وكان لايكفيهم ماينقله لهم عنا رجالهم الينا من أننا مثلهم فى قابلية الكمال فلما كثر تردادنا اليهم فى ديارهم وخالطوا رجالنا فيهم ورأوا منهم أناسا مهذبين ورجالا عارفين يخوضون معهم فى كل حديث عن القديم والحديث يضربون فى كل علم عن دراية وفهم أيقنوا بان الانسان واحد فى الغرب والشرق وسووا بيننا وبينهم فى الحكم بأننا من نوع

واحد يجوز على أحد المثلين مايجوز على الثانى من العلم بعد الجهالة ومن التمدن بعد الوحشية ومن الرفعة بعد الضعة والانحطاط فهذه فائدة لهم بانتقالنا اليهم عرفونا بعد ماجهلونا وحكموا صوابا بعد أن كانوا خاطئين نعم انتا شاركناهم فى هذه الفائدة فقد صرنا فى أعين الغائبين عنا من نوع الانسان لنا مالهم وعلينا ماعليهم من الحقوق والواجبات فكانت الفائدة من سفر المصريين الى الديار الاوربية مزدوجة بين الطرفين وهذا مايعظم شأو الاسفار ويجعلها هينة على النفوس وان كان عذابها لايحتمل وفيها مالايطاق من الاهوال

البرهان على أن هذه الفوائد حصلت من أسفار المصريين وعلى حصرها فى السفر أن البلاد التى لم تجر رجلنا اليها ولم يشاهد لنا فيها شبح قد بقيت فينا على ذلك التصور ولم يعلم أهلها من أخلاقنا غير أخبار النقلة خطأ كان أو صوابا يدلنا على هذا ماروا بعض الصينيين الموجودين فى ديارنا الآن من أنهم جاؤا مصر وهم على عقيدة أن المسلمين لايفلتون من يحل فى ديارهم وان كان من المسلمين ولما شاهدوا غير ماسمعوه من لطف المعاملة وكريم المجاملة لم يسعهم الا الاقرار بالمروءة العربية وقالوا اننا سننشر ضد ذلك المسموع وندبعه فى أنحاء بلادنا وبذلك ربما ارتفع الوهم

عن النفوس ولا نرتاب فى أن بعض البلاد المشرقية التى لم يتعرفها سواها ولم يشارف أهلها غيرها من الديار الاوربية قد بقيت على حال لا ترى معها فى أعين الغائبين عنها الا بما كنا نُرى به نحن قبل أن يكثر سفرنا الى الديار الاوربية ويرتفع مقدار نافيها من أنهم لا يقبلون الكمال بحال من الاحوال وكذلك لا نشك فى أن أهل تلك البلاد المشرقية الباقية على الخمول لو اتجهت رغباتهم الى ما اتجهنا اليه من الاسفار لارتفع ذلك الحجاب عنهم كما ارتفع عنا وأخذوا من قلوب القوم مكانا وكذلك لو زادت رغبتنا نحن فى الاسفار الى غير ما شاهدناه من الديار وكثر رحالنا فى أقاصى الارض وجوانبها من مشارقها ومغاربها الاستجلبنا من الفوائد واستجمعنا من الشوارد ما يجعلنا فى الوجود كبارا وينقل أقدامنا فى سبيل الاجتماع المدنى خطوات بها نحل محل الاعتبار والاجلال

الفضل كل الفضل فى اتصال العالم ببعضه وتمكن الانسان من مجاوزة أرضه لما تجدد من المخترعات البخارية برية كانت أو بحرية فأهل الاجيال الاول كانوا معذورين ولا نحسبهم مقصرين اذا لاحظنا طول المسافات ووعورة المسالك فقد كانوا مع ذلك يتجشم بعضهم المشقة على بعد الشقة ويخترق البحار الى القفار تحمله الناقة وزاده وزادها ويضطر الى الاقتصاد منهما خوف ضارية الجوع على الحامل والمحمول ولا يعود الا وقد صاحب الارب وتزود

الادب ورجع الى أهله فعلمهم ماعلم وأفادهم ماغنم (فلولانفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) وكفى بفرض الحج على كل المسلمين والسفر اليه مرغبالهم ومعيناعلى هاتيك الاسفار الصعاب التى هى فى الحقيقة قطعة من العذاب وساعدعلى تحمله أيضا مشروعيته لطلب العلم (اطلبوا العلم ولو بالصين) وسرى ذلك الى كل الامم المختلفة فكان لكل أمة النصيب الكافى من السفر الى غيرها على قدر الاستطاعة فى تلك الازمان وان كان لايحسب شيأ فيما هو حاصل فى هذا الزمان نعم ان الاسفار فى زماننا هذا تعدّ قليلة بالنسبة لسهولة الاتصالات وقلة النفقات فلابد أن نرى الامم كلها أوغالبها يوما من الايام كأنها أمة واحدة بما يكثر من تردّد أفراد كل واحدة على الثانية فى ديارها وتبادل المنافع بينها وتعرف كل منها أحوال صواحباتها وهنالك تكون الفائدة الحقيقية من الاسفار وتحل الحقيقة محل هذا الخيال

المظنون أن قد تبينت فوائد السفر فى هذه النبذة الصغيرة وان كان ذلك على وجه مجمل بغاية الاختصار ولما كان المناسب فى هذا المقام أن يذكر بعض الفوائد الخاصة لبعض الاسفار الخصوصية رأيت أن أذكر طرفا مما يناسب هذه الرحلة التى كانت لاحد الشبان الافاضل من المصريين الى الديار الاوربية وما ينجم عنها من الفوائد فى حد ذاتها مضافا الى تلك الفوائد العامة للاسفار العمومية

فأما الراحل فشهرته بالفضل واقباله على العمل وأعماله المنتشرة بيننا مما يغنينا عن الاطناب فى تعريفه والتنويه بتوصيفه وأما الرحلة فالى مجتمع العلوم الشرقية سنة ١٨٩٢ فى مدينة لوندرة وأما الغرض منها فالنيابة رسمياً عن الحكومة الخديوية فى هذا المؤتمر وأما الفائدة منها فنبينها موجزة ولا نطيل فيها المقال

الواجب على هذا الراحل ليس الا الوصول الى مكان الاجتماع فى وقته المعين وتقديم شئ من التأليف العربى الى هيئته وحضور جلساته على الانتظام وابداء رأيه فيما تدور عليه المذاكرة فيه وان نيط من قبله بعمل أتاه على الوجه المطلوب كما أجمع عليه رأى أهليه هذا كل ما كان يلزم حضرة هذا المندوب المصرى واذا أداه كما وجب فقد خلص من تبعة التقصير واستحق الثناء من مرسله عليه الا انه لم يكتف بهذا الواجب بل أحاطه بنوافل أداها قبله وبعده وفى أثنائه كان القصد منها استفادة ما عليه أصناف الانسان الآخرون من حيث عملهم فى دنياهم وعيشهم وبناؤهم وصناعتهم وعلومهم وكيفية التربية عندهم ومالهم من الاخلاق والعادات والمشارب والمعتقدات وما هم فيه من نعمة ورخاء وشغل وعناء وما جددوه من المخترعات الى غير ذلك مما هم عليه من جميع الاحوال

النوافل التى أداها حضرة هذا الفاضل كان يتأتى له مشاهدتها

وأن تقتصر عليه لذاتها ولما يعود بحديثنا عنها حديث الرائين ولكنه لم يرد أن تكون المنفعة من رحلته قاصرة عليه أو متعدية لنا ولكن لا تبقى بعدنا لأبنائنا فلذلك قيد كل ما رآه من الاوابد والشوارد و بعد رجوعه ضمها الى بعضها واستخرج منها هذه الرسائل الفعالة فى النفوس الآخذة بمجامع القلوب عجبا واستغرابا ولقد كان من الممكن أن يأخذ فى سفره هذا طريقا واحدا فى الذهاب والاياب وأن لا يتغيب عن بلده أكثر من الزمن الذى يستلزمه ما كلف به فيقتصد من زمانه وماله ولكن أحب استجماع الفوائد فنحا منحى السائحين الاقدمين واختار أن يشهد له الطريقان طريق الغدو وطريق الرواح وقد أخذت الاقطار أمامه فى رجوعه برقاب بعضها فكلما خلص من بلد تذكر الثانى فانساق اليه بحكم حب الاستطلاع وان لم يكن فى طريقه ولا فى حسبانه وقت مبارحته دار اقامته الاولى وطوحت به الرغبة فى الاستكناه الى أن عرّج على بلاد الاندلس العربية الاصل وليست من احدى طرقه الى بلده وأضاف اليها بلاد البرتقال وهى كذلك لم تتعين طريقاله وتغيب عن بلاده تلك الشهور الطوال

المعجب فى كتاب هذه الرحلة هو استنهاض همة قومه كلما رأى لذلك فرصة وتنبيههم على ماجر العظمة والفخار لاولئك الاقوام ومقابلة أعمالهم بأعمالنا والتنبيه على مواضع انتقاصنا واستحسان بعض

العوائد عندنا مع مقارنتها بما هم فيه واستجماع ملاك البيان في التوصيف بعبارات كأنها فوتغراف نقلت الينا صور معانيهم بالتدقيق فلم يفتنا مما تجمل الاحاطة به فائتة وكان هو عندهم حاكيا عما صرنا اليه من التقدم ومحبة التعلم واجتلاء الحقائق على ماهي عليه والرغبة في الاستفادة والتقاط الحكمة من أيّ طريق وان هذا لهو السحر الحلال

المسطور في عبارات هذا الكتاب أن مؤلفه الفاضل أخذ على نفسه أن يفصل رحلته الى تلك الديار في كتاب أوسع من هذا يأتي فيه على مالم يتح له في هذا الكتاب من مقابلات الاخلاق والعوائد والبحث في أصولها ومرجع اللغات والاعلام وما آخذها بعبارات علمية مؤسسة على البراهين العقلية والنقلية ولا نظنه الا فاعلا لانه عوّدنا الجدّ والنشاط وقد استبان مع ذلك ماتوخيناه من الفائدة الخاصة بهذه الرحلة في حدذاتها كما يفهمه القارئ مما تخلل عباراتها من حكمة وضعها وأسلوب صنعها وماقصده واضعها منها نسأل الله أن يوفقنا واخواننا الى معرفة الفضل لذويه وأن يكثر من أمثال هذا الفاضل في البلاد حتى تتجسم منافع السفر للعيان وتتشربها الارواح والابدان فيزداد فينا عدد السائحين والغادين والرائحين ويعمل كل منهم على نشر ما استفاد من السياحة في البلاد فيكون كلنا عونا لاخيه في الحط والترحال ونصل الى ماقصدناه من الكمال

عبد الكريم سلمان

الرسالة الاولى

من نابولى فى يوم السبت ٢٧ محرم سنة ١٣١٠
(٢١ أغسطس سنة ١٨٩٢)

لقد صدق من قال انه اذا كان للعلم مجال فللعمل ألف مجال فراق الوطن وان حقائق الاشياء وهى فى عالم التصور أقل منها بكثير حينما تبرز الى حيز الوجود وتتجلى فى مظاهر الشهود فطالما قرأت ما أتى به الكتاب من الآيات البينات وما ترنم به الشعراء من الابيات الابيات فى الحنين الى الاوطان والتشوق الى الاهل والخلان والتوجع من مفارقة المألوف والتفجع من مبارحة الديار والربوع ولم تكن نفسى تتأثر من ذلك الا بمقدار اعجابها ببراعة الكاتب واقتدار الناظم على صوغ المعانى فى أجمل القوالب وسبك الالفاظ على أبدع طراز وتمثيل التخييل بما ترتاح له النفس وينشرح منه الفؤاد وكنت أظن أن ذلك انما مصدره تنميق الكتاب وتزويق الشعراء حتى قضى علىّ طلب المعالى بمفارقة مصر السعيدة المحروسة وديارها المحبوبة المانوسة فانجلت لى هذه العواطف الجليلة فى أجلى جلبابها وحلت هذه المشاعر الحميدة فى فؤادى باحلى معانيها فتمنيت حينئذ لو كنت من المنشئين المجيدين لاصوّر لك أيها القارئ العزيز والمواطن الغطين حب الوطن مجسما فى أجمل حال وعلى أكمل منوال ليكون ذلك

باعثا يدفعك الى تعزيز شأنه والسعي بما فى قدرتك على رفع منار ه والاجتهاد بما قسمه الله لك من العرفان فى تهذيب أبنائه وبث نور العلم فى انحائه فانى وعينيك حينما اقترب الوقت المضروب لمبارحة القاهرة (يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ٢٠٩٢ محرم سنة ٣١٠) كنت أمتع الطرف وأزود الناظر بما فى القاهرة من باهر المناظر وأجتلى محاسنها الكثرة بعد الكثرة وأتزود من رؤية معاهدها المرة بعد المرة ليكون لى ذخرا منها الى أن أعود اليها بسلامة الله وحسن توفيقه وما زلت على هذه الحال مشغول البال هائج البلبال وأنا كالباهت الحيران حتى حان وقت السفر وحل يوم الرحيل

احتفال الاخوان

فاحتشد الاخوان الافاضل والخلان الاماثل لتوديعى على محطة العاصمة وكان الكثير منهم يقول « انما جئنا لنودعك حتى تتقوى بنا عزيمتك و ينشرح برؤيتنا صدرك فتبذل قصارى ما عندك فى حسن القيام بالمأمورية الجليلة التى عهدت اليك وتأتى بأصدق برهان على ان فى مصر من الشبان من اذا شملهم بنظره الكريم أمير مصر مولانا العباس أصبحوا من أنفع الناس للناس وجعلوا للوطن العزيز بين الامم المتمدنة مقاما محمودا وفضلا مشهودا »

فكنت أنظر الى نفسى ومن أنا ثم أردد الفكر فى هذا

الاحتفال وفى أمثال هذا المقال فأرى أن هذا التظاهر العظيم وان هذا الاحتفال والتكريم انما يقصد به اعلاء كلمة الوطنية واتحاد القلوب على تنشيط كل من يقوم بعمل يرجى منه نفع البلاد بقطع النظر عن مقام القائم بهذا العمل فى هيئتنا الاجتماعية صغيرا كان أو كبيرا فانى لم أبلغ الى الآن ما يجعل القوم يتقاطرون علىّ بهذه الحفاوة فلا ريب فى ان الباعث لذلك الاحتفال والاجلال هو الاخلاص فى التكاتف على تأييد كل مسعى علمى وتعضيد كل عمل وطنى وان اخواننا أيدهم الله بروح منه قد أحسوا بوجوب الدعوة الى رفع شأن الوطن وتعزيزه فلهم من وطنهم أخلص الشكر وأجزل الثناء اذ ليس فى وسعى ان أوفيهم حقهم من الاعتراف بجميل فضلهم

ولقد لاقيت فى الاسكندرية (عروس المشرق وعنوان المغرب) عند مقدمى اليها وقيامى منها مثل ما لقيت فى القاهرة وفى ذلك برهان قاطع على ان الشعور بحب الوطن والدأب على استمرار حركة النهضة الوطنية قد سرى فى عامة الفضلاء سريان الارواح فى الاجساد وكيف لا يكون الامر كذلك واميرنا الهمام وولى نعمتنا المقدام مولانا العباس وطد الله دعائم ملكه ونشر فى الخافقين ألوية

مجده لنابه أحسن اسوة وأتم قدوة فانه أول من يسعى فى النهوض بالوطن المحبوب الى ذروة العز ومنصة الشرف

شرف المثول بين يدى ولى النعم

وقد قال لى حينما تشرفت بلثم أيديه الكريمة وشكر أياديه العميمة ان بعضهم اعترض على تعيينى فى هذه المأمورية العلمية العلية بانى مازلت فى دور الشبيبة والفتوة فأجاب بلفظه الفاخر المنيف

«ان هذا هو ذات الواجب وعين الصواب فان زكى من نوابغ الشبان وبه يمكننا أن نبرهن لعلماء أوروبا على ان عندنا من الشبان من يجارونهم فى ميادين الفضل والعرفان»

فكيف لا أتيه فخارا وأختال ابتهاجا بهذا القول الذى هو أفضل من جميع علامات التشريف ودرجات التكريم وكيف لاأدأب على البحث والاجتهاد حتى يبقى اعتقاد ولى النعم فى عبده المخلص هكذا على الدوام وكيف لايكون فى ذلك المقال أعظم تنشيط لامثالى من الشبان يدعوهم الى اطراح الكسل وترك الخمول والاقبال على كل عمل يرفع شأن وطنهم ويستوجب رضا ولى نعمتهم ولمثل هذا فليعمل العاملون وبمثل هذا فليتنافس المتنافسون

ركوب البحر وزيادة الاشجان

قمت من الاسكندرية فى صباح يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٢ فى باخرة من بواخر شركة اللويد النمساوية اسمها فوروود قد

جمعت الى النظافة أسباب الراحة بحيث لم يكن ينقصنا فيها شئ مما نراه فى المدائن سوى قرب تناوله وسهولة الحصول عليه بمجرد الضغط على الجرس الكهربائى ولم يكن فيها كثير من السواح ولكنها أقلعت بعد الوقت المضروب بربع ساعة على التقريب وسارت الهوينا الى ان خرجت من بوغاز الاسكندرية وابتعدت عن الشطوط المصرية فكنت أحدق النظر المجرد ومستعينا بالنظارة المقربة إلى رؤية أطراف الاراضى المصرية حتى سترها حجاب الافق واذذاك أخذتنى كآبة وتولانى حزن وتملكنى انقباض مما لم يكن لى به عهد من ذى قبل فاغرورقت الدموع فى فؤادى وتلهفت نفسى الى معاهد بلادى ولم تذهب عنى هذه اللوعة الا بعد ان أطلت الفكرة فى انى أسعى الى مجد مؤثل قد يدركه أمثالى وأعود الى وطنى سالما غانما رابحا ناجحا باذن الله تعالى فشاغلت نفسى عن تيار هذه الافكار بالنظر الى تمايل السفينة ذات اليمين وذات اليسار وتلاعب الامواج وصفاء الماء الذى اكتسب فيما أمام الاسكندرية لونا أزرق باهيا جعل اللجة كأنها قطعة واحدة من الفيروز الجميل

وما زالت السفينة تتوالى سيرها حتى أتى ميعاد الطعام فاكلت تعب البحر قليلا منه لانى عجزت عن الاتمام ولم الك وحقك من القادرين بسبب

ما اعترانى من دوار البحر وان كانت الدوخة خفيفة جدا فقد أخبرنا أهل الخبرة ان هذه الحالة من اخف السياحات شدة على من ليس لهم عادة بالاسفار فى البحار ولكن هذا القول لم يمكننى من الامتناع عن الاضطجاع على فراشى فلما حان العصر خرجت الى ظهر السفينة لاجرب الحالة فعاودتنى الدوخة ودوران الرأس فقفلت معجلا الى مضجعى ولم تتيسر لى الاستراحة الا بعد ان صارت معدتى صفرا من الصفراء مدة الليلة الاولى واليوم الثانى والليلة الثانية ولم اتمكن من تناول شئ سوى قليل من اللبن بالقهوة وبعض الفاكهة وقد كان صاحبى حضرة الشيخ محمد راشد قد أصابه ما اصابنى فلبثنا فى حجرتنا مضطجعين على الاسرة متقابلين فكنا فى هذه الحالة أشبه بالمرضى فى المستشفى النمساوى ووجه الشبه الجامعة فى الجنسية بين المستشفى والباخرة ونظافة الخدمة واتقانها وقيام عمال من صنف واحد بها وقد شعرنا بشدة اضطراب السفينة وتزايد ارتجاجها (أو نَوَدانها أو مَيَدانها) حينما اقتربنا من جزيرة كريد (١)

---

(١) كنت تصورت أن اشتقاق لفظة القندعنى السكر عند العرب من اسم هذه الجزيرة الآن الذى هو كندیا لاشتهارها باصطناع العسل الجيد ولو أن علماء اللغة نصوا على ان القند عربية واردة فى الشعر الفصيح وقال بعضهم انها فارسية ولذلك تحريت الحقيقة فعلمت بعد البحث والتنقيب أن المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة فى سنة ٢١٠

وفى اليوم الثالث مررنا أمام سواحل اليونان وبين بعض جزائرها وكان من معنا من بنى الاغريق (الجريج) فرحين مبتهجين برؤية سواحل بلادهم يرنون اليها بلحظ متوال والانشراح ملء فؤادهم ثم مررنا قبال جزيرة كورفو Corfou (قرفس فى كتب العرب) ذات

اختطوا بها مدينة سموها ❊(الخندق)❊ ثم حرف الروم والافرنج هذا الاسم الى كندياو تعارفه العرب بهذا الاسم وتناسوا الاسم العربى القديم كما حصل مثلا فى «دار الصنعة ودار الصناعة» فانه اسم عربى معتبر يدل على المكان الذى تصنع فيه السفن ذكره بهذا المعنى المقرى وابن بطوطة وابن الاثير والادريسى وابن خلدون وابن جبير والمسعودى وغيرهم وهو عند العرب يدل أيضا على المكان الذى صنع فيه شئ من الاشياء ولكنه بالسفن أخص حرفه الاسبانيون الى Darsena و Aterzana و Arsenal ونقلها الطليانيون هكذا Arsenale و Darsena والانكليز الى Arsenal والفرنساوية الى Arsenal و Darse ومن المعلوم ان أهل مصر فى هذا الزمان أحى من أيام محمد على استعملوا فيما يتعلق بفن البحر كلمات كثيرة نقلوها عن اللغات الافرنكية وأخصها الطليانية فلم يلتفتوا الى أن كلمة Darsena أصلها عربى بل أضافوا لفظة (خانه) التركية وقالوا ترساخانه لاعتيادهم على اضافة «خانه» الى أسماء جميع الاماكن العمومية الاميرية جريا على الاصطلاح الخاص باللغة التركية ثم انهم أحسوا بعض المخالفة بين لفظتى (ترساخانه) و (دارسنا Darsena الطليانية) فحذفوا خانه واقتصروا على قولهم «ترسانه» ومثل هذه الكلمة كثير نقله الافرنج الى لغتهم ثم استرجعها العرب من غير أن يعيدوا لها شكلها بل أبقوها بكيفية لا يكاد يتعرفها الباحث وليس هذا محل استقصائه وأرجع الى الموضوع فاورد هنا ما أتحفنى

المناظر الجميلة والحدائق الغناء التى اشتهرت فى السنة الماضية بقيام أهلها على بنى اسرائيل وفتكهم بهم الفتك الذريع

وصول برندزى

ومازال البحر صاحيا والهواء موافقا والشهية حاضرة فعرضنا مافاتنا من الطعام وخسر متعهده ما أكسبه اياه اشتداد البحر فى اليومين الاولين حتى وصلنا فى ذلك اليوم الى برندزى واسمها فى كتب العرب ابرندس وعند الفرنساوية برند (Brindes) وعند الرومانيين

به حضرة صديقى المهذب محمد افندى كامل تيمور من أعيان التجار بالاسكندرية لكون هذه الجزيرة وطنه وله بها علم تام — كانت هذه الجزيرة تسمى عند قدماء اليونان (ايدا) لكون أعلى جبل فيها كان معروفا بهذا الاسم ولما كان طولها يضاهى عرضها سبع مرات أو ثمانية سميت بما معناه (الطول السعيد) ثم سميت بما معناه (ذات الهواء) لكون هوائها جيدا وجافا للغاية ثم أطلق عليها اسم جديد معناه (العظمة) لكونها أعظم جزائر بحر الروم وفى آخر الامر سماها الاغارقة (كريت) تشريفا لها لكون زوجة أحد حكامها كانت تسمى كذلك — قد وردت هذه الاسماء فى تاريخ يونانى قديم ألفه عن هذه الجزيرة أحد الفلاسفة والمؤرخين واسمه باكوفانون — وقد قال حسين بك كامى فى تاريخ كريد الذى ألفه باللغة التركية ان العرب حرفوا كلمة (كريت) الى اقريطش والعثمانيين الى (كريد) لسهولة التلفظ بها

ولمناسبة كون العرب بنوا فى مدينة ايراقليو (Hiraklio) المعروفة الآن باسم (قندية وكندية) خنادق وطوابى جسيمة لازالت موجودة الى الآن حرف الروم والاوربا ويون لفظة (خندق) الى كندك ثم الى كنديه وجعلوا هذا الاسم للدلالة على جزء من الجزيرة فجاء البنادقة وأطلقوه عليها كلها وبقى ذلك متعارفا عند الافرنج الى الآن

برنتسيون أو برندزيوم (Brindisium و Brintision) وكنا نعتقد أننا نجد من وكلاء كوك فيها أعظم مساعدة فلم يتحقق أملنا وأقول انه اذا كان جميع عماله فى الجهات الاخرى من الكسل والخمول مثل ماهم عليه فى هذه الفرضة فالاحسن للغريب أن يسترشد بكتب الدليل ويباشر شؤنه بنفسه ولعلهم لايكونون كذلك فى بقية المدائن التى سنمر عليها وقد سمعنا عنهم خيرا كثيرا ونحن بمصر وسنكتب عما شاهدناه منهم بعد ذلك ان شاءالله

كان وصولنا الى ابرندس أوابرنطس كما يسميها العرب بعدقيام قطار الصباح (الساعة السادسة) المتوجه الى نابولى عن الطريق القريب فمرنا بين المقام فى هذه المدينة الحقيرة (بالنسبة لأوروبا) وبين اتباع الطريق المنحنى مع القطار الذى يقوم الساعة تسعة وخمسة وعشرين دقيقة ففضلنا الرأى الثانى لكى نتخلص من أخلاق أهل برنديس وأخلاطها الذين هم أحط فى المدنية من جعيدية مصر وأرذل من سفهائها وأشد الحافا والحاحا من شحاذى السيدة زينب

الطريق من برندزى الى نابولى

فتوجهنا الى المحطة وكان مع رفيقى شنطتان ومعى أيضا ثنتان فابى رجال المحطة الا أن يكون ارسال ثنتين منها بعد دفع الاجرة

عنهما فامتثلنا ودفعنا نحوا من ستة وثلاثين قرشا وهذا ليس من الغرابة فى شئ بل الاغرب ان أحد مستخدمى المحطة (وهو الذى ألزمنا بحمل متاعنا الى المخزن) جاء الينا بعد أن تبوّ أنا مقعدنا من القطار وطلب أن نتحفه بشئ من النقود فقلت له عجبا منك ومن فعالك تغرّمنا ماليس بواجب علينا للسكة الحديدية ثم تجيء وتطلب منا الاحسان ولكنه أظهر المذلة والمسكنة وباء فرحا مبتهجا حينما أتحفته بنصف فرنك ثم قام القطار فاذا الارض حوالى ابرندس مكتسية بحلة خضراء مزينة باشجار ورقاء كل ذلك وهى صخرية قد أذابت الامطار قشرتها وأودعت فيها الخصوبة والبركة باذن الله بحيث اننا كنا نرى كثيرا من الاشجار نابتة بين شقوق الأحجار ونرى الاراضى بارتفاع وانخفاض واستواء وانحدار وكلها مجللة بثياب سندسية فى غاية البهاء وقد رأينا الكرم فيها وفى بعض جزائر اغريقية (Grèce * أى بلاد اليونان) لايرتفع عن شبرين فكان منظره كنبات الخس فى مصر ولكنه يأتى بالمحصول الكثير والعنب الجيد اللذيذ على مابلغنا من أهل هاتيك الديار وهذا دليل على ان اتخاذ العروش والتكاعيب لاشجار الكرم مما لايجديها نفعا بل قد يترتب عليه قلة المحصول لان العصارة تتصرف فى ساق النبات وأغصانه بدلا

من ان تتكون ثمرا جنيا ومع ذلك فالحكم لعلماء النبات فقد يقال ان العنب صنفان

وبعدان ابتعدنا عن ابرندس (برندزى) رأينا الارض قاحلة فيها نبات شائك شاهدنا القوم يحرقونه فى بعض الجهات لتسميد الارض كما يفعل بعض أهل مصر ولما تجاوزنا هذه الضواحى رأينا السهول قاحلة ماحلة ثم مررنا على بلاد عامرة وكان مرورنا على ساحل البحر الادرياتيكى (المعروف عند العرب بجون البنادقيين) وكانت معنا فى الوابور فرقة من الجنود فلما مررنا على محطة أوستونى (Ostuni) رأينا فيها كثيرا من النساء العجائز ينتظرن من لهن من الاقارب فكن يودعنهم ويقبلنهم ببكاء وانتحاب مثل مايراه الانسان ببعض محاط مصر سوى انهن لايولولن بالعويل والصياح ومازال الوابور يسير بنا بين جبال وتلال وقيعان ووديان حتى قدمنا مدينة نابولى الزاهرة الباهرة بعد أن اخترقنا ثلاث مقاطعات فى الجنوب والشرق الشمالى لجنوب ايطاليا وكلها تستقى من مياه الامطار تخزنها فى صهاريج ورأينا فيها سواقى وفواعير وآبارا يشبه ماؤها مياه الآبار فى مصر وقد علمت ان المهندس (زنبارى) قدم مشروعا مقتضاه شق ترعة تأتى بالمياه من نهر سيلى (Sele) الذى يصب فى خليج سالرنو (Salerno)

لتروى منه مقاطعات فودجا وبارى ولتشى (و Foggia و Bari و Lecce وفى كتب العرب فوج وبارى ولج) وان نفقاته تبلغ مائة مليون ليرة طليانية (والليرة الطليانية تعادل فرنكا فرنساويا فتكون مساوية لجزء من ستة وعشرين جزأ من الجنيه المصرى) قدم هذا المشروع من نحو ١٥ أو ٢٠ سنة ولكنه لم يبرز الى حيز الوجود لقلة المال وعدم تيسر الحصول عليه

هذه عجالة يسيرة من أمور كثيرة علقت بها مذكرات ومفكرات سأفصلها فى الرحلة ان شاء الله

الرسالة الثانية

عن رومه فى يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ١٣١٠
(٢٢ أغسطس سنة ١٨٩٢)

لعلى أكون أحرزت برسالتى الاولى رضا حضرات القرّاء فوائد السفر وتسهيلاته الالباء والافان العذر واضح لكون كتابتها كانت بعد تعب شديد عانيته من سفر ثلاثة أيام فى البحر تتلوها عشر ساعات بلا انقطاع فى باخرة البر وليس فى ذلك من غرابة لعدم العادة ولقد كان سمعى ينبو من مقال القائل (بل العذاب قطعة من السفر) فلما حقق الخبر الخبر زال عنى الاستنكاف مما كنت أحسبه ضربا من المجازفة فى المبالغة خصوصا وان أسلافنا لم يكن لهم ما أفاضه عرفان هذا القرن (التاسع عشر) على أبنائه من تسهيل الانتقال وتأمين الارتحال وتقليل المسافات وتناهى البخس فى النفقات بالنسبة لما كان ينبغى صرفه فى هاتيك الاوقات وتيسير أسباب السير والنظر والتأمل فى آثار من غبر ومصنوعات من حضر وتوسيع دائرة العقل بالاطلاع على نتائج أفكار الغير الى ماهنالك من الفوائد والمكاسب فى المتاجر والمصانع مما لاينكره الا المكابر ولذلك فانى بعد المقارنة أحسب هذا التعب راحة وهذا الشقاء نعيما فلم أتربص حتى تجيئنى

الانباء من الاصدقاء بما كان لبا كورة رسائلي من الشأن عند الادباء فانى (على كل حال) أشعر فى نفسى بما يدفعنى بالرغم عنى الى الكتابة حتى أكون كأنى بين الخلان والاخدان فقد وجدت مجال القول ذاسعة وألفيت مقام الكتابة صالحا فاقول

نابولى ورؤية أول مدينة من اوروبا

ان نابولى والحق يقال لتستحق أن يكتب عليها مجلد ضخم لاصفحات قليلة تتلى (أولا تتلى) ثم تتطاير فى الهواء وذلك لانها ضمت الى بهاء المنظر جمال الطبيعة وقرنت بين حسن الصناعة ونشاط السكان مما يجعلها جديرة بان تشد اليها الرحال وينزل بها أولو البصائر والابصار الايام الطوال بل الشهور بل الاعوام

عود لوصف الطريق الى نابولى

والذى يضاعف حسنها فى نظر القادم اليها من الطريق التى اتخذناها (طريق فودجا) انه يوافيها بعد أن يقطع كثيرا من الفيافى والقفار ويسير خلال الجبال الموحشة والارض اليباب وتحت الانفاق (Tunnels) المنقورة فى الصخور وفوق القناطر المقامة على الوديان والاغوار وبين الهاويات الخاويات وكل ذلك يجعله غير مستأنس ولا بنفسه متوجسا خيفة من كل ما يحيط به حتى ان الخيال (أو الحقيقة) ليصور له ان باخرة البرذاتها قد انتعشت بقوة الحياة فتولاها الرعب وتملكها الجزع فاخذت تتلمس فى مشيتها وتسير الهوينا (لاعن تبختر) بعد ان كانت تسعى على عجل فينقلب

الصفير الخارج من صدرها زحيرا يمازجه صوت أبح خافت يعاون على إكمال الوحشة وابعاد الائتناس وهى فى غضون ذلك تنساب فوق الوهاد وتحت النجاد كأنها الافعوان (يخرج ليكون قاتلا أو مقتولا) ولايزال هذا حال الراحل وحال مطيته حتى يصل بالسلامة الى نابلس الغرب الاوروبى ولكن (شتان بين مشرق ومغرب) فيحمد غب السرى اذ يرى نفسه فى مدينة هى فى الحقيقة كالحديقة الانيقة ناعم البال منشرح الفؤاد ويصدق قول من أنشا (وبضدها تتميز الاشيا) ولكنى أترك الاسترسال مع هذا التيار فقد ألقيت عصا التسيار وقرت العين باجتلاء محاسن هذه المدينة اليانعة الرائعة الناصعة ومعاهدها الباهرة الزاهرة الفاخرة وخذ منى حديثا وجيزا على عجلة وانتظر اذا أردت التفصيل فى الرحلة

عجالة على نابولى

هذه المدينة أسسها أقدم قدماء الاغريق فى الزمان العتيق وسموها بلسانهم نيابوليس (Neapolis) أى المدينة الحديثة وكان لها اسم آخر غير شائع وهو پارثنوب (Parthenope) وقد حرف الطليانيون اسمها المشهور الى نيابولى ثم نابولى (Napoli, وNaples) والفرنساوية الى نابل (Neapol) وعرب هذا الزمان الى نابولى وقد ورد اسمها فى كتب الجغرافية العربية القديمة (نابل ونابل الساحلية ونابل الكنان

لكثرة هذا الصنف ومنسوجاته بها فى قديم الزمان) واما نابلس (أو نابلوس) المعروفة فى الشام فقد أطلق الرومان عليها هذا الاسم غصبا وألغوا اسمها القديم وهو شكيم (Sichem) الوارد فى التوراة وقصص الانبياء ولقد أخطأ ياقوت الرومى حيث جهل الاصل اليونانى لهذه التسمية فانتحل لها اشتقاقا من عنديانه أو نقلا من غير تثبت فقال فى معجمه انها مركبة من « ناب » أى سن ومن « لوس » أى التنين بلسان السامرة فيكون الحاصل من معنى اسمها «ناب التنين»

وليست أهمية هذه المدينة وبهجتها بسبب أقدميتها وما بقى بها من آثار أهلها السالفين فانها خلو من المخلفات والاطلال التى يقصدها عادة الزوّار فى المدائن القديمة العهد مثل نابولى وانما هو موقعها الذى لايزيد عليه فى العالم كله سوى موقع القسطنطينية وحسبى هذا التمثيل للدلالة على انها جمعت المحاسن الطبيعية الشائقة والمناظر البهيجة الرائقة فهى على هيئة مدرج ينحدر على سفح تلال تنتهى الى البحر وفى شرقيها بركان فيزوفيو (Vesuvio المعروف عند العرب بجبل النار) وحواليها تلال ترى المنازل نازلة من أعلى قللها تترى الى منتهى سفحها فاذا ارتقى الانسان احدها نظر الى المدينة بجملتها فرأى من شوارعها الصاعد والنازل والمنحدر

والمستوى والمنحط والعالى ومع ذلك فالهواء فيها كلها جيد والحركة مستديمة لانها من أهم موانى هذه الديار وأكثر مدائنها فى العمار ويعتبرها أهل السياحة والاسفار من أجل الامصار وأبهج مواقع الدنيا على الاطلاق وقد كان خليجها العجيب يجذب الى نواديها الاغراب من جميع الاصقاع وما زالت الآلاف منهم تتردد أيضا فى هذا الزمان على ربوعها الغناء وحدائقها الفيحاء للرياضة والنزاهة ومن الغريب أن حسن موقعها جعل الاجانب يطمحون اليها كما ان رخاء العيش فيها أوجب رخاوة أهاليها فلم يذودوا عن حياضهم ولم يصدوا الفاتحين وغاراتهم فتوالى عليهم حكم اليونان فالاوسكيين (Osques) فالرومانيين فالقوط (Goths) فالبوزنطيين (Byzantins) فالنورمانديين (الذين يذكرهم العرب باسم المجوس) فالالمانيين فالاسبانيين

ومدينة نابولى المذكورة هى مدينة كبيرة ذات شوارع واسعة ومبان شاهقة تفرجنا فيها على مربى الاسماك (Aquarium) ورأينا معيشتها وهى فى نفس ماء البحر على أحجار الصخر وفى خلال الاعشاب المائية بشكل غريب ومنظر معجب وتفرجنا على القصر الملوكى وقد كان تشييده فى سنة ١٦٠٠ وفيه من الصور

والرسوم والتماثيل والموائد مايدهش الانظار ويحير أفكار أولى الالباب ويقضى بالعجب العجاب وهو متسع الارجاء فيه منازه فسيحة جدا ترى فيه الاشجار منضودة على شكل الاسوار وهيئات المثلثات والمربعات والمخمسات وأغصانها مشتبكة محتبكة منضودة ممدودة مقصوصة مرصوصة بحيث تتكون منها أشكال وتراكيب على طراز غريب وترتيب عجيب ورأينا فيه مرمى للطيور ولكنه ليس بالشئ العظيم ورأينا الاشجار الباسقة والمياه الدافقة والخضرة النضرة التى تتشحذ بمرآها الاذهان وتكتحل بطلعة نورها الاجفان فلا عجب اذا كان بنو الطليان من أجود أهل الارض فى اتقان الشعر واجادة التصوير واحكام الرسم والبلوغ فى الصنائع المستظرفة والفنون الجميلة غاية لاتكاد تدركهم فيها أمة أخرى فقد رأينا فى هذا القصر الطائل من الرسوم والنقوش وأساليب العمارة والتفنن فى النحت والاغراب فى التمثيل والتخييل مالاتفى هذه العجالة بعشر معشار مايستحقه من البيان ثم جلنا فى شوارع المدينة صاعدين هابطين متأملين اقتدار الاهالى وشغفهم بتجميل أماكنهم وتزويقها بمايستوقف الانظار ويقضى على الناقد المنصف بان يقضى لهم بسلامة الذوق وحسن الاختراع

وهنا أستميحك أيها القارئ أن تقف معي برهة امام الجمال ليحيطه في وتؤدي له واجب الاتاوة مقرونة بالتسبيح والتهليل والتكبير (سبحان المحاسن الله — الله الله — ماشاء الله — الله أكبر)

فاننا من عهد مابارحنا الاسكندرية وفارقنا سان ستفانو (ملتقى الغادات الحسان ومجمع الغانيات المحجبات) لم يستقر طير نظرنا على شئ من اغصان الملاحة سوى اننا كنا نرى في طريقنا من برندزي الى فودجا الى نابولي بعض أشباح ينتسبن الى حواء ولا نسبة وهن من قبح الصورة وسماجة الوجه بحيث لو رآهن شيخ الاباالسة لعدل عن الوسوسة واستبدل الاغراء بالفرار والاغرب من ذلك ان وجوههن تكون جافية واقدامهن حافية وشعورهن منتوفة ورؤسهن مكشوفة ومع ذلك فلا بد لهن من العُظَّامة أو مايقوم مقامها كأن تأتزر الواحدة بالفستان وتتشح بالصدار لاظهار قد هو أشبه بالقدر وما زلنا على هذه الحال حتى ظننا ان أوروبا انما ترسل الى بلادنا أفضل مافيها من العيون الناجرات الساحرات واللحاظ الفاتنات الفاتكات فلما قدمنا هذه المدينة رأينا غير ماظننا ولقد كان منظرنا وخصوصا الرفيق الموافق والصديق الصادق الشيخ محمد راشد يسترعي منهن الانظار فكان لي بذلك فرصة أغتنمها لتعويض مافات والتأمل في صنع ربك ذي الجلال والاكرام فكانت الواحدة تحملق الينا فترسل سهاما من فاتر

الالحاظ والاخرى تستغرب من شكلنا فيفتر فمها عن درّ يأخذ بحبات القلوب ومنهن من كانت تترك عملها الذى خرجت لاجله من كنائسها وتسعى خلفنا تستغرب شكلنا بينما نحن معجبون بشكلها ومنهن من كنّ يطلان من الشبابيك فيشبكن الفؤاد ولا حرج عليهن ومنهن من كانت الخواتم بخصورهن أليق من الحياصى وغير ذلك مما يطول شرحه ويقصر يراعى عن بيانه حتى اننا لم نر حيلة للتخلص من شراك هذه الشباك سوى التعجيل بالرحيل فقصدنا المحطة

المتاع وعذابه فى السفر

قوقعنا فى شبكة لم تكن لنا فى حسبان ولم تخطر لنا على بال وذلك ان عمال السكة الحديدية أبوا الا أن يدفعونا الرسم على ثلاث شنطات من متاعنا وابقاء شنطة واحدة تحت يدنا فأظهرنا لهم شدة الغرابة من تنوّع المعاملة فى برندزى أولا وفى نابولى ثانيا وقلنا لهم أليس القانون واحدا فى ايطاليا كلها أم هل يختلف تطبيقه بحسب الازمنة والامكنة والاشخاص فكان جوابهم لنا (برندزى هى برندزى وأما نابولى فهى نابولى) فلم نر بدّا من نقدهم ما طلبوا ولكنى حررت هذه الجملة فى مذكراتى واذ لم يكن لى من الوقت ما يكفى للتعمق فى البحث عما حوته هذه الكلمة الجامعة من دقائق المعانى وعويص الافكار آثرت أن أطرحها الآن على

حضرات علمائنا الاعلام ليجعلوها موضوعا للمتون والشروح والحواشي والتقييمات والتكميلات والتذييلات والتعليقات والاخذ والرد والتوجيه والاعتراض والقيل والقال حتى اذا رجعت بالسلامة ووقفت على خلاصة الابحاث أخذتها عن الثقات غنيمة باردة وزينت بها صفحات الرحلة

ثم سارت بنا باخرة البرالى رومة فى طريق تحف به من الجانبين الطريق لرومه أشجار مدت أغصانها فاشتبكت فكانت أشبه بعذارى الجان خرجن من الجبال المحيطة وتهيأن للرقص على أجمل منوال فمدت كل واحدة منهن ذراعيها الى أختها ذات اليمين والى تربها ذات الشمال ووقفن فى انتظار القطار حتى اذا اقترب منهن تحركن حركات منتظمة معجبة بقدود ميالة وأصوات مطربة واستمر الحال على هذا المنوال بين الجبال الصماء تتخللها الخضرة الزهراء والاشجار الشماء حتى بلغنا رومة بسلام وتوجهنا الى الفندق واسترحنا

الرسالة الثالثة

رومة (١)

عن فلورانسه فى الثلاثاء غرة صفر الخير سنة ١٣١٠
(٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢)

الاندهاش من رؤية رومة

يا للعجب يا للعجب كأنى نسيت الكتابة بلسان العرب أو كأنّ مقامى بهذا البلد أضاع اللب وأذهب الرّشد فكيف العمل فكيف العمل وأنا كلما حاولت التحرير أو أخذت فى التحبير استعصى القلم وحرن جواد التفكير وانهالت علىّ المطالب انهيالا يجعلنى أعرف بم يجب الاستهلال ومتى يكون الختام وكيف أتخلص الى تلخيص شئ من المذكرات الجمة والمفكرات العديدة التى اقتطفتها أو جمعتها على هذه المدينة المختالة فى حال البهاء والجمال المجللة بما أودع فيها من آثار العظمة ومشاهد الجلال ففيها العمائر الفاخرة الفائقة والقصور الواسعة الشاهقة والمزارات المتعددة المتنوعة والبقايا الكثيرة مما خلفه فيها القياصرة والامبراطرة والقناصل والامراء والاشراف والكبراء والسادات والباباوات فانها من يوم نشأتها الى الآن مازالت عاصمة السياسة والحل والعقد وكعبة الديانة الوثنية

خلاصة رومة

(١) رومية ورومية الكبرى ورومية المدائن فى كتب العرب ويشقها نهر التيبر (وTevere وTibre) المعروف عند العرب بنهر الصّغر

ثم النصرانية وكل من تولى الامر فيها يسعى بما فى وسعه لتوسيع نطاقها و يبذل جهده فى زخرفتها بما يوجب له الفخار و يستبقى ذكره على ممر الايام فلذلك ترى شوارعها فسيحة وميادينها أنيقة وفى كل ساحة فسقية يتدفق الماء منها وفيها باشكال معجبة وأصوات مطربة وقد نصبوا فيها كثيرا من المسلات التى استجلبوها من بلادنا مع أن عاصمتنا القاهرة خلو منها بالمرة (والذى بقى عندنا من المسلات مازال فى موضعه يندب التمدن الذى كان حوله و يتحسر على عدم العناية به مثل أمثاله فى أوربا وأمريكا)

غرام أهل بالتجمل والتجميل

وللمبانى فى رومة منظر رائق بهيج بالوان زاهية براقة تعجب النظار وعلى جميع جدرانها وأبوابها ونوافذها ومطلاتها وشرفاتها وأفاريزها ترى التماثيل من النقوش البارزة والتصاوير المختلفة والرسوم المتعددة كأن كل واحد من أهاليها أراد أن يستوقف السائحين والجائلين والرائحين والجائين بل هذا غرام قام بهم وشغف لازمهم فلا مندوحة لهم عنه لانك ترى حتى الجزار (القصاب) يزوق حانوته بأغصان الاشجار و يعرض اللحم على الانظار مقطعا قطعا ملتفا أعلاها بقراطيس من الورق الابيض الناصع تنضم ثنياته الى بعضها فتجمعها زهرة من الزهر المختلف الالوان ومثله بائع الخضار فى حسن الترتيب

وجمال العرض ولا ينقص عنهما غيرهما فكل واحد يتفنن فيما يلزم الخلائق بالاقبال عليه (واللى مايشترى يتفرج)

كنائس رومة وقد اغتنمنا فرصة مقامنا بهذا البلد لزيارة مابه من الكنائس التى يضرب بها المثل فى الضخامة والفخامة والمتانة والجلالة والتناهى فى الابداع واللاتناهى فى الاغراب والتشييد الهائل والزخرفة التى تلهى ولاشك المتعبدين والمتعبدات وتشغل المتنسكين والمتنسكات بالنظر اليها (والى بعضهما خصوصا) وإن العقل ليحار فى كيفية تشييدها ويذعن باقتدار ذلك الذى صورها بالقلم على القرطاس ثم أبرزها مجسمة على سطح البسيطة حاوية كمال التناسق وتمام التناسب وإحكام الصنع واتقان الوضع فى كل نوع من جدرانها وعمدانها وسواريها الى عقودها الى سقوفها الى قبابها حتى انه لم يترك مقالا لقائل ولم يدع مجالا لاستعمال ليت ولو وفوق ذلك فان للقوم بحفظها عناية لابعدها ولا قبلها ففى كل كنيسة منها سلالم للتعمير والترميم والتجبير والتتميم ومع كثرة الكنائس والبيع بها (فانها تكاد تناهز نصف الالف) رأينا القوم مشتغلين بتشييد غيرها وأنت تعلم ماحاق فى هذا الزمان بالحكومة البابوية والسلطة الدينية من الضعف والاضمحلال فى بلاد أوربا على العموم وايطاليا على الخصوص

بعض مشاهد رومة

هـذا وقد زرنا معرض الصور والرسوم ومصنع الفصوص والفسيفساء في قصر الڤاتيكان ورأينا بهما من الغرائب والعجائب التي يقصر عن تفصيلها هذا الاجمال ثم شاهدنا ما بالمدينة من آثار القدماء والمتاحف والمعارض والقصر الملوكي والاطلال القديمة والسراديب المنقورة في قلب الجبل حيث كان النصارى في مبدإ أمرهم يلجؤن اليها أيام الاضطهاد ويتقون بالاختفاء فيها شر عباد الاوثان

تخليد ذكر الاعيان والاماجد

وقد رأينا في كل ساحاتها وباحاتها وميادينها وبساتينها وفي كافة الارجاء من منازهها وشوارعها تماثيل كبارهـم وعظمائهم الذين قاموا بخدمة الوطن وترقية شأن البلاد وتعزيز مقام الامة بحيث ان ذكرهم لا يمكن أن يمحوه الزمان وبذلك عرف الاهـلون عالمهم وجاهلهم كبيرهم وحقيرهم مقـدار الاجر العظيم الذي يصيبه من ينفع الوطن من أيّ وجـه كان وبايّ عمل كان ووقف السكان عموما على تواريخ أولئك الذين استفادت منهم البلاد فائدة حسية أو معنوية قليـلة أو جليـلة واتخـذوهم نموذجا لتهذيب الابناء الناشئين وتربيتهـم على السـير في جادتهم ومحاكاتهم في خـدمة الاوطان

تأسف على عظماء مصر واهـمال ذكراهم

وهنا ينبغي لي ان أقف قليـلا كاسف البال منحسرا على كون أهل بلادنا يهملون تخليد ذكر من له فيهم منفعة بأية وسيلة تكـون مع انه وايم الحق هو أفضـل الاعمال وأجل ما تنشد

لاجله الرحال فان الذى يعلم أنه اذا خدم وطنه عرف قومه قدره وأجلوا ذكره وشادوا له الآثار والمبانى التى تضمن له عمرا غير العمر الفانى وتستديم حياته الى كل جيل لاشك انه يضحى النفس والنفيس ويواظب على السعى والعمل لنيل هذا الشرف الذى ليس بعده شرف . ألاترى أن الكثير من علمائنا وفضلائنا قد انقرض ذكرهم بمجرد دخولهم فى رمسهم اللهم الا أن يكون لهم كتاب متداول مشهور (وهم الاقلون) وهل يصح لى أن أعرف بنى وطنى الكرام بان السعى فى تخليد ذكر الاماجد الاماثل الذين يخدمون الوطن هو أكبر باعث ينهض بالنفوس ويحرك العزائم ويحد القرائح ويوجب الاقدام على العظائم فتغتنم الامة والوطن أجل المغانم ويربحان باجتهاد أفرادهما وسعى أبنائهما من غير أن يكونا على الدوام فى حاجة الى الاجنبى والدخيل لانسير الا بمشكاة نورهما ولا نهتدى الا بهدايتهما وارشادهما أما آن لنا أن نفطن الى هذه الحقائق وندرك ماوراءها من المنافع فنطرح الحسد منا لبعضنا ونسعى جميعا فى وجهة واحدة لصالح الوطن العزيز كل بقدر ماعنده ونعضد بعضنا لنكون كالبنيان المرصوص فلعل أهل بلادنا تهزهم الاريحية المصرية وتثور فيهم النخوة الوطنية والحمية الاهلية فيتشبهون بامم أوروبا لنوال الفلاح والنجاح

أواه . تحدثني نفسي عند كتابة هذه السطور بان الكثير من القراء لابد أن يستخف بهذا المقال ولكني أنادي من له حياة أو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فتلك لعمرك عواطف وطنية واحساسات قوميـة وددت لو يشعر بها أهلي كما تملكتني حينما رأيت الخاصة والعامة في هذه المدينة واقفين تمام الوقوف على جميع ماجريات أولئك العظماء الذين أقيمت لهـم التماثيل والانصاب وتزينت بصورهم قصور الملوك وقاعات الدواوين حتى كان ذلك باعثا للامة الطليانية على مباراة الامم العظيمة ففتحت المعامل الكبيرة وألفت الشركات الجليلة وأقدمت على مهام الاعمال فحفظت ثروة البلاد في البلاد وروجت الصنائع الوطنية فاكتسبت أيما اكتساب نعم لاننكر أن الدولة الطليانية واقعة الآن في أزمة مالية وقد برك فيها جمل الفقر ولكن لها عذر واضح من حيث انها في وقت قصير انشأت موانى حربية بحرية وأنجزت كثيرا من الاعمال العظيمة ذات المنفعة العمومية لكي تضاهي الدول الكبيرة والامم المثرية فكانت كالزراع ينفق كل ماعنده ثم ينتظر الغلة والريع وقد بدأت تجني ثمار ماغرست وأخذ الخير يدر عليها وأظن أنه لايمضي عليها نحو النصف مائة حتى تنفض ماعليها من غبار الفاقة وتفوق مما حاق بها من الارتباك والاعسار

نهوض ايطاليا في طريق التقدم

أمور ثانوية والقيظ باوروبا

وكأني بك أيها القارئ قد ملت من هذا الاستطراد وتود مني بدل ذلك ان اكاشفك بما رأيته في هذه البلاد من الامور العرضية الثانوية التي قد يكون وراءها فائدة معجلة جزئية يمكن ادخالها في بلادنا مثل العربات والسكة الحديدية والبريد والتلغراف والبواخر والشرطة (البوليس) وما أشبه ذلك من التنظيمات من انهم يضعون اسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام لكي لا يتطرق اليها البلاء بسرعة كما حصل عندنا في الاخشاب التي وضعتها نظارة الاشغال في القاهرة بمصاريف باهظة ولكني أقول لك ان الحر شديد جدا واني أقاسي منه أكثر منك من عهد مبارحتي للاسكندرية الى هذا اليوم حتى كأني ذهبت الى اسوان أو السودان فعافني من ذلك الآن عافاك الله واعتقد أن الحر في هذا العام بأوروبا اشد منه في كل عام بل لم يعهد القوم له مثيلا قبل الآن ولقد كنت أستغرب ذلك في أرض أوروبا حتى قرأت في جريدة التريبونا الصادرة في يوم الاثنين ٢٢ أغسطس تلغرافا من باريس ينبئها بان اشتداد الحر فوق العادة قد أتلف صحة الجنود الذين في المناورات في جملة جهات وآخر من ويانة يقول ان القيظ مستمر فيها وانه وردت عليها الاخبار من جملة مدائن ان الحر سبب وفيات كثيرة وان سبعة من العساكر

زهقت أرواحهم من اشتداد الحر بينما كانوا فى المناورات وان الفلاحين قداضطروا لترك أعمالهم وان الفاكهة قد أصابتها أضرار بليغة فكيف لاتشفق علىّ مع ذلك كله وقد كنت أيضا بالامس (يوم الاحد) أتريض فى رومة ورأيت فى منازهها من رأيت ومارأيت وحسبك منى هذه الاشارة ..... لانك لبيب فهيم

الرسالة الرابعة

مدينة فلورانسة

تأسف لفراق رومة

لولا وجوب الوجود بلندرة فى يوم موعود وميقات محدود لحضور احتفال مشهود والاشتراك فى مؤتمر معدود لأطلت المقام برياض رومة الغناء وأكثرت من التجوال فى ساحاتها الفيحاء ولكنى تزودت من شميم عرارها وتشبعت من محاسن آثارها فودعتها بالعين والنفس متطلعة اليها والقلب شغف بها ورددت الدعاء لدولتها بالثروة واليسار وماركبت القطار حتى بادرت فأعقبت ذلك بالدعوات الصالحات المستجابات لوطنى وخلانى وأهلى ونفسى وذلك لانه خيل لى أن الدعاء مقبول فى هذه الاقطار لانى ماخرجت منها الا بعد أن التزمت بالمساعدة على إنماء ماليتها (وأول مايجنى على المرء اجتهاده)

عذاب المتاع

فان عمال المحطة قالوا لابد من دفع أجرة النقل على الشنطات الاربع التى مع رفيقى ومعى فأفهمت ناظر المحطة ما وقع ببرندزى ثم بنابولى من أخذ الاجر فى الاولى على ثنتين ثم فى الثانية على ثلاث فقال ان هذه الشنطات تزيد طولا وعرضا فى القياس عما يبيحه القانون لافراد الناس فأخذ العجب منى كل مأخذ اذ لم يكن لى ذلك فى حساب وقلت لعل القوم لايعرفون الهندزة وقد أتقنوا

المتوالية العددية من علم الحساب فتوليت الدفع فى المدينة الثالثة من ايطاليا على الشنطات الاربع ووطنت نفسى على اتباع هذه الخطة فى كل محطة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وصول فلورانسة

ثم سار بنا القطار يجوب البلاد جوبا وينهب الارض نهبا الى ان بلغ بنا مدينة فلورانسة المصطلح على تسميتها عند أهلها بمدينة فيرنتزا التى تكلم عليها الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق وسماها فلرنسة من غير إشباع (كما نفعل نحن اليوم تقربا من اللفظ الافرنجى) فنزلنا فندقا لبثنا فيه ريثما استرحنا ونفضنا غبار السفر (هذه العبارة من باب المجاز لوجهين الاول ان سفرنا كان بالليل والثانى ان السكة الحديدية فى ايطاليا لا تثير قط عثيرا مهما كانت سرعة القطار لان المصلحة معتنية كل الاعتناء بوضع الزلط والحصباء على طول الطريق فهى نعمة للمسافر تمتعه بما يبدو أمامه من المناظر من غير ان يخشى ضررا ما على النواظر) وبعد ذلك خرجنا لنروح الروح بارواح ريحان هذه المدينة ونتنزه الطرف فى طرقها القديمة وطرقها الثمينة

عليك بالشباب

فأخذنا عربة قلنا لسائقها ان يدلنا على دليل خبير فخيرنا بين شاب وشيخ كبير وقال لنا ان الثانى أفضل لمعرفته بالمدينة وطول ممارسته لهذه الصناعة فاخترناه على بركة الله راجين منه الافادة بالدلالة اللفظية والمعنوية ولكن وقار الشيب كان مستوليا

عليه أكثر من دلالة اللزوم حتى ألزمه السكوت والسكون فكان جالسا امامنا كأنه ثالثنا .... بل رابعنا (بحساب العربجي) يجيل ناظره ذات الشمال وذات اليمين يتأمل ويتفكر تشبها بالمتصوفين أو المتفلسفين ولا يجيب عن أسئلتنا المتعددة الا بما فيه قليل الفائدة فأسفنا على اختيار الاختيار ورجعنا على أنفسنا بالملامة ولات حين ندامة ولكنا تسلينا أملا بان غيرنا يكون له خير موعظة بما جرى لنا والعاقل من اتعظ بغيره

هيئة فلورانسة ومحاسنها

أما المدينة فلها من الداخل منظر بعيد عن الرشاقة مجرد من الملاحة لانك ترى القصور القديمة فيها شاهقة متواصلة والعمائر الجسيمة شامخة هائلة وعليها من الرزانة جلباب ومن الجودة والجفوة أثواب ليست قائمة من الخارج على أعمدة ولا بواكي معقدة ولا أمامها أشجار نضرة أو خضرة مزدهرة حتى تروق خاطر الخطار وتقر ناظر النظار فهي بالمعاقل والمحاصن أشبه منها باماكن المساكن شادها سادات المدينة وأشرافها في القرون الوسطى للتحرز بها والالتجاء اليها ولكنك اذا سرت بعيدا عن سرة المدينة سررت برؤية الرياض الاريضة والجنات الطويلة العريضة والساحات التي هي أكثر من أن تحصى والميادين الشائقة بما حولها من الاشجار والازهار التي أوجبت تسميتها بمدينة الازهار فترى حينئذ عليها

من الجمال حلة باهية ومن المحاسن ماتختال فيه كالغادة الهيفاء خصوصا اذا ارتقيت ربواتها أوقصدت منتزهاتها ولاسيما المنتزه الكبير فانه من أنزه المنازه التى رأيناها وأبهج المباهج التى عرفناها اذ هو من الاتساع والامتداد وجمال المنظر ورونقة الترتيب بحيث يجيد الفكر ويحسن الذوق ويجلو صدأ العقل ويغذى الروح ويصفى القرائح فلا عجب اذا تفرد أهلها فى تعشق الطبيعة وبرعوا فى الفنون الظريفة

استعداد الطليانية للفنون المستظرفة

ولابدع اذاقلت فى هذا المقام ان كل طليانى لابد أن يخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش والنحت والتعمير أو التحبير والتحرير أو الموسيقى والاغانى ونظم القريض والمعانى فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جليلة وبقايا فنية جميلة مما لاتكاد تضاهيه مجموعة فى الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد ملت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض العريض الطويل فعدلت (لعجز لالنقص) عن اتمام مناظرة مابه من التحف الثمينة العجيبة وعولت على الخروج منه معجبا بما فيه قادرا اياه حق قدره ثم طفنا بالمدينة وتفرجنا على مافيها من بدائع الصناعة وعجائب الطبيعة مما أدخرشرحه للرحلة

عناية الافرنج بالصغائر

فرأيت فى منتزهها هرما صغيرا مبنيا بالاحجار الكبيرة فحسبته من مصنوعات أجدادنا المصريين وقد نقل الى هذه الديار كما نقل غيره من أحاسن الآثار ووضع بجانب المنتزه عناية به وحفاوة ولكنى علمت من التساءل أن بعض العمال ابتناه على نفقته لاصطناع الثلج وحفظه به فعجبت من هذا التفنن فى الاتقان واستغربت من اقتدار بنى الانسان وعلى ذكر الثلج والتفنن أذكر أنى رأيت رجلا يبيع الماء المثلج فى برميل لطيف ظريف نظيف خفيف ذى حنفيتين من الخارج وأنبوبة لوضع الثلج من الداخل يحمله على ظهره ويسعى به ليبيع الماء من غير عناء أينما شاء واحدى الحنفيتين مخصصة لغسل الكاس التى يستقى منها الناس وقيل لى ان الرجل اخترع ذلك الطراز منذ عشرة أيام وأما غيره فلا يزال يبيع الماء المثلج فى أحواض من الاخشاب يقف بجانبها ولابد للظمآن من الورود اليها وقد رأيت فى جميع المحاط التى مررت عليها شبانا وفتيات بل فتيات وشبانا يحملن ويحملون بأيديهن وأيديهم وعاء مركبا من اسلاك ينقسم الى عيون عدتها ثمان أو عشر فيها أكواب مترعة يمررن ويمرون بها على القطار لتقديم الماء المثلج لمن شاء من المسافرين فى نظير صلدى واحد (أكثر من مليمين بشئ قليل)

ومما رأيته بهذه المدينة رجل مقعد سطيح ولكنه يسعى بنفسه كما يسعى غيره بقدمه ويستمنح الاحسان من كل انسان فى أى مكان فانه اتخذ عربة صغيرة بقدر ما يجلس عليها ولها أربع عجلات وبما أن الشوارع منتظمة والارض ممهدة والسير ميسر فى جميع أنحاء المدينة فما على صاحبنا الا أن يضغط بيده على الارض قليلا لتحريك العجلات والتنقل من طريق الى طريق وقد استغنى بهذه الكيفية عن اتخاذ أعمى يحمله ويسعى به فى نظير ارشاده اياه على الطريق ومقاسمته ما يصيبه من الرزق ولا شك عندى أنى سأرى رفيقه الاعمى (بحسب ماجاء فى حكايات شارح المقامات الشريشى الاندلسى وفلوريان الفرنساوى) يدبر له وسيلة يتوصل بها الى نوال الحسنة من غير احتياج لنظر المقعد وتكلفه حمله على كتفه لان أهل هذه البلاد بلاد أوروبا أهل حركة وعزيمة وتفنن واقدام وهنا أستوقف القلم مرة ثانية بالرغم عن البواعث الكثيرة التى تجيش فى الصدر كغليان القدر فتدعوه للاندفاع فى هذا التيار وانى لأعانى هذا العناء خشية على القارئ من الملال وشفقة على نفسى

التشوق للوطن

فقد برّح بى التشوق الى الاوطان واشتد بى التشوف الى الاخوان لعدم استقرارى فى مكان وتعذر استطلاعى

الاخبار التى تتوق اليها النفس ويحوم حولها الفؤاد فياالله من البعاد وياالله من غالب شعرائنا كيف يصفون وهم فى مستقرهم عواطف واحساسات لايشعرون بها ولكنها تجىء كلها طبق المراد أهذا من صدق الحدس أومن سلامة الفطرة .....
وياليتنى كنت تخرجت فى الشعر حتى كان ينفتح أمامى المجال ويتسع لى المقال

الرسالة الخامسة

(مدينة بيزا Pisa)

تأوه على عدم رؤية مدينة البندقية

لقد أبدعتم يا أهل البديع فى تنويع الطباق فهو لعمركم من سلامة الاختراع ولقد برعتم يا أهل المنطق والكلام فى بيان التناقض والتضاد ومعانى الاجتماع والارتفاع فان وقتى على كل حال أعتبره ثمينا نفيسا ولكنى أجده الآن طويلا قصيرا — أما الاول — فلكثرة الشجن بالحنين الى الاهل والوطن — وأما الثانى — فلتقصيره عن مساعدتى على زيارة مدينة البندقيـة (فنسيا) فانى كنت بفلورنسه وليس بينى وبينها سوى ست ساعات ومع ذلك لا يصح لى أن أتعجب وأقول ان المشتهى قريب وما اليه وصول فان الطريق ميسر والوصال أسهل من أن يدبر والبخار مسخر والقطار حاضر ولكن الوقت سلطان قاهر فكيف لا أتمكن من زيارة تلك المدينة التى قامت فيها الخلجان مقام الحارات والجداول مقام الشوارع والمراكب مقام المركبات والزوارق مقام العربات والمقاذيف والمدارى مقام الخيول الجوارى ... ألا ان الوقت محسوب والقيام الى جنوة أمر محتوم فالبدار البدار الى دار الوفادة والعجل العجل لتأدية واجب الرسالة

ولكنى استعضت عما فاتنى بقسمة طريق الى قسمين للوقوف فى بيشة أكثر من ساعتين كانتا فى الحقيقة أبرك من يومين فاتخذت دليلا من أهل الشباب معدن القوة والفتوة وأمل المستقبل فطاف بنا المدينة وأطلعنا على محاسنها فعوّض علينا ماخسرنا بسبب اختيار الشيخ فى فلورنسه رأيت أمورا كثيرة فى هذه المدينة الصغيرة (التى لايتجاوز عدد سكانها ٤٠٠٠ نسمة ومصرنا القاهرة فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ نفس) وانى أحيط علم حضرات القراء بالنبا القليل من غير تفصيل

عجالة على بيشة

هذه المدينة تسمى فى كتب الجغرافية العربية القديمة بيش وبيشة وقد وردت باسم بيزا فى بعض كتابة الشريف الادريسى مر عليها حين من الدهر كانت فيه خاضعة لملوك تونس فى أيام دولة الموحدين (أو الملثمين لاأتذكر الآن ذلك بالتحقيق) فانى رأيت بدار المحفوظات فيها التى تشبه الدفترخانة المصرية عندنا (من غير تشبيه ولا تمثيل) صكوكا كثيرة وعهودا متنوعة وإجازات غير قليلة وبعضها يتضمن الضمان لاهلها بالحرية التامة والامان فى كافة المعاملات واقامة شعائر الاديان وهى صادرة لهم من أولئك الملوك (وقد اعتنى العالم الطليانى أمارى بنشرها وترجمتها) ورأيت اسم البلد فيها هكذا — بيشة — وقد شاهدت فى هذه الدار

أيضا غير ذلك من الاوراق الرسمية التى اتخذتها كل دولة توالت عليها أو كان لها علقة بها ورأيت فيها على صغرها كثيرا من التماثيل التى تحيى ذكر أهم رجال ايطاليا أخص منها تمثال الطبيب الذكر فكتور عمانويل مؤسس الدولة الطليانية الحالية الملقب عندهم بأبى الوطن ولكنه كان كله مغطى بالاخشاب المنضودة بحيث لايرى منه شئ ما وذلك لانه أقيم حديثا وسيحتفل بازاحة الستار عنه قريبا بحضرة الملك والملكة والاسرة الحاكمة ورجال الدولة وأهل الحل والعقد

نظام المكتبة والمتاحف

ثم زرت المدرسة الجامعة ومكتبتها العظيمة ورأيت فيها من النظام مايوجب الاعجاب بها مثال ذلك ان الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب بقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرته وعنوانه الى أن يرد الكتاب الى محله وفى ذلك فائدتان أولاهما حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع استقامتها واعتدالها وثانيتهما التنبيه على أن هذا المكان يشغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لاعلام من يريد ان يجيل ناظره على الكتب فقط ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية وأخرى لحفظ الكراريس والاجزاء التى تظهر فى أوقات معينة من كتاب

واسع كبير حتى لا يتولاها التلف والضياع ومتى تمت الكراسات والاجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها ثم زرنا مدرسة المعلمين العليا وتفرجنا على معرض التاريخ الطبيعى وهو وان لم يكمل لكنه حاو لكثير من التحف والطرف وفيه كثير من الحيوانات النادرة الغريبة من حشرات ودبابات وأطيار وأسماك ومعادن وأحجار ونباتات وأشجار وثمار وأزهار وغير ذلك مما يدخل فى هذه الدائرة

البرج المائل وغرائب الصدى

ثم زرنا كنائسها وبيعها وأغربها كنيسة بجانبها برج للناقوس منعزل عنها وهو شامخ فى الهواء لا باعتدال بل بانحراف فانه يميل بكليته على سطح الارض بمقدار خمسة أمتار أى انك لو أنزلت من أعلى قمته خطا عموديا على مستوى الارض لكانت المسافة بين نقطة مسقطه وبين جدار الاساس خمسة أمتار بالقياس ثم عمدنا الى قبة التعميد وهى بناء آخر مستدير بجانب الكنيسة من الجهة الاخرى وبينما نحن نتأمل فى عجيب تركيبها وبديع هندامها وحسن نظامها واتقان رسومها و . . . و . . . و . . . الخ واذا بالدليل صفق بيديه مرتين ثنتين فانزعجنا منهما انزعاجا شديدا لا يخطر على البال اذ أعقبهما دوىّ ولا قصيف الرعود وهزيم أين منه فرقعة المدافع المتواليـة فى ساحة الوغى

حتى ظننا أن القيامة قد قامت وأن الارض زلزلت زلزالها وأخرجت الارض أثقالها وأن الجبال اندكت والسماء انفطرت (وامؤتمراه ... وامؤتمراه ...) واستمر الصدى على هذا المدى عشر ثوان فعجبنا كل الاعجاب من هذا الصنع المحكم الذى لايحاكيه صنع فى العالم

وقد كنا رأينا شيأ مثل ذلك فى كنيسة رومة من حيث تدبير الهواء فى صلب البناء اذ يقف الانسان بجانب سارية من سواريها ويكلم صاحبه من خرق صغير فيها فيسمع كلامه واضحا ظاهرا من خرق آخر فى السارية الثانية أو أن يقف بجانب باب فى أعلى القبة ويسمع صاحبه وهو يناجيه بجانب الباب المحاذى له على مسافة تقرب من المائتى متر ولكن ذلك كله ليس شيأ فى جانب مارأيناه فى بيشة ثم أخذ الدليل يوءوء ويوهوه على عادة الافرنج فى المغنى والصدى يجيبه باجمل أسلوب وألطف معنى

ثم تفرجنا على قرافة المدينة ويدعونها (كامپوسانتو) أى جبانة بيشة الميدان المقدس أو ماأشبه ذلك فرأينا فيها رسوما كثيرة بارزة ومجوفة وقبورا فى صلب الحيطان وتحت الاقدام ولكن ذلك ليس من الغرابة فى شيء بل الغريب أن فى وسطها مربعا كبيرا

طينه كله مجلوب من أرض بيت المقدس (أورشليم) جلبته من الشام ٦٦ مركبا من سفائنهم تبركا بتلك الطينة الطيبة ولكى يكون فى بلادهم قطعة من الارض المقدسة تخرج الازهار والاعشاب الخاصة بتربتها فى معدنها الاصلى وقد دعانى الدليل لاخذ شئ من تلك الازهار على سبيل التذكار

كنيسة بهجة

وقد رأيت أيضا بيعة صغيرة على حافة النهر لايفصلها عن الماء شئ وهى فى غاية الابداع والجمال مبنية بقطع صغيرة من المرمر المختلف الالوان على شكل معجب وأسلوب جميل وأغرب مافيها أن سقفها من الداخل يشبه السقوف المصرية العربية القديمة من حيث التطعيم بالخشب والابنوس والتلقيم بالصدف والعاج ولكنه ليس كذلك بل كله من الحجر المركب مع بعضه على شكل الفص والفسيفساء فله منظر جميل بهيج يزيد فى محاسن المنتزه الكائن على الضفة الاخرى من النهر وهو فى غاية الحسن

أحاسن بيشة

وبودى أن أختم هذه الرسالة بذكر شئ من الجمال فى بيشة فلا شك عندى انه كان أكبر شفيع لنوالها الحرية والامان من ملوك تونس أيام كانت خاضعة لهم ولا يمنعنى من الافاضة فى هذا الموضوع سوى خوفى من أن تتطاول علىّ ألسنة السوء ولكنى

أقطعها واستريح منها حتى لاتبقى لى بالمرصاد فيما ربما ينساق اليه الحديث فى غير هذه المدينة مما لايرى الكاتب بدا من ذكره من باب الاحاطة ليس الا فقد كان مرورى عليها وقت الظهيرة وقت القيلولة وقت اشتداد الحرارة ومع ذلك رأيت الغانيات الرائحات والغادات الغاديات المشوقات المشوقات الهائفات المهفهفات ذوات القدود والخدود والصدور والنحور والخصور والشعور و .. و .. وغير ذلك مما ألقيه على الشعراء ذوى الوهم والخيال ليتكفلوا بشرح حقيقة الحال

الرسالة السادسة

مدينة جنوة

فراق بيشة ووصف الانقاق

لم أبارح مدينة من ايطاليا وفى جوانحى من اللهف عليها والشغف بها مثل ماحصل لى فى بيشة حتى ان قلبى قد طغى علىّ ويودّ ان لايتكلم الا عليها ولم يكن فى وسعى سوى مفارقتها ولسانى يكرر على جنانى مافى وطابه من قليل الاشعار الخاصة بالغزل والنسيب والغرام والتشبيب ولكن أين ذلك كله مما كنت أشعر به ومما زاد توجعى على مفارقة محاسنها وأحاسنها أن القطار صار يسير بين الجبال وعلى حافة البحر بالتمام فبينما هو يجرى تحت الجبل وفى ظلام حالك اذ ترى نوافذ منقورة فى الصخر الذى يحيط بك من الجهات الست ترسل النور الى النَّفَق والامواج الى جسر السكة والطمأنينة والسكينة الى الباخرة ومن فيها فتتجدد فيها وفيهم عوامل القوّة وتدب روح النشاط

ثم استمر الامر على هذا النهج نخرج من نَفَق وندخل فى نَفَق يوصلنا الى ثالث يتبعه آخر فآخر وهكذا والمسافة بين كل واحد والذى يليه قدر الدقيقة أو أقل ترى الوابور يقترب فيها من الطود الشامخ اقترابا شديدا حتى كأنه يستند عليه أو يأوى اليه ليعصمه من الانزلاق فى بحر الروم ولكنه متى دخل النفق

عجل السير واندفع بسرعة كأنه نجا من خطر لاقل منه أولشجاعة أوجدتها فيه العادة بل ... فى المسافر الذى مر تحت كثير من الانفاق فما بقى يعبأ بها أو يسأل عنها فضلا عن أن أرضها ممهدة مطمئنة وليست منحدرة كما فى جنوبى ايطاليا والخلاصة أننا وصلنا جنوة ونزلنا بها لنتفرج عليها أولا ثم على مظاهر الاحتفال الذى سيقام بها احياء لذكرى أحد بنيها وهو المخلد الذكر كرستوف كولب مكتشف قارة أمريكا

اسم جنوة

هذه المدينة تسمى جنوا (Genova) فى لغة أهلها وجين (Gênes) عند الفرنسويين وورد اسمها كما رسمته فى كتب الجغرافية العربية القديمة وان كان أبناء العرب فى هذا الزمان يكتبونها جنوا أوجنوى وكثيرا ما كان اسمها موجبا للخلط بينها وبين مدينة جنيف (Genève) فى سويسرة عند بعض الذين لم يعتادوا التحقيق والبحث بالتدقيق أما الذين وقفوا على الفرق وعرفوا وجوب التميز فيسمون الثانية (أى مدينة سويسره) جنيفة أوجنيفا ولكنها وردت فى كتابة الشريف الادريسى هكذا (جنبرة) وسأبين لك تعليل هذه التسمية وكثير من أمثالها بالتفصيل فى الرحلة ان شاء الله

منظر جنوة

أما منظرها ففى غاية البهجة والجمال ولا أقول مثل كتاب الافرنج أوالذين حذوا حذوهم من أبناء العرب انها على شكل نعل الفرس

أوحدوته بل أقول انها كالنون وجوفها هو جونها ومتى خيّم الليل ترى هذه النون ساطعة كالهلال بل تتلاقى من طرفيها بأضواء السفائن الراسية فيها فتكون كحلقة مفرغة قد ملئت من الانوار ثم ألقى بها فى تيار البحار ولا يقرب من مشابهتها فيما أعلم سوى مدينة دمياط فى أيام الزينة والمواسم الكبيرة

ولما أصبح الصباح نزلنا من نزلنا واتخذنا دليلا لنا (من الشبان) فشاهدنا عظمة المعدات وجمال الاحتفال الذى سيكون لمن جعل العالم توأمين و بلغنا أن الاسطول البريطانى بعد أن رسا قبل غيره على مقربة من المدينة أقلع على نية الرجوع قبل الاجل المضروب ولم يكن فى الميناء سوى ثلاث مراكب طليانية و واحدة هولاندية فوطنا النفس على زيارتها فى عصر النهار

مراهين الوطنية فى أوروبا

ثم طفنا المدينة صاعدين هابطين وشاهدنا حصونها وأبراجها وآثارها ومفاخرها ثم دخلنا دار البلدية فأنستنا نظيرتها فى الاسكندرية فان كل غرفة من غرفها وكل قاعة من قاعاتها مفروشة بالاثاث الفاخر ومزينة بالنقوش الاصلية البالغة فى الاتقان وفيها من التماثيل والرسوم والابسطة والستائر والموائد والمعدات مايجعلها أشبه بديار التحف منها بديار الادارة والسياسة ورأيت فى احدى قاعاتها تمثال كرستوف كولمب وتحت التمثال صندوق من

المرمر مغلق منيع فيه كتابات الرجل ورسائله التى كتبها بخط يده لكنهم لاجل أن لايحرموا الناس من مشاهدتها وقراءتها أخذوا صورتها بالفوتوغراف وعرضوها على الانظار تحت ألواح من الزجاج ثم انك ترى صور وقائعه وأسفاره واكتشافاته وكل ماقاساه فى آخر أيامه مصورا محفوظا فيها بحيث انك بمجرد الاطلاع عليها تعرف تاريخه ومجرياته عن ظهر قلب وفى دار البلدية المذكورة غير ذلك من تماثيل العظماء مما لا أرى حاجة للكلام عليه الآن غير أنى أقول ان القصر الفاخر الذى هى فيه كان ملكا لاحدى العائلات الكبيرة فتنازلت عنه لها وعلى ذكر ذلك أقول أيضا ان أعظم منتزه فى وسط البلد كان لعائلة غنية أخرى فتنازلت عنه للبلدية وهى جعلته منتزها للعامة ومربى لبعض الاطيار الغريبة والازهار النادرة ومتحفا للتاريخ الطبيعى ولقد بلغنى أن احدى السيدات تبرعت للمدينة أيام حروبها بمبلغ يوازى ٢٠٠٠٠٠ فرنك لتعزيز الحصون وتقوية القلاع والمحافظة على أكبر أبواب المدينة فأقامت لها البلدية بعد موتها التماثيل والانصاب اقرارا بفضلها على وطنها واشهارا لحبها لقومها وعلى ذكر ذلك أقول وأقول وأعيد وأعيد ماستراه مفصلا فى الرحلة وان غدا الناظره قريب

غير أنى أسألك كلمة واحدة ثم أنتقل من هذا الموضوع وذلك أنى قرأت تواريخ بلادى ووقفت على وقائع قومى وتحسرت لما رأيت أنى لاأتذكر شيأ يشبه ذلك أو يقرب منه فان كان على بالك أمر من هذا القبيل أوأقل منه بقليل فانى أناشدك الوطنية الا ما أتحفتنى به لتزول عنى الغصة وليكون فى تذكير القوم به أعظم اسوة

العمامه والطربوش فى أوروبا

هل أحدثك بحديث العمامة والطربوش فى أكبر كنائس هذه المدينة فانه يدل على أنه لم يزرها أحد قبلنا بشكلناوان قسوسها لم يبرحوا قط منها . دخلنا هذه الكنيسة وقلنا لسائق العربة ينتظرنا ولكنه لما رآنا دخلنا من الباب ولم نرفع عمائرنا (العمارة فى اللغة كل مايوضع على الرأس من طربوش وعمة وطرطور وبرطول وقلنسوة الخ ونقابلها بالفرنسوية لفظة Couvre-chef و Coiffure) أشار الينا باتباع هذه السنة فلم ألتفت اليه ولما دخلنابهنا الدليل الى ذلك فأضفت جهله الى جهل السائق وأفهمته أن ذلك غير لائق وبعد خطوتين جاء الحارس يتبختر فى ملبوسه الارجوانى وأزراره النحاسية ويتوكأ على صولجانه وقال لنا لابد من كشف الرأس احتراما للمعبد الكاثوليكى فأفهمته أن هذه عادتنا فى بلادنا فذهب وأحضر لنا شماسا أوشكت أن

أقنعه ولكن رآنا المطران فأقبل الينا ووافق على ملاحظات أولئك فقلت له ياسيدى اننا ولله الحمد نعرف واجب الادب فى كل مقام ونعتبر كشف الرأس اخلالا بالاحترام فلا ندخل قط على عظيم أوفى مسجد الاورؤسنا مغطاة ولا شك أنه سيقدم اليكم كثير من أمثالنا بمناسبة الاحتفال بمهرجان كرستوف كولمب وكلهم يصنعون صنعنا

فأظهر الاقتناع ثم قال لى سلمنابذلك لرفيقك فان شكله شرقى قح وأما أنت فانك بالملابس الاوروبية وحيث انك قد اخترت ملبوس الافرنج على ملبوس بلدك فاقتد بالافرنج فى نزع القبعة قلت له كلا فهذا هو الشكل الرسمى فى بلادنا وهذا الذى على رأسى ليس بقبعة وقد زرنا قبل الآن كثيرا من الكنائس وأهمها كنيسة مار بطرس برومة فحيانا رهبانها وأكرموا مثوانا وكلمونا بالعربية وأطلعونا على ذخائرها ونفائسها وفرجونا على الاعمدة الرخامية التى أرسلها اليها ساكن الجنان أفندينا محمد على باشا حينما احترقت وساعد ملوك الارض على اقامتها وحينئذ اقتنع تماما وقال للحارس يطلعنا على ماعندهم من الذخائر القديمة الصحيحة من سلاسل وأخشاب وغير ذلك مما لايحتمل المقام تفصيله

الضرر فى اتخاذ الملابس الافرنجيه

ثم خرجت من الكنيسة وفى نفسى غصة من ملبوسى هذا الذى ترتب على اتخاذه فى بلادنا إماتة كثير من صنائعنا وصناعنا واحياء بعض صناعات الافرنج السريعة العطب ومساعدة التجارة الاجنبية على انتزاف مابقى لنا من قليل الثروة فضلا عن أن الحذاء الافرنجى يوجب فى الارجل سقاما قد تكون سببا فى نكد العيش ومرارة الحياة اما البنطلون المحزق والصديرى المضيق والسترة أوالجكته أو السالك والردنجوت أوالسموكن أوالفراك والقميص المكوى ورباط الرقبة الملوى وغير ذلك من الازياء والانواع فانها ليست موافقة لطبيعة الاقليم فى بلادنا بالمرة وأما الطربوش فليس فيه من مزية سوى حبس الهواء فوق المخ وعدم تمكينه من الخروج لاحتباك أطرافه على الرأس فهو أجود وأنفع فى البلاد الباردة وليس وراءه الاالضرر فى البلاد الحارة وأما العمامة وخصوصا اذا كانت مقرونة بالعذبة فانها مفيدة جدا للصحة تمنع تأثير الشمس وأوارها عن الوجه وعما يحاذيه من الخلف خصوصا وأن البياض أوفق الملابس فى البلاد الحارة ومن جهة أخرى فان عرب مراكش لايزالون الى الآن (وهم على ماهم عليه من التمسك بالاسلام) يلبسون على مابلغنى شيأ شبيها بالقبعة له حواف تمنع وهج الشمس عن الوجه وعن نقيضه

هـذه ملحوظات عنت لى إثر دخولى الكنيسة وقد كان شئ شبيه بها دار فى رأسى حينما رأيت ان الملبوس الشرقى أجلب للانظار (كما وقع فى نابولى وغـيرها) فكنت أودّ أن أكـون مشاكلا لرفيقى بعمامة وقفطان وجبـة مرخاة الاردان ولا أبقى على هذه الحالة التى اختارها أهل بلادنا فكانوا أشـبه بالغراب أراد أن يتشـبه بمشية طائر جميـل (هو الطاووس أوغـيره) فلم يتمكن من التقليد ونسى سـيره القـديم - لكـن الطربوش والحق يقـال جعـل لى فى أوروبا مزايا كثـيرة منهـا ان القوم كـانوا يفسحون لى فى كل مكان واذا أقبلت على حانوت قابلونى بالبشاشـة والاكـرام ولابد أن يكون السبب فى ذلك أن بعض أغنيـائنا وكـبرائنا يتوجهون بشكل مثـل شكلى وينفـقون الدرهم والدينار من غير حساب يأخذون ما حصلوا عليه فى بلادهم بأية الوسائط وينفقونه فى أوروبا من غير فائدة لهم ولا لأوطانهم بل فى قضـاء أوطار باطلة وخـلاعات زائلة تبقى بعدها حسرات متواصلة والشواهد أكثر من أن تعد وانى لا أشكرهم مطلقا على كونهم جعلوا أهل التجارة يرحبون بى ويوسعون لى مقاما محمودا بل كان أولى لهم ثم أولى لهم أن يتخيروا الصرف فى نفس بلادهم

بما هو أفضل لهم وأجدى لوطنهم كما رأينا فى مدائن أوروبا - هذا موضوع يدوخ منه رأس الكاتب والقارئ فأتركه لغيرى وأريح منه نفسى

معامل الشفتشى

ولما كانت مدينة چنوة متفردة على غيرها باصطناع الشفتشى توجهنا الى أحد المعامل ورأينا كيفية الاصطناع من أوّلها الى آخرها من أخذ الفضة وهى كتلة قائمة واصطناعها أسلاكا مختلفة فى الحجم تتراكب مع بعضها بجميع الاشكال مما يندهش له العقل خصوصا وان القائمين بها أطفال وطفلات تحت ادارة معلمين ومعلمات وسأكتب عليها بالتفصيل عند التيسير

أول رؤية مسلم بأوروبا

ولما خرجنا من المعمل تلاقينا بغتة برجل لابس طربوشا فوقف ووقفنا ثم تبادرنا التحية بالعربية وحصل لنا برؤيته فرح كثير اذ لم نصادف أحدا من أبناء الشرق من يوم خروجنا من الاسكندرية الى ٢٥ أغسطس يوم وجودنا بچنوة ثم عرّفنا انه السيد محمد بن عبد الغنى وكيل سلطان مراكش فى ايطاليا وأراد أن يستضيفنا فاعتذرنا لان الوقت لا يساعدنا وبعد ذلك أردنا ان نزور السفائن البحرية فأخذنا زورقا كانت الامواج تصده والتيار يمنعه الى أن أقررنا بوجوب الرجوع وسلينا النفس بانّا سنجد فى انكلترة ماهو أعظم وأكمل وكل الصيد فى جوف الفرا

الرسالة السابعة

من تورينو الى مودان الى باريس

فراق جنوة وقرافتها

فارقت جنوة وأنا معجب بنشاط أهلها ووطنيتهم وغريب اقدامهم حتى لقد رأيتهم يزخرفون الصخور ويقيمون مكانها القصور ويصعدون الى أعالى الجبل فيبنون المساكن الأنيقة والدور الرشيقة ولقد أطلت التفكير فى زخرفتهم حتى لقرافتهم التى فاقت كل ما رأيته فى غير مدينتهم بابداع التماثيل وكثرة العناية بحيث انها تعدّ من أحسن منازههم وأنظفها وأبهجها ولا يصح للسائح ان لايزورها وقد رأيت بعض العائلات تقيم لمن يتوفى من أفرادها أثرا جليلا من المرمر الناصع بالتمثيل المحكم والاتقان التام مما يكلفها ١٠٠٠٠٠ فرنك فنازلا واعتنت البلدية بتنظيمها على هذا النسق المعجب وقسمتها أقساما بقدر اللحود تبيعها لمن يريد وهى تتكلف بتشييد القبور واقامة الانصاب لمشاهير المدينة قديما وحديثا

وكانت جنوة أول مدينة شعرنا فيها بالبرد الخفيف وفيها تنازل الغيث علينا مدرارا ثم قمنا منها قاصدين باريس ولكنا التقينا فى القطار برجل من أهل تورينو أشار علينا بشطر الطريق

نصفين حتى لاتفوتنا الفرصة من مشاهدة هذه المدينة الفاخرة التى تسمى فى كتب قدماء العرب طرون وطرونة واطرونة وحتى لانتعب من طول الطريق

منظر تورينو فعملنا بنصيحته وكنا أرسلنا متاعنا الى باريس مباشرة فدخلنا المدينة وقد أرخى الليل سداله وجر الظلام أذياله فرأينا شوارعها أنيقة تضىء الكهربائية أرجاءها فتساعد على زيادة جمال المبانى الفخيمة التى تحف بها وأمضينا بقية الليلة بثياب النهار حتى اذا أصبح الصباح (وانتشر نوره ولاح وأشرقت الشمس على جميع البطاح وانتعشت بنورها الارواح الخ قافية الحاء) قمنا من الفندق وطلبنا من البوّاب أن يتحفنا بدليل من أولى الالباب فاحضر لنا (١)

(دليل عجوز) شيخا يفَنَادردحا دردبيسا مع كونه أِنَنَادحدحاجُعسوسا أصعل أصلع سلنطع أسلع سمعمع وله جفن أمرط وحاجب أطرط وجبين أبهق وصدغ أقهب بآذان مسترخاة فيها أوبار مدلاة يبرز من وجهه أنف فيه الفَطَس والخَنَس وفوقه ثقبان مُلَوَّزان كأنهما عينان جاحظتان يعتريهما الحَوَص والخَوَص من كل مكان وتحت ذياك الخرطوم مِشْفَر مشؤم أحلى مافيه الهَدَل وأخف مافيه الثقل وهو محشوّ بعظام نخرة أو أحجار مكلسة مجيرة بمثابة الاسنان فى بقية بنى الانسان ولكنها بالفَقَم تميزت وأنواع الثَّعل فيها تميزت حلق شواربه للتخفيف وزين هذا الوجه

---

(١) أرجو القارئ قبل أن يوجه الىّ سهام الانتقاد والملام أن يتفضل ويصبر على تلاوة هذا الوصف حتى يأتى على آخره ثم ينظر الى القاموس الذى وضعته فى آخر هذه الرسالة من صحيفة ٧٧ الى ٨٥ ليعلم دخيلة الامر ويقف على بواطن السر

الطيف بعارضين كالخنيف وجعل لذقنه حلية باعدام اللحية فصارت حمراء مستبردة أشبه بشئ فى الحمامة بل فى القردة . وقد أقبل علينا بهذ الحيا الدميم والخلق الشتيم وهو ساهم من العبوس والهم يرفع القدم بعد القدم ويدب متمهلا متثاقلا من الهرم فكلمنى بحبسة فى اللسان ورتة فى البيان ولفف مع عقلة وغمغمة وحنة وحكلة وطمطمة فراعنى منظره وهالنى مخبره وكدت أرد من حيث أتى وأبحث لى على فتى اذلا فائدة لى من هذا الشيخ الانحس الاتعس ذى الظهر المقوس والمنظر المخنبس فقد أخلقت جدته وقبحت نضرته وأظلم ضياؤه وذهب بهاؤه ونقض الدهر مرته وأذهب كدنته وأكل عليه وشرب ونحله حتى احدودب قد تكسرت قواريره وساء مصيره فأصبح كالشبح الباطل أو الظل الزائل بل العفريت ذى الرجل المسلوخة أو الغول ذى السحنة الممسوخة أو أبو خيشة وأبو غرارة المشهورين فى كل حارة أو «بركة الله والعافية» الذى يخوف به كل غلام أو اليحشوم المعروف عند العوام أو البعبع وأبو زبعبع أو الجدع والجياع والجوايع أو العكنكم والكعنكع فنظرت اليه نظر المزدرى ولكننى حرت فى أمرى حينما رأيته قد ابتقع لونه وانتقع وامتقع فدبت فى نفسى حينئذ عوامل الرأفة والحنان وتحركت عندى عواطف الشفقة والاحسان وقلت لاشك انه قد ألفجته الحاجة الى إخلاق الديباجة ولعل هذا الوجل المستطار المفقع المدقوع خلفه صبية يتضورون من الجوع الديقوع البرقوع فجاء يبحث لهم على غفة وبراض لتخفيف ما ألم بهم من الضنك والشظف والاضاض فرثيت حينئذ لحالة هذا المنتجع وتحننت عليه فأذهبت عنه الروع وآمنت خيفته وخفضت جاشه وأنجزته حاجته وأدركته طلبته

ثم ركبنا عربة وهو معنا نتفرج على المدينة وما فيها من الغرائب وكانت كلها تزيد فى عيني جمالا واعتدالا وليس الفضل فى ذلك لمنظر صاحبنا فقط بل لانها فى الحقيقة تحتوى بعد استكمالها (عاصمة السويد) على أجمل حدائق الدنيا وقد طفنا منازهها وارتقينا ربواتها وأهم مرتقى صعدنا اليه هو جبل شامخ يكاد يكون رأسيا عليه أربعة قضبان كشريط السكة الحديدية وفوق كل اثنين منها عربة عجلاتها السفلية كبيرة والعلوية صغيرة جدا بحيث يكون الجالس على هذه العربة كأنه على الارض المنبسطة ومتى دق الحارس الجرس الكهربائى صعدت بانتظام من غير أدنى ارتجاج تجذبها قوة الغاز ثم ترسلها الى مكانها الاول عندما تجيء الاشارة وسأصف لك هذه الآلة فى رحلتى فقد كتبت الى مخترعها أطلب منه البيان الشافى ولما تسنمنا ذروة هذه الربوة رأينا متحفا فيه الحيوانات والاحجار والاعشاب والازهار الخاصة بالقسم من جبال الالب المجاور للمدينة ثم صعدنا على سطح المتحف فرأينا النظارات المقربة قد قربت لنا الجبال حتى كأنها صارت تحت يد المتناول وقد كلل الثلج هاماتها فكأنها هرمت من طول العهد إذ ترى السحب فوقها متراكمة على الدوام ولكن سفحها مازالت فيه قوة الشبيبة والانبات فتراه مجللا بالحلل السندسية البديعة

آثار مصر في تورينو

ثم هبطنا عن هذه الربوة وقصدنا متاحف المدينة ولا أذكر منها الآن الا القسم المصرى فقد رأيت لهم عناية تامة بحفظ الآثار التى صرفوا فى جلبها من بلادنا الابيض الوضاح والاصفر الرنان ورأيت فيه مجموعة كاملة من ورق البردى المزين بالاشكال والرسوم الباهية فيها تصوير الاحوال التى تمر على المصرى القديم من يوم منبته الى يوم منيته الى يوم دينونته الى يوم مستقره (فى جنة أو جهنم) ثم نزلنا تحت الارض فى قاعات طويلة فيها الآثار المصرية الضخمة كالسلة وصورة لابى الهول وهى فى غاية الجمال وانى لاعجب كيف يصح اطلاق لفظ أبى الهول على هذا التمثال الذى وجهه وجه غادة حبشية مفرطة فى الملاحة اللهم الا أن يقال ان حسنه يهول من يراه كما يقال فى لغتنا الواسعة (لهذه الفتاة محاسن رائعة) ولو لم يكن التمثال الهائل الذى بجانب الاهرام ما كان هذا التعبير يصح فى الاذهان ولكن قد كان ما كان فالاجدر بنا أن نحمل هوله على ما به من فرط الحسن وصباحة المحيا

ثم خرجنا من هذا المتحف الى غيره مما فى المدينة فشاهدنا أسواقها عامرة وحوانيتها مشحونة باصناف البضائع ثم إن الفاكهة فيها بل فى كل ايطاليا من أجود ما يكون حتى انى رأيت البرقوق فيها بحجم الكمثرى بحيث لا يصح أن نسمى نظيره فى

بلادنا الا بلفظة بريقيق (بالتصغير) ثم خرجنا منها قاصدين بلاد « فرانسة الغراء » فسار القطار تجره باخرة من الامام وتدفعه أخرى من الخلف لان الارض كانت آخذة فى الارتفاع

نفق جبل سنيس

وقبل أن نصل الى مدينة مودان الفاصلة بين تخوم فرنسا وايطاليا دخلنا نفقا منقورا فى جبل يناطح السحاب فداخلنى منه خوف شديد ورعب زائد فاخرجت الساعة بنوع من الالهام لكثرة فزعى من هذه الكتلة المتناهية فى الجسامة والضخامة التى ستكون فوقنا وقد كنت أحسب نفسى قد تعودت على السير فى الانفاق فاذا الامر ليس كذلك لان القطار صار يسير ويتعثر فى مشيته ثم يخفف من وطأته ثم يستريح ثم يصفر ثم يتهدد ثم ينحدر فيكتم نفسه خوفا من الانزلاق على المنحدر وينتقل على قضبان توشك ان تكون مضرسة لحفظه من السقوط وقد امتطال السير حتى كادت النفوس تزهق من انحصار الهواء ومن الرعب الشديد الذى قد تضاعف بمرور باخرة أخرى بجانبنا مالبثت ان بارحتنا وتركت باخرتنا كالفرس أجهدها الضنى وحضرتها ساعة الوفاة ومع ذلك لايرحمها الفارس بل ينخسها ويستنزف مابقى فيها من حول وقوة (ولاحول ولاقوة) وكنت وأنا تحت هذا الجبل المتعالى أخشى أن يسقط حجر واحد منه

فينهار ويروح القطار شهيد هـذا الدمار الذى ليس بعـده دمار وكنت أخشى أن يصح على السائق نص الحديث النبوى (لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) وكان الطل متساقطا والنور فى العربة أصـفر باهتا (مثل فانوس اللصوص) فتوسلت الى الله جل شأنه أن يهيئ لنا الخروج من هوة الظلمات الى فضاء النور فتقبـل الدعاء وأنعش أرواحنا بالضياء وليس هـذا الوصف الحقير شـيأ بجانب الحقيقة على الاطلاق وان لم تصدقنى فتعال ايطاليا ومرّ بهذا النَفَق (ولا تنس بيشـة) فانك ستمضى به ان شاء الله تعالى أكثر من نصف ساعة وترى أكثر مما جاء فى هذا البيان وليس الخبر كالعيان

ولقد اعترفت حينئذ بصدق من قال ان الحـادثات تمر على الانسان ثم ينساها حتى كأن لم يكن منها ما كان وانه عرضة للنسيان فى كل زمان ومكان فانى بعد الخروج من هذا المسـلك الحرج افتكرت انى نسيت أمرا خطـيرا وذلك انى خرجت من ايطاليا ولم أتناول شـيأ من المكرونة أو المعكرونة أو المَقَرُونة (طعامها المشهور) حتى وددت لو رجعت اليها لآكل منها بالارطال أو بالامتار (فقد بلغنى وأنا بمصر انها تؤكل فى بعض النواحى من هذه البلاد بالامتار) ولكن هيهات هيهات رد مافات خصوصا وقـد خشيت

عودة المرور من ذلك الطريق فى النفق المضيق ومع ذلك فقد سهل الامر لاننى تذكرت حينئذ الجران بار (أرجوك السماح فان المقرونة مقرونة فيه بالاتقان)

وصف جنوب فرنسا

ولما وصلنا الى مودان نزل الركب يهنئ بعضهم بعضا على السلامة من ذلك الجبل المريع واستنشقنا حينئذ هواء فرنسا وقد كانت رئاتنا فى احتياج اليه وتسلمنا عمال السكة الحديدية الفرنسوية ثم سار بنا القطار بين جبال شامخة شماء يشقق من أعاليها الماء فيكون غدرانا وانهارا تنساب بجانب الواپور وتحته بمنظر رائق جميل والهواء صاف عليل يروّح النفس ويرد اليها الحياة ولا أعلم لماذا اعترتنى هزة الفرح ونشوة السرور وأنا أمر بينها معجبا بهذه المحاسن الطبيعية وقد رأيت فى بعض حقولها وفى بعض مزارع ايطاليا شادوفنا المصرى بالتمام ولولا وجود الجبال وكون الذى يسقى الارض بالشادوف لابسا القبعة والبنطلون لظننت انى فى أرياف مصر أشاهد فلاحنا المعهود

وشتان بين ملاقيته فى جنوب ايطاليا مما قبض الصدر وضيق على القلب وبين ماشاهدته فى جنوب فرنسا مما يسر الخاطر ويقر الناظر . أما المدائن التى مررنا عليها فى جنوب فرنسا فانما هى قرى خلوية ليس فيها شئ من الجمال الذى رأيناه

فى مدن ايطاليا وكنت عند كل محطة أسمع القوم وخصوصا النساء يملؤن الافواه عند النطق باسم باريس فيقلن (پارى والا كثر پاعى بغنة ومدة فيها الترخيم الرخيم) ثم أقبل الليل فشددت حلقة فى أعلى الكرسى فانقلب سريرا بل فراشا وثيرا فنمت متوكلا على الله ولسان حالى يكرر مايقوله المصريون (على قلبها لطيلون) وبعد ١٩ ساعة قضاها الوابور فى السير الحثيث وصلنا مدينة باريس

وقبل أن أنتقل الى الكلام على هذه المدينة الحسناء أرى من الواجب على أن أوفى بوعد قد أخذته على نفسى وهو ذكر ما ألاقيه من عمال كوك فانى لايسعنى الا أن أوفيهم هنا حقهم من الثناء فقد قاموا بخدمتنا فى جميع المدائن التى نزلنا بها أحسن قيام وساعدونا فى كل طلباتنا فوق المرام وأمدونا بجميع أنواع التسهيلات والايضاحات خصوصا فى فلورنسة وتورينو حتى محوا الهفوة التى وقعت ببرندزى فلله در كوك أحسن الله مثواه بقدر احسانه الى نفسه والى العالم كله

القاموس

انما اخترت هذا الوصف الكريه لزيادة التكريه فى بيان التشويه ولزيادة التنفير فيه حتى يشترك القارئ معى فى جميع عواطفى وتتجسم له الحقيقة كما ينبغى وكما يبتغى وهناك ملحوظ أهم وأدق أريد أن أستلفت اليه الانظار من أرباب

الاقلام والافكار وهو أنني أكره طريقة الكتابة بمثل ما نحوته في وصف ذلك الرجل ونفوري منها أشد ولا شك من نفور القارئ مني عند مروره على ذلك الفصل ولكنني أرجوه بناء على ذلك أن يمنع ويمتنع عن اتخاذ مثل هذا الاسلوب المعيب في كتاباته حتى لا تكون مثل ما أقدمت عليه كثيرة الالفاظ فارغة المعنى مشحونة بالحشو مزدانة باللغو مشمولة بالغثاثة محجوبة بالرثاثة فان هذا الاسلوب المغيض الجلف الفاسد النسيج السخيف التركيب فيه من البشاعة والشناعة ما يجعله مستهجنا لفوظا مذموما مردودا ولا غرو أن التكلف والتصنع في التنقيب في قعر القاموس عن الالفاظ المستنفرة المستغربة المتوعرة المتقعرة « المجرفة » لا يكون فيه أدنى دليل على العلم باصول اللغة والتبحر فيها بل هو دليل على سخافة ذلك المتكلف المتصنع وجهالته وحماقته بل هو برهان قوي على ما يعبر عنه العوام بالتقعر والحنشصة ونحن اليوم في عصر تعرف فيه قيمة الوقت فيا حبذا لو نفطن الادباء الى تخير الالفاظ اللائقة وجعلها في خدمة المعاني المطلوب التعبير عنها لا كما يفعل البعض (وخصوصا أهل السجع) من جعل المعنى أسير اللفظ يجري حيثما آه لا حيثما أراد المنشئ ولقد تنبه الى ذلك نفس أئمة الانشاء فقال أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في كتاب الصناعتين « وقد غلب الجهل على قوم فصاروا لا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا على معناه بكد ويستفهموه اذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجاسئة غريبة ..... فلا خير في المعاني اذا استكرهت قهرا وفي الالفاظ اذا جرت قسرا » وقال ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ في المثل السائر « ان أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح فلم يستعملوه » فلما عرفوا السهل السلس المستجاد منها قالوا بوجوب اعتباره واستعماله وأبقوا الباقي في أمهات اللغة وبطونها للرجوع اليها بقصد تعرف كلام الاعراب في بواديهم وتفهم مقاصدهم ليس الا = هذا ولولا أنني أردت ان القارئ يستهجن هذا الاسلوب بجميع حواسه لما سمحت لنفسي بالاعتماد على هذه الالفاظ التي يترتب على عدم معرفتها اضاعة الوقت سدى ولذلك أضفت هذا القاموس تلافيا للضرر وبعض الشر اهون من بعض

الالف

الأَنِن = الكثير الانين وهو التأوه من الالم

الباء

البُرَاض = القليل الرهيد اليسير

أَبْقَع = (انظر امتقع)

الأَبهق = ذو البياض الرقيق فى ظاهر البشرة

التاء

الأتعس = المشؤم المنحوس

الثاء

الثَّعَل = تراكب الاسنان على بعضها

الجيم

جُحُوظ العين = عظمة المقلة وبروزها

الجِدَّة = ضد البِلَى

الجُعْسُوس والجُعْشُوش = القصير الدميم

مُجَيِّر = صار مثل الجير والجير خطأ صوابه الجِيار واسمه عند العرب الصاروج أيضا والكِلْس بمعناه معرب عن اللغات الافرنجية

الحاء

الحُبْسة = تعذر الكلام عند ارادته

احْدَوْدَب = احقوقف أى اعوج كظهر البعير بمعنى خرج ظهره ودخل صدره وبطنه

الحُكْلة = نقصان آلة النطق حتى لاتعرف معانيه الا بالاستدلال

الحَوَص = ضيق مؤخر العين حتى كأنها خيطت

الخاء

الخُرْطوم = الأنف

الخَلْق = الفطرة

أخْلَق = بَلِى وتعفى واضمحل وتلاشى

إخلاق الديباجة = الاطلاع على دخيلة الامر الذى يُستنكف من كشفه فهو يدل ماء الوجه فى السؤال على التشبيه بقولهم «أخلق الثوب»

المخنبس = لفظ اشتققته لصرورة السجع البارد من قولهم «الحُنابس» بمعنى الكريه المنظر والرجل الضخم تعلوه كردمة أى قصر

الخَنَس = تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الارنبة

الخَنِيف = أردأ الكمأن البالى

الخُنَّة = أن يشرب الحرف صوت الخشوم بشدة

الخَوَص = غؤور العينين مع الضيق

الدال

الدِّياجة = الوجه

الدَّحْدَح والدحدحة والدحداح والدحداحة والدُّحادِح والدُّحَيْدِحة والدَّوْدَح = القصير والمستدير الملمم

الدُّرْدَبِيس = الداهية والشيخ والعجوز الفانية كأنه من الدروس

الدِّرْدِح = الشيخ الهمّ

المَدْقُوع = الرجل يذل فى فقره حتى يلصق بالدقعاء وهى التراب

الدِّيقوع = الجوع الشديد كقوله (جوعٌ يُصَدِّع منه الرأس ديقوعُ)

الدميم = القبيح

الراء

الرُّتَّة = تمنع أول الكلام فاذا جاء شئ منه اتصل

اليَرْقُوع = الجوع الشديد

السين

الاسلع = ذوسلعة أى شجة وسلع الرجل صار أبرص

السَّلَنْطَع = المتعتّه فى كلامه كالمجنون

السَّمَمَع = الرجل الصغير الرأس والمرأة الكالحة فى وجه الانسان المولولة فى أثره

الساهم = الضامر المتغير

الشين

الشَّجَ الباطل = الهُباء

الشتيم = الكريه الوجه

الشَّظَف = الضيق والشدة والبؤس و يُبس العيش

المِشْفَر = شفة البعير وقد يستعمل للخيل وللناس

الصاد

أصعل = دقيق الرأس والعنق

أصلع = الذى انحسر شعر مقدم رأسه

الضاد

الضنك = الضيق من كل شئ يقال للمذكر والمؤنث مثلا « عيشة ضنك »

قضوّر = تلوّى من وجع الجوع

الطاء

الاطرط = الخفيف شعر الحاجبين

الطَّمْطَمة = كون الكلام شبيها بكلام العجم

المُسْتطار = المذعور

العين

العُقْلة = التواء اللسان عند ارادة الكلام

الغين

الغُفّة = البلغة من العيش

الغَمْغَمة = أن تسمع الصوت ولا تبين لك تقطيع الحروف

الفاء

الفَطَس = تطامن قصبة الانف وانتشارها أو انفراش الانف فى الوجه

المُفْقَع = الذى تناهى سوء حاله فى الفقر

الفَقَم = بروز الثنايا العليا من الاسنان الى الخارج فلا تقع على السفلى

القاف

الاقهب = الذى فيه حمرة فيها غُبْرة وكدورة

الكاف

الكِدْنة = الشحم واللحم

اللام

أَلْفَجَ الرجل = أفلس وذهب ماله ولزق بالارض من كرب أو حاجة فاضطُرّ للالتجاء الى غير أهله وذهب فؤاده فَرَقاً وذلا

اللَّفَف = ادخال حرف فى حرف

مُلَوَّزان = يقال ذلك للعينين المشقوقتين مثل اللوز

الميم

المِرَّة = قوّة الخَلْق وشدته ونقض الدهر مرته بمعنى أزالها وأعدمها

الامرط = ذو الشعر المتنوف الساقط

المُضاض = الماء لا يطاق ملوحة ووجع يصيب الانسان فى العين

امْتُقِع = (على بناء المجهول) تغير لونه واختطف من حزن أو فزع أو ريبة وكذلك امْتُقِع وانْتُقِع ولكنه بالميم أجود

النون

المنتجع = الذي يقصدك طالبا معروفك

الأنحس = الكثير الشؤم

نَحِل = صار ناحلا هزيلا ضئيلا

انْتَقِع = (انظر امتقع)

الهاء

الهَدَل = استرخاء الشفة أو المشفر

الهَرَم = بلوغ أقصى الكبر

الواو

الوَجِل = الكثير الخوف

الياء

اليَفَن = الشيخ الكبير الطاعن فى السن

ذيل القاموس

أكل الدهر عليه وشرب = اشارة الى استهانة الدهر به ونكايته فيه

تكسرت قواريره = اشارة الى ان عظامه صارت كالزجاج وقد تكسر

العفريت وأبو رجل مسلوخة والغول وأبو غرارة وأبو خيشة و «بركة الله والعافية» والبحشوم وأبو زبعبع والبعبع والخيدع والخولع والخيلع والعكنكع والكعنكع

كلها أسماء خرافية خيالية يتخذها الامهات وبعض العوام لتخويف الاطفال فتتربى فيهم ملكة الجبن والهلع وبئست العادة

الرسالة الثامنة

باريس

(الانبهار من رؤية باريس)

هذه باريس تحفة الدنيا ونزهة العالم وزهرة الكون . هذه باريس جنة الجنائن ومدينة المدائن وعاصمة العواصم . هذه باريس منبع البهاء والمحاسن ومرتع الظباء الاحاسن . هذه باريس تمثال الفخامة والجلال وشخص الخفة والرقة والجمال . هذه باريس معدن العلوم ومركز دائرة العرفان فى هذا الزمان . هذه باريس التى مهما بالغت فى الوصف والمقال فانى بعيد عن حقيقة الحال بعدا ليس له مثال ولا يكاد يخطر على بال فليس لى حينئذ الا الاكتفاء بانها فردوس الفراديس

بل هى هى باريس

قدمت اليها فى بكرة النهار (من يوم ٢٧ أغسطس) ورأيت فيها من الحركة والنشاط ماهالنى وراعنى وألزمنى الاقرار بالعجز عن التعبير والحيرة فى التحرير فكيف يتسنى لى أن أوافيكم ياقوم بما شاهدته فيها من التناهى والبلوغ الى غايات الكمال فى كل موضوع وباب وانى اذا أرخيت للفكر العنان ومكنت القلم من الجولان فى أى ميدان أملى عليكم ما يملأ الاوراق ويدهش

القراء ولكنى أوجل التلخيص الى عودتى اليها بعد اتمام المأمورية والتنقل فى بعض مدائن الانكليز لكى تكون كتابتى عليها عن تحقيق وتدقيق فانها تملكت فؤادى واستولت على لبى حتى انى فارقتها مضطرا بعد ماقضيت بها يومين وما قضيت منها وطرا موطنا النفس على الرجوع اليها واستجلاء مشاهدها ومعاهدها . وهل تكتفون بذلك منى الآن أم تريدون أن أوافيكم بعجالة فيها نبأ لهشان

أهمية المرأة فى الوجود

أريد أن أتكلم على أحسن نصف فى بنى الانسان ولكنى أخاف اللوّام فاسمعوا لى بالله عليكم هذه المرة بمعاودة الكلام على المرأة وأعدكم أنى لاأعود وما عهدتمونى انقض العهود وكيف ألام على الدخول فى هذا الموضوع الحرج الواسع وقد كان للمرأة ولا يزال لها الشأن الاول واليد الطولى فى الانقلابات الدولية والنظامات السياسية والترتيبات الدينية بل فى كل شأن من شؤن العمران وفى كل عمل من أعمال الانسان فاننا اذا صرفنا النظر عن أم الامهات وتصفحنا التاريخ العام وجدنا لها أثرا ظاهرا وعملا معروفا فى كل الاديان التى نزل بها الوحى أو زينها الوهم واخترعها الخيال وهذه الاشارة الوجيزة تكفى من له أقل اطلاع

ثم اذا نظرنا بوجه الاجمال الى تاريخ القدماء من مصريين وأشوريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم وجدنا المرأة هي دون سواها سبب التقدم والارتقاء أو علة التقهقر والانحطاط وعلى يدها تم تشييد الدول العظيمة أو تبديد سطوتها ومحو أثرها من الوجود وطالما اشتبك القتال وتفانى الابطال لاجل امرأة واحدة وكذلك الحال فى تاريخ الامم الحديثة حتى قال بعض العلماء اذا أراد الله أن يقضى خيرا على الارض قيض له امرأة فكانت الوسيلة الى اجرائه واذا أراد الشيطان أن يقضى شرا توسل اليه أيضا بامرأة هذا أمر كان وكائن ويكون الى يوم تحشرون وانى أذكر لكم مايحضرنى الآن من الشواهد مثال ذلك دلوكة العجوز فى التاريخ المصرى القديم والمرأة التى كانت سببا فى حروب تروادة الشهيرة ولوكريس وفرجينيا فى التاريخ الرومانى وتلك الغادة الكيمائية التى جاء فى بعض الروايات أنها كانت سببا فى القبض على انيبال الافريقى قائد قرطاجه بعد أن أذاق الرومانيين من العذاب ما أذاقهم ثم رينى (Irène) وتيودورا فى تاريخ بوزنطيا (Byzance) وتلك الحسناء الفلسطينية التى احتالت على سمسون الجبار فأخضعته وأوقعته فى يد أعدائه بعد أن أوقع بهم وعجزوا كلهم عنه بمفرده وتلك الفتن التى أثار غبارها نساء داود عليه السلام فى آخر أيامه وتوصلت احداهن بالحيلة والدسيسة (على ماجاء فى التوراة) حتى ألزمته بان يجعل ابنها سليمان (عليه السلام) خليفة له والبسوس والزباء فى تاريخ

العرب وطوميرس ملكة المساجيت التى طلب كورش ملك فارس أن يتزوج بها فامتنعت فأقام عليها حربا كانت عاقبتها وبالا عليه وعلى قومه واليصا مؤسسة قرطاجة وكليوبطرة ملكة مصر الشهيرة ودخول العرب فى الاندلس وخروجهم منه كان سببه المرأة (١) وهذه النساء فى صدر الاسلام وشجرة الدر وغيرهن فى تاريخ الاسلام وفتك الرشيد بالبرامكة على مافى بعض الروايات سببه المرأة ولاتنس زوجة الزمخشرى فانها على مايروى عنها هى التى أرجعته بالبرهان الفعلى لا القولى عن القول بخلق الافعال (٢) واجنيس سوريل التى كانت سببا فى سقوط الدولة الفرنساوية ثم جان دارك راعية الغنم التى طردت جيوش الانكليز من أرض فرنسا والشواهد أكثر من أن أتذكرها الآن وأنا فى بلاد الانكليز

---

(١) فانه لما افتض رذريق ملك الاندلس بكارة ابنة يوليان عامله فى برا العدوة تمالأ هذا الرجل مع موسى بن نصير وقومه وسهل لهم سبيل الفتح — ولما اقترنت الملكة ايزابلا مع الملك فرديناند قويت شوكة الاسبانيين على العرب فغلبوا عليهم ولولا خرم الملكة ايزابلا لما أمكن اخراجهم من الاندلس فضلا عن كون بعض الملوك الاخيرين من بنى نصر تزوج ببعض شريفات الاسبانيين بعد أسرها فكان فى ذلك سبب آخر لاضطراب المملكة فى الداخل وسأشرح ذلك فى الرحلة (٢) هذه المسألة لابد أن تكون مكذوبة اذ لا يقنع مثله بمثل هذا البرهان مع خروجه عن نقطة النزاع بينه وبين أهل السنة

وكان احد القضاة فى أوربا كلما نيط به تحقيق واقعة جنائية يقول للشرطة (ابحثوا عن المرأة) وبذلك كان يصل لاكتشاف الحقيقة على الدوام مهما كانت وقائع الدعوى تصرف الظنون عن وجود اصبع للمرأة فيها ولم يكن فعله هذا من ضروب النبوة أو الاطلاع على ماوراء الحجاب وانما هو من قبيل الاستقراء والاستنتاج ومن تمام معرفة تأثير المرأة فى أعمال الناس ولقد أحسن شاعرنا العربى اذ يقول

اذا رأيت أمورا * منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها * من النساء تأتت

وأذكر بيتين آخرين يختصان بالمرأة لاأدرى أيهما الاحق بأن يقال عنده صدق . أذلك الذى قال

ان النساء شياطين خلقن لنا * أعوذ بالله من شر الشياطين

أم تلك التى أجابته فى الحال وأجادت فى المقال

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

أما أنا فأحكم بعد الحيرة الطويلة بأرجحية القول الثانى وليس من شيمتى أن أستبد عليك لموافقتى بل أترك لك حرا فاختر لنفسك مايحلو

ولاشك أن الفرنساويين نظروا الى كل هذه الملاحظات وما المرأة فى فرنسا يناسبها بنظر الناقد البصير والمتدبر الحكيم فارسلوا مثلا تنافلته الافواه (إن ما تريده المرأة تريده الله .Dieu veut و Ce que femme veut)

لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والامر المطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لا ترضاه زوجته ومتى أقدمت هى على عمل أو تعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضا به والاقرار بوجوبه والقول بانه لا منـدوحة عنـه وهم يبالغون فى اكرام المرأة والتأدب فى حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف وفى تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى التى لا يقدم عليها الافحول الرجال) ولذلك نبغ منهن الكاتبات المحررات الشاعرات الخطيبات المصوّرات المشخصات المحاميات الطبيبات المخترعات فى كل أمر ذى بال أو غير ذى بال

الى هنا أنبه قلمى للعـدول عما استطرد فيـه الى ما ينتظره أحسـن منه بعض القراء عقيب ما صدرت به الكلام من التخوّف من اللوّام غابة بولونيا باريس فى

وقـد تعلقت آمال ذلك البعض (اذا صح التعبـير بالبعض عن الكل) بان أحـدثه على فسحتى فى باريس يوم الاحـد الرابع من أغسطس بعد أن أمضيت الاحد الثانى منه فى سان ستفانو بالاسكندرية والثالث فى منازه رومة ونخمائلها السندسية

ولعمرى انه يحق لهم ذلك الانتظار ولا يحق لى أن أبخل عليهم ببعض ماشاهدته اذ الاحاطة متعسرة بل متعذرة فانى أمضيت يوم السبت وصبيحة ذلك اليوم الاحد البهيج فى السؤال عن كثير من العلماء الذين سبقت لى بهم معرفة بالذات أو بمحض العلاقة الادبية ولم يسعدنى الحظ بمقابلة أحد منهم على الاطلاق لانهم كلهم قصدوا الخلوات طلبا للرياضة والتمتع بالسكينة والهواء السليم (وربما كان هربا من الهواء الاصفر وقى الله بلادنا منه) ولذلك أخذتنى الغيرة منهم فاحببت أن أتشبه بهم فى استنشاق النسيم وامتاع النواظر برؤية العيون المراض الصحاح ومشاهدة مافى الطبيعة والصناعة من باهى المحاسن وباهر الاحاسن وما هو الا أن حانت ساعة النزهة حتى علوت عربة توسمت فى سائقها الفهم والنباهة وركب على يمينى رفيقى الاستاذ الشيخ محمد راشد وقلنا لسائق العربة أن يغدو بنا الى حيث يخرج القوم بحجة النزهة والرياضة وترويح الفكر وإراحة البال فأرسل الخيل تعدو فى شوارع منتظمة عامرة آهلة حتى اذا اقتربنا من غابة بولونيا أخذ يسير الهوينا ونحن نمتع النواظر برؤية الوجوه النواضر واللحاظ الفواتر والثغور البواسم والخدود النواعم والقدود المياسة والخصور النحيلة الى ماوراء ذلك مما هو وراء

الوصف والبيان وقد كان منهن الخاطرات بالدلال والاعتدال
فى حال البهاء والجمال وملبوس أنفر يزيد الملاحة بما لا يقدر
ومشية متوازنة بحركات متجانسة ممزوجة برقة واعجاب
لا يصح أن تسمى بالتبختر ومنهن الراكبات فى العربات وبجانبهن
أو أمامهن رجال من عائلاتهن (أو غيرها) ولكنهن لا ينظرن اليهم
ولا هم ينظرون اليهن بل كل من الفريقين مشغول عن صاحبه
(الذى تمتلكه اليد) بمن يسعى أمامه أو يمر بجانبه أو يعدو خلفه
وكل واحدة من هذه الجوارى المملكات المالكات تبذل غاية
جهدها ومنتهى فنها لكى تتجلى فى مظهر أنيق رشيق يسبى
ويصبى ثم لا تكتفى بخطف العقول والارواح بل هى فوق ذلك فتاكة
فتانة (والفتنة أشد من القتل) وما زلنا ننتقل من منظر الى أبدع
الى أبرع الى أبهج الى أبهر حتى انبهرنا واندهشنا وضاعت
مناصيغ أفعال التفضيل التى كنا حفظناها لمثل هذه الفرصة
وقد كلّ البصر وارتدّ الطرف حسيرا ففكرت حينئذ أن البخار
تكفل بتقريب المسافات فأغنانا عن استعارة أجنحة القطا
للطيران الى موضع الحب والهوى ولكنى فى عوز زائد الى كثرة
النواظر لان العينين اللتين منحهما البارى لا تكفيانى لرؤية
هذه المناظر التى أمامى وتأسفت على كونى لم أتزوّد قبل الرحيل

بشيء من العيون التي كانت تنفعني وتنفع أصحابها في مثل هذه الحال التي ليس بعدها حال ولكن لله الحمد فان الباب مازال مفتوحا والامر ميسورا لاني سأرجع الى باريس وأقيم بها نحوا من أسبوعين أو أكثر فكل من بهزه الشوق لاستجلاء هذه المحاسن بنفسه من غير أن يتحمل عن مجلسه فليساعدني بما هو لازم (ع) ومتى انصرفت عن هذه المدينة أرجعت اليه العين بالعين فتحدثه بما رأت وتؤكد له صدق من قال وما راء كمن سمعا

فلما رأيت ما رأيت من التناهي في التبرج والبهرجة والتغالي في التزويق والزبرقة والتهالك على النماكة والغندرة خطر على بالي أني لو كنت من قدماء اليونان الذين يعتقدون بتعدد الآلهة لكنت أقول ان إله الجمال بالغ في الاتقان وبذل كل ما في وسعه من حسن الصنع عند ما كان مشتغلا بالخليقة في هذه البلاد ولكني بفضل الله من المؤمنين الموحدين المسلمين الذين يقولون تبارك الله أحسن الخالقين

وقد تذكرت حينئذ عبارة لاتينية كان القدماء يكتبونها على الساعات رمزا الى انقضاء الحياة بمرور الاوقات وهذه ترجمتها (كلهن جارحات والاخيرة تقتل Vulmerant omnes ultima necat) ولو كنت من الشعر بمكانة القادرين على سبكه والمجيدين لحبكه

لصغت هذا المعنى فى أبيات بديعة فى الكلام على النساء ولكننى لاأتصور انه فات شعراءنا البلغاء

أقول الحق انى لم أستغرب بعد ذلك كله من تلف بعض الشبان الذين توجهوا الى أوروبا فان المجرجر والمكبب والمقبب والمحدب والمعقد وخصوصا الشريط الذى يعقد على الخصر ويتطاير فى الهواء من وراء المعروف عند الباريسيات بما معناه (اتبعنى يافتى Suivez-moi, jeune homme) كل ذلك يجر الى الغرور من غير شعور ويهوى باهله الهوى الى هاوية الغواية والشرور الا من عصم ربك وهم وقته الحمد كثيرون . وقد قال لنا سائق العربة ان مارأيناه ليس بالشئ الذى يذكر لان المدينة الآن صفر من أهاليها المقصودة بالذات وأكابر القوم كلهم فى الخلوات

وجوب حجب النساء

وهنا أنتقل من هذا الموضوع الى موضوع آخر له به تمام الارتباط وهو أنى من أهل المذهب القائل بعدم اطلاق الحرية للنساء الى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال الى التطرف فى الافراط فان المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات والتفانى فى الملاذ فالواجب أن تكون الحرية لهن كالملح فى الطعام فان التعليم ليس بقادر أن ينزع منهن

هـذه الاميال وان نزع منهـن الخرافات التى يبثثها فى عقول الاطفال

أقول ذلك بمناسـبة مارأيتـه فى (تقويم ترويح النفوس Calendrier Amusant) المكتوب باللغـة الفرنساوية عن سـنة ٩٣ القادمـة . قال فى النهر الثانى من صحيفـة ٢٣ والاوّل من صحيفـة ٢٦ ماخـلاصته : ان العـلامة كسـتنر (Kœstner) أحد أساتذة ليبسيك وصاحب التصانيف العديدة المشهورة نشر كتابا فيه ابحاث علمية دقيقة مستوفاة تكلم فيه على حركة ازدياد المواليد ونقصها فى البلدان المختلفـة مستندا على الارقام وقـد أدّته ملحـوظاته وحساباته الى اثبات النتائج الآتية بحسب التعديل المتوسط وهى

ان المرأة الالمانية تخون زوجها ٧ مرات والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة (بحسب التعديل المتوسط كما قلنا) والانكليزية خمس مرات والنمساوية أربع مرات ونصف مرة والهولاندية أربع مرات والسويدية أو الدنيمركية مرتين والطليانية مرة وخمسة اسـداس المرة والفرنساوية مرة واحدة والاسبانية سبعة اثمان المرة والبرتقالية واليونانية خمسة اسداس المرة والصربية والبشناقية والتى من الجبل الاسود والبلغارية ثلثى مرة ثم التركية (ويعنون

بهذه اللفظة المسلمة وغير المسلمة من الشرقيات) عُشر المرة الواحدة اه (١)

فاذا سلمنا بهذا الحساب الذى استنتجه ذلك الاستاذ الالمانى رأينا أن فى التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة فى صيانة الاعراض

وبعد أن طفنا هذا المتنزه مرتين رجعنا الى فندقنا فعلمنا زيارة سفير الدولة العلية بكل سرور وانشراح أن دولتلو أسعد باشا سفير الدولة العلية فى باريس حضر لزيارتنا وترك لنا ورقة الزيارة وقد كنا توجهنا الى السفارة فى صبيحة ذلك اليوم (الاحد) البهيج وحظينا بمقابلة دولته ولبثنا معه مدة انصرفنا بعدها شاكرين مالاقيناه من لطفه وبشاشته وجميل مؤانسته ولطيف محادثته

ثم أمضيت الليلة وأنا أحلم أنى فى غابة بولونيا وانه لاتصح مؤاخذتى على وصف مارأيته فيها الا بعد أن يؤاخذ بهاء الدين العاملى على وصف النساء فى الارجوزة الشهيرة التى كتبها على رحلته فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول

---

(١) هذا الحساب ملحوظ فيه مجموع الافراد وليس الحصر فيه ان كل فرد يعمل هذا العمل بل هو عبارة عما يعمله البعض قليلا كان أو كثيرا ويوزع على المجموع فى الحساب الاحصائى

وبعد ان يؤاخذ الكثير من فحول العلماء وأكابر الاتقياء الذين لم يأنفوا ورود هـذا الروض الانف وهكذا الى ان أشرقت الغزالة فحملنا أمتعتنا ثم ركبنا القطار السريع قاصدين لندرة عاصمة بلاد الانكليز التى لاتغرب الشمس عن ممالكها ومستعمراتها



الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندرة

وخلاصة وجيزة على المؤتمر

اشتهر الانكليز عند الخاص والعام بالاختصار فى الكتابة وصف بحر المانش والأكل والكلام والهجوم على المقصود من غير تقديم مقدمة أو استفتاح الانكليزى بفاتحة وسأتكلم عن أخلاقهم بالتفصيل فى الرحلة وأكتفى الآن بمجاراتهم فى هذا السبيل

قمت من باريس الى ديبب (Dieppe) أحد ثغور فرنسا فى الشمال الغربى وركبت الباخرة وأنا مرتجف من هول بحر المانش ودواره اذ أنى قرأت فى كل كتب السياحة انه من أشد الابحر اضطرابا وهيجانا لانحصاره بين شطوط فرنسا وانكلترا واندفاع التيار فيه ولذلك كان الاوربيون بل الامريكيون أنفسهم يعترفون بشدة هوله ويفزعون دائما من اجتيازه حتى لقد حمل ذلك بعض المهندسين من فرنسا على تقديم مشروع مقتضاه خرق نفق تحت قاع البحر تسير فيه السكة الحديدية للسهولة والراحة وتقريب المسافة ولكن انكلترا عارضت فى إنجاز هذا المشروع خوفا من تعدى قوة حربية برية عليها من فرنسا فجاءة (كما يقول الفرنساويون) . ولقد ازداد رعبى حينما سألت أحد المسافرين

وأجابنى باكثر مما قرأت ثم تمكن الفزع منى كل التمكن بعد أن أنذرنى القبودان نفسه باضعاف ماأفادنى الاول فكاد يفعل بى الوهم مايقصر عنه دوار البحر لولا انى تجلدت واذ كنت مضطرا للسفر وليس لدىّ من المراكب سوى ركوب هـذا المركب ولا يمكننى الانتظار حتى تعترف انكلترة بفائدة النفق (كما اعترفت بفائدة قنال السويس فيما بعد) فقد اعتمدت على الله وعملت بنصيحة بعض الخبيرين الذين تعرّفت بهـم فى باخرة البر فبادرت بطلب الطعام قبل قيام السفينة حتى يكون فى المعدة شئ يقاوم تأثير الدوار بادئ بدء فلا يقع على الامعاء مباشرة

فجاءنى الغلام وكلمنى بالانكليزية وكنت قد نسيت اليسير الذى تعلمته قبيل سفرى من القطر المصرى بسبب استعمالى الطليانى فى ايطاليا والفرنساوى فى فرنسا فضلا عما فى رطانة الانكليز من الصعوبة والدمدمة والتعقيد والهمهمة واهمال المقاطع الاخيرة من الكلمات فلم أفهم منه شيئا بالمرة ولكننى تذكرت أن أحسن طعام يجيد القوم صناعته هو الزبيف والبفتيك (أو البُكْنيف بحسب رواية البعض فى بلادنا) فذكرت اسم اللون الاول فعاد الغلام ومعه قطعتان كبيرتان حواليهما من الدهن سواران بل سوران وبجانبهما قليل من شبه المرق فغمست لقمة فى هذا السائل ثم وضعتها فى فمى

فكادت تحدث عندى ماهو أشد من دوار البحر ودوخة الرأس واضطراب الامعاء لولا أن تداركت نفسى فأهويت الى فمى بكمية عظيمة من الملح والفلفل والخردل وذلك لان الانكليز يصنعون ما كلهم من غير ملح ويتركون تمليحها للآكل بقدر مايريد وخلاصة القول انى أكلت كما أكلت (لاهنيأ ولامريئا)

وأما رفيقى فقد آثر النوم على كل شئ عملا بما اكتسبه من التجربة فى بحر الروم

ثم انى صعدت على ظهر السفينة لأتمتع بمنظر البحر ومشاهدة المدينة ولو أن ذلك يزيد فى أعراض الدوار ولا أصف اعتدال الجو و بهاء السماء وصفاء اللجة وجمال المدينة واجرافها الصخرية الشامخة التى تتأطم الامواج تحت اقدامها بل أقول انى كنت أستغرب من تحسن الحال كلما تقدمت السفينة الى الامام وأنا لاأشعر بالاضطراب ولكن القبودان كان يقول لى (بالفرنساوية) تربص قليلا ريثما تعارض السفينة التيار فهنالك كل الهول . وما زال الحال على هذا المنوال حتى بدت لنا شطوط انكلترا والفرح يداخلنى قليلا قليلا الى أن دخلنا مينانيو هافن (New Haven) بسلامة الله تعالى وحسن معونته بعد مسير أربع ساعات ونصف وكان عدد المسافرين ١٤٠ فى الدرجة الاولى و ٨٠ فى الثانية

ولم يؤثر الدوار الاعلى ستة من السنات واثنين من الخواجات وقد أجمع الخبيرون على ان مثل هذا اليوم لايجيء الافيماندر غيراننى قلت لعل هذا من كرامات المؤتمر

دخول انكلترة

ثم نزلنا فى المدينة فاستقبلنا أعوان الكمرك يسألوننا هل معنا شئ من الدخان والسجاير ثم وضعوا أمتعة المسافرين على كثرتها فى مخزن كبير بحسب ترتيب عددها فى التسجيل و وضعوا النمرة على الارض بالطباشير لكل متاع مسافر مع بيان عدد ما يتبعه من الشنطات وغيرها لكى يتوجه كل أحد بحسب تذكرته الى موضع نمرته فيرى متاعه بدون أن يكون ازدحام أو اختلاط أو ضجة أو رجة فأعجبنى هذا الترتيب و بعد التفتيش باللطف والمجاملة سار بنا القطار الى لوندره فيما بين حقول خضراء ناضرة ومراع واسعة زاهرة

وصول لوندرة

فلما وصلنا المحطة المقصودة من لوندرة فى مساء ١٩ أغسطس تلقانا عامل من بيت كوك ومعه كثير من مكاتيب اخوانى الذين تركتهم فى مصر وصلت قبل وصولى فحفظها لى عامل كوك وقد تلوتها باشتياق زائد قبل ان انتقل خطوة واحدة وحمدت المولى على هذه النصف مشاهدة مسرورا بها شاكرا لله ذاكرا مالهم من الفضل والعناية ثم ركبنا العربة قاصدين الفندق فاذا

المدينة كبيرة ضخمة جسيمة هائلة لايصح أن تسمى مدينة أو عاصمة بل هى قطر كبير واذا حق لى تسمية باريس (جنة الدنيا) فلا بد لى من تسمية لوندره موسوعات العالم

وقد نزلنا فى أهم فندق بأهم حى من أحياء هذا القطر اعلاء لشأن المأمورية وإجلالا لمقام حكومتنا السنية وهو المعروف بـ(ألبمارل هوتيل) وهو من الطبقة الاولى ولا ينزل به أحد من المسافرين الا بتوصية أو تقديم وكان نزلا لاعضاء العائلات الملوكية الذين جاؤا الى هذه الديار وقد كان النور الكهربائى فيه طوع بنانى طول الليل وطول النهار وان اليراع لعاجز عن وصف ماعليه الفندق ولكنى أقول ان بذل الدنانير الوافرة أجرة للنزول فيه كبذل الدراهم فى غيره وسأصفه بما فى المقدور فى الرحلة ان شاء الله تعالى

وفى صباح النهار نزلنا الى قاعة الاستقبال فرأينا ثلاثة من بعض زيارات أبناء بلدنا قد حضروا للسلام علينا وكنا لانتوقع أن أحدا يعرف مكاننا فى تلك الساعة فحصل لنا برؤيتهم ومكالمتهم مزيد السرور وهم من التلامذة الذين أرسلتهم الحكومة الخديوية للتعلم فى بلاد الانكليز وقد صدر لهم أمرها بمقابلتنا وارشادنا

ثم حضر لزيارتنا فى الفندق سعادة الجنرال السير غرنفل باشا سردار الجيش المصرى سابقا فاستقبلنا سعادته بواجب الاحترام اللائق بمكانته من الفضل والعلم وهو الذى ساعدنا فى مأموريتنا هذه كما سيمرّ على نظر القارئ ثم حضر لنا رفيقنا الثالث وهو الدكتور فوللرس وقد رددنا هذه الزيارات بعد ذلك

أعمال المؤتمر بغاية الايجاز

فلما جاء يوم افتتاح المؤتمر أرسل لنا سعادة سردارنا السابق عربته لتقلنا الى محل الاجتماع فلما وصلناه رأيناه يموج بالناس ولا يجهل القارئ ان جميع من يضمه المكان هو من مشاهير العلماء ونخبة الفضلاء من كل أمة ولم يحضر المؤتمر أحد من العائلات الملوكية بل كلهم اعتذروا برسائل برقية وغير برقية

وافتتح حضرة الرئيس الاستاذ مكس مُلّر أعمال المؤتمر بخطبة قد كانوا طبعوها فى ٦٣ صحيفة ووزعوها علينا وكلها غرر ودرر وربما لخصتها فى الرحلة أما الرياسة الادارية فقد كانت فى يد اللورد نورثبروك (الذى كان حاكما على الهند وقد جاء مصر من زمن غير بعيد) ولاحظ الجميع ان الوقت المقرر قد مضى ولم يتم العمل المحدد فى البيان الرسمى ليوم الافتتاح بل انه لم يتكلم أحد غير الرئيس وآخر أثنى عليه وثالث تكلم بالطليانية وعلى

ذلك انفضت الجلسة الافتتاحية وفى المساء كانت مأدبة اللورد نورثبروك لاربعة وعشرين مدعوا من أهل المؤتمر لم يكن بينهم شرقى غيرى وقد أجلسونى على المائدة والى يمينى الدكتور بوهلر وهو من أشهر مشاهير العلماء فى أوروبا والى يسارى السير غرنفل باشا وكانت المأدبة أشبه شئ بما تدب الملوك على ما سمعت لا ما عرفت

وفى الايام التالية كانت الاقسام تشتغل بمباحثها وفى جملتها الفرع الثانى من القسم الثانى الخاص بالساميات الذى كنا فيه فلما جاء دورنا تكلم الدكتور فوللرس على رسالة كتبها فى الاصوات العربية مستندا على ما رواه ابن يعيش شارح المفصل وما جاء به سيبويه النحوى ثم تلوته بالفرنساوية مبينا إجمال ما فى الرسائل التى قدمتها للمؤتمر (١) ثم قام حضرة الاستاذ الشيخ محمد راشد وتكلم على رسالته التى كتبها فى الكلام الدارج بمصر القاهرة وأورد كثيرا من أزجال العوام وألحانهم وموشحاتهم ومواليا تهم وأدوارهم ثم قدم شرحا مطولا كتبه على خطبة مقامات الحريرى

وفى اليوم الرابع عينوا لجنة دولية للنظر فى شؤن المؤتمر الآتى والاقرار على وقت انعقاده ومحله وتعينت فيها عضوا نائبا عن الديار المصرية وكان الحاضرون ٢٥ بما فيهم الرئيس فتليت الخطابات الواردة فى هذا الشأن ودارت المذاكرة على

---

(١) انظر خلاصة الخطبة فى آخر الكتاب

تعيين وقت انعقاد المؤتمر الآتى فقال الكونت داجو بيرانتى مندوب ايطاليا ان اللازم عقده بعد ثلاث سنوات حتى يتيسر للعلماء فى خلال هذه المدة أن يحضروا مباحث يقدمونها فيه فقلت حينئذ (ان القاعدة التى تقررت فى أول الامر لاجل عقد المؤتمر كل ثلاث سنوات انما كانت لقلة المستشرقين وأما الآن فقد انتشروا حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون والواجب علينا أن نوجد لهم فرصا كثيرة يعرضون فيها أعمالهم لئلا يزداد الشقاق بين أجزاء هذه الجمعية فنضيع القاعدة الاولى بالكلية وتذهب ثمرات هذا الجمع أدراج الرياح ويصر علماء كل دولة على عقد مؤتمر فى عاصمتها كل عام أو عامين فيتفرق العمل شذر مذر ولهذا فانى بمناسبة الشقاق الحاصل الآن فى لسبون أرى وجوب الاقرار على عقد المؤتمر فى سنة ٩٤ أى بعد سنتين فقط) فطرح الرئيس هذين الرأيين على الاعضاء وحسبت الاصوات فاذا هى متساوية فى كل فريق ١٢ عضوا وبقى الترجيح له فأطال الامعان ثم انحاز الى رأينا وتقرر الاجتماع فى سنة ٩٤ ثم تقرر أن يكون مركزه مدينة جنيفا (جنيف) ببلاد السويسره ثم تقدم مشروع خاص بتنظيم أعمال المؤتمرات فى المستقبل وجعلها تسير على وتيرة واحدة فتقرر بعد بعض تعديلات

ولما حل اليوم المحدد لانفضاض المؤتمر اجتمع فيه خلق أقل من الذين حضروا يوم الافتتاح ودارت المذاكرة على ماقررته اللجنة الدولية التى سبقت الاشارة اليها ثم أعلنوا بالاختتام

وفى المساء توجهنا الى مأدبة أعدتها لجنة تنظيم المؤتمر لجميع الاعضاء فى قاعة (هوتيل متروپول) وهو من أكبر فنادق لوندره وكان عدد الحاضرين فيها ٣٠٠ مدعو وكان السير غرنفل باشا على يمينى والاستاذ الفاضل الشيخ محمد راشد على شمالى ولا يخطئ من يشبه هذه الحفلة ببرج بابل من حيث اختلاف الالسنة الا أنها بالغة فى الكمال والاتقان جمعت أصنافا كثيرة من بنى آدم ولغات متخالفة تكلم بها القوم الواحد بعد الآخر وقال رفيقى شيأ يناسب المقام ثم تكلمت بالعربية حسب مقتضى الحال

واعلم انه لكبر هذه المدينة واتساعها لم يظهر فيها أثر ما لانعقاد مؤتمر المستشرقين بل ولا أقل أثر لمؤتمرات غيره كانت منعقدة فى الوقت الذى انعقد مؤتمرنا فيه وهى مؤتمر للعملة (بفتح الميم) ومؤتمر للعامل وثالث للصحة وكل هذه منزوية فى غضون جوف هذه المدينة التى تسمى عند العرب (لُنْدُرِسْ) كما هو اسمها الآن عند أهل اسبانيا وأما اسمها فى لغة أهلها فهو لَنْدَنْ (Londres) ولكن الفرنساويين يسمونها لُوندر (Londres) ويضعون فى

آخرها سينالا يتطق بها فاذا أرادوا النسبة اليها رجعوا للاصل اللاتينى الذى يقرب من اللفظ الانكليزى فقالوا لندنيان (Londonien)

تنزه على الاسلوب الانكليزى

وفى الاسبوع الذى كان المؤتمر منعقدا فيه (من ٥ الى ١٢ سبتمبر) دعينا لما دب كثيرة ونزه مفيدة للجسم والفكر يسمونها رياضة رياضية و بلغتهم جاردن پارتى (Garden Party) لكنهم ينطقون بها (جادن پاتى) بجيم وألف مفخمتين ونون لاتكاد تظهر وكذلك الباء الفارسية والالف فى التفخيم والتاء والياء فى عدم الظهور (فهذا درس من اللسان الانكليزى وان كنت لاأعرف منه الآن الا قليلا)

ضيافة عند فنى انكليزى

ولاأذكر من هذه الرياضات الرياضية فى هذا المقام سوى مأدبة أعدها لنا اللورد امهرست (وهو غير الذى كان حاكما على بلاد الهند) فقد دعانا فى يوم ١٣ سبتمبر الى قصره الكائن على مسافة أربع ساعات من لوندرة فركبنا القطار ونزلنا عند وصولنا فى عربات فاخرة أرسلها لنا رب الضيافة ومنزله أشبه شئ بمدينة عامرة فيها الرياض الغناء والمنازه الفيحاء ومن ألطف مايروق النظر فيها أماكن أعدها للعب فسيحة الارجاء مفروشة بالاعشاب الطبيعية وفيها الغابات والبحيرات لصيد الطيور والاسماك ومعمل للغاز وآخر للكهربائية وآخر لاصطناع العربات وترميم آلات الزراعة وخزانة للاسلحة

وغير ذلك مما يدل على تمكن الحضارة وضخامة الثروة واصالتها وأذكرانه جمع فى روضته هذه كثيرا من الاشجار النادرة الغريبة من أقاصى المشرق والمغرب وله عناية بالازهار والفواكه فوق العقل وقد رأيت عنده صنفا من العنب كبير الحجم لذيذ الطعم أبيض اللون وله خاصية الرائحة الذكية فيضوع أريجه عند أكله

وقد اصطنع فيه زهرية على مثال بستان الازهار الذى كان فى قصر الحمراء بغرناطة ايام دولة عرب الاندلس وشكلها آخذ بالبصر بهجة ورونقا

أما داخل القصر فحدث عنه ولا حرج وقل ماشئت ففيه دار تحف مصرية وبابلية وعمومية ولاجل أن يتصور القارئ مقدار التحف التى فيه وعظيم أهميتها أقول انه يوجد لديه ١٣ صندوقا كبيرا كلها مشحونة بآثار مستخرجة فقط من تل العمارنة فى ديارنا قريبا من ملوى بمديرية أسيوط وهو ينظر الآن فى بناء محل متسع لعرض هذه الآثار فيه

وأما المكتبة فهى كبيرة جدا وفيها نسخ كثيرة بخط اليد من المصاحف الشريفة وكثير من الكتب العربية والفارسية والهندية مما له قيمة وذلك عدا الكتب الافرنجية المنسوخة بخط اليد المجلاة

بالصور والرسوم البالغة حد الاتقان والكتب التى كانت باكورة اختراع المطبعة فى أوروبا وفى انكلتره وهى الآن نادرة الوجود وقلما توجد فى الكتبخانات العمومية التى من الدرجة الاولى وأحسن شئ رأيناه نسق وضعها وترتيبها المدهش للعقول وقد أعد للكتب النادرة المثال خزائن من الحديد خشية عليها من الحريق اذا شبت النار وان كان متحفظا على جميعها كما ينبغى

وفى المنزل غرفة ورقها من الجلد الاندلسى القديم وعليه أشكال ورسوم صورها أحد المعلمين النابغين وأما الآنية والفرش والاثاث والاستعداد وكثرة الرسوم والطيور والحيوانات المصبرة فذلك مما لاحد لوصفه ولاتسل بعد هذا عن بقية قاعات النوم والجلوس والاكل وما تحتوى عليه من الاثاث والنور والاشكال والاوضاع فكله من وراء مقدور اليراع وفى الدار كلها اسطوانات عليها اعلانات تفصيلية بكيفية استعمالها بالسهولة لاخماد النار اذا شبت فى أى مكان وخلاصة القول انه اذا كان فى الدنيا نعيم فهو فى منزل هذا الرجل

أما دمائة أخلاق حضرة اللورد وحسن معاملته لنا هو وزوجته وبناته الست فذلك بمقدار ثروتهم وحضارتهم وقد أحرزوا من شكرنا بمقدار ما كان لهم من مكارم الاخلاق

ومن بناته ثلاث أو ثنتان جئن مصر والباقيات لم يزرنها ولكنهن يقرأن الحروف العربية ويقدرن على كتابة بعض الكلمات بخلاف اخواتهن الاخر وقد كان بودهذه العائلة الكريمة أن تبقينا عندها أياما كثيرة ولكنا مع وجود أعظم من رغبتهم عندنا اعتذرنا لان حضرة الشيخ كان لابد من رجوعه الى مصر فى يوم ١٦ سبتمبر فودعناهم بعدان أخذت احدى كريماته صورتنا بالفتوغراف وبعد ان استكتبونا أسماءنا بالعربية والافرنجية

البندقية فى لوندرة

أما نزهتنا فى لوندرة فلا أتكلم عليها الآن وانما أذكر أنى شفيت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية فى احدى ضواحيها وهو محل متسع اسمه (Venice) فيه تياترو رحب ومعمل للزجاج يشبه معامل البندقية وفيه شوارع مائية ومراكب ومراكبية تمثل للانسان مدينة البندقية بالتمام

فحمدت الله على هذه الفرصة التى جعلت لى فكرة على هذه المدينة المائية حتى كأنى شاهدتها بالعين فما لايدرك كله لايترك كله

معرض التاريخ الطبيعى

وقد توجهنا فى يوم من الايام الى معرض التاريخ الطبيعى البريطانى وكان مرشدنا فيه حضرة وطنينا الفاضل المتفرد بالشهرة فى هذا الفن الدكتور عثمان بك غالب فاستفدنا من

دقائق المعرض وحقائقه أشياء كثيرة وأقول الآن ان الحكومة تنفق عليه وحده فى السنة أكثر من ٤٤ ألف جنيه انكليزى فى نظير ماهيات العلماء والعمال فقط أى خلاف المشتروات وصيانة المكان وغير ذلك من النفقات الكثيرة التى لايمكن أنها تقل عن هذا المقدار وقد كان فى الاول فرعا من المتحف البريطانى فلما اتسع نطاقه وازدادت معروضاته نقلوه الى هذا المكان المخصوص وهو فى غاية الترتيب ونهاية الكمال

الرسالة العاشرة

لوندرة

بودى لو يتيسر لى أن أكتب الآن ولو كلمتين على هذه عظمة لوندرة وجسامتها المدينة بل على هذا القطر الواسع الذى يسمونه لوندرة ولكنى أقف امام هذا الموضوع الهائل شبيها بالنملة بجانب مسجد السلطان حسن أو كالزورق الصغير فى البحر المحيط وأنّى له أن يهتدى الى بر السلامة فعلام أكتب وماذا أصف وفيم أخوض فلقد اشتملت متاجرها على جميع الأصناف والمحصولات كما أنّ بضائعها ومعاملها بلغت من الاتساع والاتقان فوق مايتصوره الادراك حتى إن مجرد الدخان الذى ينبعث منها الى سمائها يتحد مع ضبابها ويزيدفى تكديرجوها ثم يتساقط على مبانيها وعمائرها وتماثيلها وأنصابها فيجعل منظرها أسود قاتما كئيبا محزنا تنقبض منه النفوس ويذهب بالانشراح أدراج الرياح وفيها من الاقبال على الشؤن واغتنام الفرص ومعرفة قيمة الوقت مايحير الافكار ويبهر الابصار ورجال الشرطة فيها بلغوا من الانتظام وحسن الدراية وكمال الدربة ومعرفة الواجبات مالايكاد يضاهيهم فيه غيرهم فى الكون بأسره حتى صارلهم مهابة

فى النفوس وسيطرة حقيقية على كافة الافراد بحيث ان أقل اشارة منهم تكفى لمنع أى خلل أو اضطراب

حركة لوندرة

أما استمرار الحركة فى شوارعها فما لا يتصوره الانسان الا بعد المناظرة بالعيان فانها فى أقل الايام (ماعدا يوم الاحد) تشبه يوم مهرجان النيل أو ليلة احتفال الاعجام فى العاشر من محرم الحرام أو موسم المولد النبوى أوالاحدى (أو كل ذلك مجموعا الى بعضه) فترى العربات العمومية ذوات العجلتين وذوات الاربع تتقاطر وراء بعضها وبجانبها عربات الاومنيبوس شبيهة بالمنازل والدور كسلسلة متصلة الاطراف والناس يتبع بعضهم بعضا كأنهم يساقون الى المحشر الى غير ذلك مما يقتضى التعريف به أن تظهر الحقيقة فوق الاغراق والغلو فى المبالغة ولكنى لا يصح لى أن أعتذر بتعذر الاحاطة بأطراف هذا الموضوع عن كتابة ماشعر به الوجدان وتأثر به الجنان وانى أحاول ذكر قليل مما تيسر لى الوقوف عليه من الاجماليات ومن أمور شتى ومنثورات متنوعة تصور للقارئ بعضا من كل من جسامة هذه المدينة العظيمة واتساع نطاقها وامتداد أعمالها وكيفية الحركة فيها

وابورات لوندرة

فأول شئ يؤثر على عقل القادم اليها مايراه فيها من حركة الوابورات وسرعة مسيرها وكثرة عددها وتنوع اتجاهاتها واختلاف

أوضاعها فى الارتفاع والانخفاض حتى يكاد يعتريه دوار فى الرأس يشبه دوخة البحر ويداخله خوف شديد من امكان حصول الاصطدام فى كل لحظة أو خروج القطار عن الشريط فى كل خطوة حتى اذا وصل المحطة زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الارصفة وجسامة المبانى وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه

ومهما وصفت ومهما شرحت ومهما بالغت فانى لا أبلغ عشر معشار الحقيقة ولذلك رأيت أن الطريقة المثلى هى أن أكتفى الآن بذكر بعض أمور متفرقة تجعل للقارئ فكرة صغيرة عن عظمة هذه المدينة الكبيرة

فوائد الشركات

ولكنى أقول قبل ذلك ان الشركات والجمعيات وما بينها من المزاحمة الممدوحة والمناظرة المحمودة هى روح هذه الحركة وأس هذا الارتقاء فهما نظر الانسان الى أى عمل من الاعمال رآه فى يد شركة من الشركات وليس للحكومة دخل فى شئ ما سوى المراقبة العالية والسيطرة المعنوية التى تجعل الجمهور فى أمان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فان الامة قائمة بنفسها مكدة فى طلب

المكاسب والمعالى بما يفيدها ويرفع شأن دولتها من غير أن تتنازل وتمد يدها لامداد الحكومة ماديا أو معونتها معنويا حتى ان الانسان ليتساءل بعد مايراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤن العقليات والمحسوسات كيف ان مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات نعم فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد بلاد التعاضد على الاعمال والتباعد عن الخمول والاهمال ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على انماء المال ولقد كان فتح الهند كما لايخفى واضافتها للدولة الانكليزية على يد شركة تجارية وأمثال ذلك كثيرة

باجتهاد الافراد نجاح المجموع

وذلك لان أفراد الامة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا الا للعمل والاكتساب ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لايكاد يتصوره العقل حتى ان بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهب للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ولا تكون كلا على عواتق أهلها مع ماهم فيه من الثروة والرفاهية ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خاليات من العمل منغمسات فى البطالة والكسل وذلك شأن الشبان

أيضاحتى لقد جاء فى أمثالهم أنه(لاشئ يفلح مثل الفلاح) وذلك يشبه من بعض الوجوه المثل الفرنساوى (الغاية تبرر الواسطة) وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الامم ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القناطير المقنطرة فلابد له من التكسب بعرق جبينه

وحبهم لوطنهم ولانفسهم ولابناء جنسهم أمر لايكيف استثناء الانكليزفى كل شئ

مثال ذلك أن الرجل منهم اذا كان يعرف لغة غير لغته الاصلية فلا يتكلم بها الا عند الضرورة القصوى واذا رأى منك أنك تعرف من الانكليزية مبادئها أخذ يخاطبك بها و يجتهد فى منعك من مكالمته باللغة المشتركة بينك و بينه لانها غير انكليزية وكذلك السكة فلا يتعاملون بغير النقود الاهلية مطلقا ومثلها المقاييس والمكاييل والاوزان ومع ان العقلاء منهم يعترفون بأفضلية الطريقة الاعشارية لكنهم لايزالون متمسكين بطرائقهم المتعددة المتخالفة التى ليست على أساس ثابت

ومثال ذلك أنك اذا توجهت لاى مخزن وطلبت صنفا أو محصولا مما اشتهرت بعض البلاد الاجنبية بصناعته واتقانه فان رب الحانوت يجيبك بأنه موجود عنده ولكنه ينصحك نصحا مكررا بأخذ الصنف الانكليزى قائلا لك انه أجود وأفضل من جميع الوجوه

تصوير الوطنية الحقة باوروبا

وهذا الموضوع يجرّني الى الاستطراد بذكر كلمة واحدة على الوطنيـة فى بلاد أوروبا التى أتيح لى زيارتها الى الآن وهى ايطاليا وفرنسا وانكلترا فهى التى جعلت هذه البلاد ذات سطوة عظيمة وبأس شـديد فانهم ينظرون الى من يخدم الوطن باعتبار أعماله العمومية المفيدة للبلاد ويجلون ذكره على الدوام من غير أن ينظروا مطلقا الى أعماله الشخصية وأموره الداخليـة ومهما كان فيها من موجبات الانتقـاد فان ذلك لايمنعهم من اعتبـاره واحترامه ورفع صيته الى أعلى عليين ألا ترى أن (غاربالدى) الذى يهتز لاسمه قلب كل وطنى طليانى قد خدم الدولة الطليانية وأوجد وحدتهـا فأحله أهـل بلاده المحل الاول من الاعزاز والاعظام ولم يلتفتوا الى ماتناقله بعضهم عنه من الاعمـال المنكرة التى ارتكبتها زوجته الفتاة وقد اتخذها بعد ان صار طاعنا فى السن ومثال ذلك (غامبتا) رجل الجمهورية الفرنسوية فان قصته مع عشيقته معروفة وهى التى أطلقت عليه الرصاص فنقلته الى غير هذه الدار ومع ذلك فهو موضوع الاعجاب عند الفرنساوية يلهجون بذكره ويتمدحون بمآثره ويحتجون بأقواله ويستشهدون بأعماله وقد أقاموا له فى أعظم نقطة من باريس حيث كان قصر الامبراطور جهة ميـدان الكاروسـل تمثالا فخيما رفيعا اكتتب الاهـلون

لاقامته على أفخر مثال وهم يأتون لزيارته من كل انحاء فرنسا يضعون عليه الاكاليل والتيجان كأنه كعبة آمالهم

وأما لوندره ففيها تمثال أمير البحر (الاميرال نلسن) الذى كسر الدونانمة الفرنساوية وتعقبها فى كل البحار وفاز بالانتصار فى وقائعه وخصوصا فى الجهة من الاندلس المعروفة فى كتب العرب باسم طَرَف الاغر (التى حرفها الافرنج الى ترافلجار Trafalgar وقد خبط أصحابنا المترجمون فى نقلها الى العربية فقالوا ترفلجار أو طرف الغار) فقد أقاموا له تمثالا فاخرا على عمود شامخ يشرف على كل مبانى لوندره ونظروا الى ما اكتسبه منه الوطن ولم يلتفتوا بأى وجه الى علاقاته السرية مع امرأة أخرى (كان لها بعل فيما بلغنى) حتى انه حينما أدركته الوفاة أثناء الواقعة البحرية فى طَرَف الاغر كان أول شئ اهتم به هو السؤال عن نتيجة القتال فلما بلغه ان النصر لدولته سكر بخمرة الفوز وهو فى سكرات الموت ولم يلتفت بعد ذلك لشئ سوى انه أوصى باعطاء سيفه ووشاحاته الى خليلته وقد نقشوا على قاعدة العمود كلمة مأثورة عنه كان يتمثل بها كثيرا وهذه ترجمتها (ان انجلترة تنتظر من كل فرد من أبنائها انه يقوم بما عليه)

ولقد يذكرنى ذلك بالملكة كاترينة امبراطورة الروسيا فان

التاريخ ينبئنا بأنها كان لها محبون معلومون ولهم مرتبات وعلوفات رسمية بهذه الصفة فى ميزانية الحكومة حتى انها لبست الحداد رسميا بعد وفاة أحبهم اليها مدة سنتين ومع ذلك فلا يزال الروس يطأطئون لذكرها الرؤس ويفتخرون بها ويمجدون اسمها لان دولتهم فى أيامها وباجتهادها بلغت من التقدم وعلو المكانة ماجعل لها جانبا مهيبا فى أعين الدول الاخرى

فهكذا يكون حب الوطن وهكذا يكون السعى فى تشجيع الفضلاء على خدمته فان النظر الى السفاسف وتعقب الهفوات التى لايترتب عليها ضرر للامة والوطن لايكون من ورائه الا إهباط العزائم وتثبيط الهمم فتخمد القرائح النيرة وتنطفى الافكار الوقادة ويقعد المجتهدون وأصحاب الامانى عن الكدّ وراء المعالى ولايصيب الوطن من ذلك الا خسران رجال ربما كان له من وراء أعمالهم فائدة جليلة

ولقد ساقنى الكلام على وطنية الانكليز الى هذا الاستطراد فأسأل القراء عفوا لانى أرى نفسى وجوارحى وقلمى وفكرى تندفع بالرغم عنى الى ذكر شئ من هذا القبيل عسى أن يكون له صدى فى بلادنا فيكون من ورائه النفع العميم

احصائيات لندرة

وأرجع الآن الى الكلام على لوندرة التى يتعسر على الانسان أن يقول أين مبدؤها وأين منتهاها ومن المحتمل انه لم يتفق لأحد أنه رآها كلها وان ذلك لن يتفق فى الاستقبال لما يستوجبه المشروع من الصعوبة والاتعاب والحيرة والاضطراب فان مسطحها ٣٥٠ كيلومترا مربعا من غير ضواحيها وارباضها وقدّروا أطول دائرتها ٩٠ كيلومترا وان طولها من الشرق الى الغرب ٢٥ كيلومترا ومن الشمال الى الجنوب ٢١ كيلومترا وطول طرقها ١٥٠٠ ميل وطول بالوعاتها ومصارفها ٢٠٠٠ ميل وكان عدد سكانها فى أول هذا القرن أى سنة ١٨٠١ عبارة عن ٨٦٤,٠٣٣ نفسا وفى سنة ١٨٢١ صاروا ١,٢٢٧,٥٩٠ ولما جاءت سنة ١٨٧١ بلغوا ٣,٢٥٤,٢٦٠ يسكنون فى ٤١٧,٧٢٧ دارا وفى سنة ١٨٨١ أثبت الاحصاء الرسمى أنهم ٣,٨١٤,٥٧٠ بما فى ذلك الضواحى المتصلة بها تمام الاتصال ويتضح من التقرير الابتدائى عن حركة السكان فى سنة ١٨٩١ ان عددهم فى شهر ابريل من تلك السنة كان ٥,٦٣٣,٣٣٢ وعدد المنازل ٧٩٧,٦٧٩ وعدد الاغراب المتوطنين بها ١٥٥,٠٠٠ ولها وحدها فى مجلس البرلمان ٥٨ عضوا ينوبون عنها

بحسامة لوندرة

ولكنك اذا نظرت الى ذلك الاتساع الهائل وتلك المسافات وسائط النقل

المتباعدة الشاسعة تراها معدومة وكأنها لم تكن فان المدينة قريبة الاطراف لسهولة التنقل وكثرة الوسائط من كل نوع ففيها أكثر من ١٥٠٠٠ عربة بعجلتين وحصان واحد والسائق من خلف (واسمها هَنْسَم وهي مثل عربات الاوتيل كونتيننتال فى القاهرة) أو باربع عجلات وحصانين لركوب هذه الخلائق المتزاحمة أما عربات الامنيبوس فلا تقل عن ٢٥٠٠ عربة تسير فى ٢٠٠ خط متمايزة عن بعضها أنشأتها شركات متعددة وبلغ عدد الركاب فى عربات احدى هذه الشركات (وقدرها ٨٦٠ عربة) ٦٠ مليونا من النفوس فى سنة ١٨٨٢ وفى كل عربة منها ٢٦ مقعدا ١٢ فى الداخل و ١٤ على ظهرها وفى أكثرها زيادة على ذلك مكانان بجانب السائق وفى ضواحى المدينة وبعض جهاتها عربات الترامواى التى تجرها الخيل على قضبان حديدية وهى لا تربع شركات ولا يمكن ادخالها فى المدينة لكثرة الازدحام فان المقرر أن عربتين تسيران الى الامام وعربتين الى الخلف وقلما تكون جهة من الشارع خالية من الاربع عربات

وقد أحدثت سكة حديد العاصمة (التى تسير تحت الارض) عربات الامنيبوس توصل بين المحاط وبعضها وتتميز عن عربات الامنيبوس الاخرى بان السائق تكون فوق رأسه مظلة كبيرة

عليها اسم الشركة ويجوز لكل انسان صادفها فى طريقه أن يركب فيها

وفيها أيضا عربات تسمى (ماى كوتش) تسير بالسواحين والمتفرجين الى بعض مدائن النزهة القريبة

وفيها شركة تتكلف بحمل الأمتعة والرزم والطرود التى لايتجاوز وزنها ١٠٠ رطل الى أية جهة من جهات لوندرة وضواحيها ولها أكثر من ١٢٠٠ مكتب فرعى متوزعة فى كل أنحاء المدينة وثمن النقل زهيد جدا وقد تأسست شركة أخرى لنقل البالات مثل بالات الاقطان والبراميل بانواعها والبضائع الكبيرة الحجم وأهم هذه الشركات فيها ٧٠٠٠ مستخدم و ١٠٠٠٠ حصان وهنا أقول ان سائقى العربات فى لوندره يفوقون فى صناعتهم جميع أمثالهم فى سائر أنحاء الارض

وهناك أيضا شركة خيرية تألفت لمساعدة العساكر البرية والبحرية الذين قضوا مدة الخدمة فانها تكتنفهم وتقوم باحتياجاتهم وتستخدمهم فى نقل الرزم والطرود الصغيرة بأجرة لاتتجاوز ١٥ مليما بحسب بعد المسافة وثقل الحمل

ويوجد بها شركات لها زوارق بخارية كثيرة العدد تجرى فى نهر التيمز على الدوام لنقل هذه الجماهير المجمهرة من مكان

الى مكان وهى فى البحر بمثابة عربات الامنيبوس فى البر ويجوز للراكب فيها أن ينتقل من الواحد للآخر بحسب الجهة التى يقصدها من غير زيادة فى الاجرة وهى لا تتجاوز ١٥ مليما وتقوم المركب كل خمس دقائق ويوجد شركات أخرى لها بواخر تسير بين لوندرة والجهات التى على نهر التيمز وتقوم كل ربع ساعة وكل نصف ساعة (ماعدا أيام الشتاء) وفوق ذلك على النهر مراكب كثيرة بالقلوع والمقاذيف يؤجرها الناس للفسحة على الماء أو للتنقل من جهة الى أخرى ويوجد مراكب بخارية انشأتها بعض الشركات للسفر من لوندرة الى جميع موانى انكلترا واسكتلندة وارلندة بل ولفرنسا والجهات الاخرى من قارة أوروبا هذا بصرف النظر عن المراكب البخارية التجارية الكبيرة التى تمخر فى جميع البحار

وفى لوندرة أكثر من ٥٦٨ محطة للسكة الحديدية أقل واحدة منها (حتى التى تحت الارض) أكثر من محطة القاهرة الحالية اتساعا وحركة وعملا ومنها ما يساوى محطة مصر والاسكندرية وطنطا ثلاث مرات فى ثلاث مرات وقد يمر فى بعضها (مثل محطة كلاپهام) أكثر من ١٤٠٠ قطار فى اليوم من غير احتساب

قطارات البضاعة (وأنت تخيل مما ذكرنا كم ينبغي أن يكون مقدارها في بلدة تجارية صناعية مثل لوندرة)

وفي سنة ١٨٨١ نقلت سكة حديد العاصمة وكلها تحت الارض ١١٠ مليون من الركاب بالتمام وقد ازداد هذا العدد الآن زيادة كلية

وصف القطارات بلوندرة

ثم ان القطارات كثيرة جدا وسريعة للغاية والعربات مفروشة بكل عناية واتقان حتى ان عربات الدرجة الثالثة هي أحسن بكثير من عربات الدرجة الثانية عندنا وفي بعض اقطار أوروبا ولا يمكن ان يمر على الانسان لحظة واحدة وهو في القطر من غير أن يرى قطرين أو ثلاثة تحت أقدامه ومثلها بجانبه ومثلها فوقه بقليل ومثلها يجري على القناطر والجسور ومثلها بحذائه ذات اليمين ومثلها الى جانب اليسار وهكذا مما يحدث الخبال وذلك كله نتيجة المزاحمة وثمرة المناظرة فان الذي يريد أن يتوجه من لوندرة الى مانشستر مثلا يجد أمامه خمسة طرق مختلفة في يد شركات مختلفة وكل واحدة منها تجتهد في ان تضمن للمسافر من المزايا والفوائد والتسهيلات ما يجعله يقبل عليها دون سواها حتى ان الطوالات الخشب المستعملة في الدرجة الثالثة أصبحت لا وجود لها بالكلية وقد تكون عربات الدرجة الثالثة في قطرات الاكسبريس كما

ان بعض القطرات لاتوجد فيها إلا الثانية وفى بعضها (وهى السريعة) لاترى الا الاولى

ولا يمكن أن يمضى على الانسان اذا وقف فى مكانه ثلاث دقائق من غير أن يمر عليه مايريده من عربات الامنيبوس أو القطارات أو الزوارق البخارية أو غير ذلك فاصبحت المسافة فى هذا البلد الطويل العريض معدومة والابعاد متقاربة لسرعة وسائط النقل وكثرتها وسهولتها وتيسرها

وخلاصة القول أن تعدد الشركات ومنافستها لبعضها التنافس الممدوح يجعل الانسان مهما قلب ناظره فى أية جهة من جهات المدينة على وجه الارض أو تحت الارض أو فى الجو فوق أسطحة المنازل يرى عددا هائلا من القطارات البخارية منها مايرفع عقيرته الى عنان السماء ومنها مايكتم نفسه فى جوف الارض ويكتفى بالانين

تشخيص حركة لوندرة

ومن تأمل فى حركة هذه القطارات التى لاينقطع دويها وكلها مركبة من ٢٠ أو ٣٠ عربة كبيرة وكلها مشحونة ببنى آدم ثم نظر الى الزوارق البخارية والى سواريها التى تجعل النهر كغابة بالغة فى الاتساع ثم نظر الى عربات الامنيبوس وهى تجد فى السير وليس بها مقعد خال ثم نظر الى حركة الشوارع وما فيها

من المركبات المختلفة المقادير والاحجام والاشكال والانواع وكلها غاصة بالناس وبالبضائع ثم نظر الى جانبي الطريق ورأى الاقوام تمور وتموج كالسيل المنهمر الذى لايصده عائق فلاشك آن يعتريه اضطراب واندهاش وتأخذه الحيرة والاختبال ويحكم بان هذه المدينة كقرية النمل وليس لها من هذا القبيل نظير فى العالم بأسره على الاطلاق والذى يزيدفى الاعجاب والاستغراب أنه لايسمع صوتا ولاصياحا ولاضجة ولا اعتراكا بنسبة جزء من ألف جزء من هذه الحركة بل كل انسان صامت أو هامس مقبل على شؤنه مكد فى الذهاب الى مقصده وكل شئ يجرى فيها كالساعة المنتظمة ذات الآلات الكثيرة والغايات المتنوعة حتى ان الغريب ليحكم بانه بين قوم لايسمعون ولايتكلمون

سكة حديد العاصمة

ولاأنتقل من هذا الموضوع قبل أن أذكر شيأ يسيرا عن سكة حديد العاصمة فانها عبارة عن طريقين أولهما يدور حول السنى City (أعنى المدينة مثل السكرية والغورية وما حواليهما من الجهات فانها معروفة فى مصر القاهرة باسم المدينة أيضا) والثانى حول البلد كلها وهما متصلان ببعضهما فى كثير من النقط وقد بلغت نفقات الميل الواحد فيما يلغنى ثلاثة ملايين من الجنيهات لان الشركة التزمت بدفع قيمة الاراضى والمنازل وحفر الارض

وبنيان القباب والعقود وغير ذلك مما يوجب صرف المبالغ الجسيمة وبما أن القطارات فى هذه الطرق تسير تحت الارض الا عند دخولها فى المحاط (فانها كلها مكشوفة الى السماء) فقد رأى مهندسو الشركة أن يصنعوا الآلات البخارية محتوية على مزيتين مفيدتين جدا لمقتضى الحال فأولاهما ان الآلة مجهزة بحيث انها تحرق الدخان المتصاعد منها فلا يكون له أدنى تأثير وثانيتهما أنها تصطنع من الفحم الذى تحرقه زيت الحجر (الغاز أو البترول) اللازم لاضاءة كافة العربات على الدوام والاستمرار

ثم ان القطار يدخل المحطة وهو فى منتهى السرعة ويقف مرة واحدة فيحصل ارتجاج خفيف جدا لايكاد يشعر به الانسان والسبب فى ذلك أنهم وضعوا فى ثلاث جهات من الرصيف ثلاثة ألواح كبيرة لتوفير الوقت ومكتوب عليها مامعناه (انتظر هنا للدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة) فيقف ركاب الدرجة الاولى فى المكان المعين وركاب الدرجة الثانية فى المحل المخصص لهم ومثلهما أصحاب الدرجة الثالثة ثم ان العربات فى القطر مرتبة وراء بعضها بحسب الترتيب المعين فى رصيف المحطة فمتى جاء الوابور وقف فى المكان المناسب فلا يكون على المسافرين الا أن يدخلوا العربات من غير تعب ولا سؤال بل بتحريك القدم خطوة أو

خطوتين بالاكثر وذلك لمنع الاختلاط فان القطار لايقف أكثر من بعض ثوان وتجد على باب العربات من الداخل عبارة هذه ترجمتها (انتظروا حتى يقف القطر) ولكنى أرى من الواجب على المسافر أن يشرع فى النزول بمجرد وقوف القطر لان أقل تأخير يترتب عليه ان يساق الى المحطة الثانية ثم يرجع مع قطر آخر الى المحطة المقصودة من غير أن يلتزم بدفع أجرة تكميلية بشرط أن لايظهر على وجه الارض بل يستمر على رصيف المحطة وهذا أمر ينبغى تنبه الغريب اليه فان كثرة الاعلانات فى المحطة تمنعه ولاشك من أن يعرف اسمها فالاجدر به والحالة هذه أن يسأل قبل النزول فى القطر عن عدد المحاط التى سيكون الوقوف فيها قبل الوصول الى المحطة اللازمة أوأن يجتهد فى قراءة اسم المحطة على فوانيسها ودكك الانتظار فانهما المحلان الوحيدان الباقيان للآن فى حرز وأمان من هجمات أصحاب الاعلان

وكل انسان يركب فى القطر يجوز له أن يؤمن على حياته ونفسه من العوارض والاخطار التى ربما تطرأ فى أثناء السفر ففى حالة الوفاة تدفع الشركة ألف جنيه انكليزى لورثة المسافر فى الدرجة الاولى الذى يكون قد أمّن على حياته بدفع مبلغ يوازى ١٢ مليما زيادة على ثمن التذكرة وتدفع مبلغ ٣٠٠ جنيه لورثة المسافر فى

الدرجة الثانية الذى يدفع ٨ مليمات زيادة على ثمن التذكرة ومبلغ ٢٠٠ جنيه للمسافر فى الدرجة الثالثة الذى يدفع ٤ مليمات زيادة على ثمن التذكرة فاذا كان العارض غير الوفاة التزمت الشركة بالتعويض بمبلغ نسبى بحسب شدة العارض وخفته

وفى هذا المقام أذكر ماروواه بعضهم من أن رجلا من الانكليز كان يركب على الدوام فى الدرجة الاولى ولا ينسى مطلقا التأمين على حياته وفى كل مرة وصل المحطة بالسلامة أخذ فى اللعن والشتيمة والسباب لعدم وقوع ما كان ينتظره لعائلته من الثروة واليسار وحقيقة فان الاخطار قليلة بل نادرة بل لا تكاد تذكر

وقد كان انشاء هذا الخط فى سنة ١٨٦١ وله أكثر من ٣٠ محطة وقد يمتد الى بعض ضواحى لوندره (ويكون حينئذ على وجه الارض) وقد يسير تحت نهر التيمز فى نفق هو عبارة عن انبوبة من الحديد وفى كل خمس دقائق يقوم قطار وذلك من الساعة ستة صباحا الى نصف الليل (ولكن القطر يقوم قبل الساعة ٨ صباحا وبعد الساعة ٨ مساء فى كل ربع ساعة) وثمن التذاكر طفيف جدا فلا يزيد على خمسة فروش صاغ

وأقول بهذه المناسبة ان تسجيل المتاع ليس من أصول السكة الحديدية فى بلاد الانكليز على العموم (لا كما فى ايطاليا أواه

منها أوّاه) بل ان المستخدمين يستغربون من الذى يطلب ذلك منهم لان القاعدة العامة (وقد يكون لها استثناء لاأعرفه الآن) ان الانسان يكتب اسمه واسم المحطة على متاعه ثم يباشر وضعه على عربة صغيرة فى الرصيف ثم فى العربة المعروفة (باسم عربة العفش) ومتى وصل الى المحطة المقصودة نزل وتوجه الى المستخدم وأعلنه عن متاعه فيسلمه فى الحال من غير أدنى تعب ولا اختلاط ونزاع أوعطل أومماطلة

وعندى كلام كثير على السكك الحديدية وكثرتها وتقدمها فى بلاد الانكليز ولكن لايسمح لى المقام بايراده الآن وانما لايسعنى ان أخفى اعجابى بها من كل الوجوه حتى ان الانسان لايتصور كيف أنها لاتنقل هذه البلاد وخصوصا لوندرة الى اية جهة من أقطار المعمورة

شركات الاستدعاء بالكهرباء

ومن أغرب الشركات التى فى هذه المدينة شركتان ليس لهما من عمل سوى الاستدعاء بالكهرباء وذلك أن لكل منهما مشتركين فى جميع جهات المدينة وكافة انحائها ومنازلهم متصلة بسلك كهربائى بالمكتب الموجودة فى دائرته ويكون فى المنزل شبه مزولة عليها خمسة أزرار الاول للساعى والثانى للطبيب والثالث للعربة والرابع للاستغاثة من الحريق والخامس للاستنجاد بالبوليس فاذا

ضغط المشترك على أحد هذه الازرار عرفت الشركة مطلوبه فتبعث له فى الحال ساعيا أو طبيبا (واذا كان له طبيب مخصوص يكون عنوانه معلوما عندها فتخبره بالطلب) أوعربة للركوب أو طلمبات الحريق أورجالا بواسطة ادارة البوليس لامداده بالقوة اللازمة

وهاتان الشركتان مستعدتان أيضا لخدمة غير المشتركين بهما فيجوز لهم ارسال طرودهم وأمتعتهم بواسطة سعاتها فى نظير أجرة لاتزيد عن ١٢ مليما فى الساعة وفوائد هذه الشركات ظاهرة خصوصا فى المدن الكبيرة

شركة حماية الحيوانات

وهذا الحديث على الشركات يسوقنى الى ذكر شئ وجيز عن شركة حماية الحيوانات وان كان اسمها معروفا فى مصر فانها من أغرب الشركات وأفيدها وهذه الشركة تحت حماية البرنس دوغال ولى العهد وقد كان لها تأثير عظيم فى هذه البلاد بحيث انك لاترى القوم حتى الذين من الطبقة الدنيئة يتجاسرون بأى حال ولاى سبب على اهانة الحيوان الاعجم واساءته ولها عمال كثيرون ومن أعضائها جم غفير من أصحاب الوجاهة والنفوذ وكل من أقدم على هذا العمل المنكر حكم عليه بالاشغال الشاقة من ستة شهور الى سنة كاملة وكثيرا ماركبت فى عربات متعددة ولاأتذكر أن السائق رفع السوط على الحصان أكثر من

مرتين بكل خفة وكثيرا ماقطعت المسافات الطويلة من غير أن يلمس السوط جسد الحصان على الاطلاق ومثل هذه الشركة لالزوم لها فى بلادنا اذا راعينا الاحكام الشرعية المفروضة كما هو الواجب علينا

شركات المطالعة والكتبخانات

وقد رأيت فى البلاد الافرنكية التى مررت بها قاعات المطالعة ولكنها فى لوندرة قليلة وليس للحكومة يد فيها البتة بل قد أنشأتها شركات تجارية متنوعة أوخاصة بطبع الكتب ونشرها وقد أسست بعض الشركات كتبخانات ترسل الكتب اللازمة الى منازل المشتركين فلا تكلفهم التوجه الى مركزها لانتقاء الكتب التى يرغبون مطالعتها فى منازلهم وقيمة الاشتراك من جنيه واحد الى خمسة الى ستة فى السنة

شركات التوريد

وفى هذه المدينة غير ذلك من الشركات التى لاتدخل تحت حصر ولو أردت أن أذكر كلمة على كل واحدة أو أكتفى بمجرد الاشارة الى اسمها لاتسع المجال بما يوجب الملال مهما كان اصطبار القارئ ومجاملته للكاتب ولكنى أقول انى رأيت فيها كثيرا من شركات التوريد التى تتعهد للمشترك بجميع مايطلبه من الاصناف والمحصولات اللازمة له ولعائلته ولمنزله بابخس الاثمان ومن أجود الاصناف

النوادى وغرابة تنوعها

ثم أنتقل الى الكلام على النوادى (المعروفة بالكلوب) فانها كثيرة جدا وأهمها نحو المائة وكلها فى قصور فخيمة شامخة باذخة بالغة النهاية فى الزخرفة والاتساع والاتقان والاحتواء على كل مايطلبه الانسان من مأكول ومشروب وجرائد وكتب وغير ذلك مما يلزم للفكاهة والمسامرة وتمضية الوقت فى نعيم وسرور وكل شئ فيها من أجود نوعه وبثمن المقطوعية (الذى يساويه فقط) وهى معدة لاجتماع الاصحاب والاصدقاء الذين من صنف واحد وأذواق متشابهة وعددها بالنسبة الى لوندرة أكثر منه فى أية عاصمة أخرى من عواصم أوربا ولا يقبل العضو فيها الا بعد اقتراع سرى دقيق جدا ورسم الدخول من خمسة جنيهات الى أربعين (والغالب ٢٥) والرسوم السنوية من ثلاثة جنيهات الى خمسة عشر هذا عدا ثمن المأكولات والمشروبات وفى بعضها يجوز للعضو أن يستضيف بعض خلانه ومنها ماهو للرجال والنساء ومنها ماهو للنساء خاصة أو للعلماء أو لحزب المحافظين أو لحزب الاحرار أوللهنود الشرقية أو للضباط البرية والبحرية العاملين أو للضباط المتقاعدين أو للمستعمرات أو لتحسين نوع الكلاب أو لمدرسة اكسفورد الجامعة أو لمدرسة كمبريدج الجامعة (ولا يقبل فيهما الا المتخرج منهما) أولالعاب الكرة أولرجال السياسة

أو للسياحة (ولا يدخل فيها الا من ساح الى مسافة ٥٠٠ ميل عن لوندره) أو لرجال الآداب ومن أغرب نواديها ذلك المعروف باسم النادى المتوحش وفيه كثير من أرباب الجرائد والآداب والفنون والتشخيص ومن أعضائه البرنس دوغال ورسم الدخول فيه ٨ جنيهات والرسوم السنوية ثلاثة جنيهات ولأغلب المدارس نوادى خاصة بتلامذتها الحاليين والسابقين وقد يزيد أعضاء بعض النوادى عن ٧٠٠٠ شخص

وكل جمعية وكل شركة وكل ناد يولم فى السنة وليمة فاخرة وأهم هذه الولائم وليمة جمعية التصوير ويجتمع فيها أكابر أرباب العلم والسياسة والرياسة والجيش والبحرية وأعضاء البرلمان ورؤساء الاساقفة والاقوكاتية والبرنس دوغال واخوته وكل من اشتهر فى فن أو عمل وقيمة النفقات فى هذه الوليمة تبلغ من ٤ جنيهات الى ٨ جنيهات عن كل واحد من المدعوين

مطاعم لوندره وقهاويها

وفى هذه المدينة أكثر من سبعة آلاف مطعم (لوكانده) والخدمة فيها كلها منتظمة جدا ولوان أماكنها فى الغالب ليست بالغة فى الزخرفة مثل نظائرها فى أوروبا وكثير من هذه المطاعم على مذهب الهنود فلا تجد فيها سوى الخضارات وما تنبته الارض وأما اللحوم فلا توجد فيها البتة لانها محرمة

وفيها نحو ألف قهوة وكلها على الطرز الانكليزى أى ان الانسان يمكنه أن يتناول الطعام فيها بثمن بخس ولكنه اذا طلب شيأ من المشروب وجب عليه دفع الثمن مقدما للخادم لكى يستحضره له من الخارج (وكذلك الحال فى بعض الفنادق وفى كثير من المطاعم) لان هذه الاماكن ليس لها رخصة فى بيع المشروبات ثم ان القهوة عبارة عن قاعة ضيقة تنقسم الى طوالات من الخشب منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ومثبتة فى الحائط والارض مثل تقسيم عربات الدرجة الثانية فى السكة الحديدية فيأكل الانسان فيها وهو بمعزل عن جاره وفيها تجددوا ما القهوة والشاى والشكولاته والكاكاو والبيض والجبن

أماكن الاجتماع العمومية

أما القهاوى الكبيرة التى من جهة المدينة (الستى) فهى أشبه ببورص تجتمع فيها التجار والنواخذة (مجهز والسفن Armateurs) وأصحاب الضمان من الحريق والغرق وسائر الطوارق والعوارض والسماسرة وأمثالهم فيتعاقدون فيها ويتبايعون

وفيها بعض محلات يسمونها دواوين السجاير تشبه القهاوى التى فى أوروبا ويكون بعضها عبارة عن قاعة كبيرة فيها نجف وثريات وألواح فيها صور ورسوم وعند الدخول يدفع الانسان

شلنا واحدا (٥ صاغ) ويكون له حق فى سجارة افرنكية وفنجان قهوة وقراءة أهم الجرائد المطبوعة فى انكلتره وفى أوروبا وقد أنشأ بعض الفرنساويين والطليانيين قهاوى على الطراز الاوروباوى (المتعارف فى مصر) ولكن هذين الصنفين من الاماكن العمومية لايجوز لهما بل ولايمكنهما وضع الموائد أو الكراسى على برازيق(١) الطريق

ومتى سار الانسان على برازيق الطريق رأى فيما بين الحوانيت كثيرا من مخازن الدخان فانها فى لوندرة فوق العدد والاحصاء

الحمامات

وقد رأيت كثيرا من الحمامات فيها الماء الملح الاجاج أو العذب الفرات باردا أو مسخنا على درجات مختلفة وفيها حمامات على الطرز التركى المتعارف فى مصر وقد صار للانكليز الآن بها ولع وغرام وان لم يكن القائمون بالخدمة فيها على شئ من مهارة أهل

---

(١) البرزرق يقابل كلمة التروتوار الفرنساوية (Trottoir) الشائعة الآن راجع شرح القاموس ولسان العرب فى ترجمة ب رزق تجدان معناه القسم من الطريق العام المخصص على جانبيه للسائرين على الاقدام وأما كلمة افريز التى استعملت تحاشيا من كلمة تروتوار (أوتل تواربحسب نطق العوام) فهى فى غير موضعها لانها فارسية معربة ومعناها فى كتب اللغة الجزء البارز من أطراف أعالى البناء فيقابلها لفظ كرنيش المعرب عن الفرنساوية ومنها قول الفرنساويين (frise) بمعناه

بلادنا وفى بعض الحمامات لاتزيد الاجرة عن ١٢ مليما ومع ذلك فان الشركات القائمة بادارتها تربح ارباحا وافرة

التياترات والملاهى

وفيها تياترات كثيرة وأشهرها ثلاثة وثلاثون وفيها عدد عظيم من الملاهى وقهاوى الغناء والموسيقى وأماكن عرض الصور والبهلوان وغير ذلك مما يكون فيه تشخيص الروايات أيضا

جرائدها وديانتها

وفيها وحدها أكثر من ٤٠٠ جريدة منها ٥٠ للديانة على سائر مذاهبها فان الشيع الدينية فى بلاد انكلتره كثيرة متنوعة جدا وهم يحترمون كل الاديان وكافة الاعتقادات حتى انه يصح أن يقال ان كل انكليزى يعبد الله بحسب هواه وقد بلغ عدد الديانات والمذاهب فى بلادهم أكثر من ١٨٣ وكل واحدة من هذه الشيع تدعى بالطبع أنها هى التى فازت باكتشاف الحقيقة وهى تتناظر مثل مناظرة الشركات التجارية ومع ذلك ففى كل يوم تظهر شيعة جديدة وأبغض المذاهب الى هذه الأمة هو المذهب الكاثوليكى الرسولى الرومانى ويكرهون البابا كراهة التحريم وهذا التعصب المطلق بجانب ذلك التساهل المطلق هو من باب التناقض المطلق

الكويكرز

وافكارهم واعتقاداتهم وآراؤهم ومقالاتهم فى غاية الغرابة ولايسمح لى المقام الآن ببيان شئ منها ومع ذلك أقول ان منهم طائفة تسمى الكويكرز (Quakers) لايركعون الا لله

المتعالى ولايرفعون قبعتهم لاحدما (كما هى عادة الافرنج) ويخاطبون الناس قاطبة بالكاف أى لايعظمون المفرد باستعمال الجمع كما هو المألوف فى أوربا فلا يقولون حضرتكم أو أنتم أو ماأشبه ذلك بل قلت لك انك فعلت كيت وكيت ... الخ وهذا النوع من التعبير يسمى عند العرب (المخاطبة بالكاف) وعند الفرنساويين (Tutoyer) ولا يحلفون أبدا حتى أمام المحاكم ويمتنعون من الدخول فى سلك العسكرية لانهم يعتبرون الحرب محرمة وجناية حتى ان جون بريط السياسى الانكليزى المشهور استعفى من وزارة غلادستون فى سنة ١٨٨٢ بسبب الحرب التى وقعت بين انكلتره وأهل الثورة العرابية فى مصر ولهم غير ذلك من الاطوار والاخلاق

(تبويد الانكليز)

وأما جيش السلام فلاأتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندرة بقصد تبويذ الانكليز (اذا صح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذه Boudha) وبلغنى ان لهم هيكلا تقام فيه شعائرهم الدينية فى خط ويت شابل (White Chapel) المعمور بالوف من الخلائق وعلمت أن أعمالهم سائرة فى طريق التقدم وأن بعضا من رجال البوليس الانكليزيين قد دخلوا فى زمرتهم

الاستراحة يوم الاحد بانكلترة

وبمناسبة الديانة والكلام عليها أقول الآن ان أمة الانكليز انفردت عن سائر سكان الارض بمراعاة الراحة المطلقة فى يوم الاحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الاعمال مرة واحدة ويستعدون لذلك من ابتداء عصر السبت فترى الخلائق تتناقص والازدحام يقل شيأ فشيأ والمخازن تغلق والنواقيس تدق ومتى جن الليل عادت الحركة الى منتهاها ورجع الاضطراب الى اقصاه لكن فى الاسواق فقط اذ يتوجه القوم اليها من كل صوب لاخذ المؤنة والذخيرة اللازمة لذلك اليوم الذى يقف فيه دولاب الاعمال وينقطع الاخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق بالقوت اللازم لحياة النفوس ومتى أصبح الصباح رأيت المدينة قفرا بلقعا ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر منشور فى شوارعها وأما المخازن والابواب والشبابيك وديار التحف والآثار والتياترات فكلها مغلقة والعربات بجميع أنواعها يقل وجودها بالكلية وأما القهاوى واللوكاندات فتفتح فى مواقيت الفراغ من الصلاة فقط أى من الساعة الاولى الى الساعة الثالثة بعد الظهر ومن الساعة السادسة بعده الى ماقبل نصف الليل بساعة ولكن الاغرب من ذلك كله أن البوستة مع أهميتها تتعطل حركتها فلا تباشر أى عمل ما ولا توزع الخطابات الواردة اليها

ولا ترسل المكاتيب الصادرة الى الخارج ومثلها التلغراف فان أسلاكه تستريح أيضا فى هذا اليوم يوم الراحة العامة إلا فى بعض المحاط الكبيرة جدا وكذلك الكمرك فانه يحجز البضائع وأمتعة المسافرين الذين يقدمون الى هذه البلاد فى هذا اليوم المشؤم فانه حقيقة يوم الحسرة على الغريب يضطره للاعتكاف فى منزله وتضييع يوم من حياته بلا ثمرة ولا عمل والقضبان الحديدية لا بد أيضا من استراحتها فلا تمشى القطارات عليها أثناء القداس وفى غير هذا الوقت تقل حركتها الى الربع أو أقل وترى فى جداول مواقيت السفر خانة عمومية لايام الاسبوع وخانة خصوصية للقطارات القليلة جدا التى تقوم فى يوم الاحد وتلك المحاط التى كانت بالامس عامرة آهلة بالخلائق تصبح وهى ساكنة مطمئنة ويكون منظرها مع عظمتها واتساعها مشوبا بشئ من الايحاش يجعلها أشبه بقبور هائل وخلاصة القول أن المدينة كلها ينقطع منها الحس وتبارحها الحياة فكأنها سراج قد خبأ نوره فجأة ولا يتصور المرء أنه مازال فى تلك المدينة المتماوجة بهذه المخلوقات بل يخطر على باله أنه دخل بلدا جاءها النذير بقرب جيش هاجم عليها فولى أهلها الادبار وتركوا الديار وما فى الديار ملتجئين الى الخلوات والقفار وأبقوا بعضا من الرجال يراقب حركات العدو ويعلمهم باعماله حتى اذا أقبل المساء

ابتدأت الحياة تدب فى هذه الآلة العظيمة المعروفة بلوندرة فترى بعض الناس يبتدؤن فى الجولان ومتى قابل الواحد منهم صاحبه (من الرجال أوالنساء) سأله هل كنت فى الكنيسة فيجيبه بالايجاب أو يعتذر بعذر قوى مقبول ولاجل ذلك ينبغى للغريب أن يغتنم فرصة الاحد فى التوجه الى الكنيسة فى الصباح ثم يخرج الى أرباض البلد لاستنشاق الهواء الصحيح فانه يكون محتاجا اليه لقلته فى لوندرة بسبب الدخان ولكنى أشير عليه بأن يرجع فى عصر النهار ويطوف بعض الشوارع ويمر ببعض الحدائق مثل هايدپارك وغيره

الخطباء فى هايدپارك وغيره

فانه يرى فيها كثيرا من الخطباء وأغلبهم من الشغالة واقفين يخطبون فى أىّ موضوع يدور فى أدمغتهم مثل الفوضى والاشتراكية والديانة بسائر أجزائها عندهم وترى الرجل منهم يخطب وحواليه جماهير تتكأ كأعليه كتكأ كئهم على ذى جنة وهو لايقول لهم افرنقعوا بل كلما زاد عددهم رفع عقيرته مشيرا الى اليمين والى الشمال مكثرا من القيل والقال والاغرب من ذلك ان بعضهم يقف يتكلم بصوت مرتفع ويشير بيديه مع انه وحده وليس حوله من يستمع له ولكنه يوالى الكلام كأنه محاط بالاقوام ويستمر بالايماء الى من يفرض وجودهم ذات اليمين وذات الشمال ومنهم من يجىء فى ركب جليل بالموسيقى والاغانى والاناشيد وغير ذلك من

المقدمات التى تصطاد العامة وتجذبهم الى حضور مقالته ومنهم من يطوفون فى الشوارع بالالحان والانغام والرايات والاعلام وقد رأيت فى بعض الجرائد ذكر حادثة من أغرب ما رواه الراوون فى هذا الموضوع قد حصلت بلوندرة فى رأس عيد السنة وكنت وقتئذ بلشبونة عاصمة البرتقال ولا أرى بأسا من ايرادها فى هذا المقام لتمام المناسبة

ان واعظا من أشهر وعاظ الانكليز وأبلغ خطبائهم اعلن أنه عازم أن يعظ البهال الذين لا عمل لهم فى كنيسة مار بولس الكبرى بلندن فتقاطر الفقراء الذين ليس لهم عمل يعيشون به الى الكنيسة ووقف رجال البوليس صفوفا خوفا من ان يأتوا أمرا مخلا بالنظام ولكنهم دخلوا الكنيسة أفواجا على غاية من الهدو والانتظام وجلسوا فى أماكنهم على الترتيب وعلامات الاحترام والوقار بادية على وجه كل منهم مع انه كان بينهم الفوضويون والاشتراكيون والمحركون على تكدير صفاء الراحة ثم أفاض الواعظ فى كلام أثار به اعماق النفوس وحرك العواطف وأقنع العقول فاستمال اليه معظم الحضور من الذين كان يظن انهم جاؤا مستهزئين فخرجوا مصلين مستغفرين ولكن قوما كانوا يعارضون الواعظ من حين الى حين تارة بعدم استحسان أقواله وطورا بكلام الهزل كانهم فى اجتماع عقدوه فى

حديقة من الحدائق العمومية وجعل المتطرفون من الفوضويين والاشتراكيين بينهم يوزعون رسائلهم الثورية على الحاضرين ليقرؤها ولما انتهى الواعظ خرج موكبهم متجمهرا وسار زعماؤهم بالرايات الحمر امامهم وهم ينشدون النشيد الفرنسوى المعروف بالمرسيلياز

وبالاختصار ان كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف فى أىّ مكان ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أولا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مبالين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على احراق دور الاغنياء وسلب المخازن الكبيرة وما اشبه ذلك فان حرية المقال فى هذه البلاد وصلت الى ماهو فوق منتهاها

التناقض بانكلترة

وفى يوم الاحد يكثر السكر والسرقة أيضا لان الانكليز لايعرفون الوسط فان بلادهم بلاد التناقض جمعت الاطراف فاما التناهى فى الغنى واما التناهى فى الفقر واما التناهى فى الفضيلة والعفاف واما التناهى فى الرذيلة والفجور واما التناهى فى العمل واما التناهى فى الكسل الى غير ذلك من الاطراف حتى ان المدينة اما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرة (فى يوم الاحد) وهكذا

لاتكلم من لاتعرفه بلوندرة

ولكثرة اللصوص وتفننهم فيها ينبغى بل يجب على الانسان أن لايكلم أحدا لايعرفه وأن يجتنب كل من يعرض عليه خدمته وارشاداته أو يبادره بالكلام واذا احتاج لاى أمر من الامور فلا يسأل الارجال البوليس فانهم يبادرون بالاجابة بحذق وفطانة أو يدخل فى بعض المخازن ويستعلم فيها عما يريد وقد اعتاد الانكليز أنفسهم على ذلك فاذا اتفق لك من سوء الحظ أنك كلمت واحدا منهم فان كان من أصحاب الادب وأهل المجاملة أجابك بنعم أولا من غير زيادة وكثيرا مايعرض عن الاجابة ويلازم الصمت ويستمر فى طريقه من غير أن يلتفت اليك بالمرة وان كان شرسا أعطاك درسا أوقلع لك ضرسا

عموميات على البريد

هذا وأينما سار الانسان فى شوارع لوندرة رأى حوانيت عليها صناديق للبوستة وفى كل صندوق فتحتان كبيرتان احداهما لوضع المراسلات الخاصة بالمدينة نفسها والثانية للمراسلات التى برسم أقاليم انكلترة والبلاد الاجنبية وفى بعض الشوارع المتباعدة عن هذه الحوانيت ترى على برازيق الطريق اسطوانات كثيرة من الحديد الملون بالبوية الحمراء معدة لوضع المراسلات فيها حتى لايلتزم الانسان بالتوجه الى المكتب القريب منه وثمن تذكرة

لبوستة للمملكة البريطانية نصف بنس (أى ٢ مليم) وللخارج بنس واحد (أربعة مليم) وعدد مرات التوزيع فى الستى اثنتا عشرة مرة فى كل يوم واحدى عشرة فى المواضع التى حول دار البوستة المركزية على مسافة ثلاثة أميال ويبتدئ التوزيع من الساعة ٧ ونصف افرنكى صباحا وفى بعض الجهات يكون ارسال المكاتبات بالتلغراف فى قناة يفرغون منها الهواء وعلامة ساعى البوستة أن يدق على الباب دقتين عنيفتين وفيما عدا الجهات المحيطة بدار البوستة يكون التوزيع ست مرات فى اليوم الواحد ويجوز إرجاع طوابع البوستة الى مكاتبها فتخصم من قيمتها ٢ ونصف فى المائة فى نظير العمولة والاصدار واعلم أنه يوجد بهذه المدينة شوارع كثيرة لها اسم واحد وقد يبلغ عددها عن كل اسم واحد ١٠ أو ١٥ فلاجل منع الاختلاط الذى يتأتى حصوله بهذا السبب قسمت ادارة البوستة المدينة الى ثمانية أقسام باعتبار الجهات الاربع الاصلية والجهات الاربع الفرعية ووضعت حرفا أو حرفين (ج ش أى جنوب شرقى مثلا) للتميز بينها بالسهولة حتى لايحصل عائق أو غلط فى التوزيع ولذلك ينبغى لكل من يراسل أحدا من أهل لوندرة أن يضع هذه الحروف الصغيرة بعد ذكر اسم الشارع والمدينة لسهولة التسليم وعدم التعطيل

عموميات على التلغراف

أما التلغراف فكان قبل سنة ١٨٧١ للثلاثين شركة ثم أخذته الحكومة وجعلته تابعا لمصلحة البوستة ومع أن أقل أجرة لارسال أى تلغراف من لوندرة واليها هى أعلى مما فى بلادنا لانها هنا ست بنسات (أى خمسة قروش من العملة الدارجة) وهى فى بلادنا قرشان فقط بالعملة الصاغ ولكن القوم يستخدمونه بكثرة لايتصورها العقل لانهم يفضلون خسارة القليل من المال واكتساب الوقت الثمين ومع ذلك فاعمال البوستة أيضا مازالت رائجة واذا دفع الانسان أجرة رد التلغراف وفات الوقت المقرر للاجابة أمكنه استرجاع مادفعه لهذا الغرض فى ظرف ثلاثة أيام من تاريخ الارسال ويجوز إرسال الرسالة البرقية الى جملة أشخاص مقيمين فى مقاطعة واحدة بشرط أن يدفع المرسل ٨ مليمات على كل نسخة غير النسخة الاصلية ويجوز أيضا إرسالها الى أشخاص مقيمين فى جهات مختلفة بعد دفع نصف الاجرة العادية على كل نسخة خلاف النسخة الاصلية وهذه التسهيلات المفيدة للصلحة وللجمهور غير موجودة فى بلادنا

عموميات على التلفون

وبمناسبة التلغراف أذكر أنه يوجد بين باريز ولوندره سلك تلفونى وأجرة التكلم فيه لاى فرد من أفراد الناس مدة ثلاث

دقائق ٨ شلنات (٤٠ قرشا صاغا) أما التلفون الخاص بلوندره وحدها فهوفى يد جملة شركات

المدارس

ولايسعنى الا أن أوجل الكلام على التعليم والمستشفيات وأكتفى بأن أقول ان المدارس فى هذه البلاد تعتنى عناية عظيمة بتربية الجسد والعقل لان العقل السليم لايكون الافى الجسد السليم (Mens sana in corpore sano) ومن جملة المدارس التى زرتها مدرسة ايزلوورث المعروفة باسم (نيو برو رود كوللج) فرأيت النظام فيها بالغا حده وناظرها المستر بارنت (Barnett) على غاية الظرف واللطف وحسن المعاملة ودماثة الاخلاق وعلمت منه وتحققت بنفسى أن تلامذتنا المصريين فيها بلغوا من التقدم والنجاح درجة يغبطون عليها وأنا متأكد من الآن أنهم سيخدمون الوطن خدمة جليلة عند رجوعهم اليه بما اكتسبوه من المعارف والآداب ويسرنى بل يجب علىّ أن أورد أسماءهم فى هذا المقام وهم حضرات الافندية أحمد براده ومحمود يوسف ومحمود قاسم

وقد أصدرت نظارة المعارف العمومية أمرها الى وطنينا المجتهد الفاضل حسن افندى توفيق الذى كان فى برلين بالتوجه الى لوندره لتعلم اللغة الانكليزية وغيرها بهذه المدرسة ورأيته

وعلمت منه بكل ارتياح وانشراح أنه ألف كتابا فى التاريخ العام وأنه بعد أن يتمه قريبا يشرع فى تدوين ما استفاده من أنواع العرفان ووقف عليه من شتات الفوائد التى تنفع أبناء بلاده ولعمر الحق ان هذه النتائج مما يسر مصر وكل محب لها ولاهلها وأقول مثل ذلك أيضا عن حضرات الافندية التلامذة على عمر وأحمد فهمى ومحمود اسمعيل الموجودين بمدرسة هو مرتن فانى توسمت فيهم النجابة والفطانة وتفرست أنهم عند عودتهم الى وطنهم بعد زمن قريب سيبرهنون على أنهم لم يضيعوا أوقاتهم سدى بل اكتسبوا من العلوم ما يجعلهم هم واخوانهم ان شاء الله وساعدتهم العناية فى مقدمة العاملين على اتحاف أبناء بلادهم بما يفيدهم فى ميدان العرفان (وان غدا لناظره قريب)

وسأشرح لك الكلام فى الرحلة على التعليم وطرقه وقرب الوصول الى ثمراته فى بلاد الانكليز وعلى مدرسة اكسفورد الجامعة بنوع خصوصى لانى زرتها بالتفصيل وأكتفى الآن بايراد بعض المرتبات التى للاساتذة لتعلم أن مرتبات أمثالهم فى بلادنا أقل مما يكتسبه الواحد منهم فى يوم أو بعض يوم مثال ذلك أن المدرسة الجامعة فى اسكتلندة تدفع لمدرس الكيمياء ٨٠

ألف فرنك فى السنة أى ثلاثة آلاف ومائتى جنيه أى مائتين وستة وستين جنيها وثلثى جنيه فى الشهر الواحد ولمدرس التشريح ٧٥٠٠٠ فرنك ولمدرس الطب ٦٥٠٠٠ فرنك ولكل من مدرس التاريخ الطبيعى والباتولوجيا ٢٠٠٠٠ فرنك ومدرس النباتات مرتبه السنوى ٥٥٠٠٠ فرنك ويوجد فى المدرسة الجامعة بمدينة جلاسكو مدرس للتشريح ومرتبه ٥٥٠٠٠ فرنك فى السنة وأما المدرسة الجامعة باكسفورد ففيها ٤٦٤ مدرسا مجموع مرتبهم السنوى أربعة ملايين من الفرنكات أى متوسط الواحد منهم ٩٥٠٠ فرنك وفى المدرسة الجامعة بكمبريدج ٤٨٣ استاذا ومجموع مرتبهم السنوى ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ فرنك وفى دبلين عاصمة ارلندة مدرسة اسمها الترينتى (أى التثليث) وفيها ٥٩ مدرسا مرتبهم ٨٠٠٫٠٠ فرنك فى السنة فهكذا تكون العناية بالتعليم والقائمين به

الاعلانات وهولها

ومن الامور التى تدهش القادم الى لوندرة كثرة الاعلانات التى يراها على جدران المحطة وكل مكان فيها حتى لايمكنه مطلقا معرفة اسم المحطة وتميزه عن الاعلانات ثم متى سار فى الشوارع رآها كلها اعلانات واذا ركب فى عربات الاومنيبوس أو غيرها رآها كلها اعلانات من الداخل والخارج والاسفل والاعلى ولقد كان صدرى

يضيق من رؤيتها وهى كأنها تتهددنى بوجوب قراءتها والعمل بما تشير اليه والاستحصال على ماتدل عليه فكنت اذا قلبت طرفى يمنة أو يسرة أورفعته الى أعلى أوخفضته الى أسفل أوحولته الى الخلف أو رجعت به الى الامام رأيت الاعلان واقفا لى بالمرصاد فاذا أغمضت الطرف لاستريح منه قليلا ثم انتبهت فلا مناص لى من رؤيته على الدوام وفى كل مكان مختلف الصور والاشكال والرسوم والالوان فاذا أخذت تذكرة للسكة الحديدية أولعربات الاومنيبوس أوغير ذلك رأيت الاعلان مقتفيا أثرى وأثر كل من كان فى أى مكان وأى زمان فاذا اشتريت كتابا أو جريدة أو تعريفة أو خريطة أو ماأشبه ذلك رأيت الاعلان هو هو على الدوام يضطرنى لقراءته بالرغم عنى قبل أى موضوع يهمنى فاذا مشيت على برازيق الطريق رأيت الاعلان يتماطر على من حيث أدرى ولا أدرى فأحتار فى كيفية التخلص منه فاذا جن الظلام رأيت الاعلان مكتوبا بالانوار على صفحات الزجاج أو بواسطة القنوات الخاصة بنور الاستصباح وقد يكون فى ظلمات الانفاق والسراديب مرقوما باحرف فسفورية متألقة

وقد جرت عادة الجرائد أنها تخصص صفحاتها الاولى للفصول المهمة والمواضيع ذات الفائدة العامة ولكن الامر هنا بالعكس

لان الانجليز يعتبرون الاعلان من أهم الاشياء فترى جرائدهم كلها على اختلاف مواضيعها وتنوع مشاربها مشحونة بالاعلان خصوصا الصفحات الاولى والصفحات الاخيرة حتى ان الانسان ليحتار قبل أن ينظر الى مواضع الاخبار والفصول السياسية اذ لابد من المرور على الاعلان مثال ذلك جريدة التيمس المعروفة بملكة الجرائد تحتوى على ١٦ صحيفة منها نحو احدى عشر صحيفة مخصصة للاعلان وقس عليها سائر رعاياها وقد علمت ورأيت أن بعض البيوت التجارية يتكبد النفقات الطائلة والمصاريف الهائلة لنشر الاعلان على صحائف حديدية فى جميع المحطات ثم لاتكتفى بذلك فتضع صحائف أخرى فى عربات السكة الحديدية (خصوصا التى تحت الارض) ثم لاتكتفى بذلك فتنشره فى عربات الاومنيبوس والترامواى فى كافة أرجائها ثم لاتكتفى بذلك فتنشره فى جميع الجرائد ثم لاتكتفى بذلك فتنشره على غطاء جميع الكتب التى تظهر حديثا وفى الصفحات الاولى والاخيرة منها ثم لاتكتفى بذلك فتعلقه فى جميع أنحاء المدينة ثم لاتكتفى بذلك فتستخدم رجالا تلبسهم بشكل مخصوص وتضع أطواقا من الحديد على خواصرهم وأكتافهم لتعليق الاعلان فيمشى الرجل منهم (ويسمونه سندويش Sandwich وهى كلمة انجليزية يراد بها شريحة دقيقة

مقدودة من اللحم الضانى أو البقرى أو الجمالى أو الخنزيرى أو من الخبيارى توضع مدهونة بالزبد بين شقتين رقيقتين من الخبز وفى التسمية الاصطلاحية اشارة لطيفة الى كون الرجل محشورا بين الاعلان أو كون الاعلان محشوا به) وامامه وخلفه وفوق رأسه ألواح من خشب مكتوب عليها الاعلان ثم لا تكتفى بذلك فتطبع أوراقا صغيرة تضعها فى يد السندويش فيفرقها على المارة فهذا العمرك هو الحصار بعينه وكل واحد من أصحاب الاعلان يجتهد فى التفنن فى اعلانه حتى يجعله يضطر الانظار للالتفات اليه لما فيه من الرسوم والحروف والالوان وغير ذلك مما يضيق الصدر ويقضى على الانسان بان يحسد العميان

العميان فى لوندرة

وهنا تذكرت العميان فقد سبق لى القول بأن المقعدين استغنوا عن خدمتهم وقلت لابد لى أن أجد طائفة العميان قد وجدت هى أيضا طريقة تكفيها الحاجة الى أنظار المقعدين ولا أريد أن أتكلم على النكايا المخصصة لهم بواسطة الحكومات أو أهل البر والاحسان فانها ليست من تفننهم وقد كنت أعرف أنهم اتخذوا الكلاب للاسترشاد بها والسير خلفها ولكنى قرأت فى بعض الجرائد أثناء مروري على باريس أن أحد العميان جلس على بر زوق الطريق ووضع بجانبه لوحة مكتوبا عليها هذه العبارة

(القوا نظرة وصلديا الى الذى لايمكنه أن يردهما اليكم) فكيف لايحن قلب الانسان وتدفعه عوامل الشفقة الى امداد صاحب ذلك الفكر الحسن ولما جئت لوندرة رأيت العميان قد تفننوا فى الاختصار لان الوقت عند الانكليز من ذهب فترى الرجل واقفا حيث تمر الالوف المؤلفة فى كل لحظة وعلى صدره صندوق صغير فيه فوهة ومكتوب عليها (Blind بْلَيْنْدْ أى أعمى) ليس الاثمان بعضهم أراح نفسه من الوقوف أيضا فوضع صندوقا بجانب شباك التذاكر فى المحطات حتى ان المسافر بعد أن يأخذ الباقى له يضع بنسا أو بنسين أو مايتيسر بكل سهولة من غير أن يتكلف وضع يده فى جيبه واخراج الدراهم منه فان ذلك يضيع منه الزمان ويمنعه عن الاحسان . وأتذكر أنى أول مرة رأيت الرجل واقفا على قنطرة لوندرة ومعه هذا الصندوق لم أفهم الكلمة التى عليه فوقفت أنظر هذا الامر ولما سألت من معى وعرفت سر المسئلة فرحت كثيرا اذ تمكنت بذلك من الايفاء بوعدى فى رسالة فلورانسه

عواطف وطنية

ولكنى مالبثت ان تكدرت لانى سمعت بعض المارين بجانبى يقولون عنى إنى أمين باشا (رجل خط الاستواء وهو الدكتور شنتيزر الالمانى) فقد ثارت فىّ العواطف الوطنية والاحساسات القومية لانى لاأرضى أن أشبه برجل مثل هذا الذى خان حكومتى

وبلادى وباع أوأعطى أملاكها فى خط الاستواء لدولته الاصلية أولغيرها بعد أن رقته حكومتنا السنية الى مراتب العز والشرف وسهلت له سبيل الثروة واليسار وحسن السمعة والاشتهار ثم تكلفت النفقات الطائلة (وهى فى احتياج اليها) لامداده وانجاده وانقاذه فقابل ذلك المعروف وكل هذه المواساة بالنكران وفعل مافعل قاتله الله (وقدفعل)

وبالاسف انى بعد ذلك سمعت اناسا آخرين يقولون هذا القول عنى حينما يرون اصفرار وجهى واحمرار طربوشى

ولقد تجولت فى بعض مدائن الانكليز وسأتكلم عليها وداع وسياحة بالاختصار فى الرسالة الآتية وأترك التطويل الى الرحلة ثم رجعت بانفراد الى هذه المدينة وكانت مدة مقامى فيها أولا وثانيا ثلاثة وثلاثين يوما ولم أشرع فى السياحة الا بعد أن ودعت صديقى الفاضل عثمان بك غالب وكأننى ودعت معه نفسى أوأودعته روحى لشدة الالم الذى حصل لى من فراقه ولكونى بقيت بعده وحيدا (وما أردت أن أستعين بالتلامذة المصريين حتى لاأشغلهم عن الدرس والتحصيل وحتى أتعوّد على السياحة بمفردى)

اخلاق الانكليز

فمن أخلاق الانكليز التى وقفت عليها فى سياحتى فى بعض مدائنهم المشهورة أن الجراءة والاقدام فيهم أكثر منهما فى أية أمة

أخرى فهم يقتحمون كل الاخطار التى تخطر على البال وهم مخلوقون للسياحة والتجوال ومتى خرج الواحد منهم من وطنه قاصدا أىّ جهة وقابلته الصعوبة والمشقات والاهوال والاخطار فلا يزيده ذلك إلا ثباتا واقداما وعنادا لانه رسم خط سيره ولا يمكنه أن يعدله أو يرجع عنه واذا كتب فى دفتر سياحته أنه فى يوم كذا وساعة كذا يكون فى المحل الفلانى فاذا لم تصادفه منيته فى الطريق فلا شك أنه يكون فيه فى الوقت المعين

واذا سافر لاقصى أقاصى الارض فعل من غير ضجة ولا رجة ولا حيرة وذلك عنده أسهل من السفر الى القبة والمطرية لاهل القاهرة والى الرمل لاهل الاسكندرية وانما هنالك سؤال وحيد لا يمكن أن ينساه وهذا هو (هل أرجع من طريق الصين أو طريق أمريكا)

ولوع الانكليز بالرياضات

ولا بد لكل انكليزى من أبناء البيوتات الكبيرة أن يكون عارفا بقيادة المراكب والخيل والعربات ويتعود من نعومة أظفاره على الرياضات الجسدية فلا يعبأ بالمشى مسافة مائة ميل أو بالتقذيف فى الزورق من لوندرة الى اكسفورد (٦٩ ميلا) وكثير منهم يذهبون من لوندرة الى ايدمبورج عاصمة اسكتلنده سعيا على الاقدام والمسافة (٤٠٤ أميال) ومنهم من سار على أقدامه ٤٠٠

مرحلة فى بلاد السويد وهم يستمرون على المشى بهذه الكيفية حتى يصبحوا طاعنين فى السن وترى الشيوخ الهرمين يمشون فى الارياف كل يوم خمسة أوستة كيلو مترات ولا يمتنعون عن ذلك الا اذا أصابهم مرض لابد أن تعقبه الوفاة ومعلوم أن غلادستون مازال الى الآن يقطع الاحطاب بنفسه حتى لقد اتفق له فى الشهر الماضى (أغسطس) أن بقرة نطحته وكادت تبقره بينما كان مواظبا على عادته فى الغابة

وفيهم كثير من الشيوخ يغتسلون بالماء البارد صباحا ومساء صيفا وشتاء ولا يتناولون فطورهم الابعد مشى ثلاثة أو أربعة أميال

ويوجد باكسفورد أستاذ جرت عادته أن يمضى المساحة السنوية مع زوجته فى قارب يقوم هو فيه بالتقذيف وهى بامساك الدفة (١) ويستمر على ذلك شهرا أو شهرين فى كل سنة ومتى

---

(١) الدفة لفظة مولدة وتسمى فى العربية « السُّكَّان » قال فى تاج العروس والسكان كرمان .... ذنب السفينة عربى صحيح وقال أبو عبيد هى الخيزرانة والكوثل (مؤخر السفينة أو سكانها) وقال الازهرى مانسكن به السفينة وتمنع به من الحركة والاضطراب وقال الليث مابه تعدل وأنشد لطَرَفة * كسكان بُوصِيٍّ بدجلة مصعد * (والبوصى ضرب من السفن وهو الزورق معرب بوزى)

اقبل المساء نزل بأحد الخانات التى على ساحل النهر وعند الصباح يأخذ منه المؤنة ثم يستمر فى تجواله وقد ساح بهذه الكيفية على أغلب أنهار أوروبا

وكثير منهم يذهبون على عجلة الاسلاك (السيكل Cycle) من احدى عواصم أوروبا الى الاخرى وقد جرت عادة أغلب المتزوجين حديثا بقضاء الشهر الاول المعروف عند الافرنج بهلال العسل على ظهر هذه العجلة فى الوديان والغابات والبرارى والخلوات متنقلين من قرية الى أخرى بدون أن يكون مع الزوجين شخص ثالث يضايقهما

حرصهم الكلى على الوقت

واذا سألت الواحد من هؤلاء الاقوام عن سؤال أجابك لحرصه على الوقت بنعم أولا فقط وفى النادر يجيبك بكلام قليل جدا بحيث انه لايتخلى عن عمله الذى فى يديه أو قراءة جريدته وكذلك السائل يطرح السؤال ثم يوالى عمله وفى المكاتب الخاصة بالادارات العمومية أو بالشركات ترى هذا الاعلام (الرجا منك أن لاتتكلم الا فيما يختص بالاشغال) وفى الكتبخانات والمحلات العمومية ترى كلمة (صه) أو (الكلام ممنوع) مطبوعة فى كل جهة وترى طريق الدخول وطريق الخروج واضحا فى كل المحطات وما أشبهها من المحال العمومية وبجانبه اصبع يشير الى الطريق

تحشمهم في بعض عبارات

وما أصدق الذى قال ان الانكليز لايشبهون أية أمة أخرى ولكنهم كلهم متشابهون متجانسون على منوال واحد وطرز واحد وهم يتحاشون القول الهراء بكل مافى وسعهم فيعبرون عن الزنا بقولهم (مسامرة جنائية) ويستبدلون هذه الجملة (ممنوع إلقاء القاذورات وممنوع التبول الخ) بهذه (لاترتكب أى اتلاف) ويسمون المبولة والمرتفق (مغسلا) ولاجل تأييد هذه التسمية يضعون طستا لغسيل الوجه وفرشا لتنظيف الشعر والملابس ولذلك يقول الرجل منهم (انى أريد أن أغسل يدى) بدلا من قولنا (أنا رايح زى الناس أو رايح أزيل ضرورة أو أنقض أو أفك وضوئى) ولايقولون عن المرأة انها حبلى بل انها (فى طريق العائلة) أو (فى حالة تستدعى الاهتمام) وهم يتحاشون المزاح بالمرة أمام النساء وفى بعض المباول العمومية يكتبون هذا الاعلام (أصلح ملابسك و بنطلونك قبل الخروج) وهكذا

الثقة والصدق

وفيهم ثقة تامة يعجب بها الغريب حتى فى الاعمال والتجارة والصدق فيهم منتشر جدا فيكتفى الرجل منهم عند الزواج بأن يعلن عن سنه وانه عزب أولم يتزوج ولايبرز أوراقا لتأييد أقواله واذا كذب الواحد منهم مرة فى الامور القضائية حوكم كمن يحنث فى يمينه أو يخون عهده واذا كذب عند أحد الافراد طرد

فى الحال ومن ثقتهم ان عمال الكمرك يسألون القادم عما معه من الاشياء الخاضعة للرسوم ويعتمدون قوله فاذا ظهر كذبه صودرت الاشياء المضروبة عليها الرسوم الكمركية لجانب الحكومة وألزم الكذاب بدفع قيمة الرسوم ثلاثة أضعاف

مبادئ الزواج

ومتى اصطحب شاب بفتاة كان له أن يعرفها بأصحابه وينفرد بها فى الفسحة والنزهة والمراقص والتياترات والخلوات وغير ذلك وقد يبقى عقد الخطبة بينهما سنين طوالا الى أن يتيسر للشاب القيام بما يلزم من المصروف ومتى حصلت المفاتحة فى الخطبة فلا يجوز لاحدهما أن يعدل عن الزواج الا برضا الآخر فلو عدل الشاب طالبته الفتاة وأهلها بالعطل والاضرار وأبرزوا فى الجلسة المخاطبات والمكاتبات التى تبادلها المحبان وتعترف الفتاة أمام المحكمة بالاقسام التى أغلظها لها بالبقاء على حبها وبغير ذلك واذا كان العدول من طرف المخطوبة لايتأخر الفتى فى اقامة القضية واكتساب مبلغ وافر من المال فى نظير العطل والاضرار ولا يُنظر الى أحدهما فى هذه الحالة بعين السخط والاستهزاء بل يرى القوم فعله أمرا طبيعيا أو حقا مكتسبا أو واجبا لابد من قضائه

شدة تمسكهم بعاداتهم

وللانكليز تمسك شديد بعاداتهم وتقاليدهم يشبه محبتهم للغتهم وتفضيلهم لها على ماعداها حتى انهم يحتقرون الغريب الذى يزورهم أو يتوجه الى التياترو أو يجلس فى الفندق على مائدة الاضياف بغير الملابس السوداء الرسمية المعتبرة عندهم فى ليالى الاحتفالات وأغلب النساء فى البيوتات الكبيرة يتكلمن بالفرنساوية جيدا ومن عاداتهم أنهن يقمن عن المائدة بعد تمام الأكل ويبقى الرجال وحدهم لشرب الدخان وغيره والمسامرة والمحادثة ثم يتقابل الكل فى قاعات الاستقبال أو غيرها وفى النساء لدى التكلم خفة فى الحركة وشهم وجراءة واقدام ولولا انى وعدت بعدم الرجوع لهذا الموضوع اشرحت الحال وأطلت المقال وحسبى أن أقول ان الذى يحكم عليهن بحسب العينات التى يراها فى مصر يعترف بأنه أخطأ وجازف متى جاء هذه البلاد ومن الغرابة أن الواحدة منهن متى كانت جميلة فليس لها مثيل على وجه الارض ومتى كانت قبيحة فلا يضارعها فى السماجة انسان وذلك لان الوسط غير موجود فى بلادهم فى كل الامور

احذر النساء

ومما ينبغى تنبيه الغريب اليه أن لاينفرد بالجلوس مع أية امرأة كانت فى غرفة من عربات السكة الحديدية مهما ظهرت له فى مظاهر الاحتشام والوقار والنبل والكمال فلقد تجمع كثير

منهن (كما تجمّع الرجال واشتركوا فى التجارة والصناعة) واتفقن على جعل القطارات ميدانا لاعمالهن فمنهن النصابات المحتالات النشالات الطرارات ومنهن التى تطالب بمبلغ عظيم وتهدد صاحبها بأنه ان لم يؤد هذه الجزية عن يد وهو من الصاغرين بلغت رجال الشرطة عنه فى المحطة التالية بانه فاتحها بما يخل بالاداب وغير ذلك ومنهن المتدينات المترهبات اللاتى يلازمن الرجل بدعوى أنهن يخلصن روحه ويهدينه الى الصراط المستقيم صراط الذين اتبعوا المذهب البروتستانتى ثم تأخذ فى ايراد الدلائل والبراهين لاقناعه برجوب الدخول فيه وفى هذا القدر كفاية الآن

مبانى لوندرة

واعلم ان مبانى لوندرة كلها على طرز واحد ومثال متشابه ومنوال متجانس وكلها متسربلة بملابس الحداد كأن أهلها يرون مثل بنى العباس ان (النور فى السواد) ويظهر للمتأمل فيها أنها مبنية بالطوب الاحمر ولا تزيد عن الدورين الا فى النادر ولكنها متى تعدت هذا العدد أو تجاوزت النموذج المتبع عندهم فى البناء فيكون ذلك للطرف الآخر مرة واحدة فقد شاهدت بعض الدور فيها ثلاث عشرة طبقة ورأيت من جمال بعض المنازل والقصور ماجعلنى أحكم بانى فى احدى مدائن ايطاليا بعيدا عن لوندرة بمراحل وكيلومترات ومثال ذلك كنيسة ماربولس تتراءى على

مسافة ٢٠٠٠٠ مترمما حولها وفى كل المبانى ترى طبقة تحت الارض يستخدمونها للطبيخ والغسيل والتخزين وما أشبه من اللوازم المنزلية حتى لايكون ذلك بجانب المساكن بل ان النزول الى هذه الطبقات يكون من سلم على برزوق الطريق فلا يدخل الفحام أو الجزار أو الخباز أو الخضرى أو غيرهم من المتعهدين بالتوريد فى المساكن مطلقا ودبروا النور والهواء فى تلك الطبقات الارضية بما يجعلها موافقة للصحة ورأيت فى بعضها قاعات للجلوس وغرفا للاستقبال فى غاية الزخرفة والجمال بحيث انها تروق فى عين الانسان وتستميله الى اطالة الجلوس فيها

أما المساكن فان منظرها من الخارج عادى حقير ولكنه من الداخل محفوف بالتأنق وله من التزويق رونق يأخذ بالابصار فترى فيها المفروشات الثمينة والطرف والتحف التى لاتقدر قيمتها وترى الكراسى والمقاعد مختلفة الاصناف والاشكال وترى الامتعة والمرائى فى جميع النواحى مرتبة بذوق وحذق قد تجرد منهما خارج المنزل بالمرة وهذا أيضا من باب التناقض

الطبخ الانكليزى

وأما طبخهم فعادب (تافه) وفى غاية البساطة فكأنهم لايزالون على الفطرة لان الاشكال التى يعرفونها قليلة العدد وليس لهم من تنويع أو تعديل بل ما زالوا سائرين فيها على سنة آبائهم

الاولين ولكنها كلها والحق يقال صحيحة نظيفة وقد فاقوا الامم جميعا فى اصطناع الروزبيف فانك ترى كتلة من اللحم تزن ثلاثين أو أربعين رطلا وكلها مسوّاة بالسواء من الداخل والخارج ومن جميع الجوانب وهم لايضعون الملح فى الخبز أيضا أما الفنادق الكبيرة وأغنياء القوم فيستخدمون طباخين فرنساويين حتى انهم يضطرون (مع شدة محبتهم للغتهم) لكتابة وفهم أسماء الالوان بالفرنساوية ولقد أحسن فولتير حيث قال (ان الناس فى بلاد الانكليز يعبدون الله على خمسين نوعا ولكنهم لايهيؤن البقرى والضانى الا على نوع واحد)

تنمير المساكن

أما نمر المنازل فى الشوارع والحارات فليست منتظمة كما فى مصر بطريقة الشفع والوتر بل قد ترى الجانب الايمن مبتدئا بعدد ١ ثم ٢ فـ٣ وهكذا حتى اذا انتهى الشارع بعدد مارجعوا بالعدد الذى يليه من نهاية الجانب الايسر فيكون أول الشارع فيه أول أعداد المنازل من جهة اليمين وآخرها من جهة الشمال وفى القليل منها قد اتبع القوم طريقة الترتيب الحسنى المتعارفة فى مصر وغيرها من ديار أوروبا

المرتفقات والمساول العمومية

وفى جميع المحاط والمتاحف والآثار العمومية والاسواق المهمة والميادين التى بين الشوارع ترى مرتفقات ومساول عمومية

بعضها خاص بالنساء والباقى للرجال وكلها فى غاية النظافة ونهايه الاستعداد وتضاء بالليل بالكهربائية وفيها الماء متساقط باحكام على الدوام من أحواض قدترى فى بعضها الاسماك المختلفة الالوان يربيها الحارس فى هذه البحيرة التى يتجدد ماؤها فى كل لحظة وكثير من هذه المرتفقات متسع جدا وينزل اليها بدرج لانها تحت الارض (اذ لافضاء لها فوقها فى هذه المدينة الجسيمة كلها) واذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرتفق قريبا منه فله أن يدخل فى أىّ دكان فطاطرى ويدفع بنسا واحدا مليم للخادم

وقد سبق لى ذكر الستى (المدينة) وسهوت أن أقول انها وصف الستى مركز الصناعة والتجارة لالوندرة وحدها بل للعالم أجمع تتوارد اليها كنوز الثروة من جميع أقطار الارض وتديرها هى كيف شاءت وترسلها أينما أرادت ومن نظر الى جوّها تصور أن رتيلاء هائلة جاءت ونسجت خيوطها وأرسلتها فى جميع أطرافها فان الاسلاك التلفونية والتلغرافية التى فيها عددها أعسر من احصاء قطرات الامطار ومما يدلك على أن الحركة فى هذه الجهة من لوندرة قدوصلت الى نهايات التصور أن الرسائل الواردة عن طريق البوستة توزع فيها فى كل ساعة من ساعات النهار وان عدد المكاتيب التى ترد اليها فى كل صباح يزيد عن الالف ألف (وهناك

مخزن واحد يرد له فى اليوم أكثر من ثلاثة آلاف رسالة) وعدد سكان الستى المقيمين بها ٣٧,٦٩٤ نفسا ولكنها فى ساعات الاشغال تتوافد اليها الخلائق من كل فج عميق حتى يبلغ عدد الذين بها طول النهار أكثر من ٣٠١,٣٨٥ منهم ٢٩,٥٢٠ رؤساء بيوت تجارية و ٢٠٢,٢١٥ مستخدما و ٥٠,٤١٦ مستخدمة و ١٩,٢٣٥ غلاما لايزيدسنهم عن ١٥ سنة وقد حسبوا أن فى ٢٤ ساعة (فى يوم ٢٧ ابريل سنة ١٨٩١) دخل الى حدود الستى ١,١٨٦,٠٩٤ شخصا و ٩٢,٣٧٢ عربة مختلفة الانواع ومتى أقبل الليل رجعت هذه الخلائق كلها وتركت الستى قاعا صفصفا حتى اذا انشق النهار رأيت هذه الاقوام تنهال عليها من كل جانب بمئات الالوف كالسيل المنهمر فهى أشبه بالبحر يحدث فيه المد والجزر

بلوندرة روح التجارة

ومما يدل على ان روح التجارة مجموعة فى العاصمة الانكليزية ان الرسائل التى توزعها البوستة فى لوندرة وحدها تزيد عن ربع مجموع الرسائل التى ترسم بريطانيا العظمى كلها بل ان بلاد اسكتلندة (Scotland) (وتعرف عند العرب باسم سقوسية) باجمعها لايرد لها من الرسائل نصف مايرد للوندرة كما ان ايرلندة

(وتسمى كذلك فى كتب العرب القديمة) بسائر مدائنها ومعاملها ومتاجرها البحرية لايرد لها الثلث من هذا القدر

السعادة بالاجتهاد

فكيف لاتنهال جداول الثروة على هؤلاء القوم العاملين الذين يعرفون حقيقة قيمة الوقت حتى ان الرجل منهم اذا تفكر فى أىّ أمر من التسهيل والتيسير وثابر عليه بقليل من الثبات وساعده حسن جده لايلبث أن يصير من أغنيائهم وأشرافهم ونبلائهم مثال ذلك رجل كان يصطنع البيرة (الجعه) واسمه (باس) فاتقن عملها وتفنن فى طرق التعريف بها حتى انه وصل الآن الى ثروة لايمكن تقديرها الا لمن يعلم أنه اشترى الدار التى كان يسكنها اللورد بيكونسفلد وزير انكلترا الشهير ثم فرشها بالمتاع الفاخر و بلغت نفقات الفرش وحده ٦٥ ألف جنيه تقريبا من ذلك لوحتان فيهما بعض الصور والمناظر بستة عشر ألف جنيه ولما وصل الى ماوصل من اليسار توصل الى ان صار من اللوردات الكبار (اللورد برتون) وعنده الآن سبعة آلاف عامل وله ايرادات كثيرة ودخله من الجعة وحدها بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف جنيه فى السنة الواحدة ومرتب مدير الادارة عنده هو ٥ آلاف جنيه انكليزى فى السنة

ومثله كوك المشهور وتاريخه معلوم فى مصر وقد أصبح لبيته

الا ن اقلام ومكاتب فى كافة البلاد المتمدنة بل ان له فى لوندرة وحدها نحوا من ثمانية مكاتب وكلها تشبه بل تفوق المصالح المنتظمة المشهود لها بالاجادة ومما يدل على انتظام ادارته وتيقظ عماله لراحة معامليه أنهم أطاعونى فى لوندرة على ترجمة شكواى من وكلائهم فى برندزى أرسلها لهم وكيلهم فى القاهرة نقلا عن رسالتى الاولى واستفهموا منى عن اللازم ووعدونى بمعاقبة المقصرين حتى لايعودوا للاخلال بواجباتهم وسأفرد للكلام عليه فى الرحلة فصلا ان شاء الله

ومثله رجلان اسمهما سپيرز و بوند قد التزما بان ينشئا فى جميع محاط لوندرة وبريطانيا العظمى سكُرْدانات (١) للاكلين والشاربين من المترددين على القطارات فراجت تجارتهما وربحت أعمالهما حتى تعديا هذا النوع الى غيره فأنشآ دكاكين بدالين (بقالين) وخياطين وغير ذلك وعندهما من النساء المستخدمات نحو الخمسمائة امرأة

---

(١) يؤخذ من كلام شفاء الغليل أنّ السكردان لفظ فارسى معرب ومن شرحه له يستفاد انه يقابله فى اللغة الافرنكية كلمة بوفيه (Buffet) المستعملة الآن فى اللغة العربية وحينئذ فالرجوع الى السكردان أولى وأفضل لانه يدل على الخزانة يحفظ فيها المأكول والمشروب

ومثلهما كثير غيرهما اتبعوا طريق الجد فى أعمالهم ففازوا وصاروا من أهل الثروة وأقبلت عليهم الخلائق وأقرت لهم بالفصاحة والاصالة وصار لهم فى النفوس مهابة وجلال حتى ان كثيرا من المحدثين بهذه الصفة أصبحوا أعضاء فى البرلمان بالنيابة عن بعض المقاطعات بل عن بعض المدارس الجامعة وهم كثيرون لاأريد أن أطيل الرسالة بذكرهم ولكنى لاأرى مندوحة عن الكلام على رجل اسمه هويتلى Whitely

هذا الرجل كان فى مبدأ أمره من طائفة المتسببين يبيع بعض الاصناف على عربة يدفعها بيده أو يقف بها بجانب البرزوق فأصبح الآن وهو صاحب مخازن واسعة فى لوندرة لايضاهيها غيرها فى كل البلاد التى رأيتها وقد علمت أنها فريدة فى العالم بأجمعه ولما دخلت هذه المخازن حرت واندهشت وضللت عن الطريق لتشعب مسالكها وتنوع الاصناف فيها فانك تجد عنده كل مايحتاجه الانسان من أى طبقة كان من يوم مولده الى يوم ملحده من جميع الاصناف وكافة الانواع من ملابس للجسم وللرأس وللبدين وللاقدام داخلية وخارجية للرجال والاطفال والنساء والبنات جاهزة أو مفصلة بحسب الارادة ومن أقمشة لجميع أصناف الناس للملكية والعسكرية البرية والبحرية

ومن حرائر ومنسوجات مختلفة متعددة متنوعة ومن روائح واعطار ومن بضائع أجنبية من جميع أقطار الدنيا من مصانعات ومجوهرات مختلفة الاقدار والاحجام والاثمان ومن مشغولات الحديد وكافة المعادن على الاطلاق ومن أخشاب وأحطاب ومن كتب وورق وما يقتضيه ذلك من جميع الانواع ومن فواكه طرية وناشفة وخضراوات جافة ورطبة جنية ومن لحوم الحيوانات والصيد ومن حيوانات حية وأطيار وأسماك بل تجد عنده الفحم الحجرى بل الكبريت بل كل مايتصوره الانسان يجده فى هذه الدكان وعلى الضمان

ذهب اليه فى أحد الايام رجل من اللوردات وأراد أن يربكه ويضحك عليه فقال له انى أريد فيلا أبيض (ومعلوم انه من الندرة بمكان) فتلقاه الرجل بكل هدء وسكينة واستوصفه الفيل اللازم وساومه الثمن وأخذ عنوانه ثم قال له أضرب لك موعدا بعد ثلاثة شهور يحضر مطلوبك فلم يمض الاجل المعين حتى جاء الى صاحبنا اللورد كتاب فى البوستة يعلمه بوصول الفيل حائزا لكافة الشرائط المطلوبة والاوصاف المرغوبة وان هو يتلى مستعد لارساله اليه فى المكان الذى يعينه و بلغنى ان عدد الفتيات المستخدمات فى مخازنه يقارب الخمسة آلاف وأمثال هؤلاء كثيرون

فلا يعجب الانسان حينئذ اذا اضطر القوم للاستعمار الغنى والفقر والاجتهاد فى جلب الذهب الى بلادهم من كافة أقطار الارض حتى صارت مدينتهم سوق العالم كله وأصبح كثير منهم يكتسبون فى الدقيقة الواحدة خمسة أوعشرة جنيهات أوأكثر ومنهم من ايراده السنوى يعتبر فى بلاد أخرى رأس مال عظيم جدا ومنهم دوك اف ڤونشير يملك من الاراضى فقط ماقيمته ثمانية آلاف ألف جنيه ومع ذلك فان ثروته هذه ليست شيأ يذكر بجانب دوك وستمنستر التى لم يتيسر حصرها للآن

وبهذه المناسبة أقول ان الباحث المدقق لايرى فى أى نقطة فى الكون منظرا أبشع ومشهدا أشنع من الفقر الذى أناخ بكلكله على جانب عظيم من سكان لوندرة فان ذلك المنظر يوجب لوعة وألما لايضاهيهما شئ من الاحزان لقربه من تلك الثروة الطائلة وتلك النعمة الكاملة الآخذة فى النماء والازدياد بقدر اشتداد وطأة الفاقة وتناهى الاعسار فهلا يرى الناظر بعد ذلك ان هذه المدينة قد تفردت بالجمع بين الاطراف وانعدم فيها الوسط فى كل أمر من أمور الحياة حتى لقد صدق شاعرهم شيلى إذ قال مامعناه

ان جهنم المستعرة * أشبه بمدينة لوندرة

الرسالة الحادية عشرة

تجوّل فى بعض مدائن الانكليز

وصف المطر والضباب

قمت من لوندرة فى يوم الخميس ٢٢ سبتمبر وقد اكفهرّ وجه السماء واحتجبت شمس الضياء وخيمت فى المدينة كتائب الضباب ثم تمزقت ضلائع السحاب فتساقطت الامطار كالانهار وتسابقت السيول من أعالى التلول وتتابع الرعد القاصف يصحبه البرق الخاطف ورأيت الناس يبتدؤن فى ايقاد النور فى الشوارع والحوانيت والدور فنزلت من العربة الى جهة مستقربة للتفرج على هذه الحركة المستغربة غير مبال بهاطل الوابل فخيل لى أنى فى صندوق كبير من الزجاج القاتم وعلى جدرانه شبه أشجار منضودة ومياه معدودة وطرائق ممدودة وأشباح فى غدو ورواح وما وصلت الى سكة الحديد الاوقد بلغ الظلام منتهاه فأسرعت الى عربة القطار السريع ورأيت الماء ينهال من ميازيبها كانها أفواه القرب ولما استقربى الجلوس واستأنست بالجلوس ورأيت النفوس تتضجر من هذا الجو العبوس فاتحت بعض القوم بهول هذا اليوم فقال هذا هو الضباب الاسود ولعله يقف عند هذا الحد فلا يكون طليعة لعرمرم الضباب الاصفر فانه هو الموت الاحمر

فأظهرت الاشتياق لمعرفة هـذا الافتراق فأخـبرنى أن الضباب عندهم قسمان أولهماوهوالذى نشاهده الآن أكثر غرابةوأقل ضررا للانسان فانه يجعل وقت الظهيرة البهيج كمنتصف الليـل البهيم فيسارع الناس باضاءة النبراس ومتى كان الضـباب فى الطبقات العالية فليس فيه من الضرر مايستحق أن يذكر ولـكنه على كل حال لايوجب عطلافى دولاب التجارة وحركة الاعمال وأما الصنف الثانى فهو الاصفر يؤثر على الحلق ويهدد الخلق بالخنق ويوجب التحفظ على الافـام بالاكمام وقد اخـترعوا للوقاية منـه كمامات مخصوصة للتمكن من التنفس بسهولة وكل من أهمل الاحتراز بهذا الغطاء أو بهذه الكمامة خرج الدم من فيه مع اللعاب ان لم تزهق النفس وتذهب الى الرمس وفى الحال يسرجون المصابيح فى الشوارع والحارات والدور والدكاكين ولـكنه يستحيل على الانسان أن يرى النور نفسـه ولو كان بمقربة منه وبعضهم يلتجؤن الى العربات فيلبثون بها ساعات وترى هذه الحركة الهائلة التى تفردت بها لوندرة تقف كلها مرة واحدة ولا يتجاسر الجرىء على أن يتقدم فترا أو يتأخر شبرا خوفامن الاصطدام بشىء مما لايراه وهذا الصنف من الضباب لا يظهر الامدة خمسة عشر يوماوأخص الاوقات به شهر نوفمبر فقد يمر الاسبوع الكامل كأنه ليلة واحدة

قد يتخللها أحيانا شفق باهت يزيد فى الحزن والكآبة المنتشرة على أرجاء المدينة ولذلك كان الانكليز أعرف الناس بمضار الجو فى مدينتهم فيبارحونها فى فصل الشتاء (الا من تضطره حوائجه وأعماله) ويفر الاعيان والاشراف واللوردات منها فى هذه الاوقات لانها تكون والحق يقال غير قابلة للسكنى بما يغشاها من ركام الضباب المتوالى الذى يمزج فيها بين النور والظلام ويزيد فى درجة الرطوبة الى حد لا يطاق فشكرت الرجل على هذه الافادة وأردت أن أحيطه علما باعتدال الجو فى بلادنا وبهاء السماء عندنا مما يجعلها جنة تقر النواظر وتشرح الخواطر ولكنى رأيته لا يعبأ الا ببلاده ولا يلتفت الى غير ما هو فى معلومه فأقفلت باب الحديث كما أخذ هو والجماعة فى تدخين شبقاتهم القصيرة الشهيرة وتلاوة جرائدهم الكثيرة واشتغلت أنا باضافة هذه الفوائد على ما علمته من سرعة تغير الجو فى لوندرة فان متوسط درجة الحرارة فيها هو ٩٫٤٥ من درجات سنتيجراد وقد تنزل فى الشتاء الى ٣ تحت الصفر

مدينة برمنغام

ولم يمض الا قليل من الزمن حتى وصلنا مدينة برمنغام (Birmingham) فنزلت بها وهى مدينة قديمة اسمها الاصلى برومويشام ثم حرفها العامة الى بروماجم واشتهرت الآن باسمها المتداول المعروف وهى مركز المعامل التى تشتغل باصطناع الحديد

فى بلاد الانكليز وفيها ورش للجلوانو بلستيا ولاصطناع الريش الفولاذ التى يستعملها الافرنج فى الكتابة بدل الاقلام وللمصنوعات الحديدية الخاصة بالكنائس وعلى مقربة منها ورشة لاصطناع الزجاجات العدسية الخاصة بالفنارات البحرية وأخرى لعمل العربات ومن أجمل مبانيها دار المدينة وفيها متحف واف ومكتبة أهلية يقوم بالخدمة فيها نساء فى غاية الفطانة وفيها غرفة مخصصة لمؤلفات شاعرهم الفيلسوف الشهير شكسبير تحتوى على مجموعة فيها كتبه التى طبعت فى جميع المطابع وفيها تراجمها الى كافة اللغات الاوروباوية وكذلك البوستة يقوم بمباشرة أعمالها نساء لهن حظ وافر من علم الجغرافية

مدينة دربى

ثم قمت منها الى مدينة دربى (Derby) وتفرجت على مكنبتها ومتحفها ولكنها ليست الاعبارة عن معامل كثيرة خالية مما يشرح صدر الغريب أو يستميله لاطالة البقاء فيها وأهم شئ يستحق الذكر هو أنى حططت بها الرحال (أعنى جعبة ملابسى وقمطر أوراقى) مدة ٢٤ ساعة

مدينة منشستر

وأسرعت بالقيام منها الى مدينة منشستر (Manchester) على القطار السريع فرتحت نفق اسمه بيك فورست تونل وطوله ميلان كاملان ولكن القطار قطعهما فى دقيقتين وكانت

فيه بطرية كهربائية لاضاءة كافة العربات بالليل أو عند دخولها نهارا فى بعض الانفاق فقط ومنشستر مدينة كبيرة عامرة فيها كثير من المعامل

وأهم شئ تفرغت له فيها مكاتبها الكثيرة المجانية التى أعدت لتثقيف عقول الاهالى وتشحيذ أذهان العمال فى أوقات خلوهم من الاعمال وقد رأيت فى أهم مكتباتها مجموعة مستوفاة لانظير لها فى أعظم مكاتب أوروبا حيث احتوت على جميع ما ألفه العلماء فى فن اختذال الكتابة (الستنوغرافيا) وفيها مجموعة كاملة لاهم جرائد بريطانيا العظمى واعمال البرلمان وكتب قديمة نادرة ومعمل للتجليد ورأيت فيها طابعا يؤثر على الورق من غير حبر استحدثوه حتى لا يتمكن أحد القراء من اختلاس بعض أوراق الكتب التى يكون فيها تصاوير ورسوم أو جداول أو غير ذلك مما يستشره الغواة للاختصاص به واتلاف الكتاب برمته وهى طريقة لطيفة يحسن اتباعها فى الكتبخانة الخديوية حفظا لما فيها من الذخائر والنفائس حتى ان الذى يستعير الكتاب النادر لاتسول له نفسه تجريده من بعض الصفحات فيصبح أبتر عديم القيمة

وفيها غرفة للقراءة يجد الانسان فيها جميع الجرائد التى تصدر فى اليوم وسأشرح الكلام بالتفصيل على مكاتبها التسعة وغرف

المطالعة المتعددة اظهارا لما جاءت به من الفوائد التى لا تقدر وعدد سكان هذه المدينة ٧٠٥٫٠٠٠ نسمة بما فيها سالفورمن ارباضها وهى كما لا يخفى مركز لصناعة الاقطان (وفى متحفها نموذج من جميع محصولات القطن بانواعه فى كافة أقطار العالم) وليست من شئ فى حسن المنظر وبهاء الرونق بل هى كسوق يتمون فيه أهل المدائن التى حولها وكل هذه المدائن مختصة بغزل القطن ونسجه وبما يتبعه من الصنائع

وفيها بعض عمائر تستحق الذكر مثل دار أمانة المدينة ودار التجارة الحرة وهى معدة للاجتماعات العمومية تسع ٥٫٠٠٠ نفس وفيها بستان للنبات فى غاية الانتظام وفيها كثير من الاسواق والكنائس المهمة وفى شوارعها وميادينها أنصاب لتخليد ذكر مشاهير الانكليز وقد مضى على فيها أحد الآحاد فكأنها ولوندرة قد أفرغتا فى قالب واحد ومما زاد فى أهمية المدينة أن شركة تألفت وساقت مياه البحر الاطلانطيقى من ليفربول اليها فى ترعة سموها قنال مانشستر لكى يتيسر للسفن أن تدخل فى نفس انكلترة حتى تصل اليها بما فيها من البضائع وقد بلغت نفقات هذا القنال نحو ٦ ملايين من الجنيهات والمنظور أنهم يصرفون أيضا أربعة ملايين أخرى

(وقد ورد التلغراف فى ٢ يناير سنة ٩٤ وهو يوم طبع هذه الملزمة من الطبعة الثانية بان القنال قد تم وحصل الاحتفال به)

ليفربول وفندق أدلفى

ثم قمت منها الى ليفربول (Liverpool) ونزلت بفندق ادلفى وهو من أفخر وأفخم الفنادق التى رأيتها بأوروبا من حيث الاتساع والاتقان وكمال المعدات حتى ان أدنى غرفة فيه يضيئها النور الكهربائى وفيها التلفون للمخاطبة مع ادارة الفندق وخدمه ولمكالمة النازلين به مع بعضهم ومع المشتركين فى التلفون من أهل المدينة

الجمعية الاسلامية الانكليزية

وقد تفرجت فيها على المحاكم وعرفت أساليب التقاضى والمحاماة عندهم وزرت مكتبتها ومتاحفها وشاهدت آثارها وأنصابها وتقابلت فيها مع الشيخ عبدالله ويليم كويليم رئيس الطائفة الاسلامية من أبناء الانكليز ودعانى لتناول الطعام عنده وأكرم مثواى ورأيته قائما هو وأصحابه بتأدية الفروض الدينية الشرعية بقدر اجتهادهم فى دار جعلوا فيها قبلة ومحرابا ومكانا للصلاة ومنبرا للوعظ والخطابة وفيها مدرسة إسلامية لتعليم الآداب والفنون الانكليزية على ما يوافق النصوص الشرعية وهى الى الآن فى عهد الطفولية وكلهم متوددون لبعضهم رحماء بينهم مقبلون على تكسب أرزاقهم يتخاطبون بالفاظ الاخاء ويحيون بعضهم بتحية الاسلام ويزيد عددهم الآن

عن الستين بما فيهم بعض النساء ولاشك انهن سيكون لهن اليد البيضاء فى تعميم نشر المبادى الحقة واظهار مزايا الدين الحنيف شأنهن فى كل عمل أقبلن عليه فى أىّ قطر من أقطار المسكونة وقد ترجموا بعض السور الكريمة ونظموها فى قصائد يرتلونها فى بعض الاجتماعات وعندى نسخة منها ثم انى أديت معهم فريضة العشاء فى ليلة ٢٧ — ٢٨ سبتمبر وقد اشتد الزمهرير وتنازلت الزمهرير فى سبتمبر الحرارة وارتفعت البرودة بما لم أعهد له مثيلا من قبل حتى كانت جوارحى تنتفض وفرائصى ترتعد كأنى العصفور بلله القطر واستمرت أسنانى على الاصطكاك والاحتكاك حتى تحققت أن برد العجوز فى بلادنا ليس بالشئ الذى يذكر بجانب ماتسميته برد الشاب عندهم وكانوا كلهم يقولون أين هذا من البرد الصحيح مع أننى كنت أشعر ببرد يغير الالوان وينشف الابدان ويجمد الريق فى الاشداق والدمع فى الآماق لان هذا اليوم مما جمد حره وخمد جمره يثقل فيه الخفيف اذا هجم ويخف الثقيل اذا هجر وكنت فيه بين أطباق البُرَد ورَجم البَرَد وكان القوم لايستغيثون الا بحر الراح وسورة الاقداح

وبعد أن خرجنا من المسجد صاحبنى اثنان منهم لارشادى على نار السعير الفندق وبينما نحن فى اثناء الطريق اذا بمبادئ حريقة فى

مخزن خشب فوقفنا نتأمل أفاعيل النار مع اشتداد هبوب الرياح ولم تمض برهة كبيرة حتى ارتفع لسان اللهيب الى عنان السماء وتطاير الشرر الى جهة الشرق فأتت على المخزن وبعض البيوت المجاورة له ولم يتغلب عليها رجال المطافئ مع إقدامهم و براعتهم الا بعد أن بلغت النفس التراقى ولولا حذاقتهم وسكون الاهالى وعدم اضطرابهم واستيلاء الهلع عليهم لكانت أحدثت اتلافا أعظم مما حدث وسأكتب عليها بالتفصيل وانما أذكر الآن ثبات الانكليز فانى لم أسمع فى الجماهير التى تجمهرت الا صياحا واحدا من امرأة استغاثت بالقوم لانقاذ ولدها وألقت نفسها فى مقدمتهم لاستخلاص فلذة كبدها وبعد ذلك استولى الصمت والسكون حتى فى أهالى المنازل المجاورة التى كانت ألسنة النار تتطاول اليها وبقى رجال المطافئ مالكين لحريتهم فى العمل حتى انقضت هذه القارعة ولم يمت فيها أحد من الناس والحمد لله

عموميات

وعدد أهالى ليفربول ٥١٧٠٠٠ نفس وهى أوّل الموانى البريطانية بعد لوندرة بل قد تفوق عليها بما يصدر منها الى الخارج وأخص تجارتها مع بلاد امريكا اذ يجيئها منها كميات من الحبوب والاقطان وغير ذلك من المحصولات مما لا يكاد يتصوره العقل ثم تصدّرها بعد اصطناعها فى معاملها الى جميع أنحاء العالم وأحواضها أهم مايوجد فى أعظم موانى الدنيا تدخل اليها أكبر

السفائن فى كل لحظة وهى متقاطرة صفوفا صفوفا وراء بعضها على مدى ستة أميال وزيادة بحيث ان منظرها يعتبر من عجائب العالم ولا يزالون الى الآن يشتغلون بحفر أحواض جديدة وانشاء مخازن للتجارة البحرية

ومن أهم مبانيها قاعة سنت جورج وهى عمارة فخيمة جليلة بما فيها من الرونق والبهاء وحسن النظام يجتمع فيها القوم أثناء الانتخابات أو الاحتفالات العمومية و رأيت قصر متحف الفنون والصور والرسوم وغرفة المطالعة والمكتبة الحرة والبورصة وغير ذلك من عظائم الآثار التى لايسمح لى المقام بالتوسع فى الكلام عليها الآن وفيها كما فى غيرها من مدائن الانكليز تلك الرياض السندسية التى تنقى الهواء وتسر الفؤاد بما فيها من الخضرة والنضرة والمياه المتدفقة والاشجار القليلة حتى يتيسر للنظر أن يمتد الى منتهى الافق وفيها مدرسة جامعة وغير ذلك مما أستبقى شرحه للوقت والمكان المناسبين له

هذا وقد كنت عقدت النية على الرجوع الى لوندرة مباشرة ولكنى عدلت عن ذلك وعولت على زيارة بعض مدائن الغال لقربى منها ولعلمى بانه لم يسبقنى أحد من أبناء جلدتى من هذا الجيل فى التوجه اليها وستكون موضوع الكلام فى الرسالة التالية ان شاء الله

الرسالة الثانية عشرة

تجوال فى بلاد الغال

نظرة فى الانسان

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم وبرأه على أبدع تكوين وصوّره فى أجمل مثال وفطره على أكمل منوال ثم أودع فيه من غرائب الغرائز وخفى الاسرار ومكنون القوى مالا يرتاب فى وجوده الحاذق الفطين أو يتخيله الدرّاكة الفهيم أو يخطر على بال اللبيب الاريب ولا يزال العلم يكشف لنا فى كل يوم عن قناع هذه الخبايا ويكاشفنا بما فى تلك الزوايا ويطلعنا بمقدار تقدم العرفان على مافى الانسان العاجز من آثار الاقتدار كلما قرن الارادة بالعمل ووفق بين الفكر والتحقيق فى مظاهر الوجود وهذه كلها قضايا ثابتة عند من قدح زناد القريحة الصحيحة وتدبر فى سلائق الخلائق وأرسل رائد التأمل الى عجائب الارتقاء العصرى وما كان من نتائج سعى العقلاء فى الايام الخوالى

السبب فى عدم تغرب المصريين

أقول ذلك بمناسبة ماشتهر به المصريون من الركون الى السكون والخلود الى الراحة والقناعة بالكفاف وماذلك الا لتوفر العيش فى بلادهم البارة بأهلها وتيسر أسباب الكسب ونوال الرزق من غير ما كد ولا كدح كما هو الشأن فى الامم المتوطنة

بالبلاد الجبلية أو الاصقاع المجدبة القاحلة أو البلاد التى ضاق ذرعها عن القيام بأود أبنائها حتى اضطروا للنزوع عنها الى ماهو أخصب وأبرك سعيا وراء القوت أو طلبا للرفاهية والنعيم

وليس السكون من شؤون المصريين دون من عداهم ممن يدبون على وجه الكرة الارضية فاهم وربك إلا كسواهم من طوائف المخلوقات الذين أفاضت عليهم يد العناية الازلية نعمها المترادفة حتى جعلت بلادهم مطمعا لانظار الغريب عنها يلتجئ اليها على الدوام و يقرع أبوابها طلبا للقرى والضيافة

ثم اننا اذا نزلنا فى سلم الكائنات الى الحيوانات رأينا هذه النتيجة بعينها فانواع الدبابات وأصناف الحشرات وأطيار الهواء وأسماك الماء خاضعة لهذا الناموس الكونى العام فما كان منها فى وسط مشحون بالخيرات تراه من طبيعته ميالا للسكينة وعدم العنفوان وما كان بعكسه يكون من خلقه البطش والبغى والعدوان وقد استمر الحال على هذا المنهاج حتى تأصلت هذه الاخلاق وصارت وراثية فى كل من الفريقين يتناقلها الابناء عن الآباء والاحفاد عن الاجداد ولكننا اذا قلبنا الموضوع وعكسنا القضية كما يفعل علماء الطبيعيات يبعض الحيوانات لاتلبث الجبلّات ان تتغير والسجايا ان تتحور والطبائع أن تتنوّع وتتحوّل

والاميال أن تتبدل وتتعدل بحسب مايقتضيه الحال ويستوجبه المقام

لذلك كان البدو على العموم مجبولين على الترحال والضرب فى أطراف البلاد حتى اذا تمصروا أصبحوا كأهل الحضر أقل استعدادا للهجرة والتغرب عن الاوطان والابتعاد عن الارض التى نبتوا بها واستقوا من مائها وتغذوا بنباتها

السبب فى ولوع الانكليز بالسياحة

ولما كانت بلاد الانكليز كثيرة البعد عن ان يصدق عليها أنها من الخصب ووفر الرزق بحيث تكفى لمؤنة أهلها تولد فيهم بالضرورة حب السياحة والسعى فى مناكب الارض وبذل كل مافى وسعهم من الوسائط الجسمية والوسائل المعنوية لجلب الثروة من أقطار الارض وأطرافها الى تلك الجزيرة التى يسكنون بها ثم لما ضاقت عنهم التزموا بالاستكثار من الاستعمار والانتشار فى سائر الاقطار مثل الفينيقيين وأبنائهم القرطاجيين ومثل الاغارقة (les Grecs) والرومانيين ومثل العرب فى أول دولتهم والبرتقاليين والاسبانيين فى مبدا نشأتهم ومثل الالمانيين واليونانيين وغيرهم من أمم هذا الزمان

وبعد ان كانت السياحات للانكليز من أول الحاجيات أصبحت الآن من ضروريات الكماليات لانها رسخت فى ملكاتهم

وثبتت فى أخلاقهم حتى انهم فاقوا جميع أمم الارض فى هذا الموضوع

استعداد المصريين للسياحة

وبعكسهم المصريون واشباههم من الاقوام فانهم لم تحوجهم بلادهم للخروج من حوزتها ومبارحة حومتها لكونها تكفلت لهم بلوازم الحياة ولم تضن عليهم بما يسد رمقهم حتى انه ما أمكن ولا يمكن ولن يمكن أن يموت فيها أحد بسبب الجوع كما هو حاصل فى كل يوم بلوندرة وغيرها من مدائن الانكليز ولا يمكن أن لا يجد العامل فيها عملا يغنيه عن بذل ماء الوجه وإخلاق الديباجة أو الانتحار ان كان فى نفسه شئ من الشمم والشهامة وأما لوندرة وحدها فقد شهد الاستاذ كيرهاردى نفسه وأكد بأن عدد العمال الذين لا عمل لهم هو ١٠٠,٠٠٠ ومعلوم ان أقل تعطيل فى معامل أية مدينة من بلاد الانكليز يوجب انقطاع الخبز عن مئات ألوف من العمال كما تشهد به التلغرافات

فلا غرابة حينئذ فى أن مصر لم تخرج كثيرين من أهل السياحة والريادة ومجبي الاستطلاع ولكن ذلك ليس برهانا على عدم استعداد أهلها لها بل ان البارئ جل وعلا خصهم أيضا بهذه الغريزة كما خلاهم بصفاء القريحة وجودة الذهن وسمو المدارك وغير ذلك من المزايا العقلية التى يعترف لهم بها حتى

اعداؤهم من الاجانب وانما الاعمال محك الرجال فلا يصح للعاقل المنصف حينئذ الا أن يسخر ويستخف بأولئك السائحين الذين جاؤا مصر وحكموا بأن أهلها ليس فيهم اقتدار على السياحة وطلب العز فى التنقل فان أوّل طواف حول أفريقية كان فى عهد الفراعنة الاقدمين وعلى سفائن المصريين وبواسطة المصريين خرجوا من بحر الروم مغربين حتى تجاوزوا بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) ثم اجتازوا بحر الظلمات (المحيط الاطلانطيقى) الى أن بلغوا مايعرف الآن برأس عشم الخير ثم جابوا البحر الهندى وألقوا المراسى عند مدينة القلزم (قريبا من السويس) ومن نظر فى كتاب (مصر والجغرافيا) الذى وفقت الى اظهاره حديثا اذعن بأنهم قد كانت لهم اليد البيضاء فى الاكتشافات الجغرافية التى حصلت ببلاد السودان وغيرها وان كانت رسائلهم وتقاريرهم وكتاباتهم لم تنل حقها من الانتشار حتى تكون بهجة فى عين المحب وقذى فى أعين المبغضين

الاندفاع للسياحة

ولقد صدق الفرنساويون فى المثل الذى أرسلوه حيث قالوا (ان الشهية تحضر وقت الاكل L'appétit vient en mangeant) وأصدق منهم امامنا البوصيرى فيما أتى به من الحكم (ان الطعام يقوى شهوة النهم) فانى حينما أتيح لى مبارحة الربوع التى ألفتها

والديار التى عهدتها (وهذه هى المرة الاولى) عرفت مقدار الحنين اليها والتوجع من مفارقتها حتى لقد اشتد بى الوجد عليها وأنا بفلورانسة على مقربة منها ولا يعرف الشوق الا من يكابده ولا ينكر هذه العواطف النبيلة الا من تجرد منها ولكننى كنت كلما طوحت بى الاسفار أستأنس الى السياحة وأرى فى نفسى مايجذبنى الى رؤية بلاد كثيرة وأقوام عديدة حتى انى لما كنت بلفربول شعرت بما يدفعنى الى زيارة بلاد الغال وقد دارت المكالمة بينى وبين بعض الانكليز على ماعزمت عليه من التوغل فى هذه البلاد فاستكبر هذا المشروع على شاب من المصريين وقال لى «انه من باب المجازفة سيما مع قلة بضاعتى فى اللغة الانكليزية مع كونى لو كنت متقنا لها لما أفادتنى بشئ كثير لان أهل تلك البلاد لهم لسان آخر خاص بهم وهو بعيد عن الانكليزية بعدا شاسعا» فقلت له «ولم تقدمون أنتم الى بلادنا وتكتبون عليها مع عدم معرفتكم بلساننا ولا وقوفكم على أخلاقنا» فقال «اننا نستعين بما كتبه اسلافنا الذين خالطوكم وأقاموا بين ظهرانيكم فضلا عن انتشار لساننا فى أوطانكم وكثرة التراجمة الذين نستخدمهم فى التفهم والتفهيم» فأجبته بانى «لا أرى من مانع فى ان أكون لقومى مثل أولئك الاسلاف الذين تشير اليهم وانى

أستعين بترجمان من أهل تلك البلاد يفهمنى بالانكليزية وعلى قدر الامكان مااليس فى وسعى ادراكه من لغة قومها فان الانكليز والامريكانيين لابد أن يكونوا قدموا اليها وحينئذ فلا شك فى وجود نفر من أهلها يكلمونى بالانكليزية على قدر ماأفهم » ثم أحطت صاحبى بمشروع سياحتى فى الاندلس والبرتقال وانى لاأفهم كلمة واحدة من اللغة الاسبانية فقال « ذلك سهل عليك لانها قريبة من الفرنساوية والطليانية ولك بهما إلمام » فسلمت له بسداد هذا الجواب فقال لى « وهنالك عوائق أخرى ربما لاتقوى على مقاومتها وهى البرد الشديد والرطوبة الزائدة وتوالى الامطار فى هذه البلاد الجبلية » فقلت له « وفوق ذلك فانى عازم على النزول الى مناجم الفحم الحجرى » فهز رأسه وبرم شاربيه وتبسم ضاحكا ثم قال بصوت متقطع (اذا كان الكلام سهلا على اللسان فالعمل صعب على الانسان) فترجمت له ماقاله شعراؤنا (أنجز حر ماوعد — وان غدا لناظره قريب) ثم ودعته بعد ان وعدته بانى أكاتبه من هاتيك البلاد وركبت القطار فى عصر النهار

دخول بلاد الغال

ولما وصلت الى مدينة شستر Chester استدعيت حمالا نقل متاعى الى قطار آخر وأعطيته جنيها ليستحضر لى تذكرة الى لنجوثلن Lengollen ويرد لى الباقى فذهب وغاب ثم رجع

موفيا بالمراد فأتحفته بما قدرني الله عليه لانني فكرت أنه كان في وسعه عدم الرجوع ووصلت لنجوثلن في منتصف الليل أوقبله بقليل وكان المطر متواليا عليها بما لم أعهده في عمري وأما البرد فيكفيني أن أقول انه أهداني بالزكام مدة أربعة أيام وسمعت للمياه خريرا يشبه الهدير والزئير وكأنها متدفقة من صخور عالية متأطمة على جنادل متوالية متساقطة في جداول سافلة وبلغت النزل كالغريق لايخاف البلل فأوقدوا نارا حامية اصطليت بها واستأنست لها وماسمعت آذان الديكة في الايكة وتسبيح الاطيار على أفنان الاشجار حتى وثبت الى الشبالة وألقيت نظرا متسارعا الى ماأمامي من المناظر فاذا جبال شاهقة تكسوها خضرة رائقة تتخللها ازهار شائقة تكتنفها أشجار باسقة تنساب بينها مياه دافقة لونها ضارب الى الاصفرار والاحمرار مثل مياه النيل المبارك أيام الفيضان فانثلج فؤادي كما انثلج جسمي وقرت عيني بباهر هذه المناظر وجمال هذه الحال حتى عولت على اطالة الاقامة في هذه المدينة الصغيرة التي يبلغ عدد سكانها ٣,١٣٣ نسمة فأخلدت الى الراحة فيها وترويح البال بمرائيها بعد أن لاقيت من لغط المدائن الكبيرة وضجتها ومتناهي اضطرابها وحركتها ما جعلني محتاجا لقليل من الراحة حتى يعود لي النشاط لموالاة السياحة

لنجوثلن ومناظرها

ومن الغرابة أنى علمت بعد مبارحتى لها بزمان ان أهل التجوال لايحطون بها الرحال الا للاستراحة

عموميات على لنجولن

فانها مدينة صغيرة واقعة على نهر الدى (ومعنى دى باللغة الغالية الاسود وبالانكليزية بلاك) وتسمى بلسان أهلها لنجولن وان كانوا يرسمون اسمها فى الكتابة هكذا (للنجولن) وعلى نحو ميلين منها اطلال دارسة لدير قديم وهى أجمل مابقى من عمائر القدماء فى شمال هذه الاراضى وعلى ميل ونصف منها بقايا حصون منيعة قائمة بشكل مخروطى على تل مرتفع يطل على المدينة ويصد عنها المغيرين عليها وقد زرتهما بالتفصيل وشاهدت أعمال الحفر فيهما وكشف ما كان دارسا تحت الارض منهما وفيما وراء هذه الحصون يمتد النظر الى مسافة أربعة أميال تشغلها جبال طباشيرية تتخللها مروج أريجة ومراع فسيحة ويحف بالمدينة من الشمال الى الجنوب واديهى بهيج يبلغ طوله ٢٤ ميلا ينعش الفؤاد ويشجى النفس بنوره وزهره وخضرته وقد آثرت التوجه اليه على عربة فى طريق البر عن ركوب القطار حتى أتمتع باجتلاء محاسنه وتسريح الطرف فى مشاهده ورأيت ماأبقاه فيه الدهر من آثار القصور الدارسة التى تتعلق بما كان لها من المكانة فى الفخامة والجلال وتشهد بان الايام خلعت عليها ماعندها من الجمال

طباع أهل الغال

وقد تنقلت من هنالك الى قرى كثيرة حول لنجوثلن وتحققت في أهل الغال بشاشة وبشرا وائتناسا ويسرا مع الطباع الكريمة والاخلاق الفاضلة النبيلة ولهم بالغريب حفاوة وأى حفاوة فهم يتهالكون على خدمته والاجتهاد في مرضاته من غير أن تكون لهم غاية مافي دينارو وخلاصة القول انى عهدت فيهم تلك السجايا البدوية العربية الفاضلة التي تتجلى مظاهرها في الارياف والخلوات أكثر منها في المدائن والامصار وهذا ماحداني على إطالة المكث بلنجوثلن أكثر مما تستحق في الحقيقة وخصوصا ان الفندق الذي نزلت فيه وهو (هاند هوتل Hand Hotel) قد قام أهله بخدمتي فوق اللازم ويسروا لي جميع المطالب بما كتب لهم على صحيفة فؤادي آيات من الشكر لايمحوها الدهر ولقد وطنت نفسي على الذهاب الى هذه المدينة اذا ساعدتني العناية بالقدوم الى أوروبا مرة ثانية

نساء الغال

وقد رأيت النساء في بلاد الغال يفقن اضرابهن في بلاد انجلترة الحقيقية فيما هو من مميزات الجنس اللطيف مع ماهن عليه من البساطة التي تستوجبها المعيشة الخلوية و بعدهن عن التأنق الذي يضطر اليه أترابهن حينما يطلعن في سماء الامصار وللسيدات في لنجوثلن جمعية خاصة بهن في دار هي في الحقيقة

تحفة للناظرين وطرفة للقادمين فقد حوت من آثار الصناعة وبدائع الاعمال مالايمكننى المقام من استيفائه الآن فانها كلها من الخشب القديم المشغول شغلا دقيقا على يد أمهر الصناع وفيها طرائف قديمة ومجموعات نفيسة من حلى وجواهر ومتاع فاخر وصور ومناظر وأسلحة ونقوش وأشكال وأوان يليق بها أن تعرض فى أهم المتاحف المعتبرة وفيها رجام قبر من الرخام مكتوب عليه عبارة باللغة التركية

معامل الصوف وفى هذه المدينة الصغيرة أكثر من اثنى عشر معملا لغزل الصوف ونسجه يديرها التيار والبخار وقد تفرجت على بعضها ورأيت الصوف كيف يفرز ثم ينظف ثم يغزل ثم ينسج ثم يغسل ثم يكوى ثم يلف وكل ذلك بواسطة الآلات وتحت مراقبة شرذمة من الغلمان وثلة من البنات

منبع الدى ولا أعلم كيف استولت على الرغبة فى التوجه الى منبع نهر الدى ورؤيته وهو يخرج من البحيرة التى تجمع فيها المياه المتساقطة من الجبال فجهزنى أهل الفندق بما يلزم وأحضروا الى ترجانا صاحبنى فى ذهابى بالسكة الحديدية الى مدينة بالا Bala وسرت مسافة ساعة حول بحيرتها ورأيت الجداول تنساب من قلل الصخور القريبة منها وتنهال فى حياضها ثم تجرى الى الوادى فيتكون منها نهر الدى

وصف مناجم الفحم الحجرى

كل ذلك والمطر متوال لاينقطع الامقدار خمس دقائق تطلع فيها الغزالة ثم لاتلبث ان تختبئ وراء حجاب السحاب يكتنفها قوس قزح مزدوجا بل قد لاتمهلها الامطار ريثما تختفى عن الانظار ولقد طاب لى المقام فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة مع مافيها من التغيرات الجوية التى لاتخطر على بال من تعود اقليمنا ولكنى ماقدمت فى الحقيقة الى بلاد الفحال الا طمعا فى رؤية مناجم الفحم الحجرى اس الصناعة و ينبوع الثروة ومحور العمران فى هذا الزمان ذلك المعدن النفيس الذى يجدر بنا أن نسميه الحجر الكريم والاكسير الصحيح فانه فضلا عن فوائده المتعارفة قد استخرج منه علماء الكيمياء اصباغا باهية متنوعة واعطارا أذكى من جميع الاصناف المعروفة وسكرا يباع فى الصيدليات والدرهم منه يوازى أكثر من ثلاثين من أجود أنواع السكر المعتاد وقد أثبتوا أن حجر الماس من الكربون وبذلك يجوز لاهل البيان أن يقولوا ان الماس من الفحم فى الحقيقة والمجاز (وسبحان من يفتق النور من رتق الظلمات و يخرج الاحياء من الاموات) وفيه غير ذلك من الجواهر والمنافع والمزايا التى ربما أتعرض لشرحها عند الكلام على المنجم الذى زرته بالتدقيق والتفصيل فانى قمت من لنجوثلن

يصحبنى ابن ربة النزل حتى وصلت الى مدينة شيرك (Chirk) على طريق يشبه السكك الزراعيـة فى بلادنا وانعطفت منها الى منجم بقربها

وما تمكنت من زيارته الا بعـد عناء شـديد لان القوم حسبونى فى أول الامر رائدا من طرف أصحاب المناجم الالمانية جئت أسترق أسرارهم وأقف على طرائقهم الى غير ذلك مما يخشاه أهـل الفن الواحـد من بعضهم ولكن المدير لما عرف صـفتى ووطنى واطلع على رقعة زيارتى فتح لى الابواب ومهد أمامى الطرق وأتحفنى بكافة المعـلومات وأعطانى نسخا من التقارير الرسميـة والرسائل الفنية لاسـتعين بها على الاشباع فى هـذا الموضوع ثم قام بنفسـه وطاف معى جميع الاماكن وأحاطنى بكيفية العمل ثم أمر وكيـله أن ينزل معى داخل المنجم بعـد أن ألبسنى رداء قصـيرا من الجوخ الغليظ الخشـن وسـلمنى هراوة أتوكأ عليها وأسـتعين بها على التلمس فى السير داخـل هوة النَفَق الحالكة وأعطانى مصباحا من مصابيح الامان اهتدى به فى السير وأستعين به على النظر ثم قدم لى شـيأ من المرطبات وقال لى (قد صرت الآن من عمالنا فاخضع لنواميسنا فبادر بالعمل بلامهل) فامتثلت وانحنيت مع الوكيل فى أحد الصناديق الموضوعة على المركبة المعدة

لاخراج الفحم من جوف الارض الى وجهها فهوت بنا المصعدة (Ascenseur) وكان سطح الصندوق الاسفل يفرّ من تحت أقدامي بمناسبة سرعة الآلة فى النزول حتى رست بنا على بعد ثمانمائة متر عن سطح البسيطة فاستلمنا أحد العمال وفتش جيوبنا لئلا يكون معنا شئ من الدخان أو الكبريت أو المواد القابلة للانفجار ثم فحص المصباح الذى معنا (وكان الوكيل نفسه خاضعا قبلي لهذا الاختبار) وبعد ذلك سمح لنا بالمرور فسرنا من سرداب الى سرداب صاعدين هابطين مقبلين مدبرين بالتواء وانعطاف بحسب اتجاه عرق الفحم فى بطن الارض وكنا نمر على سكك حديدية عليها قطارات مختلفة الاتجاهات بحسب دفع البخار وجذبه بواسطة السلاسل الحديدية وفى الجهات المطمئنة رأينا خيولا تجر العربات مشحونة بالفحم وتتركها بجانب المصعدة فترفعها هذه الى وجه الارض ولهذه الخيول التى لا تنقص عن الثلاثين اصطبلات فى السراديب فيها كل ما تحتاجه من المؤونة والراحة وفى السراديب حنفيات للمياه وتنانير للنيران (فى محلات مخصوصة) وآلات للبخار وفوهة كبيرة عليها آلة عظيمة تدخل الهواء بكثرة زائدة الى هذه الهاويات العميقة وهذا المنجم مركب من دورين أحدهما فوق الآخر فالاول تحت سطح الارض بمسافة ثلثمائة متر والثانى تحته

بخمسمائة متر وقد طفت فيهما ثلاث ساعات ولم يتيسر لى أن أسلك فى كل طرقاتهما لان ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة

ولكننى استعضت عن ذلك بالتوجه الى أقصى ناحية وصل اليها العمال واقتنعت بذلك ودخلت الى أبعد نقطة فى كليهما حيث رأيت العمال يقيمون الاخشاب لاسناد السقف حتى لا ينهار عليهم ولما كنت بحكم الشرط الذى اشترطه علىّ مدير المنجم أحسب فى هذه السياحة الارضية عاملا من عمال المنجم أمرنى الوكيل بأن آخذ المعول بيدى وأشارك العمال فى قطع الفحم فكان كذلك وأخذت ماقطعته بيدى تذكارا ثم وقفت معجبا باقتدار الانسان واذا بفكر مظلم تولانى فاقشعرّ منه جسدى ووقف له شعر رأسى اذعر على ذاكرتى كالسهم الخاطف تاريخ تلك الكوارث والقوارع الكثيرة الوقوع فى المناجم وتذكرت أحدثها وهو ما كنت قرأته بالجرائد الافرنكية فى مصر فى شهر مارس الماضى من الانفجار الذريع الذى حصل بأحد المعادن فى بلاد البلجيكا حتى انه لشدة الرجة التى احدثها جعل أهل البلاد البعيدة عن موقع هذه الطامة بمسافة خمسة كيلو مترات يتخيلون حصول زلزال عنيف ومالبث الخبر أن انتشر حتى توافد الناس أفواجا الى محل الوقعة الفظيعة وأخصهم أهالى العملة وعيالهم واشتغل أهل الاقدام

والجراءة بترتيب وسائل استنقاذ الارواح من هـذا الموت الزؤام ولكن اجتهادهم ذهب ادراج الرياح وضاعت مساعيهم سدى فقد كتب الله أن تكون هذه الطامة عامة فانهم شعروا بتزعزع جديد فى بواطن الارض أعقبه صياح رنان (النارَ النارَ) وأبصروا الشرر يتطاير فى الهواء من بئر التهوية يحيط به دخان كثيف كان يتسارع الى وجـه الارض نذيرا باعتراك العناصر فى احشائها واجتماعها على اهلاك من فيها من العملة المساكين بشر أنواع العذاب المبين ثم انهار أحد جدران بئر التهوية فساعد على اشتداد النيران وقطع حبال الرجاء فى الانقاذ والفداء وكان الناس وهم فى حالة اليأس يسمعون زئيرا شديدا يخرج من الاعماق ويشعرون باضطراب وارتجاج وفى بعض الاحيان كانت تهب عليهم روائح خصوصية وتهاجمهم أبخرة كبريتية فتعلهم باشتداد الكرب وتوالى الخطب وتنبئهم بان الحريق آخذ فى الازدياد وانه لامطمع فى استخلاص ضحايا النار حتى اصفرت الوجوه وذهبت العقول وضاع الصواب فأقبل كثير من الحاضرين وفيهم جم غفير من النساء يترامون على البئر وقد أحاط به الجند ولم يتجعوا فى صد المعتوهين عن اللحوق بآبائهم وأزواجهم وأبنائهم وأقربائهم لانقاذهم من مخالب النار الابعد أن أشهروا السيف البتار وتكاثفت جموعهم

فزحزحوا الناس بقوة السلاح وهم ينظرون اليهم بعيون زائغة تنظر ولا ترى وأفواه تصطك أسنانها وقد انعقد لسانها ووجوه تولاها الذهول واعتراها الخبال فصاروا كالاشباح بلا أرواح ولا أتذكر الآن بالضبط عدد الذين ذهبوا فريسة هذه القارعة ولكنى أذكر أنه يبلغ المائتين وهذه حادثة واحدة من كثير دونتها تاريخ المناجم وكنت أتفكر فيها كلها ولم يخرجنى من هذا الحال الا تناجى العمال بلسان الغال فانى لو كنت من البارعين فى فن المفارقات لقلت انه يتركب بحسب هذا البيان (أى النسخة باعتبار بعض المصريين) قيراط

٨ ألمانى
٢ انكليزى
١٠ لاوندى
٢ يونانى
١ سريانى
١ عربى وعبرى

٢٤ ممزوجة مع بعضها ينشأ عنها اللسان الغالى (مجرب صحيح)

وحينئذ بادرت بالخروج الى وجه الارض وشكرت أفضال المدير وأنا أرتجف من هول الخطر الذى ألقيت بنفسى فى تهلكته

ولكننى قلت فى نفسى ان الذى يجىء بلاد الانكليز ولا يرى معادن الفحم الحجرى فلا يصح له أن يقول انه كان فى انجلترة أوزار هذه الجزيرة

ثم انطلقت من هذه المدينة (شيرك) الى مدينة أخرى تفرجت فيها على معمل اصطناع الطوب المطبوخ (الآجر) بواسطة البخار وهو معمل كبير يأخذ الطين اللازم من تل كبير مجاور له ثم انتقلت الى مدينة أخرى قريبة منها ورأيت فيها العملة يلعبون بعد خروجهم من المعادن بالكرة بأقدامهم (الفوت بول) وهو لعب رياضى خاص بالانكليز ولهم فيه مهارة غريبة

ومن هنا ركبت القطار راجعا الى شستر وهى فيما بين بلاد الغال و بلاد الانكليز ولكنها تعتبر من الثانية ومع ذلك فسأذكر عليها الآن تفصيلا قليلا

مدينة شستر

هذه المدينة قديمة أسسها الرومانيون على مصب نهر الدى الذى يمر على لنجولن وعدد سكانها ٣٦,٧٩٤ نفس ولا يزال فيها كثير من بقايا الرومان وأبراجهم وأسوارهم التى هى كشوارع معلقة فى المدينة اعتاد الاهالى على النزهة والرياضة فيها و يبلغ طولها ميلين ومن الامور التى انفردت بها ان برازيق الطريق يكون عليها حوانيت وخلفها مماش فيها دكاكين أخرى وفوق

الحوانيت الامامية يرتفع الدور الاول من المنازل فيكون الشارع عليه من الجانبين صفان من المخازن وخلف كل منهما ممشى فسيح مواز للشارع وعليه دكاكين أخرى وسقفه هو أرضية الطبقة الاولى من المساكن وفيها كنائس عتيقة بعضها مشيد بالطوب الاحمر وفيها ميدان فسيح تتسابق فيه الخيول فى بعض أيام السنة وخلاصة القول أن لها منظرا انفردت به دون المدائن التى مررت عليها ببلاد المشرق وأوروبا وقد اشتهرت بصناعة الجبن وان لم يكن من طبيعة أهلها فقد بيضوا صفحات تاريخهم بالذود عن حياضها أيام كانت بلاد الانكليز منقسمة الى ممالك صغيرة كثيرة فى عراك مستديم وحروب مستمرة

والى هنا أستوقف اليراع عن الافاضة فى شرح ماعندى من المعلقات والمفكرات فان ماذكرته عن بلاد الغال قليل فى جانب ماستحصلت عليه من الفوائد والمعلومات ولكن القليل دليل على الكثير

الرسالة الثالثة عشرة

العودة الى لوندرة

وفيها ايماء بايجاز الى نهر التيمس وقناطره والأنفاق التى تحت الارض والحدائق والكنائس والقصور وبنك انجلترة ودار الضرب وبرج لوندرة ومحلات البر والاحسان ومؤنة المدينة وميناها وتنويرها ومطافئها وشربها ومصارفها وضواحيها (رشمند بساتينها ووندسور بقصر الملكة ورياضها) ومعرض « مصر القديمة » فى لوندرة والصناعة الشرقية العربية فيه واستنهاض الهمم اليها

رجعت من بلاد الغال الزاهرة التى هى فى انجلترة بمثابة سويسرة بما يتجلى فيها من محاسن الطبيعة ونضرة الخلوات ونزلت ثانية بعاصمة الانكليز ورأيت فيها مارأيت مما قصصت بعضه فى رسالتى الاولى عنها وهى وان طالت بقدر ماطالت فليست فى الحقيقة بالنسبة لهذه المدينة الا كالبعوضة بجانب الطود الشامخ ولا يطاوعنى قلمى على الانتقال منها الى غيرها ولكننى لايتسنى لى بأى حال من الاحوال أن أفيض فى شرح الكلام على التيمس وقناطره الاربع عشرة وأرصفته المنضودة الممدودة على جانبيه آوالأنفاق التى تمر تحت قاعه كأن

الآلاف المؤلفة من العربات المختلفة الانواع وقطارات البخار والتراموای والزوارق التی تجری علی وجه النهر کعدد النمل کلها غیر وافیة بحاجات أهل هذه المدینة للانتقال من شاطئ الی شاطئ فقادهم میلهم للاختصار وتوفیر الزمن وتسهیل العمل الی احداث هذه الاعمال الشاقة فان أحدها (تیمز تونل) یبلغ طوله ٣٦٦ مترا وهو عبارة عن ممشاتین معقودتین متصلتین ببواك واساطین علی مسافات متساویة ویمر تحت قاع الماء بخمسة أمتار وقد بلغت نفقاته ١٥,٣٥٠,٠٠٠ فرنك وکان فی أوّل الامر مخصصا لافراد الناس ینزلون الیه من سلم مظلم منزلق ارتفاعه ٩١ مترا ولکنه لم یحز من الخلائق اقبالا مع کون أجرة المرور کانت زهیدة جدا وهی بنس واحد (٤ ملیمات) فاشترته شرکة خصوصیة فی سنة ١٨٧٢ ومدت فیه خطوطا حدیدیة تجری علیها القطارات وتتصل بسکة حدید العاصمة وقد کان انشاؤه فی سنة ١٨٢٥ وأما النَفَق الثانی فهو بجانب برج لوندرة واسمه (تَوَرْ سْپُوْیْ) وهو عبارة عن قناة من حدید الزهر قطرها متران وطولها ٣٧٥ متر ینزل الیه من سلمین حلزونیین علی ٩٦ درجة موضوعین علی کل من ضفتی النهر (واجرة المرور نصف بنس أی ملیمان) وکان البدء فیه فی شهر فبرایر سنة

١٨٦٩ واتمامه فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ ولم تزد نفقاته عن ٤٥٠٫٠٠٠ فرنك

وأما الثالث فقد انشأته شركة السكة الجديدية الكهربائية واحتفل البرنس دوغال بافتتاحه فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٠

نعم انى خصصت هذه الرسالة لذكر بعض آثار لوندرة وعمائرها وتحفها وضواحيها ولكنى لا أجد متسعا للقول على حدائقها العشر التى يضرب بها المثل فى العالم كله ولا على بستان البنات ومافيه من غرائب الحيوانات (وهو ملك لاحدى الشركات) ولا على كنائسها المهمة مثل القديس بولس وديروستمينستر والهيكل والكنائس الانكليزية والبيع المنشقة عنها والبيع الكاثوليكية والاجنبية فان عددها فى المدينة وارباضها يناهز الالف ونصف الالف ولليهود فيها ٦٠ كنيسا الى غير ذلك من أماكن العبادة العديدة التى اقامتها طوائف دينية لا يحصيها الا الله . وكيف يتسنى لى أو لغيرى تلخيص شئ وجيز فى مثل هذه العجالة عن قصور تلك المدينة مثل دار الندوة (البرلمان) وقصر سان جمس وقصر بوكنجم والويت هول (وقد كان فيه اعدام الملك تشارلس الاوّل) وقصر مارلبورو وقصر كنسنتن وقصر لمبث (وهو مقر رئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية) وقد رأيت فيه مصحفا بخط أحد سلاطين مصر

موضوعا فى الكنيسة بجانب الانجيل وغير ذلك من قصور الملوك والامراء أو المخصصة للنوادى والاجتماعات ومثل ذلك أعترف بانه ليس فى وسعى أن آتى بلمع يسيرة عن الأماكن المدنية والعمائر العمومية مثل جلد هول (الذى هو دار أمانة المدينة) وفى احدى قاعاتها تمثالان عظيمان من الخشب المجوف يمثلان يأجوج ومأجوج وتسع هذه القاعة ٧ آلاف نفس وفيها مكتبة حرة فيها سبعون ألف مجلد وفيها متحف للآثار والمخلفات الباقية من لوندرة القديمة وقد عرضوا فيها امضاء شاعرهم شكسبير على صك مبايعة اشتروه للمتحف بمبلغ لايقل عن ١٤٥ جنيه وفى الدار تلك العربة التى يركب عليها اللورد أمين المدينة فى التاسع من شهر نوفمبر يوم الاحتفال بتثبيته وتبلغ النفقات اللازمة لترميمها ٢٥٠ جنيه فى كل سنة منذ انشائها فى سنة ١٧٥٧ أو المنشن هوس (هو القصر الذى يسكن فيه اللورد أمين المدينة مدة سنة انتخابه) أو البنك (ويرد اليه فى كل يوم ٥٠ ألف ورقة قيمتها مليون جنيه فيميزون أحد أطرافها ويحفظونها مدة ١٠ سنوات ويصدرون غيرها للتعامل وفيه مطابع كثيرة كل واحدة تخرج فى اليوم الواحد ١٦ ألف ورقة مختلفة القيمة وقد بلغ عدد الورق الذى أرجع الى البنك فى يوم ٨ اكتوبر سنة ٩٢ ٦٧,٤١٧ وقيمتها ١,٥٠٧,٢٧٥

جنيه ورأيت فيه ورقة قيمتها مليون جنيه ولا ثانية لها ورأيت ورقة تداولتها الايدى مدة ١١١ سنة وبلغت أرباحها المركبة ٦٠٠٠ جنيه وفيه ٤٩ مكتبا ويحفره بالليل قره قول فيه ٣٤ عسكريا وضابط واحد وهو غير قابل للاحتراق وفيه سبائك كثيرة من الذهب الابريز والفضة الخالصة وفيه آلات لوزن الجنيهات تلقى بالجنيهات الصحيحة فى مكان وبالتى نقصت بالمداولة والمعاملة فى مكان آخر وتزن فى الدقيقة الواحدة ٣٣ جنيها وفى كل يوم من ٦٠ ألف الى ٧٠ ألف جنيه وقد كان رأس مال البنك فى أول الامر ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه وصار الآن ١٤,٥٥٣,٠٠٠ جنيه انكليزى وقد بلغ عدد الورق الذى صدره البنك فى خمس سنوات ثم عاد اليه ودفع قيمته ٧٧,٧٤٥,٠٠٠ ورقة بنك نوت تملأ ١٣,٤٠٠ علبة واذا وضعت هذه العلب بجانب بعضها بلغ طولها ميلين اثنين وثلث ميل ولو وضعت هذه الاوراق نفسها فوق بعضها لكان ارتفاعها خمسة أميال وثلثى ميل ولو صفت الى جانب بعضها طرفا لطرف لتكون منها شريط طوله ١٢,٤٥٥ ميل ولو حسبنا مسطحها لوجدناه يساوى مسطح حديقة الهايد بارك (ومعلوم ان سطحها ١٦٠ هيكار) وقد كانت قيمتها الاصلية عبارة عن

١,٧٥٠,٦٢٦,٦٠٠ جنيه انكليزى وثقلها ٩٠ طونولاطة وثلثا طونولاطة)

ولا أذكر الآن شيأ عن البورصة وأعمالها ودار البوسطة والتلغراف والكمرك ودار الضرب (ويبلغ عدد العملة التى تصنعها فى الاربعة وعشرين ساعة ٥٠,٠٠٠ جنيه انكليزى) وكيف يتسنى لى التلميح بكلمتين الى برج لوندرة وما فيه من الاسلحة الفاخرة والحلى المجوهرة أو المتحف البريطانى وقد طار صيته فى الآفاق بكثرة مافيه من الذخائر والاعلاق وتنوع النفائس واختلاف المخلفات مما يجعله فى مقدمة متاحف الدنيا حتى ان غرفة المطالعة فيه لامثيل لها فى العالم كله بل ان مجرد المرور على مافيه من المحفوظات يستغرق نحو الاسبوع بالتمام بل ان برنامجاته وفهارسه هى عبارة عن مجلدات ضخام ويجىء بعده غيره من المتاحف الكثيرة المتنوعة ومعارض الصور والرسوم والفنون والعلوم

وماذا عسانى أقول الآن على نظام البلدية فى هذه المدينة الواسعة أو على ترتيب الشرطة الذين يزيد عددهم عن ١٤,٩٠٠ رجل أو على محاكمها الكثيرة العدد المتنوعة الاختصاصات أو على مدارس الحقوق الاربعة أو على محلات البرّ والاحسان

ودور النقاهة والجمعيات الخيرية المخصصة لتربية أبناء الفقراء فان عددها يتجاوز الالف ومقدار المبالغ التى تنفقها بما فيها التبرعات والهبات (والنقوط التى تجمع فى الكنائس) تزيد عن سبعة ملايين من الجنيهات والمستشفيات فيها على أنواع فمنها ماهو عمومى ومنها ماهو مخصص لبعض الامراض مثل مداواة الطواعين والوقاية منها وعلل الصدر والربو والرمد وادواء العين وغير ذلك من الآفات والعاهات ومنها ماهو للمجاذيب (وعددهم فى بعضها ٥٠٠ ولاغرابة) ومنها ماهو للاطفال أو للنساء أو للولادة هذا بصرف النظر عن الاجزاخانات العديدة التى توزع الادوية احتسابا لوجه الله وعدد الاسرة فى هذه المستشفيات يزيد عن ٩٠٠٠ ويدخل بها فى السنة أكثر من ٨٠,٠٠٠ مريض وهى توزع الادوية مجانا على أكثر من ١,٢٣٠,٠٠٠ نفس وفى بعضها مدارس للطب والتشريح أو الاقرباذين أو غير ذلك من فروع الطب وفيها كتبخانات معتبرة ومتاحف متنوعة ومعامل كيماوية وغرف للطبيعة وبساتين للنبات ومجاميع پاتولوجية وغير ذلك وفيها مراب للايتام قد يزيد عددهم فى بعضها عن ٤٦٠ وقد كان أحد الماهرين فى صناعة الموسيقى يجىء فيها ويقرع أرغنا فى غاية الاتقان أهداه له (وهو فيه الى الآن) وكانت الخلائق تتهافت

على هـذا المكان من كل فج لسماع هـذا المطرب الفريد وقد تحصل من أجرة دخولهم مبلغ يزيد على ١٠,٠٠٠ جنيه خصصه للمربى ومن فيه من الايتام ولم يأخـذ منه بارة واحدة

وفى لوندرة فضلا عن ذلك كثير من الاماكن الخيرية وجمعيات البر ومساعدة العملة والسعى فى نفع بنى الانسان وفيها كثير من التكايا التى يجبر المتكففون على الدخول فيهـا والاشتغال بما هم أهل له وفوق ذلك ترى هنالك كثيرا من المستشفيات المختلفة الانواع لاجل الجنود البرية والبحرية الذين أصابتهم العاهات

وماذا أقول على المؤنة فى مدينة يزيد عـدد السكان فيهـا عن الخمسة ملايين ونصف مليون وكلهم لابد لهم من الطعام فيهـا أربع مرات تقـريبا فى كل يوم حتى ان ماتستهلكه فى العام الواحد يبلغ هذه المقادير

٨٠٠,٠٠٠ ثور

٤٠٠,٠٠٠ رأس من الضأن والعجول والخنازير

(وقد أثبت علماء الاحصاء ان متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكانها فى اليوم الواحد يزيد عن ١٤٠ جراما من اللحم)

٩,٠٠٠,٠٠٠ من الطيور وحيوانات الصيد

(أما الاسماك مثل سمك المرجان المعروف فى كتب العرب باسم طرستوج وعند اليونان طريفلا وعند عوام الاندلس المول. ثم السلباج المعروف بالمارماهيج وبالتون وبالانقليس وبشعبان البحر. ثم التن (واسمه كذلك فى الكتب العربية). ثم السردين واسمه عند العرب العرم. ثم محصولات البحر من الحيوانات الرخوة مثل الجمدفلى والقرقله والاستردياوا لمحار بانواعه والسرطان الكبير وأبو جلمبو وأبو تكنى والبضالينس وبراغيث البحر وبلحه والحلزون والسرطان وقنفذ البحر المعروف عند أهل الاسكندرية الآن باسم رتسا ويسمى عندهم أيضا قنشد (ولاشك عندى أن هذه اللفظة محرفة عن كلمة قنفد) وغير ذلك من الاصناف العديدة التى لا أعرف أسماءها فانها تنهال على المدينة بمقادير هائلة لا يتصورها العقل يشهد لذلك أن هناك آلافا وآلافا من الزوارق والقوارب لا حرفة لها سوى نقل هذه الحيوانات الرخوة القوقعية هى والروبيان المعروف عند الفرنساوية باسم هو مار (Homard) وقال ابن البيطار (ان المصريين يسمونه فرندس وان أهل الاندلس كانوا يسمونه قرون)

١٠,٠٠٠,٠٠٠ هيكتولتر من اللبن

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ بيضة

١٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلو جرام من السمن والزبدة

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلو جرام من الجبن

٤٥,٠٠٠ طونولاطه من أصناف الخضراوات المهمة ومنها نبات الحرف فقط (وهو المعروف عند العرب أيضا بالرشاد وعند الفرنساوية بالكرسون Cresson) مامقداره من ثمانمائة الى تسعمائة طونولاطة

٥٠,٠٠٠ طونولاطه من أنواع الفاكهة

وغـــير ذلك وغير ذلك وغير ذلك

أما السوائل التى يستهلكونها فلا تقل عن ذلك بل هى أيضا بنسبة هـذه المقادير الهائلة فانها تتجاوز ١٨٠ مليون لتر فى الاربعـة آلاف خمارة والسبعمائة ألف بيت خصوصى و يمكن تقدير المشروبات الروحية بثمانية عشر مليونا من اللترات واذا قابلنا بين النبيذ و بين الجعة (البيرة) وجدناه شيأ لايذكر بجانبها اذ لايشربه الا الاواسط والاغنياء ومع ذلك فكمية استهلاكه فى العام الواحد لاتقل عن ٣١ مليونا من اللترات أما الفحم الحجرى فيجىء منـه فى كل عام كميات تزيد على ١١ مليون طونولاطـة

وثلاثة أرباع هذه المقادير الجسيمة ترد عن طريق النهر والباقى فى السكة الحديدية

وأهم أسواقها (وهو سوق سمثفلد) يشغل مسطحا قدره ٣٧ ألف متر وفيها سوق آخر (اسمه سوق البهائم) قد يسع فى آن واحد ٧,٠٠٠ ثور و ٢,٠٠٠ عجل و ٣٥,٠٠٠ شاة و ٤,٠٠٠ خنزير وقد يكون فى بعض الايام مخصصا لبيع الخيول وفيها سوق آخر للسمك والقواقع ليس الا وآخر للاطيار فقط وآخر للخضار والاثمار والازهار دون ماعداها وآخر للخيل وحدها الى غير ذلك مما يطول شرحه

أما التجارة والصناعة والمينا وأحواضها ومخازنها فهى عالم كبير مستقل بنفسه ولا أعلم ماذا أقول عنها الآن بعد أن تحققت أن ميناها هى أهم موانى العالم وأكثرها محطا للسفائن اذ أن متوسط مايرد عليها سنويا يبلغ ٧٠,٠٠٠ سفينة مجموع حمولتها ١٢,٠٠٠,٠٠٠ طونولاطه وقيمة مافيها من البضائع والارزاق يزيد على مائة وعشرين مليونا من الجنيهات الانكليزية أما الاحواض ومخازن التجارة فمن أهم مناظر لوندرة وأبدعها تجعل للناظر (خصوصا اذا وقف على قنطرة لوندرة - لندن بريدج -) فكرة فى أهمية العاصمة الانكليزية وجسامتها واتساع نطاقها بما

فيها من المراكب المتراكبة والبضائع المتراكمة والخلائق المتزاحمة ولايسمح لى المقام بتفصيل قليل عن حركتها الهائلة

وفى المدينة ثلاث شركات متعهدة باضاءتها بالغاز وقدقدره أهل المعرفة بمبلغ ٥٦٠ مليونا من الامتار المكعبة وتستهلك للحصول عليه مليونى طونولاطه من الفحم الحجرى وغاز الاستصباح هـذا يجرى فى قنوات مجموع طولها ٤ مليون كيلومتر وتزيد النفقات السنوية عن ٣,٦٠٠,٠٠٠ جنيه مع أن المبالغ اللازمة لسقى المدينة بالمياه لاتصل الى نصف هذا المبلغ الجسيم وهنالك شركات كثيرة تألفت للاضاءة بالنور الكهربائى وكان قبل هذه السنة قاصرا على منازل الافراد ومخازنهم ولكنه فى أول هذا العام صار استخدامه فى بعض الشوارع المهمة والميادين الاصلية

ويجرنى الكلام على النور الى الحديث على النار فقد كان رجال المطافئ قبل سنة ١٨٣٣ تحت ادارة شركات خصوصية تجارية أو تابعين لبعض فروع الادارة البلدية وكانت نتيجة هذا الافتراق وقوع أضرار بالغة لانهم فى أغلب الاحيان كانوا يتركون النار تفعل أفاعيلها وتلتهم المنازل التى لم تكن مؤمنة عندهم أو تابعة لهم ولكن هذه الشركات اجتمعت كلها فى تلك السنة واتحدت وامتزجت بعضها فألفت شركة عمومية واحدة لمقاومة

الحرائق واعلم أن لعمالها مهارة لايناظرهم فيها أحد فى الكون الاماعلمته عن رجال المطافئ فى أمريكا ويستخدمون فى مصلحتهم ١٨ سلكا تلغرافيا و ٧٥ سلكا تلفونيا يجمع بينها وبين بعضها ٥٥ مكتبا اداريا فاذا شبت النار فى بعض المواضع تيسر لهم أن يستحضروا من الآلات والاجهزة كل ما يلزم فى بضعة دقائق وتتصل مراكز رجال المطافئ بدواوين النظارات والمصالح العمومية والمتاحف والمعارض وغير ذلك من المبانى الاميرية بواسطة ٣٨٥ مزولة استغاثة وعدد رجال المطافئ ٧٠٠ ولهم زى مخصوص معروف وعندهم ٤٧ طلمبة بخارية و ٩ طلمبات بخارية عوامة و ٢٢٤ سلم للاستنقاذ من مخالب الحريق وغير ذلك من الاجهزة الكثيرة المتفرقة فى كافة أنحاء المدينة وقد أطفؤا فى سنة ١٨٩٠ حرائق بلغ عددها ٢٥٥٥ منها ١٥٣ ذات أهمية عظيمة ومات فى هذه الحرائق ٤٤ شخصا

وبعد الكلام على النار يجىء بالطبع الكلام على الماء فاعلم أن المياه اللازمة للشرب فى لوندرة ليست من نهر التيمز بل قد تأسست شركات عديدة لجلبها من غدران ونهيرات أخرى فى قنوات هائلة مرفوعة على عمدان عظيمة وقباب جسيمة (مثل الدواميس المعروفة بالعيون التى كانت تستقى بها قلعة الجبل بمصر

فى الزمان السابق ولاتزال آثارها باقية الى الآن) ثم تنصب المياه فى أحواض واسعة ثم ترشح من قاعها بمرورها على أحجار هشة تعلوها طبقات من الرمل الغليظ والحصى الدقيق وتبلغ كمية المياه الواردة الى المدينة فى كل يوم بالتعديل المتوسط ٦٧١,٠٠٠,٠٠٠ لتر منها ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ يستعملها الاهالى فى قضاء حوائجهم ولوازم منازلهم فيكون متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكان لوندرة ١١٧ لتر من الماء فى كل يوم

وأستطرد بهذه المناسبة الى الاشارة الى مصارف لوندرة وبالوعاتها فقد كانت كلها تنصب فى أول الامر فى نهر التيمز حتى جعلته مقرا للاقذار ومنبعا للجراثيم القتالة وأصلا فى تسميم الهواء وسببا فى ازدياد الامراض وإتلاف صحة السكان وفقدان الموت بهم فتكاذريعا فان متوسط المواد العفنية التى كانت تنساق اليه فى كل يوم يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ متر مكعب وفى سنة ١٨٥٥ اجتهد مجلس شورى العاصمة (البلدية) بدفع هذه المضار ودرس مشروعا للمصارف يصرف عن المدينة هذه المخاوف ويلقى بهذه القاذورات الى ماتحت لوندرة بستة وعشرين ميلا فى النهر الى البحر بواسطة طلمبات بخارية قوتها ١٠٠٠ حصان بخارى ولكن هذه العملية لاتحصل الافى وقت الجزر أى عند نزول مياه النهر فى

البحر فيأخذ التيار هذه القاذورات وهذه العفونات بعيدا عن المدينة ويذهب بأضرارها أدراج الرياح وتبلغ كمية المواد البرازية الملقاة بهذه الكيفية فى النهر ٣٢٣,٧٣٤ مترا مكعب فى كل يوم

وليس هذا كله شيأ فى جانب مايمكن أن يقال على لوندرة لكن لابد من الانتقال الى ذكر طرف وجيز على بعض ضواحيها مثل رِشْمَنْد فانها مدينة صغيرة تختال فى حلل الجمال واقعة على الضفة اليمنى لنهر التيمز وعلى منحدر تلال بهيجة فيها غابات ومنازل خلوية تبتهج العين برؤيتها وفيها قنطرة بديعة وآثار قصر قديم وهى مشهورة بصناعة فطير بجبن يسمونه (بنات الشرف) لان وصائف مليكة الانكليز هن اللاتى اخترعنه وأشهر مافى هذه المدينة هو روضها الاريض الكائن على هضبة فسيحة وفى وسطه برك كثيرة تبدو منها للناظر مشاهد تروق النواظر ويخرج القوم الى هذا الروض للرياضة فى فصل الصيف واستنشاق النسيم الصحيح العليل وخلاصة القول ان وجودها على مقربة من لوندرة نعمة كبرى للنازلين بها والمقيمين فيها بل برهان جديد على أن الانكليز ينتقلون من الطرف الى الطرف ولا يعرفون الوسط

وأما وندسور فهى مدينة تبعد عن لوندرة ٢٢ ميلا تقريبا

وعدد سكانها ١٢,٢٧٨ وأهم مافيها هو قصر الملكة المعروف باسمها وهو عبارة عن قلعة حصينة ولايشبه قصور الملوك الا بما حواه من بعض الزخرفة والرسوم ولكنه فى نظرى لايضاهى أقل قصر من القصور الملوكية التى شاهدتها بايطاليا بل إن أفخم مدخنة (وجاق) للاصطلاء فيه هى أقل من أقل مدخنة فى قصور الجيزة والجزيرة ونحوهما مع عدم لزومها فى بلادنا وشدة احتياجهم لها فى انجلترة وقد زرت الاصطبلات والعربخانات الملوكية ولكنى أستغرب كيف ان نفقاتها بلغت ٧٠,٠٠٠ جنيه انكليزى نعم انهم لم يطلعونا على عربات التشريفة الخاصة بالملكة ولكن عربات معيتها وحاشيتها يمكننى أن أقول انها أقل من نظائرها فى المعية الخديوية السنية وكذلك الخيول فانها وان كانت من الأصائل البالغة فى القوة والجمال ولكنى (وان لم أكن من أهل هذا الفن) أقدر أن أقول انها أقل من الجياد الاصائل التى عند سعادة على باشا شريف وأما بناء الاصطبلات نفسه فأقول ولا أخشى تكذيبا انه أقل زخرفة واتقانا من الاصطبل الجميل الجليل الذى ابتناه حضرة عزت بك القاضى بالمحكمة المختلطة فى سرايه التى بجانب السراى المنيرة وان كان هذا صغيرا جدا فى جانب جسامة ذاك

أما الحدائق التى فى القصر وحواليه فهى من أبهى مايراه الانسان وأجل منها تلك الغابة البعيدة عن مدينة وندسور قليلا المعروفة باسم (فرچينيا ووتر) والذى يزيد فى بهجتها أنها كانت فى أول الامر عبارة عن مستنقعات تبعث بالعفونة الى الهواء وبجراثيم الامراض الى ماحولها من الجهات فحولوها وطموها ودبروا تصريف الماء منها واليها حتى أصبحت جنة تسر الناظرين وسبحان من يغير ولا يتغير تبارك الله رب العالمين

وقبل أن أختم هذه الرسالة أرى من الواجب علىّ ذكر معرض أقامه بعض الافراد فى مدينة لوندرة وسماه (نياجارا هول) ولكنه يفرج الزائرين فيه الآن على مدينة منف عاصمة الفراعنة أيام مجدها وعظمتها ولا أقدر أن أوفى صانع الرسم حقه من المدح على تصوير القصور والاشجار والاصنام والمعابد والنيل والاهرام وأبى الهول والاسرائيليين حين خروجهم من مصر وغير ذلك فانه أبدع كل الابداع حتى ان الرائى يتخيلها مجسمة للعيان بعيدة عن بعضها كما فى الطبيعة بأحسن شكل وأكمل أسلوب وكل ذلك على قطعة كبيرة من القماش تحيط بالمكان الذى يقف فيه المتفرج معجبا بهذه الدقة فى العمل وهذا التناهى فى الاتقان وسأشرح الكلام عليها فى الرحلة ان شاء الله فقد رحب بى صاحب

المكان ترحيبا خصوصيا لكونى من المصريين ولكونه من اعضاء المؤتمر وأتحفنى بجميع الاستعلامات اللازمة وأطلعنى على جميع التفاصيل التى لايطلع عليها الجمهور بما استوجب جزيل شكرانى وجليل امتنانى

وأغرب مارأيته فى ملحقات هذا المكان رجل من اخواننا أبناء الشرق واسمه المعلم الياس ليان حلوة قد برع فى أعمال النقش على الخشب بالطرق الشرقية القديمة التى كادت تندثر فى هذا الزمان وقد رأيت له من الاعمال ماأدهشنى اتقانها ونظامها وتناسقها مما جعل أهل الفن من الاوروباويين الذين يقدمون الى هذا المكان يعترفون له بالبراعة والاقتدار وقال لى انه يعد جميع هذه المصنوعات لمعرض أمريكا القادم تشريفا للشرق وبنيه ورأيت فيه من العواطف القومية والاحساسات الوطنية مازاد فى اعجابى به وفوق ذلك فهو خبير بلعب السيف والنقر على آلات الطرب وقد تأثرت حينما رأيته محافظا على محبة ملته ودولته وعادات أهله وبلدته ووددت لو أن أهل الشرق يلتفتون لصنائعهم ويشجعون القائمين بها لكى لاتزول وتصبح أثرا بعد عين خصوصا لما رأيت أمم الغرب يتفاخرون بصناعاتهم الخاصة بهم وببراعتهم فيها على من عداهم وحكوماتهم تساعدهم على الارتقاء والتفنن فيها حتى يفوقوا

أمثالهم فتكتسب بذلك أوطانهم حسا ومعنى مكاسب لاتقدر ووددت أيضا لو كانت ظروف الاحوال تساعدنى على مساعدة هذا الرجل وأمثاله من أهل بلادنا حتى يكون لها بهم و بأمثالهم شأن رفيع فى سوق الحضارة ومعرض العمران الذى سيقوم فى شيكاجو وعسى أن يكون لهذا النداء صدى فى الاوطان لما وراءه من المنافع التى لاتنكر والله يهدى من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

الرسالة الرابعة عشرة

السفر من انجلترة الى فرنسا

عن طريق دوفر وكالة

وذكر اميان

مبارحة لوندرة

لقد احترت والله حينما اخترت الانتقال من الكلام على لوندرة بعد الاطالة فى الكتابة عليها والتوسع فى القول عنها بمقدار ماوصلت اليه يدى فى الرسالتين الخاصتين بها فانى لاأزال أجد للشرح مجالا يستغرق رسائل ضافية الذيول بل مجلدات تملأ المكاتب وتشحن الاذهان بالغرائب وتذكر من يتذكر بما يمكن الانسان أن يصل اليه بالاجتهاد بمفرده أومع استعانته بابناء جنسه وتجلو على أبصار أولى البصائر بعض ماأودعته القدرة الالهية فى العوالم الطبيعية من القوى التى يتوصل العقل لاستكناه خباياها واستكشاف أسرارها ولكنى أرى بالرغم عنى وجوب الانتقال من هذا الموضوع مع ماأتيته فيه من التقصير مضافا الى مافى ذهنى من القصور

التعصب والتساهل المطلقين

على أنى لاأرى لى مندوحة فى إغفال حادثة خطيرة وقعت بالمدينة قبيل مبارحتى لها فلابد لى من ذكرها فى هذا المقام ولو لتأييد ماقلته عن هذه الامة من ميلها للاطراف وغرامها بالتناقض فى كل

الاحوال الادبية بل المادية فقد سبق لى أثناء الكلام على دياناتهم أنهم يحترمون جميع المذاهب والعقائد ولكنهم يبغضون المذهب الكاثوليكى بغضا ليس له أوّل يعرف ولا آخر يوصف وانهم يكرهون البابا كراهة التحريم فاسمع الآن ماحصل أثناء انتخاب اللوردامين المدينة

اجتمع رؤساء الطوائف وأكابر التجّار لانتخاب شيخ لهم فكان المختار هو المستر ستوارت كيلّ فقام البرتستانت واعترضوا وصخبوا ولجوا بالسخط وهاجوا وماجوا وكتبوا استرحامات كثيرة وقع عليها الالوف والالوف من أهالى لوندرة يسألون فيها الملكة أن لاتوافق على هذا التعيين وأن تصدر أمرها باعادة الانتخاب فانعقدت جمعية لفصل الخلاف فقال قائل منهم مانالت لندرة حريتها وماتمتعت بامتيازاتها الا بعد أن أهرق البروتستانت دماءهم فى هذا السبيل فمن العار على العاصمة أن يكون شيخ مشايخها منتميا الى الكرسى البابوى وعضده فى هذا الرأى كثيرون من المجتمعين ولكن المعتدلين فازوا بالغلبة بعد أن طالت المشاحّات وتعارضت المشاحنات فانهم قالوا قد امتازت انجلترة بحب الحرية فى العمل وان لوندرة مدينة الحرية الدينية وهذه المشاجرات لاتليق بامثالهم فقد سبق أن كان شيخ مشايخ لوندرة

اسرائيليا فكيف يجوز ذلك ولايصح فى شرع المنصفين أن يكون كاثوليكيا فألزمتهم الحجة وتقررت الرياسة للرجل ثم اذا نظرنا الى المختار نفسه نراه أشد تعصبا من خصومه فقد قرر أنه لايعترف الا بالبابا ثم بالملكة وهى كلمة لم يجسر على التفوه بها من قبله انسان ولذلك رفض الحضور الى كثير من الاجتماعات الدينية جرت العادة بان يحضرها اللورد أمين المدينة منذ القديم وقد أبى أن يذهب بموجب وظيفته الرسمية الى الكنيسة الفلانية والمعبد الفلانى وأصر فى عدم الذهاب بنفسه وفى ارسال مندوب من قبله فانه اشترط عليهم أن لايكون له معاون ينوب عنه فى هذه الامور الرسمية فهلا ترى من أغرب الغرائب شدة تمسك أولئك وعدم تنازل هذا الى هذه الدرجة حتى كان كل من الفريقين على طرفى نقيض بحيث يكاد الانسان يثبت الحق للبر وتستانت فى اعتراضهم على نصب شيخ يأبى أن يسايرهم الى هذا الحد فى شعائرهم الدينية ولوحرمة للعادات القديمة والاصول المرعية

تفقات أمين مدينة لوندرة

ولما كنت فى باريس وافتنى الجرائد فى ١٠ نوفمبر منبئة بانه فى اليوم الذى قبله تم الاحتفال بتنصيب اللورد أمين المدينة فى هذه السنة ولكون الرجل من الكاثوليكيين وهذه أول مرة انتخب فيها كاثوليكى للقيام بهذه الوظيفة المهمة عقيب الانشقاق

الذى جعل للمذهب البروتستانتى السيطرة فى انجلتره كان للاحتفال أهمية خصوصية وقد بلغت أكلافه ٢٥٠٠٠ فرنك وهذا الرجل (ستوارت كيل) من الثروة والغنى والعلم بمكان ولكنه مهما كان ايراده لايمكنه أن يقوم بالمصاريف الباهظة التى يستوجبها مركزه اذا لم تساعده لجان الطوائف الحرفية والصناعية فى لوندرة والدليل على ذلك أن سلفه فى السنة الماضية صرف ٣٠٠٠٠ فرنك فى أمور متنوعة وقد بلغت ولائم الغداء والعشاء التى أقامها احتفالا باللجان الرئيسية لمدينة لوندرة ١٠٠٠٠٠ فرنك و بلغت نفقات الوليمة التى أعدها احياء لعيد الملكة ٣٧٥٠٠٠ فرنك وأما المأدبة التى أقامها ابتهاجا بنجاة البرنس دوغال من المرض فقد بلغت مبلغا يفوق حساب الحاسبين فانها أوجبت عليه صرف ٦٧٥٠٠٠ فرنك مع ان مرتب الوظيفة فى السنة هو ١٠٠٠٠٠ جنيه انكليزى ليس الا

مصاريف الانتخابات

ولا بأس من ذكر بعض أرقام فى هذا المقام تدل على ماأنفقه القوم فى سنة ١٨٩٢ لاجل حصولهم على الانتخاب وانتظامهم فى سلك أعضاء البرلمان فقد كان عدد المترشحين له فى لوندرة وحدها ١٣٠٧ من الاشخاص و بلغ ماأنفقوه من المال لاستمالة العامة ولنوال الاصوات بتقديم المآكل والمشارب

وطبع الآراء والافكار ونحو ذلك مبلغ ٩٥٨٥٣٢ جنيها انكليزيا ولم ينتخب منهم الا ٦٧٠ فقط وقد بلغ ما أنفقه واحد منهم ٩٠٠ جنيه انكليزى أوصلته الى نوال ١٤٦١ صوتا فيكون ثمن الصوت الواحد عليه ١٢ شلنا (٦٠ قرشا صاغا) وبلغت نفقة الحصول على الصوت الواحد فى بعض الجهات ٣٢٣ فرنكا (نحو ١٢٣٥ قرشا صاغا) ومع ذلك لم يفز بالانتخاب ذلك الذى أنفق كل هذا المال . أما مشاهير القوم فلم ينفقوا شيأ زائدا عن المعتاد بالنسبة لغيرهم فان غلادستون أنفق ٩٤٥ جنيها والسير وليم هاركور ٤٢٥٧٥ فرنكا — وهذا كله خلاف النفقات اللازمة لتمهيد الانتخاب فتأمل وارجع بنا الى الموضوع

القيام من لوندرة

قمت من لوندرة فى مساء ١١ اكتوبر وركبت القطار بالليل كما جرت عادتى للاستكثار من الوقت وعدم ضياع الفرص هباء منثورا فوصلت مدينة دوفر فى منتصف الليل وكان فى امكانى ركوب متن البخار والتوجه توا الى فرنسا ولكننى آثرت رؤية دوفر وتمضية نصف نهار بها كى أودع فيها انجلترة بعد أن أشاهد ماخلفه الرومان فى هذه المدينة الساحلية من الآثار وما أحدثه الانكليز من موجبات التحصين والدفاع

فعولات على النزول بها وما افتر ثغر الصباح حتى تجولت فى المدينة وطفت انحاءها مع دليل من أهلها واليك ماوقفت عليه فيها بالاجمال

عموميات على دوفر

هذه المدينة لايزيد عدد سكانها عن ٣٠٢٧٠ من النفوس وهى ذات موقع معجب فى نهاية واد رائق وتعلوها أجراف عالية من الصخور تحيط بها من كل الجهات وكان أول شئ عنيت به بعد التجوال فى طرقاتها وميادينها أنى صعدت على جبل عال فوقه قلعة حصينة ترتفع عن مستوى سطح البحر ثلاثة وتسعين مترا ورأيت فيها كثيرا من المبانى القديمة الرومانية ممتزجة بصروح أقامها الانكليز لتكميل وسائل الدفاع فى هذه النقطة الحربية المهمة وأقدم جزء فى هذه القلعة الممتدة بغير انتظام على مسافة ١٤ هيكتارا هو البرج الرومانى وارتفاعه ١٢ مترا وشكله ثمانى من الخارج مربع من الداخل وليس فيه سلالم تسمح بالصعود الى قمته وقد وضعوا فيه ناقوس الكنيسة العسكرية التى الى شرقيه وربما كان الرومان يستخدمونه فى ارسال النور الى المراكب القادمة بالليل وفى المخابرة معها برايات الاشارات حينما يكون قدومها بالنهار أما الكنيسة فان أساسها يدل على أنها من صنع السكسونيين (قدماء الانجليز) وهى من أقدم العمائر

الدينية التى فى بلاد انجلتره وأما المبانى النورماندية فهى كثيرة جدا وأهمها صرح يرى على مسافة بعيدة فى البحر وقد كانت الشمس طالعة فتيسر لى وأنا فوقه رؤية شطوط فرنسا بارشاد الدليل قبل منتهى الافق بقليل وقد توجهت الى ثكنة أى قشلاق هناك ورأيت العساكر فى حالة التعلم والتمرن على الحركات ولم أستنكف من زيارة المطبخ بل انى عجبت لنظافته واتقانه وجودة المأكولات المخصصة للعساكر الانفار مما يغبطهم أو يحسدهم عليه آلاف وآلاف من أهل انجلترة الذين يموتون جوعا فى كل يوم ثم زرت خزانة السلاح وما فيها من المخلفات الحربيـة والغنائم التى أخذها الانجليز من أعدائهم فى ساحات الوغى البرية والبحرية ورأيت فيما بين المدافع الكبيرة مدفعا طويلا أرسلته احدى ملكات هولاندة (الفلمنك) هدية لانكلترة وعليه أشعار منظومة على لسان حاله بمعنى انه يرسل القائل الى الاعداء فيردهم على أعقابهم خاسرين ويبعث بمقذوفاته الى القلاع والحصون فينسفها عن آخرها ثم نزلت من طوابى هذه الروابى الى أهم ميدان فى المدينة فرأيت موسيقى تصدح فى ضحى النهار وعلمت أن مجلس البلدية هو القائم بنفقاتها لايجاد الطرب والانشراح فى المدينة على الدوام

حال المفارق وطنه والقادم عليه ومن لا يزال بعيدا عنه

ولكنى لم يسمح لى وقتى بتشنيف آذانى الشرقيـة بنغماتها الغربية لان القطار حضر من لوندرة وفيه جماعة المسافرين الى قارة أوروبا فلحقت بهم واتبعت خطواتهم حتى وصلنا السفينة وتبوأ القوم مقعدهم منها وأخذت أطوف جوانبها وأعلو ظهرها لرؤية المناظر وتعهد ماحوالىّ من المعاهد وما هو الا ان أبحرت حتى رأيت أغلب الحاضرين قد انقسموا قسمين بقى بعضهم فى مؤخرها وذهب الآخرون الى مقدمها وكان الفريق الاوّل يطيـل النظر الى المـدينة وأطرافها وأبراجها والفريق الثانى يحـدق النظر والنظارات الى الامام والى أقاصى الافق وبقيت أطوف ذات اليمـين وذات اليسار وأدفـع بخطواتى الى الامام ثم أكر راجعا الى الخلف الى أن أدركت بعد سماع تلاغى الفريقين أن أهل الخلف من أبناء الجزيرة يحيون بلادهم ويتزوّدون منها بنظرة أخـيرة وأن أهل الامام اشـتد بهم الهيام للتعجيل برؤية بقاعهم ولكن الضباب يحجبه السحاب انتشر بأقرب من لمح البصر فكان يحول دون ادراكهم الوطر غير انه لم يثن عزيمتهم عن التكرار فى اطالة الانظار وانشاد الاغانى والاشعار والترنح لقرب الوصول من الديار ثم استمر الطرفان على هذا الشان حتى انتصف الطريق فتبدت صخور فرنسا وشطوطها كأنها أشـباح تتظاهر فى ظلال الخيال

وحينئذ أخذ الانكليز يقتربون من أواخر السفينة بقدر ما أمكنهم مستعينين بآلات التقريب كأنهم يسألون تلك الجزيرة بل الام الحنونة أن تبقى محافظة عليهم مراعية لهم فى غربتهم ناشرة لواء حمايتها عليهم أينما حلوا وأينما ساروا وأما أنا فكنت فى هذه الحال أرسل أشعة القلب وانظار الفؤاد الى ديار ألفتها وربوع نبتّ بها وأقوام ترعرعت بينهم قد شبوا على المكرمات واستقوا من نيل الكمالات خصيتهم على البعاد تحية ممزوجة بخالص الوداد والاخلاص وكلفت النسيم بالتسليم على خير أمة أخرجت للناس

منظر المطر فى البحر

ولما اقتربنا من شطوط فرنسا رأيت فى الافق شيأ يشبه الاجبال والاسلاك قد وصلت بين الارض والسماء وبعد تحقيق النظر علمت انه المطر فبقيت أتأمل فيه وأسبح مرسله ومنشيه حتى ألقت السفينة مرساها وقد كان باسم الله مجراها ومرساها فان البحر كان برّا بنا ولم يمسسنا بأذى أذى والحمد لله

دخول فرنسا

ولما نزلت بكاله فضلت التعريج بأميان (Amiens) على التوجه الى باريس لكى أزور كنيستها الجامعة التى طار صيتها فى الآفاق وهنالك وجه آخر حملنى على النزول بها فانى أردت أن أزور هذه المدينة التى كان لاحد أبنائها يد عظيمة فى أكبر المصائب

التى دمرت الانسانية وخربت الديار وعفت الآثار فان رجلا منها كان سببا فى ايقاع أشد فتنة وقعت واستدامت مدة طويلة بين الغرب والشرق بل بين النصرانية والاسلام وذلك الرجل هو المعروف ببطرس الناسك أوالراهب (Pierre l'Ermite) وأصل اسمه كوكوبتر وأصله من هذه المدينة فخرج منها طالبا زيارة بيت المقدس فكانت هذه الزيارة سببا فى حمله أهل أوروبا على حمل السلاح ومقاتلة المسلمين بكل ما استطاعوا فهلكت ملايين منهم فى نفس بلادهم وفى أرض آسيا الصغرى والديار المصرية ووقع فى هذه الحروب الصليبية من الوقائع مانقشعرله الابدان وتذوب من هوله الاكباد وسبب ذلك كله رجل واحد أخذ فى تهييج النصارى وزعمائهم وجعل يغريهم على الايقاع بالمشرقيين واهلاكهم حتى كان ما كان من الحروب الصليبية الشنيعة التى اترك تفاصيلها للمؤرخين وأرجع لموضوع الكلام

أمضيت الليلة بأميان ولما جاءت كتائب النور كنت فى طليعتها وطفت المدينة ومتاحفها ومكاتبها وآثارها مما لاأجد مندوحة عن الاشارة اليه بالايجاز فى هذه الرسالة كما سيأتى

عموميات على أميان

هذه المدينة متقادمة فى العهد بحيث لايتيسر لاهل التاريخ تعيين الوقت الذى ظهرت فيه ولا معرفة الذين وضعوا قواعدها ورفعوا معالمها ولها فى تاريخ فرنسا الحربى فخر أثيل وذكر جميل رقد توجه أهلها فى الزمان العتيق لمحاربة انطيوخوس ملك الشام ورجعوا حاملين ألوية التمدن مما اكتسبوه فى آسيا من العرفان وعدد سكانها الآن ٨٣٦٤٩ نفسا وفيها جمعية للفنون الادبية وبستان للتجارب ومدرسة زراعية عملية وفيها ادارة تلتقط الاطفال والايتام والمعتوهين الفقراء وتقوم بلوازمهم وفيها برج قديم مظلم اسمه بفروا قد التهمته النيران فى كثير من الاحيان وهو حبس للبلدية وفيه ربيئة يقيم به على الدوام للانذار بما يقع فى المدينة من الحرائق فاذا رأى آثار النار فى احدى الديار دق جرسا زنته ١١٠٠٠ كيلوجرام فيبادر رجال المطافئ لانجاد أنفاسها وتلافى اتلافها وهم يستخدمون هذا الجرس أيضا فى المواسم والاحتفالات وفيه ساعة كبيرة جدا لتعيين الوقت بصفة رسمية وقد صعدت الى قمته ولكن ظلمته الداخلية أحدثت فىّ انزعاجا لايمكنى أن أصفه الآن مع ان شكله من الخارج أنيق ومنظر المدينة من أعلاه رشيق فلله هذا البرج قد جمع بين الانذار بالشرور والتبشير بالسرور وجوفه مستودع للظلام وجسمه محفوف بالانوار

فظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب أو كأنه من أعمال الانكليز لاستجماعه بين الضدين

وأما المكتبة العمومية المعروفة بمكتبة الخط (بضم الخاء) فان أهميتها تزيد عن حاجات المدينة اذ فيها ٥٠٠ كتاب بخط اليد وأكثر من ٨٠٠٠٠ مجلد مطبوع ومما يستحق الذكر فيها أن أرملة الكونت روليسكا كير (وهو من أبناء المدينة) تبرعت للمكتبة بجميع الكتب التي خلفها زوجها (وقدرها ١٥٠٠٠ مجلد) مع ما يتبعها من الدواليب والادراج والتحف القديمة والصور الثمينة وأغلبها له علاقة بالرموز النصرانية والمخلفات الدينية العتيقة والقسم المهم من هذه الكتب هو عبارة عن مجموعة للسياحات في الارض المقدسة وفي الكتبخانة تماثيل كثيرة لأهم رجال المدينة الذين خدموها وأخص بالذكر منهم تمثال الموسيو بوفيللي وسأتكلم عليه بعد قليل ومن أعجب ما رأيته في الحديقة العمومية بهذه المدينة جذع شجرة نخرة عليها بعض أغصان نضرة وفيها تجاويف كما يشاهد في الاشجار العتيقة التي نزل بها البلى وما زالت فيها قوة الحياة ولكن هذا الجذع وهذه الاغصان ليست الا من الصاج والاسمنت اصطنعها بعض المتفننين بناء على اختيار جعلت له المدينة مكافأة عينتها ومن ذلك أني رأيت في دار بعض الافراد تمثالا

فخيما من المرمر الناصع يمثل وجهاء المدينة وعظماءها الذين فاقوا غيرهم فى فنون الرسم والعمارة والتصوير اصطنعه ذلك الرجل على نفقته بقصد وضعه فى الميدان العام ولكن المجلس البلدى رأى من المحذورات مايمنعه عن قبول هذه الهدية النفيسة فوضعها الرجل فى داره بحيث يراها المارة

وقد رأيت فيها ملعبا للخيول والحيوانات المستأنسة (سيرك) وكله مبنى بالآجر ولكنه مكسو بطبقات من الاسمنت بحيث تمثل للناظر أنه مشيد كله بأحجار النحت والدستور والرخام وهو من الاهمية بمكان عظيم ينطق بما لمهندسيه من المهارة والجراءة والاقدام فانهم نظموه بحيث يمكن بسهولة وقتية تحويله الى قاعة فسيحة مثل القاعات التى فى قهاوى الملاهى والمغانى وتسع ٣٥٠٠ متفرج وأما زخرفة الجدران فحدث عنها ولا حرج وأما تراكيب الحديد المستند عليها السقف من غير ارتكاز على الارض فى قاعة بهذا الاتساع فانها تدهش الناظر بل تخيفه وتلزمه الاقرار بابداع الصانع وهى مرتبة بحيث يمكن للجمهور الخروج منها فى برهة قصيرة اذا وقع اضطراب أو حدث طارئ وهى تضاء بالليل بالنور الكهربائى ترسله اليها آلات موضوعة تحت الارض فى غاية النظام والاحكام

ودخلت فى ملعب آخر أقامه بعض الافراد لعرض الحيوانات المفترسة وتسخيرها فى الالعاب امام الجمهور وانما أردت بهذه الاشارة تنبيه الاذهان الى صاحب هذا الملعب فانى سأشرح الكلام عليه فى الرحلة وأبين ماناله بالجد من المجد حتى صار شيأ مذكورا ونال الرعاية من الملوك والامراء بعد أن كان فقيرا معدما ويتيما مهملا

وقد استخدمت السكة الحديدية بعض الخنادق التى كانت حول المدينة لمسير قسم من طريق القطارات فيها والبعض الآخر تظموه سككا ودروبا سلطانية كما فى باريس وأغلب مدائن فرنسا

تجارة أميان وصناعتها

وتدور تجارة المدينة وصناعتها على الاقمشة من جميع الاشكال والانواع والقطيفة الخاصة باللباس وبالأثاث وغير ذلك وفيها مغازل للكتان يشتغل فيها نحو ٣٠٠٠ من العمال وأما مغازل الصوف فيشتغل فيها ١٢٠٠ عامل وفيها غير ذلك من أنواع التجارة وأصناف الصناعة مما لاحاجة لذكره

التعليم بأميان

وفيها أماكن لتعليم الالمانية والانكليزية للرجال والنساء مجانا فى ساعات معينة وأيضا لتعليم الميكانيكا التطبيقية ورسم صور الآلات وقانون التجارة وفن التشريع الصناعى وفن امساك الدفاتر

فى الصنائع والجغرافيا الصناعية والنسيج بالنظريات والنسيج العملى وتطبيق الكيمياء على الصباغة وفن الصباغة ومعالجة الاصباغ والموسيقى وفن تفصيل القطيفة وغير ذلك مثل الرسم الابتدائى والتصوير بالجبس ونقش الاحجار والرسم التقليدى والتشريح وتاريخ الفنون والرسم العملى والرياضيات وفن الرسم (لاجل البنات) الخ وليس على الطالب الا أن يشعر كاتب أسرار أمين المدينة لنوال تذكرة يكون دخوله بمقتضاها فى الاوقات المعينة - وفى المدينة مدارس منتظمة للعلمين والمدرسين (بدرجاتها الثلاث) وللفنون الصناعية والحرفية وفيها ١٦ مدرسة ابتدائية للصبيان و ١٧ للبنات و ١١ مدرسة للامهات ومدرسة لتعليم الصنائع الخاصة بالحديد والاخشاب وأخرى للطب والصيدلية وأخرى للموسيقى وأخرى للفنون المنزلية الخ

عموميات على أميان

وفى اميان كثير من الشكايا المخصصة للطاعنين فى السن من الذكور والاناث والايتام والاطفال الذين يتركهم أهلهم بعد الولادة وللمصابين بالادواء العقيمة العضالة وللمعدمين من الجنسين وكفيفى البصر أو المصابين بأمراض فى عيونهم وغير ذلك

وفيها بستان للنبات يحتوى على قاعات للتاريخ الطبيعى

وعنابر لتربية نباتات البلاد الحارة وتعطى فيه دروس عمومية فى علم النبات

وفى المدينة ٥ جرائد يومية و ٧ أسبوعية منها واحدة نصف أسبوعية وواحدة دينية وواحدة زراعية وفيها غير ذلك من المنشورات الدورية شئ كثير وفيها ثلاثة متاحف أحدها عام للفنون والصنائع والثانى خاص بالاطيار والثالث للتاريخ الطبيعى وسأتكلم عليها فى الرحلة ان شاء الله

وفى المدينة خمسون قنطرة تصل أطرافها ببعضها لان نهر السوم يشقها من أولها لآخرها وأهمها سبعة

تكية المجاذيب والعميان

ومن أهم ما ينبغى ذكره ورؤيته فى هذه المدينة دار المجاذيب وتكية العميان فان المسيو بوفيللى المذكور أوصى عند موته بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ فرنك لتشييد البيمارستان وبمثله لانشاء تكية للعميان يكون فيها أقسام للمتزوجين وأخرى للعزاب والارامل من الجنسين ومدرسة للبنات وأخرى للصبيان وقد زرت تكية العميان بنوع خصوصى لانتشار الرمد فى بلادنا وتفقدت كل ما فيها من الترتيب والنظام بارشاد حضرة ناظرها فانه هش للقائى ورحب بى وقدم لى كل ما طلبته منه من البيانات ولكن لا يسمح لى المقام بسردها الآن فأدخرها الى ما بعد وأتكلم على الكنيسة الجامعة وبها تكون خاتمة رسالتى هذه

الكنيسة الجامعة بأميان

أول من أدخل الديانة النصرانية الى هذه المدينة رجل اسمه القديس فيرمان فى سنة ٣٠١ ثم حكم عليه بضرب عنقه فى سنة ٣٠٣ فى قصر قديم من بناء الرومان وبعد ذلك دفنت جثته خارج المدينة وهو أول أساقفة أميان ثم توالت الايام وتناسى الناس خبر ذلك الذى جاء مبشرا بالانجيل حتى ظهرت كرامات على مايرويه القوم وتتناقله الافواه فاستدل بها الاسقف التاسع واسمه القديس سوف على قبر القديس فيرمان ولذلك تبرع أهل أميان والمدن المجاورة لها بهدايا كثيرة وتحف نفيسة لبناء كنيسة جامعة من الخشب داخل المدينة باسم القديس فيرمان فجاء النرمانديون (ويعرفون عند عرب الاندلس باسم المجوس) فى سنة ٨٨١ وأحرقوها فأعادها أهلها ثم التهمتها النيران واستمر الامر على هذا الحال من تعمير وتدمير حتى كانت سنة ١٢١٨ فاحترقت عن آخرها ولم يبق لها أثر فى الوجود فلم تمض سنتان حتى شرع القوم فى وضع الحجر الاول من الكنيسة الحالية وفى سنة ١٢٥٨ حصل حريق أتلف بعض أجزائها ووقعت الصاعقة فى سنة ١٥٢٧ على ناقوسها فحطمته تحطيما ولكن أهلها رمموا ذلك وأصلحوا ماأفسد الدهر ومسطح الارض التى تشغلها الآن عبارة عن ٨٠٠٠ متر وسمهما يرتفع عن أعلى

نقطة من سطحها ٤٤ مترا ونصف متر وفوقه صليب من الحديد ارتفاعه تسعة أمتار وفيها من الداخل ١٢٦ سارية تتكئ عليها قبابها وعقودها وأما شبابيك الزجاج ففيها تصاوير وألوان تدهش الانسان وكذلك الارغن والوردات الزجاجية الهائلة التى تمثل الفصول الاربعة وفيها كثير من قبور المشاهير وتماثيل القديسين وأما منبر الوعظ والخوروس فهما أعجوبة من أعاجيب الصناعة بما فيهما من التفنن فى النقش على الخشب فانهما يصوران للناظر جميع ماجاء فى العهد العتيق من الحكايات والوقائع تمثيلا باتقان وإحكام ومن أغرب مارأيته فى هذا الخشب الغريب ان النقاشين تركوا فيه بعض قطع طويلة متصلة به من الطرفين وهى فى هيئة الاوتار فاذا غمزها الانسان باصبعه أخرجت صوتا مطربا لطيفا واذا نقر عليها الماهر فى صناعة الموسيقى ربما أمكنه ابراز بعض الانغام بايقاع متناسق متناسب كما هو فى الآلات المعدة لذلك وكل هذا الخشب من الجودة والمتانة بمكان عظيم وقد كانت أجرة الصناع فيه من ٤ الى ٩ مليم فى اليوم الواحد ويخيل للناظر اليه أن الغبار مخيم عليه ولكنه بعيد من ذلك بل انه نظيف جدا واذا لمسه الانسان لايتلوث اصبعه بشئ من السواد وقد قال لنا الخادم ان ذلك الشئ الشبيه بالغبار له سبب فى التاريخ

وذلك انه لما وقعت احدى الثورات بفرنسا خشى أسقف الكنيسة على هذه المصنوعات الجميلة من أن تتطاول اليها أيدى العوام فيبددونها ويهشمونها فاحضر كثيرا من الهشيم والبرسيم وشحن به الكنيسة من أولها الى آخرها وبقيت مخزنا بهذه الكيفية مدة طويلة من الزمان أو جبت تداخل الغبار فى جزيئات الخشب واكتسابه هذا اللون الباهت الذى يشاهد عليها الآن وخلاصة القول ان هذه الكنيسة من أجل وأبدع وأكمل وأبرع ما رأيته للآن فى سياحتى بل هى فى هذه المدينة كدرة يتيمة تحسدها عليها رومة وفى هذه الكلمة من مدحها ما يفى بالمرام لمن شاهد أو علم جمال الكنائس فى عاصمة النصرانية والسلام

الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

من لى بباحث فى أخلاق الانسان يكون قد وقف نفسه على درس الحيرة والاضطراب وتحقيق تأثيرهما وتعرف تنوعاتهما وقد حضرنى حينما عولت على كتابة هذه الحروف وأعددت القلم والقرطاس واستفتحت بتحرير ديباجة العنوان ثم أبقيت يدى معلقة فى الفضاء والقلم بين أصابعى فى الهواء وأعينى شاخصة تنظر ولا ترى وأسنانى تصطك اصطكا كمتواترا وشفاهى يتلاعب بها الاختلاج من غير انتظام ثم تقع السفلى منهما بين الاسنان فينبهنى الالم فأضع القلم وأرفع يدى الى جبينى كأنى أعصره عصرا لأستخرج النيران منه قسرا ثم أسكن بها فكرى طورا وأرجع لحالتى الاولى من امساك اليراع وامساك الذهن حتى كدت أعافى نفسى من الخوض فى هذا الموضوع لولا سبق الوعد فى الرسالة الثامنة بتلخيص وجيز على باريز يعرف القارئ بها ويصف له بعض أحوالها ويقص عليه شذورا من أنبائها

وما مصدر هذه الحيرة وحقك عجز عن التسطير أو احجام فى ميدان التحرير والتحبير ولكن هى المواضيع انهالت علىّ انهيالا

هالنى وتزاحمت تزاحما تراخت معه عزائمى حتى أشبهت (هى) أقواما احتشدوا فى دار شبت بها النار فطفقوا يتسارعون للخروج من باب ليس لهم سواه وصاروا يتدافعون ولا يعلمون انهم يتمانعون وأنهم إذن عما قليل هالكون فقام فيهم شيخ فطين ونبههم الى هذا الخطر المبين وحثهم على التؤدة والسكينة للنجاة من هذه المصيبة العظيمة فاراعوه السمع وسلوا كلهم من الروع وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

فعنّ لى حينئذ أن أقتدى بهم وأذكر الحيرة فى الابتداء ثم التوصل للاهتداء بقسمة المواضيع الى مطالب أتكلم فيها على باريس من جملة وجوه بحسب ماوصل اليه جهدى ووقفت عليه بنفسى

١

كلمتان على باريس

يقول أهل هذه المدينة انها الآن وستكون على مدى الازمان حاضرة الحضارة والعمران ومدينة المدنية فى كل ميدان لايضيرها اضطراب السياسة فيها أو انشقاق الاحزاب بين أهاليها وأن الاجانب يفدون اليها وسيتقاطرون عليها اذ ليس فى العالم الا باريس واحدة (وأنت تعلم أن فى احدى الواحات المصرية قرية حقيرة تسمى باريس — فيالله من هذا التناقض) ويقولون ان من

أقصى أمانى الاغراب ان يمتعوا أنظارهم بمجالى محاسنها ولاسيما أهل الارياف والاقاليم فى فرنسا فانهم يرون وجوب المجىء اليها خصوصا بعد الزواج ليقضوا بها (هلال العسل) وليس ذلك الالانها تفردت عما سواها وفاقت على ماعداها بما جمعت من أسباب اللهو ووسائل الانشراح واراحة الخاطر وتضية اوقات الصفاء والهناء وخلاصة القول انها مركز للجذب العام وفتنة لجميع الانام

هذه المدينة يشقها نهر السين (La Seine) الى نصفين يكادان يكونان متعادلين وهى منقسمة الى ثمانين خطا (بضم الخاء) فى عشرين قسما على رأس كل قسم رئيس يعرف بامين المدينة (شيخ البلد) وثلاثة مساعدين وعلى رأس الجميع موظف عال لقبه مأمور ضبطية السين وعليه القيام بوظيفة الامين العام (شيخ عموم البلد)

وعدد سكانها ٢,٤٢٢,٦٦٩ نفس ومسطح البقعة التى تشغلها من الارض فيما بين الحصون التى حولها عبارة عن ٨٠٠٠ هيكتار وطول محيطها ٣٤ كيلومترا والحصون عبارة عن دائرة مزدوجة طولها ٣٤ كيلومترا و ٥٣٠ متر وفيها ٥٦ بابا للمدينة و ٩ معابر تمر منها السكة الحديدية ومعبران لنهر السين وآخران لترعتين . وطول الطرقات العمومية فيها هو

٨٨٨٫٠٠٠ متر ومسطحها عبارة عن ١٥٣٢ هيكتار وفيها أكثر من ٨٢٫٠٠٠ دار . وميزانيتها فى السنة تبلغ ٢٨٠ مليون من الفرنكات

ولما كانت الكوليرة ضاربة أطنابها بها فى الصيف الماضى تكبدت المدينة نفقات باهظة فى رش السوائل المطهرة فى الطرق العمومية ولغسل أماكن القاذورات والمباول فى كل يوم من أيام الوباء حتى بلغت المصاريف ٤٫٣٠٠ فرنك فى اليوم الواحد وقد بلغت مصاريف التطهير وتنقية الهواء فى المدارس التابعة للمدينة ٨٫٠٠٠ فرنك وقد كان مجموع المصاريف التى أنفقت بهذا السبب فى فترة اجتماع المجلس البلدى ٥٧٫٠٤٦٫٦٧ من الفرنكات

٢

متاحف باريس

أول شئ تنساق اليه أقدام السائح الذى يقصد الاطلاع على الغرائب ومشاهدة الطرائف انما هو المتاحف وأحقها بالتقديم هو متحف اللوفر فانه يحتوى على أكمل مجموعة فى العالم من حيث الفنون الصناعية وقد كان انشاؤه فى قصر اللوفر فى سنة ١٧٩١ بأمر من الجمعية الاهلية فجعلوه مقرا لجميع الاعمال الغريبة التى كانت متفرقة فى قصور الملوك ثم جاء أساتذة الفنون المتقنين وحلوه

برسوماتهم ونقوشهم وكثر المتبرعون بفرائد الصور وذخائر الاشكال حتى أصبح من أكمل وأجل متاحف الدنيا وانى أشير الآن بالاجمال الى مافيه من الاقسام فان التفصيل يكاد يكون من المستحيل — فيه قسم للتماثيل والانصاب من الرخام (ومنها الزهرة إلهة الجمال لميلو ثمنها وحدها ٦٠٠ ألف فرنك) ومن النحاس من صنع الاقدمين أوصحاكاة لهم وفيه نقوش دينية على المرمر وأبواب هياكل ومعابد ثم نقوش وكتابات رومانية بارزة وفى احدى قاعاته إنا آن كل واحد منهما من حجر واحد ومتباعدين عن بعضهما نحو ٣٠ مترا واذا تكلم الانسان فى أحدهما سمعه صاحبه من الثانى وهذا من غرائب الصدى وليس لهما مامن مثيل الافى أمريكا على ماعلمت وفيه قاعات لاوانى الفخار وللوح الرسم والتصوير مما وراء العقول ولا تسلنى الآن عما فيه من مخلفات قدماء المصريين والرومانيين والاشوريين والبابليين وغيرهم من أمم السلف وفيه متحف للجزائر وآسيا الصغرى وخلاصة القول أنه فى باريس كالدرة اليتيمة فى القلادة الثمينة — وفى الدور الثانى منه متحف للبحرية فيه صور المراكب وجميع آلات البحر وأدواته عند جميع الامم وفيه خريطة كبيرة مجسمة من الجبس تمثل قنال السويس وأعماله ومدائنه أهداها له دولسبس وفيه متحف

صينى — أما أثمان الاعمال التى فيه وزخرفة القصر فهى من قبيل ماورد فى ألف ليلة وليلة

أما متحف لكسمبرج فهو مخصص لحفظ رسوم المتفننين العصريين ونقوشهم وعلى بابه تمثال بهيئة فرتسا وهى تقدم أكاليل الفخار الى إلهتى النقش والتصوير وفيه كثير من النقوش فى الحجر والرخام والرسوم على القماش مما يقضى بالعجب العجاب

أما متحف الحمامات ودار كلونى فيمتاز عن السابقين بانه مخصص لكثير من المجموعات المحتوية على آثار الاقدمين ومخلفاتهم النفيسة من كل نوع ومن أعمال أمم مختلفة — وقصر الحمامات هو أقدم العمائر فى هذه المدينة حتى اننى حينما شاهدته تذكرت اننى فى باريس وتصورت أننى فى رومة خصوصا عندما دخلت فى قاعته الكبيرة الباقية الى الآن فى نهاية الحفظ والصيانة تحت قبتها العتيقة الفسيحة ويقول بعض المؤرخين ان يوليان المرتد نودى به امبراطورا رومانيا فى هذه القاعة (سنة ٣٦٠ ق م) وفى المتحف الآن أكثر من ١٢٠٠٠ قطعة معروضة على الانظار وكلها من الفائدة والاهمية بمكان اذ تحتوى على كثير من أمتعة القدماء وأبسطتهم ومنسوجاتهم وعلى عربات مذهبة كان يستعملها الملوك فى القرون الوسطى وبعضها يجره الجياد وبعضها مما يحمله الرجال

على الاعناق ولا أظن ان فى متاحف المدائن الاخرى مجموعة تعادلها وفى الدور الاول من هذا المتحف مجموعة من الاسلحة والدروع والدرق والمجان والخود للمقاتلين وللخيول ومن الاوانى المعدنية ثم مجموعة من الاوانى الخزفية (وفيها مجموعة من صناعة رودس وأخرى أندلسية) والمينا والخشب المنقوش المحلى بالصور الباهية ومجموعة من الاقداح والاكواب والقازوزات والقارورات وفى هذا المتحف غرفة تحتوى على مجموعة من المصنوعات العبرانية أهدتها له البارونة ناتالى دوروتشيلد من ضمن مافيها تمثال لتابوت العهد على هيئة دولاب وشمعدانات ذات سبعة فروع وثمانية وتسعة وكلها من الخشب المنقوش والفضة الخالصة والنحاس الصافى وفى المتحف خلاف ذلك من صناديق القدماء وأسرة الملوك والاوانى المتخذة من خشب الابنوس وسن الفيل ورقع الشطرنج والبلور الصخرى والساعات ومفارم الدخان والمفاتيح والسكردانات والمناقد وكرة أرضية من نحاس مذهب والاقفال والاغلاق والمتارس (الدرابيس) والمصوغات مثل تيجان الملوك القوطيين وأكاليل الابريز الخالص الاصم المحلاة باحجار الصفير والدر العديم النظير ومذبح (من أقسام الكنيسة) من الفضار الدقيق المطروق بصناعة واتقان والاساور

والخواتم ووردت من الذهب وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه وتحار الافكار من مشاهدته منضودا محفوظا كما كان وكأحسن مايكون

أما قصر الحمامات فقد كان بناؤه فى سنة ٣٠٠ ميلادية بامر الامبراطور الرومانى كونستانس كلود ثم اتخذه ملوك فرنسا فيما بعد سكنا لهم مدة من الزمان ولما تركوه اشترى أطلاله أحد القساوسة وبعد ذلك اشترته مدينة باريس وأحاطته بحديقة لطيفة وجعلته مقرا للتماثيل الرخامية والحجرية التى أقيمت فى باريس فى العصر الذى شيد فيه القصر وأطلق عليه اسم قصر الحمامات إذ لم يبق من معالمه سوى قاعة الاستحمام وفى البستان كثير من الأنصاب والعمدان أغلبها كانت فى القصر أيام كان يسكنه القسيسون ومن أهم مافيها صليب من الحديد انتزعه الفرنساوية من كنيسة سان والدمير بمدينة سباستپول وغير ذلك

وأما متحف الآلات والفنون الصناعية (ويسمى أيضا بالمحفظ الاهلى للفنون والصنائع) فقد أقيم فى مكان كنيسة قديمة أضيف اليها جملة قاعات كثيرة وعلى بوابته تمثالا العلم والصناعة وفيه مكتبة تحتوى على ٣٠,٠٠٠ مجلد خاصة بتطبيق العلوم والفنون على الصناعة وفى احدى غرفه رسم بعض المجيدين فى

التصوير تماثيل الصناعة والرسم والتصوير من جهة والعلم والطبيعة والكيمياء من جهة أخرى وفيه معامل للكيمياء والطبيعة وتعطى فيه دروس ليلية فى العلوم وتطبيقها على الصنائع مجانا لكل طالب يقوم بها رجال من أشهر النابغين فى هذه الفروع

وهو يحتوى على جميع أصناف المحاريث وآلات متنوعة للتقطير وتكرير السكر ومثال معمل للعربات وأدوات الخراطة والخياطة والنسيج والغزل وبعض عينات من المنسوجات والآلات الخاصة بنظريات الحركة والانتقال وآلات تحويل الحركة وتوليدها وآلات العدد والتلغراف الكهربائى وغير الكهربائى والتلفون وآلات الصوت والجلوانوبلاستيا والموازين والاثقال وآلات علم الطبيعة وأدوات استخدام حرارة الشمس وجهازات كهربائية متنوعة وآلات علم الآثار العلوية وآلات تقييد الارصاد وآلات استخراج غاز الاستصباح وجهازات الاستضاءة وآلات الورق وآلات الطباعة والنقش والتصوير الشمسى ثم المتحصلات الكيماوية وآلات طبع الالوان والاصباغ على الاقمشة وتماثيل معامل حمض الكبريتيك ثم كيفيات اصطناع الخزف والفخار والمينا والزجاج والبلور وغير ذلك مما تتعذر الاحاطة به ويستدعى المشاهدة وتمضية الوقت النفيس وأهم ما استوقف أنظارى تماثيل

استخراج الفحم الحجرى وأدواته وآلاته وجهازاته وآباره وسبر أغواره والمعادن التى تخرج معه والاصباغ والروائح والاعطار التى تستخرج منه وغير ذلك وقد رأيت فى نموذجات المنسوجات قطعة من شغل مصر أهداها الخديو الاسبق الى هذا المتحف وفيها أشعار عربية مكتوبة باحرف من القصب ومزركشة بذوق وحذق بحيث انها تجعل لصناعة بلادنا مقاما محمودا بين مايجاورها من منسوجات الامم الاخرى

وفى تياترو الاوپرا متحف ومكتبة للتشخيص والتمثيل والروايات وفن الألحان ولكن المتحف ليس من الاهمية بحسب مايتصوره الذى يسمع عنه وبعكس ذلك المكتبة

أما متحف فنون الزخرفة والتزويق فالغاية منه المساعدة على توسيع نطاق أعمال المشتغلين بتطبيق العلوم على الصنائع اذ يرون فيه نموذجات لاتحصى من صنع الاقدمين والمحدثين فتتربى بذلك ملكتهم ويقتدرون على الاختراع والتنويع فانها تحتوى على مجاميع متعددة فيها تصاوير على القماش ونقوش على الاخشاب والاحجار والمعادن ومصنوعات شرقية مثل الانسجة والعاج والابسطة والخزف والزجاج من صنع فارس وغيرها وفيها أيضا تصاوير بالالوان وأقمشة قديمة وحديثة وأثاثات المنازل ثم طريق

التزويق بحسب العصور قديما وحديثا وغير ذلك مما يطول شرحه

أما متحف تطبيق فن النحت فهو فى قصر التروكاديرو ويحتوى على نموذجات بالجبس من أهم أعمال المبانى فى مشارق الارض ومغاربها فى العصور السالفة ومن بوابات وعمدان وجدران وعقود وقبور ونقوش بارزة فى الحجر وغير ذلك مما يطلق عليه لفظة آثار وهى مرتبة بحسب تاريخ أوقاتها وبيان الاماكن التى فيها الآثار الاصلية وماهية الموضوع بالايجاز وأول مايراه الانسان فيها هو نقوش قدماء المصريين وغيرهم من الامم القديمة حتى ينتهى الى القرن الثامن عشر فيرى غرفة فيها أعمال من جميع الامم كأنها فهرست للغرف التى سبقتها أو بيان اجمالى لما رآه الانسان قبلها

وأما متحف طبائع الامم وأحوالها فهو فى الدور الاول من قصر التروكاديرو أيضا ويحتوى على ٤٠,٠٠٠ قطعة تمثل أصناف الامم وكيفية معيشتهم وتغذيتهم ولباسهم وسلاحهم بالاقدار الطبيعية التى تصورهم للانسان كأنه يراهم كاهم بالتمام فى أقاليم استراليا والاوقيانوسية وغيرها مثل ملبوس الرؤساء وشبالك الصيد فى البحر وحبائل القنص فى البر والمساكن وصورة المتوحشين وغير ذلك مما يتعلق بامم أفريقية وامريكا وأوروبا وآسيا ويرى الانسان فيها الزوارق

والنقوش والاكواخ والمنسوجات والاسلحة والمصنوعات الزجاجية والفخارية والاطلال الدارسة وسارية من حجر واحد تشبه شكل الآدمى فى تكوينها الطبيعى (واردة من بلاد المكسيك) والمحاريب والمعابد والهياكل وبعض موميات واردة من أمريكا وجهازات الجنائز والاحتفالات بالاموات وكل ذلك مما يتعلق بالقبائل المتوحشة والبدوية والمتمدنة والحضرية سواء كانت تسكن عند القطب الشمالى أو بجانب الخط الاستوائى أو تحته أو فيما بينهما — وفيه غرفة مخصصة لبيان أهل فرنسا بحسب أقاليمها وتنوع معيشتهم ومساكنهم وأخلاقهم وغير ذلك

أما متحف التربية فيحتوى على مكتبة مركزية خاصة بالتعليم الابتدائى فيها الكتب المؤلفة فى فن التربية وأساليب التعليم ورسوم وأشكال وخرائط ومجاميع وكتب مطالعة وغير ذلك مما يلزم الدارسين والمدرسين وفيه زيادة على ذلك مكتبة متنقلة تعير الكتب الى القائمين بوظائف التعليم فى سائر أنحاء فرنسا وفيه آلات التعليم وأدواته وأجهزته وجملة مجاميع للتاريخ الطبيعى ولتعليم الرسم والتصوير فى المدارس الابتدائية والثانوية ومدارس المعلمين وفيه تماثيل للمبانى الدراسية لبيان أوفقها للصحة والتعليم من حيث التهوية والاضاءة وغير ذلك من المرافق — وهذا

المتحف المفيد يحتوى على قاعة كبيرة فيها كلها خرائط جغرافية فقط وغرف أخرى للرسم ومعامل للكيمياء والطبيعة والاشغال اليدوية وأخرى تحتوى على أثاث المدارس وأدوات الدراسة ونموذجات تصور المدارس الغير فرنساوية وفى الدور الاول مكتبة التربية الفرنساوية والاجنبية وأهم قسم فيها هو مكتبة للموسيو راپو تحتوى على ٦٨٤٨ مجلد خاصة بهذا الفرع من التعليم وقد اشترتها الدولة بعد وفاته باسم هذا المتحف وبعض الكتب الموجودة فى هذه المجموعة قد صارت الآن أندر من الكبريت الاحمر وفيها أيضا مجموعة تحتوى على كتب التعليم فى القرن السادس عشر وفى الدور الاول مجموعة علمية ومعامل للعلوم الطبيعية وأثاثات مدرسية وشرائع فرنساوية وأجنبية خاصة بالمدارس - وقد ترتب على انشاء هذا المتحف فوائد كثيرة خصوصا المكتبة المتنقلة فانه قد يتفق وجود بعض من المترشحين لوظائف التدريس أوللترقى الى وظائف سامية ولايكون فى وسعهم الاستحصال على الكتب الدراسية اللازمة لبعدهم عن المدن الكبيرة واضيق ذات يدهم فانشأت الدولة هذا المتحف ليعيرهم الكتب اللازمة بناء على طلبهم فيرسلها لهم خالصة أجرة البريد فى صناديق محكمة من الخشب مدة شهر أو شهرين

بحسب مايريدون ولهم الحق فى تمديد الاجل المحدود وسأشرح الكلام فى الرحلة على هـذا المتحف بنوع خصوصى لما له من المزايا الكبيرة

أما متحف جيمى أو متحف الاديان الاهلى فانه يتضمن كل ماجمعه الموسيو اميل جيمى E. Guimet أثناء سياحاته فى بلاد المشرق ثم انه تبرع بهذه المجموعة النفيسة التى تبلغ قيمتها أكثر من ٤ ملايين من الفرنكات لمدينة باريس لاجل افادة أبناء وطنه والغاية منها درس الاديان القديمة وعقائد المشرق بحسب الرسوم الصحيحة والتماثيل والكتب والتصاوير الاصلية الصادرة عن نفس المتعبدين وهى مرتبة بحسب المذاهب والاعتقادات والاوقات واعلم أن هذا الرجل الكريم فضلا عن هذه الهبة السنية تبرع بنصف المصاريف اللازمة لبناء دار المتحف وقد بلغنى من ثقة أن رجلا من أغنياء الانكليز عرض عليه مبلغا وافرا من النقود لمشترى جزء زهيد من المجموعة فاجابه بما معناه (انما تعبت وجمعت ما ترى لافادة أبناء بلادى وللاعانة على رفع شأن وطنى وذلك أثمن وأعلى مما تعرضه علىّ الآن بما لا يقدر بأى حال) فهكذا تكون الشهامة والمروءة فى محبة الوطن والسعى فى اعلاء كلمته وتمجيد ذكره ومن أهم مافى هذا المتحف مكتبة تحتوى على

كتب كثيرة بخط اليد و ١٤٠٠٠ مجلد فى مواضيع متنوعة و ٧٠٠٠ مجلد صينى و يابانى ومصرى قديم وهو يحتوى على مصنوعات من الخزف خاصة بديانة الصين واليابان وقدماء اليونان وايطاليا وفرنسا وقبائل افريقية والاوقيانوسية وآلهتهم وتعبداتهم وهياكلهم ومعابدهم وفيه هياكل كثيرة منها هيكل يسمى بالمندرة يحتوى على ١٩ إلها (والمندرة هى المعبد الذى يجتمع فيه جميع الآلهة عند اليابان مثل البانتيون عند اليونان والكعبة عند الجاهلية وأقدم هذه المنادر هى مندرة سين جون وكان فيها ١٠٦٠ إله) وآلهة الهيكل المحفوظ بهذا المتحف تنقسم الى ثلاثة أقسام لتدبير الكون وهى الكمال فى الاعتقاد البوذى ثم التجسد لخلاص الارواح بطريق الاقناع ثم التحول لجذب النفوس بالوعيد والتهديد — وهناك أيضا آثار كثيرة مما يتعلق بديانة الفراعنة وكيفية معيشتهم فى هذه الدنيا ونعيمهم فى الحياة الاخرى وفى ضمنها تماثيل آلهة وتمائم وأوراق بردى ومذابح وهياكل وأحجار مقدسة وغير ذلك — وفى هذا المتحف غرف للتدريس والعمل وجميع جدرانه مغشاة برسوم وأشكال تناسب الاشياء المعروضة فى كل غرفة أو تكملها بحيث ان الناظر الدقيق يقف تمام الوقوف على كيفية التعبد والتدين عند كل قبيلة

من هـذه القبائل - وقـد رأيت فى فناء المتحف عنبرا لتربية النباتات المجلوبة الى فرنسا من البـلاد الحارة وفى أقصى الفناء قاعة يصعد اليها بسلم وفيها مجموعة من الاحجار المختلفة ورجامات القبور القديمة عنى بجمعها أثناء سياحته فى آسيا جناب الموسيو دومرجان (De Morgan)الذى هومدير المتحف المصرى الآن - وقد تقرر أثناء اقامتى فى باريس أن تلامـذة المدارس العالية وتلامذة المدارس الحرفية فى هذه العاصمة يذهبون الى هذا المتحف فى كل يومين مرة بالمناوبة مع بعضهما لاجل الوقوف على كيفيات اصطناع الخزف والطقوس الدينية بارشاد الموكلين بحفظ المتحف أو الموسيو جيمى نفسه

أما متحف والنتين هاوى فقـد سمى باسم أول من أسس مدارس العميان وهو وان كان صغيرا الآن لكنه جدير بالنظر اذ يحتوى على الآلات والادوات الخاصة باعمال العميان وعلى كثير من مصنوعاتهم فى جميع البلاد - كان دليلى فيه أحدهم وهو الموسيو جيلبو أحد أساتذة مـدرسة العميان فأطلعنى على جميع مافيه قطعة قطعة بارشاد وثبات ومعرفـة بمواضع كل شئ حتى انبهرت من هذا الدليل الماهر فانه له معرفة بالغزل والنسيج وكثير من الصنائع اليدوية وأخص معلوماته الجغرافية والتاريخ والفنون

الادبية وقد أتحفنى ببعض من مؤلفاته وفيها ديوان شعر يعبر فيه عن عواطف العميان واحساساتهم وكيف يقدرون الاشياء وله كتب أخرى كثيرة تدل على فضله وسعة اطلاعه وهو الذى سعى فى تأسيس هذا المتحف على نفقته ثم أمدته الجمعيات والمدارس فى البلاد الاوروباوية والامريكانية بتحف أخرى ولا يزال يدفع ايجار المنزل من ايراده

وفى باريس متاحف أخرى كثيرة لايجوز لى أن أتكلم عليها لانى لم أزرها وقد جرت عادتى أنى لا أذكر الا ماعرفته بنفسى ولكنى أشير الى أسماء بعضها مثل متحف الطوبجية والاثاث الاهلى والطب ومقابلة التشريح والمعادن وآلات الموسيقى والرصدخانة والنقود والمحفوظات (الدفترخانة) والمتحف التاريخى لمدينة باريس (وبه مكتبة فيها نحو ٩٠,٠٠٠ مجلد) ومتحف المجموعات الفنية لمدينة باريس ومتحف كاين وقد أسسته زوجة كاين ومتحف جاليرا ومتحف الغشاشين (ويوجد له نظير فى كرك الاسكندرية) وفوق ذلك فان لاغلب المدارس والجمعيات العلمية والفنية متاحف خاصة بها

٣

قصور باريس

هذه بلد القصور فحيثما قلب الانسان ناظره رأى قصرا شاهقا و بنيانا شامخا واتقانا زائدا ولكني لاأتكلم الآن الاعلى بعض القصور المهمة وأترك الباقي لفرصة أخرى

فمن أفخرها قصر التويلرى يدل على ذلك مابقي منه بعد الحريقة التي التهمته أثناء ثورة الكومون في شهر مايو سنة ١٨٧١ كان بناؤه في سنة ١٥٦٤ وقد أقيمت في مكانه الآن حديقة أنيقة مزدانة بأنواع الازهار تتخللها تماثيل رمزية وفساقٍ تدفع الماء الى حيضان بهيجة بكيفيات رشيقة تسر الناظرين

أما قصر اللوفر فقد شيد في عام ١٥٤١ على أطلال قلعة عثر القوم على بعض بقاياها تحت الارض في سنة ١٨٨٣ وسكنه كثير من ملوك فرنسا قبل أن يكمل تماما حتى جاء الامبراطور نابليون الاول فشدد الاوامر بانهائه ولكنه لم يساعده الزمان على بلوغ الغاية في هذا الامر الجليل فلما كان الامبراطور نابليون الثالث أتمه على الوجه المرغوب واحتفل بافتتاحه في سنة ١٨٥٧ وقد بلغت أكلافه ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية (٧٥ مليون فرنك) وفيه رسوم ونقوش وتصاوير وتماثيل وزخرفة وتزويق في الجبس والحجر والرخام والخشب وعلى وجهاته وعقوده وجدرانه

وسقوفه ونوافذه ومطلاته وأفنائه ورحباته تسلب العقول وتخلب الالباب وواجهته الاصلية مركبة من عمد مستندة على عمد تمثيلا لاجل وأعظم هياكل العبادة عند قدماء اليونان وخلاصة القول انه اليوم تحفة حوت متاحف واعجوبة جمعت عجائب

ومما يلحق بهذا القصر ميدان الكاروسل (Carrousel أى ميدان البرجاس) وهو من أجمل ميادين باريس ويبتدئ بقوس فخار هائل تحيط به البساتين الناضرة ويحف به من اليمين والشمال تمثالان رمزيان للحرية والشريعة ومن هذا المكان يمتد النظر الى بستان التويلرى والمسلة المصرية وقصر الشانزلزى وقوس فخار الكوكب وينتهى الميدان المذكور بحدائق اللوفر وفيه تجاه قوس فخار الكاروسل عمود أثرى أقيم لتخليد ذكر غامبتا المشهور وهذا العمود يتركب من كتلة حجرية عظيمة تحيط بها تماثيل من البرونز (الشَبَهان) تصور الحقيقة والقوة والحرية والمساواة وفوق هذه القاعدة منشور هرمى من الصوان يبرز منه تمثال الرجل واقفا ومائلا برأسه الى الخلف قليلا وباسطا ذراعه الايمن بشهامة وهو يرشد أبناء وطنه الى الواجب والشرف وتحت أقدامه الذائدون عن حياض الوطن يرعاهم ملاك فرنسا وقد ارتفع بأجنحته الى عنان السماء فقاموا من سقطتهم ونفضوا ما عليهم من الغبار وجمعوا أسلحتهم المتكسرة وعلى الواجهات

الاخرى من المنشور جُمَلٌ مقتطفة من المقالات الرنانة التى ألقاها هذا الخطيب على قومه يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم الى آخر نقطة من حياتهم وغير ذلك وفوق قمة هذا الاثر تمثال رمزى للديمقراطية (أى حكومة الاهالى بأنفسهم) وقد فازت وعلت كلمتها فامتطت صهوة غضنفر ذى أجنحة - وقد أقيم هذا التمثال فى ١٣ يوليو سنة ١٨٨٨ بنقود جمعها القوم من اكتتاب عام اشترك فيه أبناء فرنسا المقيمون فى حومتها والبعيدون عنها

وأما قصر البورصة - فهو على شكل معبد يونانى بمافى واجهته وحوله وفى داخله من السوارى والاساطين وطوله ٦٩ مترا وعرضه ٤١ وفى أركانه من الخارج تماثيل أربعة للتجارة والعدالة القنصلية والصناعة والزراعة وفى داخله قاعة كبيرة للعمليات المالية تسع ألفى شخص وعلى جدرانها تصاوير بالغة فى الاتقان بحيث يخالها الناظر نقوشا بارزة وهى عبارة عن الاحتفال بافتتاح البورصة على يد شارل التاسع وفرنسا وهى تستقبل الاتاوة من أقسام الدنيا الخمسة واتحاد التجارة والعلوم والصنائع وأهم المدائن فى فرنسا - وقد زرت هذا القصر ولكننى أعترف بأنى لم يتيسر لى أن أدرك شيأ من أحواله أو أقف على نزر من تفاصيل ماجريانه حتى كنت أتحف بها القراء وغاية مارأيته فيه جلبة

وضوضاء وصياح وصخاب وتماوج وتدافع وأيد ترفع وأرجل تهرول وأقوام يخرجون وآخرون يدخلون وفى يد كل واحد قرطاس وقلم من الرصاص وصكوك مختلفة الالوان ولا أدرى كيف يتفاهمون فى بابلهم هذه وان كانوا كلهم بلغة واحدة يتخاطبون - وفى هذا القصر مكتب للتلغراف وآخر للتلفون وبارومتر كبير وسكردان يتناولون فيه غداءهم من غير أن يبتعدوا عن الميدان

أما قصر الانواليد (العساكر السقط) - فقد شاده الملك لويز الرابع عشر فى سنة ١٦٧٠ فان هذا الملك العظيم أراد أن يضمن حياة طيبة للعساكر الذين تبتر بعض أعضائهم أو تصيبهم بعض العاهات ولا يكون لهم وسيلة للتعيش بعد أن وخط الشيب رؤسهم وهم فى سلك النظام ولكن الذى نظم هذا القصر حقيقة وأجاد ترتيبه انما هو نابليون - ومسطح الارض التى يشغلها هذا القصر عبارة عن ١٢٦,٩٨٥ متر مربع وهو معدّ فى الاصل لسكن ٥,٠٠٠ نفس ولكنه اليوم لا يحتوى الا على ربع خمس هذا العدد لان قدماء الجهادية فى هذا الزمان يفضلون تمضية ما بقى من عمرهم فى استقلال وحرية وانفاق المعاش الذى يخوّله لهم القانون بحسب ما يريدون - أما النازلون به فتعتنى الدولة عناية تامة

بمسكنهم ومطعمهم وملبسهم وتدفئتهم وكل مايلزم لهم

وامام هذا القصر رحبة فسيحة طولها ٥٠٠ متر وعرضها ٢٥٠ وفيها صفوف كثيرة من الاشجار

وبعد هذه الرحبة فناء خارجي تحف به الخنادق من كل جانب ويحدق به من اليمين والشمال بطاريه مدافع اعتمها الجيش الفرنساوى فى حروبه وهى التى تستخدم فى إنباء الباريسيين بالحوادث الكبيرة مثل الانتصارات والمواسم وغير ذلك وحول هذه المدافع مدافع أخرى من طرازات متنوعة وعيارات مختلفة وفى خلال صفوفها مماش يتنزه فيها قدماء الجنود النازلين بالقصر - أما واجهة هذا البناء الفخيم فتحدث فى النفس جلالة وفى الفكر إجلالا وطولها ٢١٠ متر وفيها ١٣٣ شباك وعلى يمين الباب تمثال إله الحرب وعلى يساره إله الحكمة وفى الدهاليز تمثيل بعض الوقائع التى انتصر فيها الفرنساويون وفى الفناء الداخلى تماثيل كثير من قوادهم وشجعانهم وأهم ماستوقف أنظارى فى نفس القصر هو المكتبة التى أسسها نابليون وهى تحتوى على ٣٠ ألف مجلد تقريبا ولايجوز الدخول والشغل فيها الا للعساكر السقط ومن ملحقاتها قاعة تحتوى على صور جميع مارشالات فرنسا ومديرى هذا القصر وتصغير يمثل للرائى

عمود وندوم المشهور والقنبلة التى قتلت تورين فى سنة ١٦٧٥ و هومن أفرس ابطالهم ومثال من الجبس لتمثاله فوق فرسه وبعض المخلفات التى تركها نابليون فى جزيرة سنت هيلانة (محل منفاه) جمعها بعض المغرمين بمجده مثل أغصان من الشجرة التى كان يستظل بها وقطرات من الينبوع الذى كان يستقى منه وقبضة من التراب الذى وطئه بقدمه وقصة من شعره وقطعة من ورقه وما أشبه ذلك وضعها بعض المجيدين فى لوحة تأخذ بالابصار لما أودعه فيها من الابداع وهناك أيضا أشياء كثيرة من التى كان يستخدمها الامبراطور فى منفاه

وفى هذا القصر كنيسة باسم القديس سان لويس وليست ذات أهمية بالنسبة لبنائها بل لانها مخصصة لدفن المارشالات ومديرى القصر ولانها تحتوى على كثير من الآثار التى تحيى ذكر ابطالهم المعدودين وفى قبتها كثير من الرايات التى اغتنمها القوم فى مواقع القتال فى افريقية والقريم وايطاليا والصين والمكسيك والتونكين وفى احدى بيعها صورة لسيدنا عيسى عليه السلام مرسومة على القماش ولكن الناظر اليها يخال أنها مجسمة بكل انتظام

وخلف هذه الكنيسة قبر الامبراطور فى قبة هى أجمل أثر دينى مصنوع فى فرنسا بحسب الطرز اليونانى ولا يدخل القوم اليها الا بعد أن يرفعوا قبعاتهم تعظيما وتفخيما وفيها بيعة تحتوى على بقايا جيروم شقيق الامبراطور وبقايا ابنه البكرى وبيعة أخرى فيها قبر بورين ذلك البطل العظيم وامامها بيعة فيها عظام ووبان Vauban وبجانبها ناووس فاخر يحتوى على بقايا شقيق آخر للامبراطور

أما قبر الامبراطور نفسه فهو فى ناووس من الصوان الاحمر لم ير الراؤن مثله فى البهجة والفخامة وهو فى وسط القبة فى حفرة عميقة مكشوفة للأنظار ومبلطة بالفسيفساء وهناك من التصاوير الهائلة وقبور المخلصين لهذا الرجل وتماثيل انتصاراته وغير ذلك مما يدهش الابصار ويقضى على الانسان بالاعظام والاكبار ويجعل خطواته مقرونة بالتحسب والهوينا ويذكره بأن هذا العالم مصيره الفناء وان نهايات المجد الزوال ويتذكر قول القائل ﴿ ألا كل شئ ماخلا الله باطل ﴾ خصوصا عند ما يقرأ هذه العبارة التى أوصى بها نابليون ﴿ أتمنى أن تدفن عظامى على ضفاف نهر السين فى وسط هذه الامة التى أحببتها حبا جما ﴾ فيخرج المتفرج وهو يقول الملك لله والدوام لله سبحان الحى الذى لا يموت انا لله وانا اليه راجعون

وأما قصر الفنون المستظرفة - فقد أقيم على اطلال ديروتم تشييده فى سنة ١٨٣٩ وفيه مدرسة لتعليم الرسم والنحت والعمارة والنقش بانواعه وذلك التعليم نظرى وعملى ولهذا القصر فنا آن وضعت فى أوّلهما أبواب قصور قديمة وأعمدة متقنة باشكال مختلفة وتماثيل للماهرين من الصانعين وغير ذلك وفى وسطه عمود من المرمر الاحمر مشوب بالشب وفوقه تمثال الخصب وأما الفناء الثانى ففيه مجاميع من تماثيل وقطع تماثيل من أيام القرون المتوسطة الى عصرنا هذا وفى وسطه فسقية من قطعة واحدة من الحجر كانت امام قاعة الطعام فى أحد الديور لاجل غسل الايدى وعلى الواجهة الاصلية لهذا القصر هذه الكلمات الثلاث (رسم عمارة نحت) منقوشة بعناية واتقان وتفنن وابداع وعلى اليمين والشمال أسماء الاساتذة الذين نبغوا فى هذه الفنون وفى دهاليز القصر وغرفه أمثلة لتماثيل قديمة ومعابد وثنية ومصنوعات فى النحاس وتصاوير رفائيل فى قصر الفاتيكان وأشهر العمائر فى فرنسا وغيرها وصور أعضاء جمعية الرسم والنحت وبعض أساتذة المدرسة وفيها مكتبة تحتوى على ١٢ ألف مجلد ونحو مليون قطعة من النقوش وفيه مجموعة للصور التى تحوز الطبقة الاولى فى امتحان رومة وهى أعلى درجة يمكن للمصوّر الماهر أن يتوصل اليها

وخلاصة القول انها حوت من ظرائف الفنون ما يثبت فى تلامذتها قوة التصوّر وابراز الافكار على القرطاس أو الاحجار

أما قصر لكسمبورج - فهو الآن مستقر مجلس السناتو (شيوخ فرنسا) وقد زرته أربع مرات بواسطة حضرة الفاضل الكامل الموسيو پوليا (M. Pauliat) أحد اعضائه الموقرين وهو قد وقف نفسه على خدمة أبناء العرب فى الجزائر وتونس والذب عن حقوقهم ورفع الاذى عنهم وللمسلمين فى قلبه محبة شديدة وبواسطته تمكنت من الحضور فى الجلسات أربع مرات و وقفت على أساليب المذاكرة والمداولة والمناظرة والمناضلة ولو شئت حضور الجلسات أكثر من ذلك لتمكنت بواسطته جزاه الله خيرا - هذا القصر أمرت بتشييده مارى دومدسيس زوجة هنرى الرابع على مثال القصر الذى تربت فيه فى فلورانسة ثم تقلبت عليه الاحوال فبعد ان كان سكا للملوك أصبح سجنا فى أيام الثورة الفرنساوية ثم مقرا لمجلس المشيخة ثم للقنصلية ثم للسناتو ثم لنبلاء فرنسا ثم لمحافظة السين (دار أمانة المدينة) ثم للسناتو فى هذا الزمان وفيه مكتبة تحتوى على أكثر من ٥٠,٠٠٠ مجلد وفوقها قبة مغشاة باشكال ناضرة فاخرة - وفى القصر تماثيل نصفية لبارات فرنسا (Pairs de France) وشيوخها قديما

وهو من أجل القصور وأكثرها زخرفة وتزويقا وقاعة الجلسات فيه عبارة عن نصفى دائرة متقابلين يجلس الاعضاء باحزابهم وانشقاقاتهم وتنوعاتهم فى النصف الاكبر وأما الرئيس ولجنة الادارة ففى النصف الآخر وعند ماتفتح الجلسة لايتم الانتظام بل يستمر الاعضاء الذين يدخلون على التسامر فيما بينهم وعدم الالتفات للخطباء ولا للرئيس وترى الموكلين بالخدمة يتصايحون بهذه العبارة (صه أيها السادات) ويرددونها جملة مرات فتذهب فى الهواء تتردد من جدار يدفعها الى جدار من غير أن يكون لها تأثير على الحضار وترى بعض القوم يخرجون وآخرون يدخلون والرئيس يدق الجرس فى كل نفس فلا يؤثر أكثر من صياح الحرس حتى اذا جاءت مواضيع المذاكرة الحقيقية وقام الخطيب الذى عليه الدور أخذ الانتظام حده وصار القوم يرمقونه ويتفهمون كلامه ومنهم من يجيبه بالتفنيد وآخر يؤيده بالتاكيد وفريق يصفق له استحسانا وآخرون يهزون الاكتاف استهجانا وبعضهم يقاطعه فى الكلام وغيرهم يساعده على الاتمام والرئيس يدعو الجميع الى ملازمة النظام وهكذا حتى ينتهى الخطيب مما ندب نفسه اليه فيحتل مكانه أحد المتحزبين له أو عليه ويصعد الوزير لتأييد سياسة الحكومة وتزكية مساعيها

أو ابيان مايطلبه الاعضاء من الافصاح عن حالة البلاد فى الداخل أو الخارج ولايزال القوم فى أخذ وعطاء وبيع وشراء واستفهام عن ابهام وافصاح بقول صراح حتى تنفض الجلسة ويفيض الاعضاء من حيث أفاض الناس ولايصبح الصباح الاوقد طبعت أعمال الجلسة وماقيل فيها كلمة كلمة وحرفا حرفا بالتمام والكمال اذ فى خدمة المجلس كتّاب مختزلون (Sténographes) ينقلون بالاشارات المختصرة كل مايلقيه الخطيب من البيانات أو يرد عليه من الاعتراضات أو يقع من الاضطرابات أو يظهر من الاشارات ثم يرسلونها للطبعة بعد كل عشر دقائق وهناك يصير نقلها أو ترجمتها للكتابة العادية وجمعها واعدادها للطبع فلا يجىء نصف الليل الا وقد تم طبع الجريدة الرسمية وفيها حوادث الجلسة بالتفصيل الذى ليس بعده تفصيل مع ان الجلسة لاتفتح الا فى الساعة الثالثة ونصف من بعد الظهر وقد تنتهى فيما بين الساعة الخامسة والسادسة أو بعد هذه بقليل

وأما قصر بوربون — فهو مقر مجلس النوّاب وله واجهتان احداهما تطل على نهر السين والاخرى على ميدان باسم القصر والاولى هى الواجهة الاصلية وفوق عمدانها نقوش ورسوم تمثل فرنسا وفى يدها الدستور وحواليها تماثيل الحرية والسلام والحرب والفنون

والفصاحة والصناعة والتجارة وقاعة الجلسات كلها من المرمر وحولها عمدان منضودة وهي على شكل نصف دائرة تسع ٥٨٤ نائب ونظام الجلسات فيها يشبهه في السناتو سوى ان اللغط فيها أكثر والعراك أظهر والخصام أقرب من حبل الوريد والدعوة الى المبارزة ليست بالامر الجديد بل قد تحصل في كل لحظة عقيب أقل لفظة وقد رأيت في كلا المجلسين ان بعض الخطباء لا يوفق الى نوال القبول من عموم الحاضرين فيعطف بمناسبة حيثما اتفق الى ذكر الوطن وشرفه ومجده وفخره ووجوب التفاني في اعلاء مقامه وبذل المهج لاعزازه ثم يحيي القائمين بنصرته الذائدين عن حومته ويترحم على وفاة من وفاه حقه وعرف واجبه وهكذا من الاساليب الخطابية فيخلب الالباب ويسحر العقول ويستجذب القبول فيجاوبه السامعون بالتصفيق وعلامات الاستحسان وكلمات الاعجاب خصوصا اذا كان مقوالا سيالا وخطيبا مصقعا يعرف كيف يقرن الاشارات بالكلمات وكيف يكون توقيع الالفاظ ليكون لها وقع في الفؤاد - وقد اتفق في الجلسة التي حضرتها في مجلس النواب حصول مطر بغير سحاب استبدلت فيه الامواه بالاوراق فكانت تتناثر على الاعضاء من غير افتراق وذلك ان رجلا اسمه الكساندر هوليه تربص فرصة مناسبة فقذف عليهم

بكراريس مطبوعة عنوانها (هتك ستر الطرارين) ولكن الجنود قبضوا عليه فى الحال وأودعوه السجن تحت المحاكمة . قالت بعض الجرائد انه يعنى بذلك مسألة بناما فكتب الرجل الى الجرائد انه لم يحم حول هذا المقصد ولا أعلم الآن ماذا تم فى أمره

وأما قصر الصناعة - فهو معد للمعارض السنوية والجزئية أقيم فى سنة ١٨٥٥ بمناسبة المعرض العام من مال شركة مؤلفة من كثير من المساهمين ثم اشترته الدولة وله فناء مستطيل طوله ٢٥٠ مترا وعرضه ١١٠ مترا ومسطحه ٣٢٠٠٠ متر وعلى بابه تمثال كبير يمثل فرنسا وهى توزع أكاليل الفخار من الذهب النضار على الصناعة والفنون وهما جالستان تحت أقدامها وعلى الجدران المحيطة بالقصر أسماء الذين برعوا فى العلوم والفنون والصناعة مرقومة بحروف من الابريز وقد جعلوه بعد سنة ١٨٥٥ مقرا للمعارض السنوية للرسم والنحت والعمل والصناعة وفن الحدائق ومعارض الخيول والحيوانات والاطيار الخ وكان فيه أثناء مقامى بباريس معرض أشغال النساء فكان فيه جميع أصناف ملبوساتهن بحسب الازياء وتنوعها فى كل عصر وعند كل أمة قديمة أو حديثة نسقوها على شكل معجب مطرب وخصوصا قبعاتهن وأشكالها المختلفة وتفننهن فيها بما يجذب

الابصار ويسلب الالباب وليس هـذا مقام الشرح عليها فأترك وصفها الى فرصة أخرى

وخلف هذا القصر بناء من الحديد والذي يسمى كشك مدينة باريس وهو معـد لجملة معارض متنوعة وكان به أيام مقامي فى هـذا البلد معرض الصـنائع المتعلقة بلحم الخنزير وكانت الدولة ترسل اليه الموسيقى العسكرية تصدح فيه بالحانها الشجية

واختم الكلام فى هذا الموضوع الطويل العريض بخلاصة قصيرة على قصر التروكاديرو فقد بنى على رابية بمناسبة المعرض العام الذى أقـيم فى سـنة ١٨٧٨ واشـتركت فيـه حكومتنا المصرية وأصابت حظا وافرا من الفضل والفخار وهو يشتمل على أحاسن أساليب البناء وطرازات العمارة وفوقه تمثال الشهرة وفى فيها بوق تنفخ فيه وفيه قاعة المواسم والاحتفالات مزخرفة بنقوش وتصاوير وفى هـذه القاعة مكان للموسيقيين يسع ٤٠٠ نفر منهم بآلاتهم وأما القاعة نفسها فيمكن ان يجلس بها ٥٠٠٠ متفرج بالراحة وتحتـه مربى لاسماك المياه العذبة موضوعة فى مغارات فسيحة تتجدد فيها المياه على الدوام ومنظر هـذا القصر وعمدانه وابراجه وأروقته وأجنحته وحديقته وفسقيته مما يفتن العقول ويستغرق الزمان فى التأمل والامعان

وفى باريس غير ذلك عدد كثير من القصور العمومية والخصوصية ولا أتكلم عليها لانى لم أدخلها

٤

معامل باريس

مثل هذه المدينة العظيمة لايخلو من المعامل المتناهية فى الاتقان ولكنى لا أتكلم الآن الا على معامل الجبلين (بضم الجيم وسكون الباء وكسر اللام) ومعامل الدخان

فأما الاوّل فقد كان انشاؤه فى سنة ١٦٠٣ على يد الملك هنرى الرابع وبعد أن دار الشغل فيه نحو خمسين عاما اشتراه لويز الرابع عشر وجعله معملا للامتعة والاثاثات الملوكية بناء على اشارة وزيره كولبير فكان يشتغل العمال فيه بالطنافس والستائر المشهورة التى لانظير لها فى الكون وباشغال القص والفسيفساء وبتلقيم العاج وتطعيم الآبنوس وبصياغة الحلى والجواهر وباصطناع التماثيل المخصصة لقصر فرساى وبعد حكم هذا الملك اقتصر المعمل على اصطناع الطنافس والستائر وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٧١ أحرق ثوار الكومون بفرنسا جزأ منه فالتهمت النار كثيرا من نفائس الطنافس وسائر الستائر وقد أبدع هذا المعمل فى تقليد الرسم وألوانه بالنسيج فى انواله على منواله مع الدقة والرقة

حتى ان الملوك والامراء ليزخرفون قصورهم ومتاحفهم بمصنوعاته التى سارت بجسنها الركبان وفيه متحف حوى شيأ كثيرا من غرائب منسوجاته ومنسوجات الامم الاخرى وقد رأيت قباطى مصر المشهورة فى كتب العرب مع انى من بلادها ولم أرها فيها وربما تكلمت على هذا المعمل الجليل بما يستحقه من التفصيل اذا ساعدت العناية فى فرصة أخرى

وأما المعمل الثانى أى معمل الدخان فهو فى بناء كبير يبلغ مسطحه هكتاران ونصف وله خمسة أدوار ويشتغل فيه ١٫٩٠٠ عامل أكثرهم من النساء ورأيت فيه من جميع أصناف الدخان وكيفية تهيئته بعد عرضه لعمليات متعددة وإعداده سجائر سائغة للشاربين ويبلغ مقدار الدخان الذى يبيعه فى السنة الواحدة ٧٫٦٥٠٫٠٠٠ كيلو جرام وقد علمت من مديره أنّ قيمة الربح الصافى الذى يصيب الخزينة من معامل الدخان فى السنة هو ٣٥٠ مليون فرنك (١٤ مليون جنيه انكليزى) مع أن جميع المستخدمين بها لهم معاش كامل من غير أن يخصم منهم يوم احتياطى

ولوجود هذه المعامل فى كل أوربا منفعة أخرى أعم وأهم وهى ان الذين يشربون الدخان فى هذه البلاد موقنون بجودة الصنف

وانه ليس مشوبا بورق الخس والقلقاس وخوص النخل وغيرذلك مما تتولد منه بعض الامراض الصدرية التى لايشفى منها صاحبها كما أنه يتعذر أو يتعسر شفاؤه من معاقرة هذا النوع من الشراب ولما كانت هـذه المسئلة ذات أهمية عمومية عظيمة فقد اتفقت مع حضرة المدير المشار اليه على ان يتحفنى بما يلزم من المعلومات والبيانات لانشرها بين قومى عسى أن يكون لها بعض الفائدة وقـد بلغ مجموع استهلاك الدخان فى فرنسا فى سنة ١٨٩١ ٣٥,٨١٣,٨٥٤ كيلوجراما منها ٢٩,١١٠,٠٩٢ كيلوجراما من الدخان المعد للتدخين و٥,٤٥٧,٤١٣ من الدخان المعد للنشوق و١,٢٤٦,٣٤٩ من الدخان المعد للمضغ واليك جدول الاستهلاك بالكيلوجرام فى جملة سنين لمعرفة زيادة انتشار هـذه العادة أوالآفة

سنة	دخان التدخين	دخان النشوق	دخان المضغ	مجموع الكميات المباعة
١٨١٩	٢٢,٦١٩,٠٧٩	٨,١٦٨,٤٥٠	١,٢٤٥,٢٢٩	٣٢,٠٣٢,٧٥٨
١٨٧٤	٢١,٣٤٨,٣٢٢	٦,٥٧٣,٦٤٤	٠,٩٦٢,٥٩٥	٢٨,٨٨٤,٥٦١
١٨٧٩	٢٤,٠٣٠,٩٤٢	٦,٨٢٧,٦١٤	١,١٦٥,٦٨٢	٣٢,٢٩٧,٢٣٨
١٨٨٤	٢٨,٠٥١,٠٩٩	٦,٧٠٢,٦٥٩	١,١٨٠,٩٥٧	٣٥,٩٣٤,٧١٥
١٨٨٩	٢٨,٧٨٤,٦٦٠	٥,٨٣٤,٣٩٠	١,٢٠٠,٢٦٢	٣٥,٨١٩,٣١٢
١٨٩١	٢٩,١١٠,٠٩٢	٥,٤٥٧,٤١٣	١,٢٤٦,٣٤٩	٣٥,٨١٣,٨٥٤

ولأجل أن تكون المقارنة صحيحة ينبغي التنبيه على وجوب تنزيل نحو مليونى كيلوجرام من المقادير الخاصة بسنة ١٨٦٩ وذلك فى نظير استهلاك أهل مقاطعتى الالزاس واللورين فانهما انفصلتا من فرنسا بعد حرب السبعين ومن هذا الجدول يتضح أن مجموع استهلاك الدخان لم يتغير تغيرا محسوسا منذ سنة ١٨٨٤ وان استهلاك دخان التدخين قد ازداد بالتدريج بنحو مليون من الكيلوجرامات ومثله دخان المضغ ولكن النشوق أخذ فى النزول بنسبة ٢٠ فى المائة

وقد بلغت كميات الدخان المستهلك فى مقاطعة السين وحدها (وهى التى بندرها باريس) فى سنة ١٨٩١ نحو ١٦٤,٧٩٠ كيلوجرام (منها ٣,٥٣٧,٧٧٨ للتدخين و ٥٣٧,١٥٧ للنشوق و ٨٩,٨٥٥ للمضغ) يقابلها فى سنة ١٨٧٩ ٣,٦٩٨,٠٠٠ (منها ٣٧٧,٢٥٠ للتدخين و ٧٥٣,٠٢٨ للنشوق و ٩٤,٨٣٥ للمضغ)

٥

خزائن الكتب بباريس

اشتهرت هذه المدينة بالفوقان على غيرها فى ميدان الخلاعة والجد فانها مقر الملاهى والبدع والمبتدعات ومركز المعارف والمعالى والمخترعات فلا يخلو أقل بيت فيها من خزانة كتب بحسب حالة صاحبه وذوقه فكل أهاليها يقرؤن ويكتبون حتى ان سائق

العربية بل والكناس اذالم يكونا مشغولين بالسوق والكناسة يكونان منكبين على القراءة والدراسة و بهذه النسبة يقاس ولوع القوم بتثقيف العقول و تنوير الاذهان كلما صعدنا فى سلم الارتقاء الى أعلى الطبقات ولا أدّعى الاقتدار على استيفاء الكلام فى هذا المطلب عن خزائن الكتب فى باريس ولكنى أذكر لمعا يسيرة عنها بغاية الايجاز حتى يتصوّر القارئ ماهيتها فيتمكن من الحكم عليها

وذلك لان وجود الكتبخانات من أسمى الدلائل على ارتقاء المدنية وضخامة العمران ومن اوجب الأعمال لتخليد الذكر وحسن الاحدوثة حتى لقد سعى الملوك فى جميع الاعصار فى جمع الكتب والعناية بها لينوّه التاريخ بذكرهم فى جملة المساعدين على نشر المعارف وتوسيع دائرة العلوم أما الآن وقد اتسع نطاق العرفان و ساغت موارد التعليم للطالبين فقد صارت العناية بالكتب فرض عين على جميع الحكومات المتمدنة

المكتبة الاهلية — هذه المكتبة يكاد لايكون لها مثيل فى العالم وأوّل من عنى بتأسيسها شارل الخامس ملك فرنسا فى سنة ١٣٨٥ فانه جمع ١٢ ألف مجلد وجعلها بقصر اللوفر ثم انها نقلت منه فيما بعد الى جهات أخرى لاحاجه لبيانها

ولما جاء الملك فرنسوا الاول اهتم بها اهتماما خصوصيا وزادفى عددها لغرامه بالمعارف وولوعه بالعلوم حتى انه نقلها الى قصره فى فونتيبلو لتكون على مقربة منه ثم ان الملك شارل التاسع أعادها الى باريس ولكن ازديادها فى كل يوم كان يوجب نقلها من مكان الى آخر على انها مع كل هذه العناية لم تزد عن خمسة عشر ألف مجلد فى أول عهد الملك لويز الرابع عشر فاهتم حينئذ وزيراه كولبير ولوفوا بشأنها وتقدمها اهتماما لايزال مستمرا الى يومنا هذا ثم توالت عليها الهدايا والعطايا والوصايا من كتب بخط اليد ومداليات وأحجار منقوشة ونقود ومبصومات وغير ذلك ولقد بلغت المطبوعات فيها فى سنة ١٧٨٩ ثلثمائة ألف مجلد (٣٠٠,٠٠٠) ثم ازداد هذا العدد زيادة كلية فى أيام الثورة الفرنساوية بما توارد عليها من الكتب التى انتزعت من الاديار ومن قصور المهاجرين حتى صار من المستحيل عمل فهرست أو برنامج للمكتبة واكتفى القوم بوضع الكتب المستجدة فى أقسامها الخاصة بها باعتبار الحروف الهجائية لاسم المؤلف.

ومما يستحق الذكر أنها صارت فى دفعتين عرضة لمصيبة من أعظم المصائب ولم تنج منها الا بما بذله مستخدموها من شدة العناية وصادق الاخلاص فان البروسيانيين لما حاصروا باريس فى سنة ١٨٧٠ كانت المكتبة مهددة بالحريق فى كل لحظة اذلو

وقعت عليها قنبلة لكانت أعدمت هذه الكنوز الثمينة الى أبد الآبدين فلذلك كان أغلب مستخدميها يذهبون بالنهار الى الحصون والقلاع للدفاع عن المدينة ومتى جنّ الليل يرجعون الى المكتبة ويطوفون حولها خفراء عليها وبعضهم يصعد على أسطحتها للوقاية من هذا العدوّ المبين وهو النار ولما دخل البروسيانيون باريس اجتهد عمال المكتبة فى اخفاء أهم مافيها من الكتب التى بخط اليد حتى لاتطمح اليها أنظار الفاتحين

ولما تم عقد الصلح وعادت السكينة الى ربوع فرنسا جاء خطر جديد لم يكن فى الحسبان وهو ثورة الكومون وذلك انه لما زحف الثائرون من فرسايّ على باريس ودخلوها كانت النار تتهدد الكتبخانة من كل جانب ولكن الله سلم

ولما عادت المياه الى مجاريها واشتغل الناس بالعلوم والمعارف اكتسبت المكتبة أهمية فوق العادة حتى بلغ عدد الكتب التى وردت اليها فى سنة ١٨٩٠ وحدها ٧٠,٠٠٠ مجلد

وعدد مافيها من الكتب الآن يبلغ مليونين ونصف مليون واذا أضفنا الى ذلك العدد ما هنالك من المجاميع والكتب المكررة لبلغ العدد ثلاثة ملايين بالتقريب

ولا شك ان هذه الكنوز المتعددة تستوجب تحرير فهرست

واف ببيان محتوياتها وقد راعت ذلك الجمعية التشريعية فأصدرت بهذا المعنى أمرا عاليا فى ٢ يناير سنة ١٧٩٢

ولكن كثرة الوارد حالت دون كل نظام غير أن عمالها قد ابتدؤا فى سنة ١٨٥٢ بتحرير أوراق منعزلة بالبيان الكافى عن كل كتاب ورد للكتبخانة وقد كاد الفهرست العمومى يتم اليوم واعلم ان المبلغ المخصص للطبع هو قليل جدا بالنسبة لجسامة العمل فانه عبارة عن ١٠ آلاف أو ١٢ ألف فرنك فقط مع ان المتحف البريطانى بلوندرة ينفق فى مثل هذا السبيل ٢٠٦,١٢٥ فرنك وفى غرفة المطالعة ٧٥٠٠ مجلد ويقابلها فى مثلها فى المتحف البريطانى ٥٠,٠٠٠ ولكن المانع الوحيد هو ضيق المحل فى باريس

وكانت المكتبة متصلة بعمائر ومساكن لبعض الافراد فقرر البرلمان مبلغ ٦٦,٥٠٠,٠٠١ فرنك لعزلها عنها فاجتهدت الدولة حينئذ حتى اشترت هذه المبانى واضافتها الى المكتبة لتوسيع نطاقها وعزلها عما يجاورها بحيث أصبحت فى سنة ١٨٨٢ جزيرة تحيط بها شوارع أربعة من الجهات الاربع وتلك العناية بقصد الوقاية من اتصال الحريق اليها مما يجاورها ولزيادة التحفظ وضعوا فيها مركزا لرجال المطافئ وهى على أربعة أقسام أولها قسم المطبوعات والخرائط والمجموعات الجغرافية وثانيها قسم الكتب المخطوطة (التى بخط اليد) والنظامات

السياسية والاجازات أى الدبلومات وثالثها قسم الميداليات والاحجار المنقوشة والقديمة ورابعها قسم المبصومات . وفى الخزانة غرفة للمطالعة تفتح فى كل يوم من الاسبوع حتى فى أيام الاحد من الساعة التاسعة صباحا الى الساعة الرابعة او الخامسة أو السادسة الافرنكية من المساء بحسب اختلاف الفصول وفيها غرفة أخرى للاشتغال بالكتب ومراجعتها

فأما قسم المطبوعات فهو فريد فى أوروبا يزيد على جميع مكاتبها بكثرة مافيه من الكتب النادرة المعدومة فانه وحده يحتوى على ٢,٥٠٠,٠٠٠ مجلد من ضمنها الكتب التى ظهرت أيام نشأة المطبعة أو التى طبعت فى أشهر المطابع القديمة

وأما غرفة المطالعة ففيها طاولات عظيمة يجلس حواليها ١٠٠ مطالع بالراحة وفيها نحو ٢٥,٠٠٠ مجلد من مجموعات دورية وعلمية وموسوعات ومعاجم وأشهر الكتب المتداولة فى الآداب والعلوم والصنائع وغير ذلك وعلى عقود هذه الغرفة اسماء أشهر الطباعين والمشتغلين بفن الكتب

وأما غرفة الشغل فمساحتها ١,١٥٠ متر مربع ويمكن أن يجلس فيها ٣٤٤ شخص بكمال السعة والراحة وسقفها عبارة عن ٩ قباب مغشاة من الداخل بالقيشانى ومتكئة على أسانيد

مقربصة من الحديد قائمة على ١٦ عمودا من الحديد الزهر ارتفاع كل عمود منها ١٠ أمتار وحوالى هذه الغرفة دواليب فيها نحو ١٠,٠٠٠ مجلد من معاجم ومجاميع وغير ذلك وهى متصلة بخزانة الكتب الخاصة بها وفيها أكثر من ١,٢٠٠,٠٠٠ مجلد ويتصل بهذا القسم المجموعة الجغرافية ولا نظير لها فى أوروبا كلها اذ جمعت فيها الدولة الفرنساوية خرائط جغرافية للممالك والبقاع والبلدان وأغلبها مصنوع بالجبس وفيه خرائط فرنساوية وأجنبية من جميع اللغات ويبلغ عددها ٢٥٠,٠٠٠ خرطة

أما القسم الثانى ففيه أوراق وكتب من جميع اللغات ومجموعها ٩٠,١١٩ مجلد منها نحو ٨,٠٠٠ مزينة باشكال وتصاوير وحروف مذهبة ومزوقة ويتبعه مجموعة من أوراق البردى المصرى والاغريقى واللطينى وتعليمات شارلمان والعهود والعقود من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٤٣٥ ومنشوران من البابا على ورق من البردى تاريخه سنة ٩٩٩ وغير ذلك وفيه حجرة قد وضعت فيها جميع مؤلفات فولتير فيلسوفهم وشاعرهم وأديبهم ومؤرخهم المشهور وفيه أيضا صناديق مغطاة بالواح من الزجاج تحتوى على أندر ما يوجد من المطبوعات والمخطوطات ذات القيمة الغالية تدل على أصول المطبعة والتجليد وغير ذلك وفيها كتب بخط اليد يونانية وشرقية وأمريكانية وكتب كانت ملكا للملوك

والسلاطين وتجليد عجيب بالعاج والباغة وأوراق بردى ورق غزال وغيره وخطوط بعض المشاهير

أما القسم الثالث فاول من أسسه لويز الرابع عشر وهو من أهم المجموعات المماثلة له فى العالم فانه يحتوى على أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ميدالية وفى الدهليز الموصل اليه منطقة فلك البروج التى كانت بدندرة ومجلس أجداد تحوتمس الثالث وكلاهما مما أتى به الفرنساوية من مدينة طيبة بالصعيد ويوجد به أيضا ألواح قديمة من أحجار متنوعة عليها نقوش بلغات شتى مهجورة وفيها أحجار دقيقة كريمة منقوشة أو محفورة بالتجويف أو بالتبريز ونقود اسلامية وغير اسلامية وغير ذلك مما يطول شرحه

وأما القسم الرابع ففيه أكثر من ٢,٢٠٠,٠٠٠ قطعة مجموعة فى ١٤,٠٠٠ مجلد و ٤٠٠ لوح من الورق المتين المعروف بالكرتون وفيها مبصومات تدل على تاريخ الفنون فى فرنسا من ابتداء القرن الخامس عشر الى عصرنا هذا وغير ذلك ﴿ونعنى بالمبصومات تلك الرسوم المصنوعة بالريشة أو بالقلم الرصاص لكى تكون قاعدة فى الطبع وهى بالنسبة للالواح الصور الزيتية كالترجمة للاصل﴾

ولنتكلم الآن على ميزانيتها اظهارا لمزيد أهميتها فقد كانت فى سنة ٩٢ ٧٨٨,٠٠٠ فرنك منها ٦ ٤٣ ألف للمستخدمين و ٢٧٢ ألف

للادوات والمهمات و ٨٠,٠٠٠ للفهرست والمخصص للمشترى من هذه المبالغ هو ٨٠ ألف فرنك وللتجليد ٢٥,٠٠٠ فرنك

أما ميزانية المتحف البريطانى فانها تزيد على ٥٠ ألف جنيه أى ١,٢٥٠,٠٠٠ فرنك نصفها للماهيات والنصف الآخر لمشترى الكتب وتجليدها وغير ذلك نعم ان المتحف البريطانى فيه كثير من المجاميع العلمية غير الكتب والآثار والمخلفات القديمة ولذلك ينبغى لنا المقابلة بين قسم المطبوعات فى كل منهما فقط

ففى باريس ٦٠ مستخدما وعاملا وفى مثله فى لوندرة ١٢٢ مستخدم وعامل مرتبهم ٤٩٦,٠٥٠ فرنك وهذا جدول مقابلة الماهيات

(مكتبة باريس)

١	مدير عام	١٥٠٠٠	فرنك
١	سكرتير وصراف	٧٠٠٠	»
٤	امناء	١٠٠٠٠	»
٦	مساعد وأمناء	٧٠٠٠	»
٥٠	كتبخانجى ووكلاء وتحت التمرين	١٨٠٠ الى ٦٠٠٠	»

وغيرهم من أصحاب اليومية والكتبة

(المتحف البريطانى)

١	حافظ	١٨٧٥٠	فرنك
٤	مساعدون	من ١٢٥٠٠ الى ٥٠٠٠	

١٣	معاون درجة أولى	«	٦٢٥٠	«	١١٢٥٠
٢٢	« « ثانية	«	٣٧٥٠	«	١٠٢٥٠
٣٦	« « ثالثة	«	٢٧٥٠	«	٣٠٠٠
٤٦	فراش	«	١٥٠٠	«	٢٥٠٠

وكانت ميزانية المكتبة الاهلية فى أيام لويز الخامس عشر عبارة عن ٦٨٠٠٠ ليره أى فرنك منها ٤٦٤٦٩ للمستخدمين و ٢١٥٣١ لمشترى الكتب والادوات وفى سنة ١٧٧٨ بلغت ٧٣٠٠٠ ليره ثم ازدادت فى أواخر حكم الملك لويز السادس عشر حتى بلغت مبلغا جسيما جدا بالنسبة لذلك الوقت وهو ١٦٩,٢٢٠ ليره وعشرة صلادى منها ٦٣,٠٠٠ للمشتروات

كتبخانة سنت جنفياف (بفاءين فارسيتين) - تحتوى على ٢٠٠ ألف مجلد منها أربعة آلاف بخط اليد وفيها زيادة على ذلك ٢٥ ألف لوحة مزدانة بنقوش بديعة وفيها خرائط قديمة كثيرة ومبصومات وفيها غرفة مطالعة خصوصية تحتوى على أغرب ما فيها من مجاميع وكتب بخط اليد ومطبوعة ونقوش وفيها تمثال أولرمش جيرنج أول من أدخل فن الطباعة الى باريس فى سنة ١٤٧٠ وغيره من المشاهير وفيها غرفة مطالعة عمومية تسع ٤٢٠ شخص وحواليها ستائر من صنع الجبلين تمثل المطالعة

وقد دهمها الليل وهو رمز الى الشغل النهارى والليلى فى هـذه الغرفة

كتبخانة مازارين - وهى فى جمعية المعارف وفيها ٢٥٠ ألف مجلد منها ٦ آلاف بخط اليد

هـذه هى أشهر المكاتب العمومية وفى المدينـة مما يقاربها مكتبة متحف الفنون والصـنائع وقد قلنا انها تحتوى على ٣٠ ألف مجلد ومكتبة مدرسـة فرنسا الجامعة وفيها ٤٣ ألف مجلد ومكتبة مدرسـة الفنون المستظرفة وقد قلنا ان عدد كتبها ١٢ ألف ومكتبة المجموعات التاريخية لمدينـة باريس وفيها ٩٠ ألف مجلد و ٧٠ ألف مبصوم ومكتبة مدرسة المعادن وفيها ٦ آلاف مجلد ومكتبة بستان النبات وفيها ٨٠٠٠٠ مجلد ومكتبة الا وبرا وفيها ١٥ ألف مجلـد وكراسـة و ٦٠ ألف مبصوم وفيها كثير من الرسوم والتصاوير والتماثيل الخاصة بفن التشخيص والموسيقى والقيان والقينات وقد ذكرنا كتبخانات أخرى فى الفصـل المتقدم

واعلم أن لكل جمعيـة مهما كانت غايتها ومذهبها ومشربها فى السياسة والصـناعة والعلوم مكتبة خاصة بها تعـد المجلدات فيها بالالوف وعشرات الالوف وكذلك الشركات والمـدارس

والمكاتب العمومية ولاغلب الكتبخانات فترة معينة فى السنة تقفل فيها

٦

العمائر الدينية فى باريس

يوجد بهذه المدينة ٧٠ كنيسة (جامعة ذات أبرشية) غير البيع الصغيرة التى قد لايخلو بعضها من الاهمية وكل سائح يريد أن يقف على الدقائق وأن يكون له بعض احاطة عمومية باحوال البلاد التى يجوبها لايصح له أن يغض الطرف عنها ولكنى أقتصر فى هذه الخلاصة على بعض اشارات خفيفة وأقوال وجيزة

كنيسة نوتردام — كان البدء فى بنايتها سنة ١١٦٥ ثم توالى عليها التدمير والترميم والتكميل والتحويل والتبديل حتى استقرت على ما هى عليه الآن منذ سنة ١٨٤٥ وطولها ١٣٣ متر وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣,٧٧ مترا فى المتوسط ولم يحصل تدشينها (١) الافى سنة ١٨٦٤ وهى من أجل العمائر التى فى فرنسا

(١) قال فى القاموس فى مادة د ش ن مانصه « الدشن يعنون به الثوب الجديد لم يلبس والدار الجديدة لم تسكن » وجاء اللسان بعبارة اوضح وهى « الداشن معرب من الدشن وهو كلام عراقى وليس من كلام اهل البادية كأنهم يعنون به الثوب الجديد لم يلبس أو الدار الجديدة لم تسكن ولا استعملت » اه وعندى ان التدشين اقرب الالفاظ العربية واولاها لترجمة Inauguration التى شاعت ترجمتها بلفظة « افتتاح » او « احتفال » لان معناها الابتداء للمرة الاولى فى عرض =

على الطرز القوطى المتفرد بالشكل البيضاوى ويحف بواجهتها برجان ضخمان وفيها كثير من تماثيل القديسين والقديسات وغيرهم وملائكة وأمراء وفيها جرس زنته ١٣ ألف كيلوجرام وجرس مأخوذ من سباستبول حينما تحالف الفرنساوية والانكليز وسردانيا مع الدولة العلية أيدها الله على الروسية وغلبوا الروس على سباستبول وفيها وردة من الزجاج عرضها ٩ أمتار و ٦٠ سنتى تمثل بأشكالها وألوانها الحواريين الاثنى عشر وهم مجتمعون فى مكان واحد وفوقها سهم من خشب البلوط مغشى بالرصاص مركب من ثلاثة أدوار أفرغ صانعه جهده فى تنسيقها وتزويقها وهذه الادوار على شكل هرمى ويرتفع السهم عن الارض بخمسة وتسعين مترا وثقله ٧٥,٠٠٠ كيلوجرام منها ٥٠٠,٠٠٠

= اثر من الآثار او عمارة او محل مهما كان نوعه على الانظار مثل تمثال او ترعة أو خط حديدى أو عمود او مدرسة او غير ذلك واباحته لاستعمال العامة وفى ذلك قرب تام للدار الجديدة لم تسكن ولا استعملت . وقد يستعمل المسيحيون لفظة «تكريس» فيما يتعلق بالكنائس والمعابد وما اشبهها وهى مقلوبة من كلمة افرنكية Sacre اى تقديس وربما كان لها اصل فى اللغة العربية قال فى القاموس «والتكريس تأسيس البناء «وقال فى اللسان» وتكرس أس البناء صلب واشتد . . . . . اجعل لهذا الحائط كرسيا اى اجعل له مايعمده ويمسكه . . . . . وكل ماجمع بعضه فوق بعض فقد كرس وتكرس»

من الخشب و ٢٥,٠٠٠ من الرصاص وفى داخل الكنيسة ٣٧ بيعة ومنابر متناهية فى الجمال يعظ فيها القساوسة الناس وفى الخوروس أشغال فى الخشب تبهر الانظار خصوصا التراكيب والترابيع المعروفة بالعربية التى هى عبارة عن خطوط مشتبكة متداخلة فى بعضها على طريقة أهل المشرق والأندلس وفيها أرغن من أكبر أمثاله فى فرنسا وأكملها يحتوى على ٦,٠٠٠ قصبة لاخراج الهواء وتوقيع الانغام - وأهم مافيها بصرف النظر عن ضخامة البناء واتساع الارجاء وانتظام العقود وارتفاع القباب انما هو خزينة الذخائر فانها تحتوى على مخلفات ثمينة مصنوعة من الفضة الخالصة والذهب الصافى ومرصعة بالاحجار الكريمة وآنية مقدسة ومباخر مفتخرة والعباءة التى تردّى بها نابليون حينما كرّسه البابا امبراطورا على فرنسا والتحف النفيسة التى أهداها الامبراطرة والملوك والملكة مارية انطوانيت وتمثال من الفضة للسيدة مريم عليها السلام وصور وتماثيل رؤساء الاساقفة فى باريس ومجموعة من الاحجار الكريمة محفورا فيها صور جميع الباباوات الماضين وجملة صلبان وكؤس وجامات وشمعدانات وغير ذلك من الحلى والملابس المزركشة المرصعة التى تستخدم فى الاحتفالات الدينية الكبيرة وفى بعض الأيام يعرضون على الجماعات المتقاطرة الى الكنيسة

صندوقا فيه إكليل الشوك وبعض المسامير التى يقال انها استخدمت فى صلب كلمة الله (عليه السلام) ويعرضون قطعة من خشب الصليب أحضرها هى والا كاليل والمسامير القديس لويس من بلاد المشرق أيام الحروب الصليبية

وخلف هذه الكنيسة منتزه بديع يفضى الى مكان مريع تنقبض له النفوس وتصم من ذكره الآذان وهو المعروف عندهم بالمورج تعرض الحكومة فيه الاموات الذين لايعرف أهلهم حتى اذا استدل عليهم أحد من العموم أرشد جهات الادارة عنهم وقد زرته ورأيتهم يحفظون الغرقى والمقتولين والمشنوقين وغيرهم مع العناية المتناهية والاحتراسات الواقية فلا تخرج منهم رائحة مطلقا وليس منظرهم بشعا مشوّها بل تراهم كانهم نيام لابسون ملابس لائقة ولايظهر منهم الاوجوههم

البيعة المقدّسة — بنيت فى سنة ١٢٤٢ وتمت بعد ذلك بخمس سنين وهى فى باريس كالدرة اليتيمة فى العقد النفيس خصوصا سهمها الذى لم ير الراؤن ابدع منه فى الحسن والجمال وهى أقدم وأجل مافى باريس من العمائر القوطية بناها الملك لويس التاسع القديس ليضع بها الاكليل الشوكى والمسامير وقطعة الخشب التى سبق لنا الكلام عليها بعد أن اشتراها من بودوين الثانى

ملك القسطنطينية وقد استخدمت حينا من الدهر كمستودع للمحفوظات القضائية ولكنهم رمموها الآن كما ينبغي واقتضت العمارة فيها ثلاثين سنة من الزمان و بظاهر واجهتها تمثال الملك لويس وشقيقه لويس الاسقف وفوقهما تمثال العذراء عليها السلام والبيعة من الداخل تتلألأ بالزخرفة الفاتنة والنقوش المذهبة وهي على شكل بيعتين احداهما فوق الاخرى فأما السفلى فلا تستعمل الآن في تعبداتهم الدينية وأما العليا فيحصل فيها القُدّاس في يوم ١٦ اكتوبر وقد كان القضاة بالمحاكم ملزمين بحضوره قبل هذا الزمان و بجانب سواريها تماثيل الحواريين الاثني عشر وفيها من الشبابيك ما يبهر الابصار وتحار فيه الافكار من انسجام ألوان الزجاج وتناهي بهائه وصفائه مع الاحكام في التنسيق والاجادة في التزويق وفوق البوابة وردة من قطع الزجاج تقر لرؤيتها العيون وتعترف بجمالها العقول

كنيسة سنت أوستاش — أحسن الأوقات لزيارة هذه الكنيسة المتناهية في الضخامة يوم الاحد اذ يكون فيها تلحين الآلات الموسيقية وتوقيع النغمات الصوتية بكيفية تطرب لها الاسماع وهي شبيهة ببعض القصور العربية من أن خارجها لا ينبئ بشئ عما في داخلها من الزخرفة والاتقان فان واجهتها وجهاتها

من الخارج حقيرة بالنسبة لما يكنّه داخلها من متانة الصناعة وجسامة المقادير وضخامة الاحجار وارتفاع العقود ارتفاعا متطاولا واتساع الاقواس اتساعا هائلا حتى ان الانسان ليخيل له انها أعدت للتحصن والاعتقال وكان البدء فى تشييدها فى سنة ١٥٣٢ وتمت فى سنة ١٦٤١ ولذلك لم تجئ على مثال واحد أو من طرز متجانس من الطرازات المتعارفة فى فن العمارة ولكنها من أجمل كنائس باريس وأكثرها زخرفة وتزويقا وطالما مررت عليها ولم تكن نفسى تحدثنى بضياع الوقت فى الدخول اليها ولما شاهدتها رأيت أنها بعكس خضراء الدمن ظاهر قبيح وباطن مليح ولا أرى من حاجة للكلام الآن على مافيها من المصنوعات والتحف والنقوش فى الرخام والمعادن والاحجار أو البيع الكثيرة المشحونة بالزخارف والطرائف أوزجاج الشبابيك أو منابر الوعظ أومفاتيح العقود التى تربط الاقواس والحنايا ولكنى أقول ان الضياء فيها أكثر منه فى أمثالها كما أن هواءها أجود وأخف على الروح وقد دفن بها كثير من مشاهير الفرنساوية مثل كولبير وزير لويز الرابع عشر والقصصى لافونتين الطائر الصيت المخلد الذكر وغيرهما من كبراء رجال السيف والقلم والحل والعقد والادب والحسب

كنيسة سنت جرمان لوكسروا - هى فى ميدان اللوفر بنيت

فى القرن السادس لميلادوكان ملوك فرنسا يحضرون القداس فيها ثم توالت عليها الايام واتفق أن النورمانديين اعتقلوا بها فى سنة ٨٨٥ ثم جعلوا عاليها سافلها فاقام القوم بنائها فى أوائل القرن الحادى عشر ثم شرعوا فى تجديد معالمها وتغيير أوضاعها ولم يتم تشييدها فى هذه المرة الثالثة الا بعد مضى ثلاثة قرون من الزمان وانما ذكرت هذه الكنيسة لشهرتها فى التاريخ اذ أنه فى ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ (وهو اليوم المشهور بواقعة سنت بارتلمى التى قتل فيها الكاثوليكيون البروتستانتيين قتلا ذريعا شنيعا فظيعا) اتفق المتحالفون المتمالؤن على ان يبتدؤا فى العمل حينما يدق ناقوس هذه الكنيسة للاذان بقداس الصباح وفى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٣١ أقيم فيها احتفال جنائزى عن نفس دوك دوبرى ولكن احزاب الثورة التى حصلت فى يوليو أوّلوا هذا الاحتفال تأويلا فاسدا واتخذوا ذلك ذريعة للتشنيع على الكنيسة فباغتها العوام والطغام ونهبوا كل مافيها من اثاثات والاعلاق ثم أقفلت الكنيسة وجعلت مقرا لدار أمانة المدينة مدة سبع سنين وفى ١٣ مايو سنة ١٨٣٧ أعيدت الى وظيفتها الاولى

أما داخلها وبيعها فمثل الكنائس الاخرى ولكن احدى هذه البيع تمتاز بكثرة الزخرفة على الطراز القوطى وفيها بيعة أخرى تحاكى برسومها وزجاجها البيعة المقدسة التى ذكرناها

كنيسة سان سولبيس — هى عبارة عن عمارة بالغة فى

الجمال متناهية فى الاتساع كان وضع الحجر الاول فيها بحضور الملكة انه دوتريش (Anne d'Autriche) فى سنة ١٦٤٦ وواجهتها عبارة عن سوار قائمة على بعضها بشكل يروق الانظار فيما بين البرجين الشامخين وفى دائرها من الداخل بوائك واسعة تعلوها أساطين متقنة وبيع متعددة تزيد فى بهجتها وفوقها قبة مزخرفة بصور ونقوش من صنع بعض الماهرين فى هذه الفنون وفى وسط صحنها مسلة من المرمر يمر عليها خط من النحاس للدلالة على الاتجاه الشمالى وفيها منبر للوعظ فى غاية مايكون من الحسن أمر بصنعه المارشال ريشليو وفيها عدا ذلك أشياء كثيرة لاتستحق الذكر الآن سوى الارغن فانه من أكمل وأجل مايوجد من هذا القبيل والقوقعتين العظيمتين اللتين يوضع فيهما الماء المقدس وهما هدية من جمهورية البندقية الى فرانسوا الاول وسبيل فاخر محاط بتماثيل بوسوييه وفنلون وما سيليون وفليشيه وهم من أهم وعاظ الكنيسة وأدباء الفرنساوية فى عصر لويز الرابع عشر

البانتيون — مجرد ذكر هذا الاسم يشعر بالعظمة والجلال ويبعث فى النفس هيبة ووقارا وفى الفؤاد اجلالا واكبارا كيف لاوهو مستودع لبقايا الذين خدموا العلوم والفنون وسعوا فى تعزيز وطنهم وترقية بلادهم حتى جعلوا لها بين الامم مقاما محمودا وفضلا مشهودا ولا يدخله انسان الا وتداخله السكينة والتؤدة فيسير

فيه على أطراف الاقدام ملازما الصمت التام بل تكاد تخرج من فيه ألفاظ التحية والسلام على عظام هؤلاء العظام

والپانتيون كلمة يونانيـة من پاس أى جميع وثيوس أى إله ومعناها المعبـد المخصص لجميع الآلهـة مثـل الكعبة فى أيام الجاهلية فان كل قبيلة كانت تتخذلها معبودا مخصوصا وتضعه فيها وبقى ذلك الى أن بطل بمجيئ الدين الاسـلامى الحنيف وكثـيرا مانستعمل لفظة پانتيون للدلالة على التعظيم والاجلال اللذين يقوم بهما الخلق فى حق المشاهير وأهل الفضـل فيقولون ان فلانا له مقام معين فى پانتيون التاريخ وهكذا

بنى هذا المكان فى سنة ١٧٦٤ وجعل كنيسة باسم القديسة سنت جنڤياف (بجيم وفاءين فارسيتين) راعية باريس وحاميتها ثم جاءت الحكومة الاتفاقية فى سـنة ١٧٩١ فغيرت ماوضع له ومنعت العبادة منـه وأطلقت عليـه اسم الپانتيون وكتبت على واجهته هذه العبارة الوجيزة فى الكلمات البليغة فى المعانى والدلالات

لعظماء الرجال شكر الاوطان

(Aux grands hommes, la patrie reconnaissante)

فلما آل الامر والسلطان لعائلة بوربون ورجعت الحكومة الملوكية أعيد الپانتيون الى أصله حتى كانت الثورة فى سنة ١٨٣٠ فسمى

البانتيون مرة ثانية واستمر كذلك مدة ٣١ سنة الى أن جاء الامبراطور نابليون الثالث فاصدر تقليدا ملوكيا يقضى باعادته للديانة باسم سنت جنفياف ولكن الحكومة الجمهورية الحالية أصدرت أمرا عاليا فى يوم ٣٢ مايو سنة ١٨٨٥ عقيب وفاة فيكتور هوجو مباشرة باعادة اسم البانتيون للمرة الثالثة وبعد صدور هذا الامر بأيام قليلة احتفل الفرنساويون قاطبة بنقل جثة هذا الشاعر العظيم الى البانتيون ودفنوها بجانب مقبرة جان جاك روسو وفولتير وميرابو وكان هذا الاحتفال بالغا فى العظمة بحيث لم يسبق له مثال واشتركت فيه الدولة بصفة رسمية والامة باجمعها ممن فى فرنسا وفى الخارج

واعلم أن واجهة هذا الهيكل قائمة على اثنتين وعشرين اسطوانة وفوقها نقوش بارزة تمثل الوطن واقفا بين الحرية والتاريخ وهو يوزع أكاليل المجد وشارات الفخار على عظماء الرجال مثل بونابرت من جهة اليمين ومن جهة اليسار روسو وفولتير وميرابو ودافيد وغيرهم من رجال فرنسا المعدودين

وطول هذه العمارة الفخيمة ١١٣ مترا وعرضها ٨٥ مترا وفوقها قبة قطرها ٨٣ مترا

أما داخله ففيه كثير من التماثيل والصور الدينية والتاريخية

التى لها علاقة بالمدينة ولا حاجة لتفصيلها الآن أما القبة فهى عبارة عن ثلاث قباب فوق بعضها وفيها كلها نقوش لايستحق الذكر منها الا ما يستجلب الانظار فى القبة الثانية من الرسوم التى تصور الموت والوطن والعدل والمجد وعلى العمدان التى تستند عليها القبة يرى الانسان ألواحا مزدانة باسماء أبناء الوطن الذين ماتوا فى سبيل الدفاع عن القوانين والحرية فى ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ يوليو سنة ١٨٣١ وسأتكلم عليهم بمناسبة العمود الذى أقيم لاحياء ذكرهم

ومما ينبغى تنبيه الشرقى اليه من الرسوم الكثيرة المزدانة بها جدران هذا الهيكل الصورة التى تمثل الامبراطور شارلمان وهو يعيد العلوم والآداب بعد اندراسها ويفتح المدارس ويؤسس المكاتب ويستقبل وفود الخليفة هرون الرشيد ومعهم من قبل أمير المؤمنين مفاتيح القبر المقدس هدية منه لهذا الملك العظيم الشأن وهناك طنفستان من ستائر الجبلين قيمتهما ١٠٠٫٠٠٠ فرنك (أربعة آلاف جنيه انكليزى تقريبا)

ومن صعد الى أعلى قمة القبة رأى أبهج المناظر وأحسن المرائى اذ يكون مشرفا على باريس وطرقاتها وقصورها وحركتها

أما الدور الذى تحت الارض فهو عبارة عن جملة مغارات

منقسمة الى أروقة منتظمة يتردد فيها الصدى بكيفية تقرب مما رأيته بل سمعته فى رومة وبيشة وكنيسة القديس بولس بلوندرة وفى اللوفر ومحفظ الفنون والصنائع بباريس وغير ذلك وفيه قبور كثير من عظماء فرنسا الذين يتفاخر بهم أبناؤها اذا جمعتهم المحافل

وقد كان رجوعى الى باريس عقيب وفاة رنان (Renan) ببضعة أيام وكانت الجرائد ورجال السياسة مشتغلين بمسئلة نقله الى البانتيون وكثر حديث القوم بهذا الشأن الى درجة لايمكن تصورها وجرّت مسئلة رنان الى التحدث بنقل غيره من مشاهيرهم أيضا فقدم وزير المعارف مشروع قانون لمجلس النواب لكى يصادق عليه حتى يكون نقل بقايا رنان بمقتضاه وقد قال الوزير فى تقريره مامعناه (ان حكومة الجمهورية تقترح على المجلس اشراك ميشليه وكينيه مع رنان فى هذا الاجلال والتعظيم فانهم وان اختلفت ملكاتهم وتباينت أفكارهم ومصنفاتهم فلا تزال بينهم رابطة لايمحوها مرور الزمان اذ كانوا كلهم أساتذة فى مدرسة فرنسا وقد أنشأها مؤسسها لخدمة المعارف الحرة وهم كلهم قد جاهدوا لتأييد الاستقلال فيما يتعلق بابداء الافكار وكلهم احتملوا الشدائد وقاسوا المصاعب فى هذا السبيل)

ولكن الجرائد وبعض أعضاء مجلس النواب شطوا فى الطلب وتغالوا فى نقل عظام بعض المشاهير الى البانتيون وكثير منهم أخذ فى التهزىء والتهكم وفريق آخر فى نحت كلمات مستنفرة من لفظة بانتيون وهكذا مما هو شأن الجرائد فى هذه البلاد عند حلول أىّ حادث يستلفت الانظار فقام جماعة بطلب نقل عظام بعض البارعين فى توقيع الانغام وآخرون منتصرون لنقل بعض المؤرخين أو رجال السياسة أو المعارف أو النظم أو الادب أو التصوير أو الطب أو نشر الكتب أو الكيمياء أو الاقتصاد أو اللغات أو أعضاء مجلس النواب أو غير ذلك وقام بعض النواب يطلب نقل بقايا تيارس المشهور فردت عليه أخت زوجته بكتاب أرسلته الى كافة الجرائد ترجوه فيه العدول عن هذا الطلب لان زوج شقيقها كان على الدوام يعرب عن رغبته فى أن تدفن عظامه بجانب أهله وقالت له فى ختامه (انى أسألك أن تتكرم بالكف عن اقتراحك وأن تترك الموسيو تيارس بعيدا عن اضطرابات السياسة فى مكان الراحة والسلام الذى اختاره أهله له) وبمثل ذلك أجاب بعض ورثة الشاعر المشهور لامرتين والمؤرخ ميشليه برفض نقلهما الى البانتيون وغيرهما وغيرهما و رأيت كثيرا من الجرائد المعتبرة والثانوية اتخذت هذه الحوادث فرصة لاستعمال ألفاظ الطيش والخفة فيقولون

﴿ عقود البانتيون الباردة — خباياه المظلمة — زواياه المحزنة — هيكل الملل — مدفن عظماء الرجال الذين يؤدّى لهم الوطن ما عليه من دين الشكران بشح وتقتير — ان هذه العمارة التى اجترمتها يدا فلان (كأن انشاء هذا البانتيون جريمة لاتغتفر) أراها لاتحتوى على شئ من الاجلال الذى يتصور القوم اتحاف عظام العظماء به بعد وفاتهم — ان دانتى الشاعر الطليانى الذى كتب على الجحيم لواطلع على هذه الاروقة الصاقعة لجعلها فى سقر وبئس المستقر ﴾ وأمثال ذلك من عبارات السخرية التى لاأتذكرها ولاأذكرها

وبمناسبة هذا البانتيون أذكر خلاصة موجزة على العمائر المشاكلة له فى بعض البلاد التى مررت عليها فانى رأيت فى معظم الكنائس التى تفرجت عليها ان لم أقل كلها قبورا لمشاهير أبناء الوطن ومن أهم مايستوقف أنظار المتسوّح فى أوروبا عند قدومه الى ايطاليا البانتيون الرومانى القديم وفيه الآن قبر الطيب الذكر فيكتور عمانويل وفى كل سنة يتقاطر الطليانيون الذين تشربت قلوبهم بحب الوطن الى هذا المكان ويزورون هذا القبر بغاية التبجيل والتوقير وبجانب الملك قبر رفائيل الرسام المشهور وغيره من النابغين فى الفنون المستظرفة وفى فلورانسة مكان يسمى سنتا كروتشى (الصليب المقدس) ويسمى بانتيون ايطاليا لانه

يحتوى على كثير من تماثيل عظمائها فى كل فن ونوع من التصوير والادب والفلسفة والموسيقى والنحت والنقش والسياسة والدولة والعلم الطبيعى وبعض أعضاء العائلة الملوكية وغيرهم ممن كان يندرس ذكرهم لولم يكن اسمهم منقوشا على الرخام ومعروضا لانظار العامة والخاصة على الدوام ولا أطيل الكلام بذكر مافى المدائن الاخرى وأذكر مافى لوندرة فكل الصيد فى جوف الفرا فان دير ويستمينستر هو أحق هذه العمائر باسم البانتيون أى الاثر الذى يقيمه الوطن الشاكر لابنائه فضلهم العارف لهم حق خدمتهم وذلك لان من يريد أن يقف حقيقة على عظمة الامة الانجليزية ومجدها فى التاريخ ينبغى له أن يذهب الى هذا الدير الذى يحتوى على أكثر من ثلثمائة أثر أقامها الوطن لعظماء الرجال فى السياسة والعلوم والموسيقى والفلسفة والشعر والسياحة والملاحة والاستكشاف والاستنباط وتشخيص الروايات وأعضاء العائلة الملوكية وكل من عاون على اعزاز انجلترة ورفع منارها باية كيفية من الكيفيات ولا شك ان الرجل من أبناء بريطانيا العظمى حينما يدخل الى هذا المكان ويطوفه ويقرأ مافيه من الاسماء يكبر فى عين نفسه ويرى من الواجب عليه ان يبذل كل جهده ليكون جديرا بالانتساب الى هؤلاء الاجداد ولا يكتفى بان يقول كان أبى أو صنع قومى

٧

جبانات باريس

كانت المدافن فى هذه المدينة بجوار الكنائس فأفصتها الدولة الى ماوراء المساكن حفظا للصحة وتوسيعا لنطاق البلد و يبلغ عددها الآن ٥٩ جبانة منها ١٣ داخلة فى حومة باريس والباقى خارجها وأجدرها بزيارة الغريب ثلاثة فقط وأهمها وأكبرها مقبرة الاب لاشيز ولذلك توجهت اليها ثلاث مرات فى ثلاثة أيام لانتظامها واحتوائها على كثير من عظماء الرجال

هذه المقبرة كائنة على رابية ذات انحدار خفيف و يبلغ مسطحها ١٣ هيكتارا وكانت ملكا لرجل من اليسوعيين اسمه الاب لاشيز (كان أمين سر الاعتراف للملك لويز الرابع عشر)

ولهذه المقبرة ذكر متواتر فى روايات الفرنساوية وأقاصيصهم مما يتعلق بالغرام ولكن أشهر ماوقع فيها انما هو المقاتلة العنيفة بل المذبحة الشنيعة التى حصلت فى ثورة الكومون

كان انشاء هذه الجبانة وهندستها فى سنة ١٨٠٤ ثم أخذت بعد ذلك فى الاتساع والامتداد من جهة المشرق حتى أصبحت الآن عبارة عن ٤٣ هيكتارا أو ٩٤٠٠٠ متر وعدد سكان قبورها وحدها ٣ مليون أى أكثر من الاحياء فى باريس كلها وفيها

١٥٠ طريق ويمر تحتها نفق لسكة حديد الحزام Chemin de fer de ceinture التى تمر حول المدينة فيكون الاحياء تحت الاموات وفوقهم وليس فيها شئ مما يقبض النفوس ويزعج الناظرين بل يعتبرها كل من زارها كأنها من أحد المتنزهات البديعة وخصوصا حينما يتجوّل فيها الانسان تاركا نفسه مع تيار الافكار متأملا فى هذه الحياة الدنيا ثم يقف من غير قصد فيقرأ الاسماء التى على القبور ويرى بينها بالصدفة اسم رجل عظيم أفاد الوطن أو الانسانية بكاباته أو أعماله فانى كنت فى هذه الحالة يحصل لى انشراح عظيم كأنى أكتشفت أمرا جليلا أو وقفت على سر نافع وتعرفت بالرجل ذاتيا خصوصا وان قبور العظماء ليست كلها على حافة الطرقات أو فى المواضع التى تستوقف الانظار فترى العالم بجانب الزارع وبعدهما صانع يخالفه شاعر يتلوه مؤرخ فتاجر فرجل حيثما اتفق فقائد كبير أو أمير شهير أو فيلسوف نابغ أو محسن فاضل الى غير ذلك من جميع أصناف الناس وطبقاتهم وأذكر الآن بعض الذين وقفت أمام قبورهم وتذكرت أعمالهم وما استفدته من تأليفهم أو الذين سمعت بشهرتهم مكتفيا بذكر الاسماء لعدم الاطالة واعدا نفسى بالاشارة فى الرحلة الى أعمالهم

مثال ذلك فيسكوندى وروسّينى والفريدو مسيه ولونوار وڤاڤين ومادام بلان وإرّازو وڤولپينى وڤيرون واورنانو ومادام هوارو

وما دام مارى روير ومورل ووالسكى ولازارجو ورنياتالى والاثر المقام للعساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى الدفاع عن وطنهم فى حرب سنة ١٨٧٠ المشهورة والاثر المقام للعرس الأهلى الذين قتلوا فى الحرب المذكورة وقبر ميشليه وآدم والكونتس داجولت ودوسيز وسوليبه وكاموس وبرجيه والاثر المقام لتيارس المشهور ومنه يرى الناظر أمامه قبة البانتيون ثم قبر بلانكى وبيّار ومد موازل الوتر ومد موازل دوجنليس ولابلاس وغرسية ومولبير بجانب لافونتين وجى لوساك ومقبرة لهوجوسان سيمون وبنيامين كونستان وماكدونلد والجنرال فوا وبيرانجيه وبومارشيه وسكريب وڤولنى وجرامون ولوبل والمقبرة التى أعدتها سارة برنار لنفسها وهى تتعهدها بنفسها فى أوقات كثيرة وقبر أبادى والمقبرة المخصصة للمسلمين الذين يتوفاهم الله فى باريس وقبر مد موازل دوشسنوا وتاليران ولافيت ومقبرة لدولسس وأندريو ورسباى وموبخ وكازمير پيريه وفونتان وديدو ومقبرة الاسرائيليين وفيها ميشل ليڤى (لاوى) وروتشليد ومادام فولد وراشل (راحيل) المشخصة المشهورة وغيرهم ثم قبور پاچيس وچيريكو وبلينى ودنون ودلامبر

ورأيت أثر ايشبه ضريحا مكتوبا عليه ماهذه ترجمته (مقبرة الاب الابدى) وأقول انهم يعنون بالاب الابدى المولى الواحد الاحد الذى لم يلد ولم يولد تعالى الله عما يصفون

وانما ذكرت هذه العبارة من باب الغرابة والعلم بالشئ وناقل الكفر ليس بكافر

وبعد أن استغفرت الله تنزهت صفاته وتقدست أسماؤه مررت كعادتى فرأيت قبر شينيه وكوفييه ومنتون ولدرو رولين وكوسين ومالهرب وأوبير وأراجو ومدموازل لونورمان الكاهنة العرافة المعروفة التى أنبأت نابليون بجميع وقائعه فى المستقبل بواسطة ورق الكتشينة بغاية الضبط وتمام التدقيق وكان كما قالت من غير تحريف أوتبديل وقد اتفق انها حوكمت جملة مرار وكانت على الدوام تقول للقضاة انكم انما تتعبون أنفسكم سدى وتضيعون أوقاتكم عبثا فانى لا أموت الا بعد سبعين سنة (أوعدد آخر لا أتذكره الآن) وبالفعل كانت وفاتها فى الوقت الذى أخبرت به وقبر بول بودرى ولويس دافيد وكسافييه بيشا ولافوازييه وبرناردان دوسان بيير وشيرو بينى والمارشال فيكتور والاثر المقام اللذين ذهبوا فريسة الحوادث فى شهر يونيو سنة ١٨٣٢ وقبر نيلاتون وشامپوليون وكلرمان وجوفروان سان سير والجنرال جوبير ودوپوترن ولافاليت وسوشيه ودافيدانجيه وبود والمارشال لوفقر وماسينا وبيسكو والمارشال مورتييه والمارشال نى والمارشال لوبو وراسين وجوفرواسنت هيلير ورميدوف وپراديه ودروجيه واللان كاردك والمشخصة

دجازت وبالزاك واوجين دولاكروا وقبر العلامتين كروسى سيفللى وسيقل وقد ماتا شهيدين فى سبيل المعارف حينما صعدا فى الجو بالقبة الطيارة الى طبقة عالية جدا وحققا أمورا كثيرة مفيدة ثم سقطت بهما فلم تقم لهما بعدها قائمة وقبر الكونتس داجو صاحبة التآليف المشهورة التى أخفت فيها اسمها حيث اتسمت بدانييل سترن وغيرهم من المشاهير الذين يطول ذكرهم فى هذه الورقات وهنا أنبه القارئ الى أن بعض الاكابر الذين ذكرت أسماءهم يوجدون مدفونين فى جهات أخرى من باريس أوفى مدائن غيرها ولكن الحكومة جعلت لهم قبورا فى هذه الجبانة احياء لذكرهم وتنشيطا للاقتداء بهم وليس فى هذا شئ من الغرابة بالنسبة لعناية هذه البلاد بعظمائها

بل الاغرب والاعجب أنى رأيت ضريحا فخيما عليه تمثال رجل وامرأة بجانب بعضهما وفوقهما قبة لطيفة على عمد رشيقة تحف بها أشجار صغيرة وأزهار نضيرة وقرأت عليهما هذين الاسمين (هيلويس وأبيلار) وصار اسمهما علما على المحبة الزوجية الصادقة الحقيقية وقد أحضر هذان التمثالان الى باريس وعنيت الدولة بوضعهما فى هذه المقبرة فى مكان لطيف وعلمت انه متى اصطحب فتى بفتاة وتبادلا عهود المودة الحقة والالفة الصادقة وشرعا فى عقد الزواج يأتيان

الى هذا المكان فى كثير من الاحيان فى أوقات خلوا لمقبرة من الناس ويضعان الازهار والاكاليل على هذا الضريح تيمنا بثبات الوداد وتفاؤلا بتبادل الصداقة من الطرفين ولهذين الاسمين قصة أرى من الواجب ذكرها هنا لزيادة الايضاح بل لزيادة الاستغراب وذلك ان هذا الرجل من مشاهير الفلاسفة واسمه ورد بهذه الاختلافات

Abaalarz, Abailard, Abélard, Abeillard, Belardus, Abailardus, Abaulardus, Abaielardus,

بل و Bailart وهو من كبار الفلاسفة اللاهوتيين التعليميين وله مذهب مشهور فى الفلسفة وابتكارات ومصنفات مفيدة فى الموسيقى وكان يعيش فى منزل شماس له حفيدة من أشراف فرنسا بارعة فى الجمال واسمها هيلويس فكلفه أن يتم تعليمها ويؤدبها فكلف بها ابيلار حتى لقد كتب فى هذا المعنى يقول «ما كان لناسوى بيت واحد فجمعنا ان صار لنا فؤاد واحد» وبعد زمن قليل أحست الفتاة بالحبل فكاشفت أستاذها (أوخليلها) بذلك فهرب بها ذات ليلة وأخفاها فى شمال فرنسا عند أخته فوضعت ولدا سمته بطرس اسطرلاب وحينئذ أراد الرجل أن يتزوج عشيقته ولكنها رفضت قائلة بان ذلك وخيم العواقب على محبوب قلبها وقد كتبت له (ان أصحاب المدارك ونوابغ الرجال لايصح لهم أن يربكوا أنفسهم بالعائلة ومشاغلها) وأيدت رأيها بنصوص من أقوال اللاهوتيين من

اللاتينيين واليونان ويقال انها أجابته الى طلبه فى آخر الامر بعد كثرة الحاحه ولما اطلع الشماس على هذا السر شرع فى الاقتصاص من الفيلسوف فارشى خادمه ودخل عليه بالليل ومعه نفر من ذوى قرابته وصحابته ثم أوثقوا كتاف ابيلار وجبّوا خصاه فألحّ الفيلسوف اللاهوتى المخصى على خليلته أو زوجته بان تترهب فأجابت ثم لحق بها فى الدير وأسس دير للراهبات ومازال يمارس التعليم والتدريس بما ينطبق تارة على أفكار اللاهوتيين ويخالفهم أخرى وهو يوالى وداده لصاحبته التى بقيت أصدق الناس على ولائه حتى فارق الحياة

وقد رأيت أيضا عمودا أقامته الحكومة كأنه قبر لكل من يموت غريقا فيعتبره أهل الميت قبرا له ولذلك نتراكم عليه الاكاليل فى بعض المواسم بما يفوق العد والوصف

واعلم أنه وافق وقوع مولد جميع القديسين أيام مُقامى بباريس فاغتنمت هذه الفرصة وتوجهت لهذه المقبرة لكى أقابل ما أراه فيها بما هو جار عندنا وهذا اليوم يسمونه عيد الاموات وقد نزل المطر رذاذا طول النهار ولكنه لم يمنع أهل باريس من التوجه الى مقابر أهليهم وذويهم ووضع الاكاليل والازهار عليها كما هى عادة الافرنج ولاأذكر شيأ عن تزاحم الجماهير فى هذه المقبرة التى زرتها حينئذ وأكتفى بذكر العدد وقدره ٤٨٫٣١٠ ومع ذلك فقد قال لى

الثقات ان الازدحام كان أقل مما فى الاعوام الماضية وبلغ عدد الذين توجهوا الى جميع الجبانات (بما فيها الاب لاشيز) ١٩١٫٢٦٧ ولو فرضنا ان نصف هذا العدد كان حاملا لباقات أزهار ثمنها فى المتوسط فرنك واحد لتحصل عندنا ٥٣٫٤٢٤ جنيه انكليزى (منها نحو ٢٫٠٠٠ لعمود الغرقى الذى ذكرته) وهو أقل مايمكن تقديره لان الفقير منهم يقترعلى نفسه و يقتصد من مأكله ومشربه عند اقتراب هذا الموسم لكى يتمكن من شراء اكليل يهديه الى فقيده العزيز المحبوب فان عادة اهداء الاكاليل متمكنة عندهم الى درجة لايتصوّرها العقل حتى انه كثيرا مايتفق ان الرجل أوالمرأة يموت جوعا واذا طلب من أصحابه وأصدقائه شيأ يستعين به على سد رمقه أجابوه بالرفض فاذا مات فى عصر النهار أوفى اليوم الثانى بادرت الجماعة التى ينتمى اليها (مصوّرين حدادين نجارين طحانين أوأعلى أوأدنى من ذلك) بفتح قائمة اكتتاب تبلغ قيمتها مئات من الفرنكات فيشترون بها رجاما يضعونه على قبره وإكليلا يحتفلون بايداعه عقيب دفنه

وأذكر بمناسبة الاحتفال بالاموات ان الفرنساوية أشد الامم الذين رأيتهم اعتبارا لليت حتى انه متى مرّ سرير الجنازة يبادر الرفيع قبل الوضيع برفع قبعته اجلالا واعظاما مهما كانت درجة الذى فارق الحياة الدنيا وهو شبيه بمابقى عند بعض المصريين المتمسكين بعاداتهم الشرقية الحميدة فانك تراهم عند مرور النعش أمامهم يقفون

إجلالا ويتشهدون ويقرؤن شيأ من القرآن الكريم مع بعض كلمات مؤثرة مأثورة فياحبذا هذه العادة وياحبذا الاحتفاظ بها

وقرأت فى الجرائد بمناسبة عيد الاموات ان جميع الفرنساوية الذين فى برلين توجهوا بصحبة أعضاء جمعية محبة الانسانية وموظفى سفارة الحكومة الجمهورية الى قبر العساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى برلين اثناء حرب سنة ١٨٧٠ وان وفدا حضر من فرنسا الى هذه العاصمة لهذه الغاية وكذلك جرت جماعة الفرنساوية المتوطنين فى بروسل Bruxelles عاصمة البلجيكا على عادتهم فتوجهوا فى احتفال عظيم الى الاثر المقام لاحياء ذكر الجنود الذين ماتوا فى خدمة وطنهم وكان السابق فى هذه المظاهرة المليئة القومية اعضاء غرفة التجارة فانهم وضعوا على الاثر اكليلا جميلا عليه هذه العبارة (من اعضاء غرفة التجارة الفرنساوية ببروسل الى مواطنيهم الذين ماتوا فى سبيل الوطن - أول نوفمبر سنة ١٨٩٢) ثم جاءت جمعية التعاون الفرنساوية ووضعت اكليلا فى غاية الاتقان مصنوعا من الحديد المطروق وعليه هذه الكلمات (الى الجنود الفرنساوية الذين ماتوا لاجل الوطن فى سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ - من جمعية التعاون الفرنساوية ببروسل سنة ١٨٩٢) ثم وقف الرئيس على سطح الاثر وألقى خطابا لابأس من تعريبه فى هذا المقام وهو

أقيمت الآثار وشيدت الانصاب فى كل مكان سقطت فيه العساكر اثناء دفاعها عن الوطن فى سنتى ٧٠ و ٧١ فسواء فى ذلك المدائن الكبيرة والكفور الحقيرة

وقد اختار النزلاء الفرنساويون منذ بضعة سنين هذا اليوم أول نوفمبر لتمجيد سيرة أولئك الشجعان الذين أثخنتهم الجراح وفقدوا بعض الاطراف والاعضاء فلاذوا بهذه الارض أرض بلجيكا لقضاء مابقى من أيامهم فيها

ومن الامور المستعذبة الموجبة للتسلية الباعثة على العزاء أنهم مع بعدهم عن مسقط رأسهم وأرض اجدادهم قد صادفوا هنا عناية أخوية جديرة بالمدح والثناء — ان بلجيكا أكرمت مثواهم وعاملتهم بالحسنى — فهذه العبارة الجميلة المنقوشة بحروف من الذهب على هذا القبر العام الذى ضم بقاياهم يكون فيها ذكرى للاجيال الحاضرة والآتية بما اصطنعته بلجيكا من العمل الممدوح المحمود واليد المشكورة المبرورة

ولما الهنناء نحن اعضاء جمعية التعاون الفرنساوية على مجيئنا الى هذا المكان ننشر فيه على قبور هؤلاء العزاز تلك الراية المثلثة التى كانوا يسيرون تحت ظلها فى ميادين القتال — فتحيى بلجيكا وتحيى فرنسا انتهى

وقد أصغى جميع الحاضرين الى هذا المقال بغاية الرعاية

والاجلال وعند ماأتم الرئيس كلامه أبدوا كلهم علائم الاقرار والاستحسان

٨

بعض الاعمدة والبوابات والفساقي وبرج ايفل

ان الاعمدة الاثرية فى باريس هى ثلاثة أولها وأقلها أهمية عمود سواسون وهو الاثر الوحيد الذى بقى من القصر المعروف بهذا الاسم وارتفاعه ٣٠ مترا ويقال انه كان مرصدا لمنجم الملكة كاترينة دومدسيس كان يراقب فيه حركات الافلاك واقتران الكواكب ليتمكن من اخبارها بالكائنات قبل كينونتها وفى داخله سلم يوصل الى قمته وفى أعلاه مزولة شمسية

والثانى هو عمود ڤاندوم فى الميدان الجميل البهيج المعروف بهذا الاسم وهو مسبوك من برونز ١٢٠٠ مدفع اغتنمها الجيوش الفرنساوية فى الوقائع الحربية وتمت اقامته فى سنة ١٨١٠ وارتفاعه ٤٤ مترا و ٣٠ سنتيمترا وقطره ٤ أمتار وفى منتهاه تمثال نابليون متشحا بملابس امبراطور رومانى وعلى هذا العمود نقوش وكتابات تخلد انتصارات الفرنساوية فى أوائل هذا القرن

والعمود الثالث هو المعروف بعمود يوليو وهو فى وسط ميدان

الباستيل أقيم تخليد الذكر الحرية فى نفس المكان الذى كانت فيه قلعة الباستيل معدن الجور والحيف والاستبداد وعليه بحروف من الذهب أسماء الذين استماتوا فى اعلاء كلمة الحرية ونشر رايتها على ديار فرنسا فى سنة ١٧٨٩ وفى سنة ١٨٣٠ وفى أسفله مقابر أولئك الابطال محطا للاعجاب والاجلال ومن صعد الى قمة هذا العمود الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧ مترا رأى باريس كلها تحت أقدامه وأمتع ناظريه بمرأى جميل معجب وفوق هذا العمود تمثال من البرونز المذهب يمثل ملاك الحرية وفى يده مصباح يرسل النور منه الى جميع أطراف العالم

وبمناسبة العمدان نذكر المسلة المصرية المعروفة بمسلة كيلوبطرة التى هى أجمل حلية فى أجمل ميدان فى أجمل مدينة قد أهداها المخلد الذكر محيي مصر المغفور له أفندينا الكبير الحاج محمد على باشا الى فرنسا فوضعتها فى ميدان الكونكورد (الائتلاف) الذى تحف به تماثيل كثيرة تمثل مدائن فرنسا التى خدمت الوطن برجالها وأعمالها وهذه المسلة من حجر واحد من الصوان الوردى وعليها كثير من النقوش البربائية وطولها ٢٢ مترا و٨٣ سنتيمترا ووزنها ٢٥٠,٠٠٠ كيلوجرام وفى أسفلها ترى نقوشا بالذهب تمثل كيفية اقامتها ورفعها بمقتضى علم الاثقال وكان ذلك فى سنة ١٨٣١ على يد المهندس الماهر الموسيو لبا

أما البوابات والاقواس فهى كثيرة نذكر منها باب القديس دنيس (وهو الذى بعد أن قطعت رأسه فى أيام الاضطهاد رفعه من الارض بين يديه وهو مضرج بالدماء) وهو أثر جميل قد توالت عليه العمارة والترميم وكانت اقامته فى سنة ١٦٧٢ تمجيدا لذكر لويز الرابع عشر وتذكارا لفتوحاته فى بلاد الالمان

وكذلك باب القديس مارتين على مقربة من الباب السابق تذكارا لفتح اقليم فرانش كونتى وهزيمة الالمان على يد لويز الرابع عشر وفيه نقوش بارزة متقنة

وقوس الكوكب وهو أكبر بوابات الفوز والانتصار الموجودة فى باريس فان مجموع ارتفاعه ٤٥ مترا و ٣٣ سنتيمترا وعرضه ٤٤,٨٢ مترا وأول من ابتدأ فى تشييده هو نابليون فى سنة ١٨٠٦ لاجل تخليد فتوحات الجيوش الفرنساوية واحياء مآثرها ولكنه لم يتم الا فى عهد الملك لويز فيلب

وبلغت نفقاته ٩,٠٥١,١١٥ من الفرنكات (قريبا من ٣٦١٣٢١ جنيه) وهو كله مغشى بنقوش فى الحجر مناسبة لمقتضى الحال وحول أركانه الاربع تماثيل ضخمة تصور هيئة السفر والمقاومة والفوز وعقد الصلح وفى بعض أعاليه رسوم بعضها يصور واقعة

أبى قير وأخرى تمثل استيلاء الفرنساوية على الاسكندرية ـ وقد تقصده ثوار الكرمون فى سنة ١٨٧١ فوجهوا قنابلهم نحوه ووالوا اطلاق المدافع عليه ثلاثة أسابيع متوالية كان عدد المقذوفات التى أصابته فى كل يوم بالمتوسط ٩٠ فيكون مجموع ما أصابه من القلل ٢٫٠٠٠ بالتمام ولكن القوم أعادوا ترميمه واصلاحه بعد أن انطفأت نار هذه الثورة الشنيعة

وفى يوم ٣١ مايو سنة ١٨٨٥ عرضت الدولة الفرنساوية تحت هذا القوس التابوت المحتوى على جسد الطيب الذكر فيكتور هوجو باحتفال جليل استمر ٢٤ ساعة

وقد صعدت الى أعلى هذا القوس فاستغرق ذلك من وقتى ٨ دقائق ورأيت من فوقه منظرا بهيجا جدا اذ أننى كنت فى ميدان يصب فيه ١٢ درباً سلطانيا محتوية على صفين من الاشجار وخلفها المبانى الفخيمة أو البساتين البديعة

وقد سبق لى كلام وجيز على قوس فخار الكاروسل فلا موجب لاعادته فى هذا المقام وانما أستعيضه بذكر برج القديس جاك فانه فى وسط حديقة أنيقة فى مركز ميدان الشاتليه

وهو من أظرف الآثار القديمة الباقية فى باريس وفى أسفله جملة عمدان فى وسطها تمثال العلامة المحقق پاسكال وفى قمته

تمثال القديس المذكور - وارتفاع هذا البرج ٥٢ مترا وفيه بعض آلات فلكية خاصة بعلوم الآثار العلوية وفيه غرفة يحضر اليها التلامذة لتعلم الرصد وما يتعلق به وقد تناقل القوم ان العلامة پاسكال جدد فيه تجاربه المتعلقة بمعرفة مقادير ضغط الهواء على البارومتر

وأما الفساقى فهى كثيرة فى باريس منها ۞ فسقية كوفييه العالم بالتاريخ الطبيعى صاحب الاكتشافات الكثيرة ومخترع علم الكائنات الحفرية وفوق هذه الفسقية تمثال من الحجر للتاريخ الطبيعى ۞ ثم فسقية الشاتليه فى مكان سجن كان هنالك قديما وهى فى وسط الميدان المعروف بهذا الاسم الآن وعليها تماثيل للامانة والقوة والقانون والتيقظ ويندفع الماء الى حوضها من أفواه أسفنكسات (أبو الهول) وفوق الفسقية تمثال الانتصار وفى يده إكليل الفخار ۞ ثم فسقية جرينل وفيها تمثال باريس وهى جالسة فى سفينة وتحت قدميها نهرا السين والمارن وحولها تماثيل الفصول الاربعة والسفينتان اللتان هما شعار لها ۞ ثم فسقية الابرياء تحيط بها حديقة زهرية وهى من أجل الآثار التى يقصدها الزوار وعليها نقوش تمثل جنيات الماء فى غاية الابداع وقد كانت أولا فى سوق الفواكه ثم نقلوها الى محلها

الآن حجرا حجرا ❁ ثم فسقية لوقوا وهى بناء أنيق أمام المكتبة الاهلية وتحتوى على تماثيل متقنة تمثل الانهار الاربعة التى فى فرنسا تحمل الحوض العلوى الذى ينحدر منه الماء فى الفسقية ❁ ثم فسقية موليير من الرخام الناصع أقيمت بواسطة اكتتاب أهلى وفى أعلاها تمثال هذا الشاعر المجيد وعلى يمينه ويساره تمثال الكوميدية الجدية والكوميدية الهزلية ومعنى الكوميدية التشخيص المضحك وهذه الفسقية أقيمت أمام البيت الذى مات فيه الرجل ❁ وفسقية الرصدخانة وهى عبارة عن حوض فيه ثمانية أفراس بحرية وكلها من البرونز وفى وسطها تمثال أقسام الدنيا الاربعة تعلوه كرة أرضية ❁ ثم فسقية القديس جرجس وفيها تمثال الايمان والرجاء والاحسان فى المرمر ❁ ثم فسقية سان سولپيس فى وسط الميدان الكائن امام الكنيسة المعروفة بهذا الاسم وحول هذه الفسقية تماثيل بوسويه وفنلون وماسيلون وفليشيه وهم من أكبر وعاظ الكنيسة وأشهر كتاب الفرنساوية ❁ ثم فسقية الانتصار مزدانة بتماثيل الايمان والتيقظ والقانون والقوة وفوق الجميع تمثال الانتصار مموه بماء الذهب

وفى باريس فساق أخرى مثل اللتين يزدان بهما ميدان الكونكورد (الائتلاف) واحداهما رمز للملاحة فى النهر والثانية للملاحة فى البحر ومثل اللتين فى ميدان التياترو الفرنساوى

وفسقية مدسيس ونوتردام والقديس ميشل (وقد كانت العمارة جارية فيها أثناء وجودى بباريس)

أما برج ايفل فقد طار خبره وعرف أمره وقدره بحيث كان الواجب أن يهمل ذكره ولكننى أتحف القارئ بمعلومات جديدة وأقص عليه شيأ من التأثير الذى حصل لى أثناء ارتقائه فى المصعدة (Ascenseur) والنزول منه على درج السلالم ولا حاجة للاحاطة بانه أعلى جميع الآثار التى شاهدها الانسان فى جميع الازمان فوق سطح هذه الكرة الارضية وانه يخترق كبد السحاب (من غير مجاز) بارتفاعه البالغ ٣٠٠ متر وطالما كان المطر يتهاطل على أسافله وحواليه من غير أن يصيب الذين قد ارتقوا الى ذروته بحيث انه لو كان فيهم ممدوح لصح لشاعره أن يقول انه علا حقيقة على السحاب مثل ذلك الذى قيل فيه انه علا فى الحياة وفى الممات وعدوا له ذلك من المعجزات

وفوق قمة هذا البرج قبة عليها فنار يبعث الضياء فيبدد حجب الظلام بما يرسله من مختلف الالوان بحسب ألواح الزجاج ويمتد شعاع النور الى مسافة قاصية وبعرض واسع وأول ما رأيت الفنار وأنا فوق احدى قناطر السين رأيت مناشيره أشبه شئ باجنحة طاحونة عظيمة يديرها الهواء بسرعة وأما البرج فهو أشبه شئ بشمعدان

هائل خصوصا مع وجود النور فى أعلاه وهذا الشمعدان مرتكز على أربع قوائم مسافة الانفراج بين كل قائمة والثانية عند القاعدة ١٠٠ متر وكنت أثناء اقامتى بباريس أترقب فى كل صباح فرصة الصعود الى هذا البرج الفريد لأتمتع بما حوله من المناظر الرائقة ولكن توالى احتجاب الشمس فى أغلب الايام كان يحول دون هذا المرام حتى خشيت تعذر الحصول على هذه الامنية لاقتراب ميعاد اقفاله ولكن الله يسر لى يوما طلعت فيه الشمس ببهجتها وأرسلت صافى أشعتها فبادرت اليه مسرعا وأنا لا أصدق نفسى من شدة الفرح وكنت كلما صعدت فى طبقة أرى المدينة تنضم الى بعضها وتتقارب أبعادها وتتصاغر مسافاتها وتتلاقى أطرافها فتبدو بكمال جمالها فرجة للناظرين وبينها نهر السين كقناة طويلة يتصور الانسان أنه يكفيه أقل وثوب للانتقال من أحد شطيها الى الآخر وعليها القناطر العديدة أشبه بخطوط كثيرة مستطيلة كأنها شريط رفيع من البناء أو سلك رقيق من الحديد وكانت برك الماء كدموع من ماقى المشتاق وبعض بنى الانسان أشبه بالازهار أو بتلك العرائس الصغيرة التى يتلاعب بها الصبايا والبعض الآخر كأنهم من قوم يأجوج ومأجوج أو من أولئك الاقزام العائشين فى أواسط افريقية وكانت باريس بازدحامها

كقرية النمل أو خلاية النحل وكنت كلما ارتقيت ازدادت أمامى بهجة الرياض الانيقة والقصور الرشيقة المجاورة للبرج مثل قصر التروكادير و وحديقة الشان دومارس وفسقيته البديعة وقبة القصر المركزى وفوقها تمثال الشهرة ثم قبة رواق الآلات وقبة الانڤاليد والباتيون ثم تياترو الاوبرا وقصر الصناعة وعمود ڤاندوم و برج كنيسة نوتردام وفى أثناء ذلك كنت أسمع اعتراك الرياح فى الصبا والجنوب وتضارب تياراتها فى القبول والدبور فتحدث لها قرقعة كأشد مايكون من تلاطم الامواج فى البحر العجاج وبينما أنا غارق فى هذه الاحوال نبهنى بعض الذين صعدوا الى صحيفة يكتب عليها الزائر اسمه أو أى عبارة تخطر بباله فأخذت القلم ورقمت ماأملت به على القريحة تدرك يا ايفل لقد برعت فيما أبدعت ونبغت بما اخترعت فعلوت بعقلك على سائر أبناء عصرك كما ارتفع برجك الى عنان السماء فائقا جميع الآثار الشماء مفصحا بكل لسان عن فضل الامة الفرنساوية فى ميدان العرفان

ثم نزلت متمهلا متأملا وقد كبر الرجل فى عينى أكثر مما كنت تصورته خصوصا بعد أن علمت ان الموسيو ايفل اذا جلس

على كرسيه امام مكتبته يكون ضغطه على الارض أكثر من ضغط هذا البرج الهائل وذلك أن قوة الضغط التى تحدث على الارض اذا جلس على الكرسى (هو أو أى انسان آخر) تكون باعتبار ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات بالاقل عن كل سنتيمتر مربع بخلاف البرج فان تأثيره على الارض هو باعتبار كيلوجرامين اثنين فقط مع أنّ ثقل البوبة التى على جدرانه قد قدرها العلماء بنحو ٣٠ طونولاطة وقرروا أن مجموع وزنه (من غير البوبة) يعادل ٧ مليون كيلوجرام وقالوا ان الهواء الموجود فى قصر الآلات يزن ربع هذا المقدار مع لطافته فيا للعجب العجاب من غرائب الاحصاء والحساب

ومما يجمل بنا ذكره فى هذا المقام أنهم استخدموا هذا البرج لامور كثيرة مثل الاكل والشرب والتصوير والبيع ونحو ذلك وانهم وضعوا فيه منذ سنة ١٨٩١ مانومتر ازيقيا لقياس تمدد البخار هو أكبر وأجسم ماظهر فى الوجود الى هذا الزمان وقد أعدوا فى الصيف الماضى تياترو فى احدى طبقات هذا البرج وكانوا يشخصون فيه رواية عنوانها (باريس فى الهواء) ومن المعلوم ان رجال الافرنج يرفعون قبعاتهم أثناء التشخيص ولكنه اتفق فى بعض المرات وجود رجل لم يتبع هذه السنة بل أبقى عمامته على رأسه فتذمر

الحاضرون واعتبروا ذلك اهانة منه وخروجا عن حد الادب ثم طالبوه برفع القبعة فأبى فجاء اليه مدير التياتر ووأظهر له وجوب الامتثال فما ازداد الرجل الا عنادا واصرارا بحيث لم يكن للمدير من واسطة سوى استدعاء رجال الشرطة واخراج الرجل بالقوة ولكنه تدبر وتمهل ثم ذهب بجانب رئيس الموسيقى فهمس فى اذنه بكلمة واحدة أجابه عليها صاحبه بعلامات الامتثال ثم رفع عصاه فلمعت جوقة الموسيقى السلام الروسى فكان الرجل أول من وقف ورفع قبعته اجلالا وتعظيما ثم قال (ان هذا خبث منك وكيد عظيم . انى أخشى تيار الهواء فى مثل هذا المكان وأفضل الانصراف على هذا الاضطرار) ثم خرج وشكر الناس حذق المدير وفطانته فى صرف هذا الحادث الذى أوجب لغطا كثيرا واضطرابا شديدا وذلك لان التقرب فى هذه الايام شديد وثيق فيما بين فرنسا والروسية ومتى سمع أحد الفرنساويين النشيد الروسى الوطنى قابله بالاجلال فى الحال وكذلك الروس يكشفون الرؤس عند مايسمعون النشيد الفرنساوى حتى ان رجلا من محرري الجرائد فى بطرسبرج واسمه بريوف حضر الى باريس أثناء اقامتى بها ساعيا على أقدامه ليس الا فى كل هذه المسافة التى يبلغ طولها ٩٫٥٠٠ كيلومتر فقط وكان يمشى فى اليوم الواحد ٣٠ أو ٤٠ كيلومترا وقد استغرقت هذه النزهة

منه نحو ٨ شهور ونصف والمحل بباريس كان آلاف كثيرة من الناس فى انتظاره فحياهم وحيوه ورحبوا به كثيرا وأطنبت الجرائد بمدحه

وقد ظهرت فى هذه الايام الاخيرة جريدة اسمها (برج ايفل)

٩

بستان النباتات

كان تأسيس هذا البستان فى سنة ١٦٢٦ وافتتاحه للجمهور فى عام ١٦٥٠ وهو ينقسم الى أربعة أقسام أولها البستان وثانيها مربى الحيوانات وثالثها متحف التاريخ الطبيعى ورابعها الانبار (العنابر) الزجاجية المعدة لتربية نباتات البلاد الحارة ومما يليق ذكره أن الانسان اذا دخل من أكبر أبواب هذا البستان يرى أمامه ممشيين من الصفصاف غرسهما العلامة بوفون المشهور وفى منتهى البستان توجد الدار التى مات فيها الرجل المذكور فى يوم ١٦ ابريل سنة ١٧٨٨ وفى هذا البستان مدرسة لشجيرات الزخرفة ومدرستان لاشجار الفاكهة احداهما مخصصة للفاكهة ذات النواة وأما الثانية فلاشجار الفاكهة ذات البزر وفيها ١٨٠٠ نوع من أشجار الكمثرى وهنالك مجموعة أشجار مثمرة تحت الدرس

والمطالعة ومدرسة لعلم النبات تحتوى على أكثر من ١٣,٠٠٠ نوع من النبات

وأما مربى الحيوانات ففيه ٢٢ مقصورة عليها أبواب من قضبان الحديد تسرح فيها الحيوانات الضارية والوحوش الكاسرة والطيور الجارحة كالأسد والفهد والببر والفرانق والنمر والدب والنسر والعقاب والرخ والكندور وغير ذلك وفيها أصناف لاتحصى من الحيوانات المعروفة فى بلادنا والمجهولة لنا مثل الايائل والوعول والاروية وتيوس الجبل والأثوار والابقار والاغنام والماعز والجاموس ذى السنام والكنجورو والذئاب والضباع والحلاليف وبنات آوى والعقبان والنسور وغير ذلك مما لاتمكن الاحاطة به مع تعدد أصناف النوع الواحد وهناك قطعة مستديرة مغشاة باسلاك الحديد تسمى قصر القردة فيه منها أجناس كثيرة بين كبيرة وصغيرة وأمام هذا القصر مستدير كبير ترى فيه الافيال وأفراس البحر والكركدن وأصناف الهجين وهناك ترعة من الماء تسبح فيها خلائق كثيرة من الطيور المائية وبالقرب منها ترى حيوانات بحرية تسمى آساد الماء وبجانبها أبراج لانواع كثيرة من الطيور ومراب لاطيار الصيد المرغوبة مثل الصقور والبواشق والشواهين وغير ذلك وهناك أصناف من الايائل الخنزيرية التى توجد فى بلاد

الهند وبالقرب من هذا المكان مربى أطيار الدج والقطا والحجل والفواخت والورق والورشان والشفانين والطياهيج وغيرها والطيور المغردة وأنواع الببغاء والطواويس — وقد رأيت فى كشك الزواحف أصنافا كثيرة من الثعابين السامة وغير السامة وعددا عظيما من السلاحف والورل والضفادع والعلاجيم وأصناف التمساح التى اشتهر بها نيلنا السعيد وحرم من رؤيتها المصريون فلا بد لهم من المجىء الى باريس لرؤية هذا الحيوان المشهور حيا يرزق لا معلقا على بعض البيوت لفائدة لم أقف عليها مع كثرة السؤال عنها(١) وفى هذا الكشك أيضا أصناف كثيرة من أسماك المياه العذبة

ولا بد لنا من ذكر كلمتين أيضا على رواق تطبيق التشريح وعلم الانسان (الانتروبولوجيا) فانه يحتوى على ٢٤٠٠٠ تجهيز وأكثر من ١٣٠٠٠ نموذج يختص أكثرها بدرس السلائل البشرية القديمة والحالية و ٣٫٠٠٠ جمجمة و ٢٠٠ هيكل عظمى وجملة قطع تتعلق بالانسان الحفرى (الذى وجد فى الكائنات الحفرية) — وفى الدور الاول من هذا الرواق مجموعة

(١) ربما كان ذلك من باب التمين بحصول الخصب والبركة كما هو الشأن فى نهر النيل بالنسبة لقطر مصر السعيد فان التمساح أخص حيوانات النيل المبارك لانه امتاز به على سائر الانهار تقريبا وبه يرمز اليه عند أرباب الصنائع والفنون من القدماء والمحدثين — وربما كانت هذه العادة بقية من آثار الجاهلية المصرية والفراعنة الاولين فان هذا الحيوان كان من أقدس المعبودات فى قسم كبير من وادى النيل

وافرة من هيا كل جميع الحيوانات وغرف كثيرة مخصصة لدرس التشريح الانسانى وفيها صور جميع الاجناس بحيث يتمكن الباحث من مقابلتها بعضها وهنالك مجموعة كاملة من رؤس مصنوعة من الجبس يمكن لاهل علم الفراسة أن يطبقوا معارفهم عليها أو يزيدوا فى معلوماتهم بواسطتها وخصوصا أن القوم اعتنوا بتمثيل رؤس بعض المشاهير فى ارتكاب الجرائم واقتراف الجنايات - وأمام باب هذا الرواق حوت هائل طوله أربعة عشر مترا (من الصنف المعروف بالهائشة) وهيكل عظمى وجماجم من أفراد هذا النوع وسمعت أنه يوجد متحف لما قبل الطوفان غير أنى لم يتيسر لى رؤيته مع كونى توجهت الى هذا البستان ثلاث مرات فى ثلاثة أيام ولكن اتساعه وكثرة مافيه من الغرائب حالا بينى وبين رؤيته بجميع أجزائه وتفاصيله وقد رأيت هنالك شيوخ البحر تسبح فى برك من الماء ولها صيحة مزعجة ورأيت أشجارا لاتفارقها الخضرة على الدوام ولا حاجة لذكر العناية الزائدة التى تلاقيها نباتات البلاد الحارة فى عنابر هذا البستان فانها فوق الوصف ولكن القوم لم يتمكنوا الى الآن من تربية النخل المثمر وان كانوا توصلوا الى حفظ كثير من أصناف النخيل الخاصة ببلاد الهند وأواسط أفريقيا

وأما متحف التاريخ الطبيعى فيحتوى على شئ جسيم وعدد عظيم من الحيوانات الثديية الكبيرة وهيا كل الحيتان (الهوائش)

والآساد والانمار والدباب والقرود والزواحف والطيور والاسماك والحيوانات الرخوة والحشرات كل ذلك بهندام ونظام لايمكننى أن أصوّره للقارئ باى حال فان وصف مافى هذا المتحف يستغرق مجلدات كثيرة وحياة علماء عديدين قدوقف كل واحد منهم نفسه على درس فرع صغير من فروع هذه الفنون

وهنالك أيضا رواق كبير فيه مجموعات مشتبكة من الاحجار الضالة والنيازك والشهب الساقطة من السماء ومجموعة فيها أنواع الطبقات التى تتركب منها قشرة الكرة الارضية وصخور ومعادن وأحجار كريمة ثم رواق النباتات وفيه تماثيل الفطر والكمأة (بنات الرعد) بالجبس ومجموعة من الفواكه الجافة والفواكه اللحمية والازهار محفوظة فى الكحول ومن النباتات ٢٠,٠٠٠ نوع وأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ عينة وكثير من أصناف النباتات الخضرية

١٠

المدارس والمحلات الخيرية والاعانات

رأيت كثيرا من المدارس ووقفت على بعض أساليب التعليم وأحطت بوسائل التقديم وأرى الآن وجوب الاكتفاء بالكلام على مدرسة النظامات السياسية ومدرسة العميان ومدرسة الخرس عسى أن يكون لشرحى فائدة فى بلادى

أمامدرسة النظامات السياسية (Ecole des chartes) فيتلقى الطلبة فيها كثيرا من الفنون أخصها علم أصول اللغة الرومانية واشتقاقاتها وعلم الكتب وتنظيم خزائنها وعلم السياسة وتاريخ النظامات السياسية والترتيبات الادارية والقضائية فى ديار فرنسا ثم عيون التاريخ الفرنساوى وفن تنظيم أوراق المحفوظات وتاريخ القانون المدنى والكنائسى فى القرون الوسطى وعلم الآثار (الاركيولوجيا) فى القرون الوسطى - وتفتح قاعات الدروس للطلبة من الساعة التاسعة الافرنكية صباحا الى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر بحسب اختلاف الفصول ولا يتجاوز عددهم فى السنة الواحدة ٣٠ تلميذا وينبغى أن يكونوا من الفرنساويين الحائزين شهادة البكالورية فى العلوم البالغين من العمر ٢٥ سنة كاملة بالاقل ويلزم امتحانهم فى الترجمة من والى اللغة اللاتينية من غير استعانة باى معجم أو قاموس وفى تاريخ فرنسا وجغرافيتها قبل أول القرن التاسع عشر ومن يكون منهم عارفا بالالمانية أو الانجليزية أو الاسبانية أو الطليانية يكون له فضل السبق على غيره عند تساوى الدرجات وقد ترتب على احداث هذه المدرسة فوائد جة أؤجل تفصيلها الى الرحلة ان شاء الله

أما مدرسة العميان فنظرا لفوائدها الجمة خصوصا فى قطرنا المصرى يجب علىّ أن أتوسع فى القول عليها قليلا مدخرا الاشباع الى الرحلة

يوجد فى فرنسا ٣٢,٠٠٠ أعمى لهم من المدارس الخاصة بهم نحو ٦٠ مدرسة وأهم هذه المدارس وأكملها مدرسة شبان العميان الاهلية Ecole Nationale des Jeunes aveugles الكائنة فى باريس بدرب الانفاليد وقد كان تاسيسها على يد الفرنساوى فالنتين هاوى فى سنة ١٧٨٤ وهى أول مدرسة ظهرت فى الوجود من هذا القبيل وربما كانت أفضل من كافة المدارس المماثلة لها وأحسنها نظاما وترتيبا وفيها الآن ١٥٥ غلام و ٨٠ فتاة ومدة التدريس عشر سنوات تكون بين سن ١٠ و ٢١ سنة ويتلقون فيها علوما عقلية وفنونا حرفية

فأما التعليم العقلى فهو ابتدائى وعال وقاعدة القراءة والكتابة فيها جارية على الاسلوب الذى ابتدعه الاعمى الفرنساوى برايّ فى سنة ١٨٢٦ وهو عبارة عن رسم الحروف بنقط بارزة لاتزيد عن ستة عن أى حرف

وأما التعليم الحرفى فيشمل الغزل والخراطة وعمل الكراسى

وأشغال الابرة والنسيج والموسيقى والالحان (وهذان الفنان قد بلغا الدرجة القصوى والمكانة العظمى حتى لقد فاق تلميذان وتلميذة من المتخرجين بهذه المدرسة فى امتحانات عمومية على كثيرين من المتمتعين بنور الباصرة)

ومساحة الارض التى تشغلها هذه المدرسة هى ١١٫٨٠٠ متر منها ٣٫٥٠٠ مشغولة بالمبانى وفى فنائها تمثال مؤسسها وهو يحاول تعليم الاعمى وللفتيات قسم منعزل تمام الانعزال عن قسم الفتيان وللاساتذة غرف لسكناهم بالمدرسة فيها كل مايحتاجون اليه وهناك سقيفة كبيرة يتنزه التلامذة تحتها ويتفرغون للعب والرياضات أثناء اشتداد الاهوية ونزول المطر وتغير حالة الجو — أما نظام النهوئة وتدبير التدفئة ففى غاية من الكمال والموافقة فى الغرف والفصول والمكاتب والورش والمأكل والعنابر (الانبار) وفيها بيعة صغيرة للطقوس الدينية وحمامات فيها ٣٠ قسما وفى كل قسم منها جهازات الدوش (صب الماء رشاشا لانعاش كافة الجسد) بحيث يستحم كل تلميذ وتلميذة مرة واحدة فى كل خمسة عشر يوما بالاقل وفى المدرسة ورش للتعمير والتصليح والترميم خاصة بالآلات الموسيقية التى يستعملها التلامذة ولذلك غايتان أولاهما الاقتصاد فلا تتكلف المدرسة نفقة ذلك فى

الخارج والثانية تمرين التلامذة على اصلاح آلاتهم بانفسهم واضافة ماينقصها وتعرف مواقع الخلل فيها حينما يسقط مسمار أو ينقطع وتر وفى المدرسة مطبعة خاصة بها يطبع فيها التلامذة كتبا كثيرة فى فنون الآداب والموسيقى مما يحتاج اليه العميان

وقد رأيت أيضا مكتبة فيها ٢٥٠ مجلد بالنقط البارزة و ١٦٠٠ من الكتب المطبوعة بالكيفية الاعتيادية وهناك واعظ يقوم بالقاء الدروس الدينية وأما التلامذة الذين لايدينون بالمذهب الكاثوليكى بل بمذهب آخر معتبر فى الحكومة فتعليمهم يكون بحسب ديانتهم بعد الاتفاق على ذلك بين المدرسة وبين أهاليهم وشؤن الصحة منوطة بطبيب وحكيم أسنان موظفين فى المدرسة (وعند الاحتياج يستشار حكماء آخرون) وطبيب عيون وجراح ولا يقبل التلامذة الا فيما بين السنة العاشرة والثالثة عشرة وقد خرج منها كثير من النابغين الذين أعلوا قدرها وشرفوا ذكرها بما اكتسبوه من حسن الاحدوثة وما قاموا به من الخدم الجليلة فمنهم برايّ الذى أشرنا اليه قبلا ورود نباخ الذى كان أمينا لاحدى مدائن البلجيكا ونائبا عن الامة فى مجلس النواب البلجيكى من سنة ١٨٣٢ الى يوم وفاته فى سنة ١٨٣٩ وبنجون الذى كان مدرسا للعلوم الرياضية فى مدرسة أنجى الشهيرة وحائزا

لوسام اللجيون دونور من درجة شڤاليه ثم فوكو ذلك الميكانيكى البارع الذى اخترع جهازات كثيرة لتسهيل المكاتبة بين العميان والمبصرين وجوتيية وروسل ولوبل وهم من أساتذة المدرسة قد صنفوا تلاحين موسيقية دينية وعموميـة لها عند العارفين قيمـة عظيمة وغير هؤلاء عدد عظيم يضيق عن سرده المقام ويوجد فى فرنسا الآن أكثر من ٢٠٠ أعمى ينالون ربحا واسعا ورزقا حلالا طيبا من صناعة البيانو بل ان بعضهم يديرون مخازن بيع آلات البيانو أو اصطناعها

وقد تأسست شركة مهمة لاستخدامهم ومعاونتهم والاهتمام بكل مايتعلق بهم حسا ومعنى وبسط لواء حمايتها ورعايتها عليهم فى جميع الاحوال وفى طول حياتهـم ولاتطلب منهـم فى نظير ذلك سوى السـير المحمود والاقبـال على العمـل بقدر ماتسمح لهـم به حالتهم وبلغت ايراداتها فى آخر دسمبر سنة ١٨٩١ ٣٢,٣٣٥ من الفرنكات (نحو ١٢٩٣ جنيه ونصـف تقريبا) ومصروفاتها ٢١,٥٧٩ من الفـرنكات (نحو ٨٦٣ جنيه وربع تقريبا) والباقى فى صـندوقها ١٠٧٥٥ من الفرنكات (أى قـريبا من ٤٣٠ جنيه وربع) وأما رأس مالها فهو عبارة عن ١٨٥٤٩٦ من الفرنكات وقد اتسع نطاقها وكثر عدد المشتركين فيها بالاقساط

والنبرعات حتى بلغ عـددهم ٨٥٠ شخص منهـم ٢٨ من أكابر سيدات فرنسا جُعلت الجمعية تحت حمايتهن و ١٧٨ من السيدات و ١٥٢ من العـذارى و ١١٤ من التلامـذة الموجودين فيها لتلقى الدرس منهم ٤٠ فتاة

وقد تأسست جمعية أخرى باسم ڤالنتين هاوى غايتها تعليم العميان الذين يعلمون وتشغيل العميان الذين لايعلمون ولها ثلاث جرائد خاصة بالعميان الاولى (ڤالنتين هاوى) وهى مجلة عمومية تبحث فى جميع المسائل المتعلقة بالعميان والثانية (لويس براى) وهى جريدة تطبع بالحروف البارزة لكى يقرأها العميان والثالثة (مجلة براى) مثل التى قبلها وتظهـر فى كل يوم أحـد مشحونة بالمسائل الاديبيـة والعلمية والموسيقية ولهذه الجمعية قاعة للخطابة يتباحثون فيها فى كل مايهم العميان وتتبعها أيضا مكتبة متنقلة تعير العميان الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ليقرؤها فى بيوتهم ويستفيدوا منها فى أوقات فراغهم - ومن ملحقاتها المتحف وقد تكلمت عليه بما فيه الكفاية والله ولى المحسنين

أما مدرسة الخرس فلا يدخلها غير الذكور ومدة التعليم ثمان سنوات فيتعلمون فيها زيادة عن المعارف الابتدائية أحـد الفنون الآتية وهى طبع الحجر (مع الكتابة والنقش على الحجر)

ونقش الخشب وطبع الحروف والنجارة واصطناع الاحذية وفن البساتين وأما التعليم الدينى فيقال عنه فيها كما قيل فى مدرسة العميان - والغذاء مرتب بكيفية توافق الصم الخرس ولهم حمامات بجهازات ايدروليكية وحوض للسباحة ومروج واسعة وصحون فسيحة يلعبون فيها الجباز ويتعودون على الرياضات الجسدية وخلاصة القول ان المدرسة تعتنى عناية كلية بتقوية أبدانهم وأمزجتهم وفيها طبيب ومساعدان له وحكيم عيون وجراح عارف بفن الاسنان ومستشفى يقوم بالخدمة فيه ممرضات حائزات للدبلومة وقد شاهدت التعليم حينما يجىء الطفل فيها أول سنة ويترقى شيأ فشيأ بكيفية تدهش العقول فانهم منعوا استعمال الاشارات بالاصابع مرة واحدة ولا يتجاسر أحد من الاساتذة أو التلامذة على ابداء أية اشارة ظاهرة أو خفية وكل التعليم جار فيها (وفى جميع مدارس أوروبا وأمريكا كما علمته) بواسطة النطق بالاصوات ولذلك يجتهدون فى تعليم الاخرس مخارج الحروف بغاية الدقة ونهاية الاعتناء وقد تكلمت مع بعض الخرس فكانوا يجيبوننى بالجواب المناسب غير أننى فى أول الامر رفعت صوتى كثيرا فلم يفهمنى الاخرس مطلقا مع أننى رأيته يفهم ناظر المدرسة كأسرع مايمكن بالنسبة لحالته فتنكرت الامر وحينئذ دعانى

الناظر لان أخفض صوتى (لانى مهما بالغت فى رفعه فان بسمعنى أبدا) وان أكلمه وجها لوجه حتى ينظر حركات شفتى ولسانى فعملت بما رسم وأجابنى الاخرس على الوجه المرغوب ثم انى أمليت على جملة من التلامذة عبارة فرنساوية فكتبوها بالضبط الا واحدمنهم أخطأ فى حرف واحدلتشابه المخارج ثم كتبوا اسمى واسم بلدى على التختة ولم يهملوا الا حرف H المقابل للحاء فى لفظة ﴿ أحمد ﴾ لعدم امكان النطق به فى الفرنساوية وأما الفنون الحرفية والصنائع اليدوية وحرث الارض وغرسها ففى درجة من التقدم يغبطهم عليها أكثر الناطقين بالضاد وبغير الضاد وفى المدرسة متحف جليل يحتوى على جميع الطرق التى تؤدى لتعليم الاخرس ورسوم ونقوش وتصاوير كثيرة من صنع الخرس وقد كان لبعضها فوقان عند العارفين على ماصنعه كثير من الناطقين ويقال ان هذا المتحف لانظير له فى البلاد الاخرى فان الاب دولوبى (وهو أوّل من عنى بتعليمهم) له أكثر من ١٠٠ قطعة تراه فيها مصوّرا فى جميع أحواله وهنالك عدد عظيم من التحف المتنوعة التى برع فى إحداثها كثير من الصم البكم الذين نبغوا فى جميع انحاء العالم ومما ينبغى ذكره بوجه الايجاز ان هذا المتحف يحتوى على رسوم الاماكن التى استقرت بها هذه المدرسة قديما

وحديثا ومناظر تصور هيئة أهم مدارس الخرس فى فرنسا وفى الخارج وصور الاب سيكار ومعلمى الخرس من الفرنساويين والاجانب وكثير من أعاظم العالم الذين لهم دخل فى تاريخ تعليم الخرس من مؤسسى المدارس ونظارها والمحسنين ومشاهير الكتاب ورجال الحكومات وأهل السياسة ثم أعمال الخرس فى جميع العصور وعند جميع الامم من مصورين ونقاشين ونحاتين ورسامين وطباعين وفوتوغرافيين ومهندسين ثم صور كثيرة من مشاهير أرباب الفنون الخرس ثم ميداليات ومسكوكات وكتابات بخط اليد وأشياء نادرة وغير ذلك مما يتعلق بهذه الطائفة

وقد تألفت جمعية لتعضيد الخرس ووافق أنها اثناء اقامتى فى باريس أولت وليمة فاخرة احتفالا بحلول السنة المتممة للمائة وثمانين من يوم ميلاد الاب دولوبى نعم انى لم أحضر هذه الحفلة الغريبة الشائقة ولكنى لاأرى بأسا من افادة القارئ بما علمته عنها من الجرائد وذلك ان المدعوين كانوا كثيرين وكانت الحفلة تحت رياسة الموسيو كوشفر وهو من المهندسين الذين تخرجوا بهذه المدرسة وبعد انقضاء الطعام وقف حضرة الرئيس يخطب فى القوم ..... ببلاغة باهرة مستعينا بالايماء والاشارة فانه ألم أحسن إلمام بذكر حياة الاب دولوبى وسرد مآثره التى

أفاضت الخيرات على جزء عظيم من بنى الانسان ثم شكر الجمهورية الفرنساوية على مساعدتها فى تحسين حال أمثاله ثم ختم مقاله باهداء ميدالية الى أحد النقاشين البارعين من الخرس وقدّمها له باسم وزير التجارة والصناعة ثم تلاه كثير من الخطباء الخرس وكانوا كلهم يفيدون الحاضرين باشارات ظاهرة مفهومة

أما أماكن البر والاحسان واصطناع المعروف واغاثة الملهوف فهى أكثر من أن تعد ولها شؤن كثيرة وفائدة عظمى فمنها ماتساعد الامهات لتمكنهن من ارضاع أطفالهن أو فقراء المعتوهين الناقهين بعد خروجهم من البيمارستانات أو تلتقط اليتامى اناثا او ذكورا وتتكفل بتعليمهم وتربيتهم فى طريق الشرف والاستقامة أوتعاون فقراء الالزاسيين واللورانيين الذين تركوا وطنهم وآثروا الفقر مع بقاء الجنسية الفرنساوية لهم على الدخول تحت أحكام المانيا أو تضم الامهات الفقيرات أو تضيف النساء والرجال الذين لامأوى لهم بالليل أو تتكفل بالفقراء من الرجال أو النساء الى أن يجدوا لهم خدمة يتعيشون منها أو بالنساء الحبالى فقط أو الطاعنين فى السن دون سواهم أو لوصف الادوية أو لتقديم الدواء أوللوالدات بعد الولادة وهن فى دور النقاهة أو للفتيات بعد مرضهن أو لتقديم الاشغال للخيّاطات اللاتى

ليس لهن خدمة أو للتكفل بالابناء حين اشتغال والديهم عنهم بسبب كسب القوت أو لتطبيب الاطفال على العموم أو المصابين بداء مخصوص مثل الخنازيرى والكلب أوالادواء العضالة وغيرها أو لاستخدام العذارى فى مخازن التجارة أو لاستخدام الفعلة والعملة من الجنسين والكتاب والحسّاب وغيرهما أولتعليم الزراعة أولتبنى الاولاد ووضعهم فى مرابى الايتام أولاستخدام اليتامى والاولاد الذين تركهم أهلهم أولمساعدة العائلات أولتعليم الاطفال الفقراء حرفة الصياغة والجواهر والساعات وغير ذلك من الفنون الحرفية أو للاغراب الامريكانيين أوالانجليز أو النمساويين أوالمجريين أو الطليانيين أو البولونيين (اللاهيين) أوالسويسريين أوالبلجيكيين أو جميع الامم أولتقديم الخبز أو لتقديم صنف من الطعام أو لفقراء المرضى أو لتعضيد التكايا أو لقبول المعلمات اللاتى ليس لهن وظيفة يتعيشن منها أو لفقراء الاسرائيليين أو لتقديم الجهازات اللازمة لمن تقطع بعض أعضائهم أو للولادة أولتسهيل الزواج بحسب قواعد الدين واجراء المساعى اللازمة بين الطرفين أو لتسهيل الزواج بالطريقة المدنية من غير توسط القسيس وتقديم كل مايلزم من الصكوك والاوراق مجانا والتكفل باثبات نسب الاولاد وجعلهم شرعيين أو لحماية الجنود البرية

والبحرية الذين أحرزوا نشانات فى وقائع التونكين أو لمساعدة جرحى الجنود (وهذه الجمعية مركبة من النساء) أو للذين كانوا فى سلك الجندية وحازوا وسامات اللجيون دونور أو الذين سبقت لهم الخدمة فى الجيش أو لمساعدة عائلات وأرامل ضباط البرية والبحرية أو عمال الحكومة الذين تشابه وظائفهم وظائف الضباط أو لترتيب معاشات للعسكرية أو لحماية الذين يتطوعون فى الخدمة العسكرية أو لتخديم الشبان الذين يتخرجون ببعض المدارس أو لاقراض عائلات العملة المبالغ اللازمة (من غير فائدة) لاستخلاص الاشياء التى وضعوها فى بنك الرهونات ثم جاء الاجل ولم يتيسر لهم المال المطلوب أو لدفع ايجار مساكن الفقراء أولاعادة الفقراء والمرضى الى أوطانهم أولمساعدة المحتاجين من المشتغلين بحرفة سباق الخيول أو لبذل الاعانة اللازمة فى الحال أولمساعدة الذين يروحون شهداء تأدية الواجب (وقد أرسلت هذه الجمعية فى شهر اكتوبر الماضى ٤٠٠ فرنك لشيخ احدى البلاد ليوصلها لارملة رئيس المحطة وقد دهسه الوابور بينما كان يجتهد فى انقاذ امرأة ارتبكت على الشريط وقد أتى الوابور و ٣٠٠ فرنك لعائلة رجل مستخدم بالدخولية دهسته العربات بينما كان يمانع تهريب بعض الاصناف و ٢٠٠ فرنك لرجل

من بوليس باريس أصابته جراح بليغة بينما كان يحاول توقيف خيول حرونة — وقد وردت لها فى الشهر المذكور وصية من زوجة أحد القضاة بمبلغ ١٥,٠٠٠ فرنك ووصية أخرى قدرها خمسون ألف فرنك من أحد النقاشين وثالثة من احدى العذارى وقدرها ٥٠٠٠ فرنك) وهناك أيضا جمعيات لا تدخل تحت حصر فانى عددت الجمعيات التى وقفت على اسمائها وعنواناتها وبيان أعمالها فاذا هى ٢٤٥ جمعية بعضها له فرعان وخمسة وعشرة بل خمسة وعشرون وبعضها خاص بطائفة من الناس أو بدين مخصوص أو بجنسية واحدة أو بسن معين أو مبنى الانسان على العموم

وفضلا عن ذلك فان الاكتتابات تراها فى كل جرائدهم لاقل حادثة مثال ذلك أننى رأيت اعلانات من دار أمانة القسم الاول من باريس تدعو فيه أهل الخير لمد يد المساعدة اليها لتعاون الفقراء على احتمال البرد وشدائده وتقول فيه انها أنفقت فى السنة الماضية الاعانات التى جمعتها من أرباب اليسار وقدرها ٢٠٠,٠٠٠ فرنك وأنت تعلم ان باريس تحتوى على ٢٠ قسما ولابد انها كلها سارية على هذا المنوال ومثال ذلك انه لما أضرب العمال فى مناجم الفحم الحجرى بكارمو Carmaux عن العمل فتحت جريدة الانترانسيجان اكتتابا اشترك فيه كثير من الناس وكنت أرى

فى أعمدتها ان فلانا وفلانا وفلانا من الفعلة فى كذا تبرعوا بمبلغ فرنك واحد ولكننى ما كنت أستخف بذلك مثل أولئك الذين يحتقرون صغائر الاشياء ولايعلمون انها أس الاجتماع ومنبع العمران ودليلى على ذلك ان الانترانسيجان جمع من هذا الاكتتاب مبلغا يزيد على ١٨,٠٠٠ فرنك ثم ان المجلس البلدى فى باريس أرسل لهؤلاء العملة مبلغ ١٠,٠٠٠ فرنك صفقة واحدة وقد تواردت عليهم الاعانات من جميع الجهات ومن جميع الطوائف ولابد أن القارئ وقف فى الجرائد السياسية على تفاصيل هذه الحادثة الهائلة التى اضطربت لها أساطين السياسة فى فرنسا وشغلت العالم باسره فلذلك لا أرى وجها للخوض فيها فضلا عن أن شرحها يحتاج لوقت طويل ومثال ذلك أيضا الاعانات التى بادر أهل فرنسا على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم بارسالها الى الجرحى من جنودهم فى غزوة داهومای فمن ذلك ما قرأته حينئذ فى الجرائد أن المحفل الماسونى (الزاس ولورين) قد أرسل لهم ٢٠٠ فرنك على يد وكيل وزارة المستعمرات وأرسلت لهم جمعية نساء فرنسا وللجنود التى فى التونكين ٣٧ صندوقا فيها أصناف كثيرة من المأكولات والملبوسات وغير ذلك واقتدت بها طوائف كثيرة فى هذا السعى الحميد ولكن جريدة الفيجارو فاقت الجميع فانها كتبت

فى يوم ٧ نوفبر تستحث أهل البر وخصوصا كبراء التجار على المساعدة فى اكتتاب لجنود داهومای وقالت انها تفتحه فى ثانى يوم وتقفله فى اليوم الثالث وان ذلك يستوجب التعجيل ولم يرد اليوم الثالث وهو ٩ نوفبر حتى كتبت تقول «لقد أجيب نداؤنا باكثر من جميع امالنا فقد اجتمع فى مكتب الفيجارو فى أقل من يومين ٢٢,٠٠٠ زجاجة من نبيذ بوردو والشامپانيا والمياه المعدنية و ٢٥٠٠ علبة من المربيات وأصناف المأكولات المحفوظة و ٢,٩٥٠ قطعة من مربعات الشكولاته و ٢٣,٤٥٠ سجارة افرنكية و ٣,٠٠٠ سجارة مصرية وأكثر من ١٠,٠٠٠ صنف من الاصناف المتنوعة مثل شراب الروم والشارتروز ومثل التابيوكا وغير ذلك مما سبق لنا سرده فى العدد الماضى وكان مبلغ النقود التى وردت لنا ٤٣,٠٠٠ فرنك ونصف (١,٧٢٠ جنيه تقريبا فى يومين اثنين خلاف الاصناف الاخرى) وقد أقفلنا باب الاكتتاب» ثم أوردت بيان الاصناف وأسماء المتبرعين ولا فائدة فى احاطة القراء بذلك فان هذا الاقبال يغنى عن الشرح والبيان وفى مثل ذلك فليتنافس المتنافسون - ومثل ذلك اهتمامهم بعائلات الذين ماتوا فى حادثة انفجار الديناميت فى شارع بونزانفان أثناء اقامتى فى باريس فكان رئيس الجمهورية أوّل من اهتم بشأنها وقد

أرسل مندوبا من قبله ذهب الى منزل كل واحدة من الارامل وأعطاها اعانات من جيب رئيس الجمهورية الخصوصى وأعلمها بانه مشارك لها فى أحزانها ثم توجه الموسيو لوبى رئيس الوزراء حينئذ فزار كل واحدة منهن فى مسكنها وقدم لها مساعداته شخصيا ووعدهن بان الحكومة تتكفل بالارامل وتتعهد بتربية اليتامى ثم جاء محافظ المدينة ووزع عليهن ٧٠٠٠ فرنك ثم تعهدهن مرة ثانية وقدم لهن ما ورد اليه برسمهن من لجنة مصانع الحديد فى فرنسا ولجنة مناجم الفحم الحجرى وقدم لهن أيضا مبالغ جمعت فى احدى الولائم وقد علمت ان مقدار ما أرسلته لجنة مناجم الفحم ٥٫٠٠٠ فرنك ووردت المساعدات من جميع أنحاء فرنسا بما يضيق عنه المقام ثم تقرر ترتيب معاش لعائلات المصابين الذين كانوا فى خدمة الحكومة يكون نصفه من ميزانية الحكومة والنصف الآخر من ميزانية مدينة باريس وكان فيهم رجل من خدامى القومبانية (التى قصد أصحاب الديناميت تدميرها) فلذلك تقرر صرف المعاش لارملته وأولاده باحتساب النصف على الحكومة والنصف الآخر على القومبانية المذكورة وهى قومبانية معادن الفحم الحجرى فى كارمو — وخلاصة القول ان تفننهم فى وسائل الاعانة واقبالهم عليها أمر

يستغرق شرحه مجلدات ضافية الذيول يدل على ذلك ما قدره أهل المعرفة من ان مبلغ الاعانات التى يبذلها أفراد الناس فى باريس على حدتهم يزيد على ٢٥ مليونا من الفرنكات فى كل سنة (انظر جريدة الطان عدد ١١٥٤٨ من هذه السنة) ومع كل هذا الاجتهاد فلا يزال بعض الناس يموتون فيها جوعا وان كانت النسبة أقل بكثير مما فى لوندرة فقد رأيت فى العدد ٣٧٠٠ من جريدة الغولوا جملة طويلة على الفاقة والخلو من العمل فى باريس اقتطف منها بعض شذرات جديرة بالاعتبار

قالت انه بحسب البيانات الرسمية والاستعلامات المؤكدة التى استحصلت عليها يتضح أن عدد العملة الذين منعتهم شدة الشتاء ووقوف حركة الاشغال من كسب القوت يقرب من خمسين ألفا وان طلبات الاعانة قد تواردت على مكاتب الاحسان العام بمقادير جسيمة أزيد من المعتاد وان هذه المكاتب تمد ساعد المساعدة لنحو ٩٢ أو ٩٣ ألفا من المحتاجين وانها تقوم بمعالجة نحو ٩٠ ألف مريض و ١٩ ألف والدة فى منازلهم وان عدد الملهوفين بحسب التعديل المتوسط سيزيد فى هذا العام زيادة تذكر — أما الملاجئ الليلية التى يلوذ بها الفقراء عديمو السكن فقد بلغ عدد الوارد على أحدها فى كل يوم بالمتوسط ٢٠٠

رجل مع انه لايسع الا ١٥٠ وكان عدد النساء أكثر بكثير مما قدر لهن فان الوارد منهن فى اليوم الواحد بالمتوسط نحو ٥٠ مع انه لايسع الا ١٥ وان استمر الشتاء على شدته وكلبه كما هو المنظور يزداد عددهن أكثر من ذلك وقد بلغ عدد النساء والاطفال الذين لجؤا اليه فى العام الماضى ٣,٦١٧ مضوا به ٩٦٥٧ ليلة وفى جملتهن الخدامات والمعلمات والابكار والارامل وامثالهن وغير ذلك والمقرر فى هذا الملجا اعطاء الرجال كسرة من الخبز فى الليل وورقة للخباز لاخذ رغيف وقليل من المرق بالنهار وأما النساء فلهن الخبز والمرق فى نفس الملجا نعم ان هذه الكسرة وهذا القليل من المرق أمر زهيد جدا لايعتدّ به ولكنه فى الجملة تصل قيمته الى ٢٥ ألف فرنك هذا فضلا عن كون بعض معامل الصناعة فى باريس تعهد بتقديم ٥,٠٠٠ كيلو من الخبز فى كل شتاء الى هذا الملجا احتسابا لوجه الله تعالى ومعاونة له على أعماله الخيرية وهذا الملجأ يوزع على أضيافه فى كل عام من ٢٠ الى ٢٤ ألف كسوة وقميص وجوراب وصدار وفستان وحذاء وغير ذلك وانى لاأرى بعد ذلك كله حاجة للشرح والبيان بل أحمد الله على حالة بلادنا وأهلها

١١

التياترات والملاهى والمتنزهات

أصبح التشخيص فى باريس من الكماليات الحاجية التى لاغنى لاهلها عنها حتى ان الرجل ليقتصد من مصرفه الضرورى لتمضية الليلة فى أحد التياترات وكثيرا ماتتكبد بعض العائلات نفقة باهظة جدا لقصر احدى المقصورات بواسطة الاشتراك (وخصوصا مقصورات الاوبرا) ليقال عنها ان لها مكانا معينا فى هذا التياتر و أو فى ذلك المرسح ولذلك لاينـدران يحلّ موسم افتتاح التياترات الكبيرة وليس فيها محل خال للايجار والاعظم من ذلك ان الاوبرا يؤجر أماكنه بالسنة شهور بل بالسنة الكاملة ويخيل لى ان أغلب نساء هذه العائلات انما يحضرن هذه الملاهى لعرض ملابسهن وابداعهن فى زخرفتها وزركشتها ولاستجلاب العيون والعوينات نحوهن لالقصد سماع الاغانى والالحان أو شهود التشخيص والتمثيل اذ أنهن يكنّ غالبا فى اثناء ذلك مشتغلات باصلاح الفستان وهندمة دوائره ومستديراته وتعديل الصدار وتنميق الوشاح والمخايلة بالمراوح ذات الالوان التى تأخذ بالابصار وتراهنّ عندمايستقربهنّ المجلس يتدثّن بعد هذه الهندمات الضرورية لهن باستعمال النظارات المقربة

المكبرة المجسمة لمراقبة بعضهن بعضا واستيقاف رائد الطرف نحو التى تجلت فى جلباب الظرف وفاقت بحسن الشكل وبرعت بجمال المنظر ثم يرسلن اللحاظ الفاترة فى بعض الفترات لرؤية الرجال وهم يرمقونهن على الدوام حتى اذا جاءت ساعة التشخيص التفت هؤلاء اليه وأقبل أولئك على شؤنهن الاولى من اصلاح الملابس والاتقان فى التبرج والاغراب فى البهرجة مع توالى النظر فى المرايا أو المسامرة مع بعضهن ومبادلة أفكارهن فيما يتعلق بهن

تلك ياصاح حالة التياترات على العموم والاوبرا على الخصوص وصفتها كما رأيتها مقتديا بعمرو بن العاص ذلك الصحابى الجليل الذى مع قرب عهده بالبداوة لم يتحاش من قول الحق فى رسالته المشهورة التى بعث بها الى امام المسلمين وأمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأرضاهما حيث قال فى عرض وصفه لمصر وأهلها (ونساؤها طرب) ولم يؤاخذه الخليفة الراشد المشهور بالصرامة والجد والصلابة فى الحق الى آخر حد

وقد اقتديت أيضا بطارق بن زياد فاتح الاندلس فانه قد وصف نساءها حينما خطب فى قومه يحرضهم على قتال رذريق ملك الاندلس وأطنب فى ذكر محاسنهن وجمالهن وغير ذلك مما

تراه فى خطبته التى أوردها صاحب نفح الطيب وجميع مؤرخى الاندلس وقد ترجمت الى أغلب اللغات الافرنجية

وقد نحوت أيضا نحو ذلك الرحلة المشهور بابن جبير فانه وصف نساء الافرنج فى صقلية وصفا مدققا كما يعلمه من له اطلاع على كتابه المطبوع المتداول وذلك لان وظيفة السائح تقرير الحقائق كما هى وذكر الوقائع كما حصلت

وفى أول ليلة توجهت الى الاوبرا ورأيت مقصورات الطرف فى مقاصيرهن كأنهن كواكب السماء قد انتشرت أو أزهار البهاء قد انتثرت حدثتنى النفس بان أصعد بعد تشخيص الفصل الاول الى بهو الاستراحة البهيج لالأسترق السمع ولكن لأسترق البصر فرأيتهن كلهن يصدق عليهن قول كعب بن زهير فى قصيدته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة * لايشتكى قصر منها ولاطول

ومعلوم ان خاتم الانبياء الذى بعث لتتميم مكارم الاخلاق أعجب بهذه القصيدة اعجابا لامزيد عليه ولم يعب على قائلها وجود مثل هذا البيت فيها بل نظر الى مجموعها وما اشتملت عليه من الحكم الباهرات حتى انه لم يكتف بحقن دم الشاعر بعد أن كان

أهدره بل خلع عليه بردته الشريفة ولاعجب اذا حق للغريب المتلصص فى هذه الحال أن ينشد قول من قال

وانك ان أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولاعن بعضه أنت صابر

والذى جرأنى على الاتيان بهذا الوصف القليل هو ماجريت عليه من الاحاطة ببعض أحوال باريس وان لكل مقام مقالا فان من أراد أن يلم بشئ على التياترات فى هذه البلاد لايجوز له أن يضرب صفحا عن ذكر النساء فيها لانهن حياتها و روحها ولولاهن لما كان لها ذكر ولا قامت لها قائمة بل ان الرجل ليعتبر نفسه من أسعد السعداء اذا أصبح ورأى فى الجرائد ان زوجته أو أخته أو ابنته أومن تنسب اليه هى التى كانت محط الانظار ومحل الاعجاب والاستحسان فهذه هى عاداتهم وهذه هى أخلاقهم يشاركهم فيها عامة الاوربا وبين تقريباولم أو مندوحة عن الالماع اليها

أما التياترات فى حد نفسها فاهمها الاوبرا وقد كان الاحتفال بافتتاحه فى ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ بعد أن استمرت العمارة فيه مدة ١٥ سنة و بلغت نفقاته ٦٥ مليونا من الفرنكات و بهو المتفرجين يسع ٣٫٢٠٠ شخص أما مافيه من المبانى

الجسيمة الفاخرة والرسوم البـاهية الباهرة والصور الجليلة الجميـلة والتماثيل المتقنة المحكمة والنقوش المزخرفـة والسـلالم والقباب والثريات وغير ذلك من الامتعة الغالية العالية فذلك بمقدار مبلغ النفقات وفى ذلك مايغنى عن الافاضة

و يجىء بعده التياترو الفرنساوى أو الكوميدية الفرنساوية وقد كان تشييده فى سنة ١٧٨٢ ويحتوى على كثير من آثار الفنون المستظرفة ويعتبره الفرنساوية فخرا قائما لهـم وان الروايات التى تشخص به مسبوكة فى أحسن قالب وأكمل ذوق ولكن الرواية التى شـهدتها لاتشهد بذلك وان كان مؤلفها من أكبر أكابرهم وهو ابن الكساندر دوماس ومن أعضاء الاكاديمية الفرنساوية فانها عبارة عن امرأة تحققت خيانة زوجها لها فاستعملت كل الوسائل فى ارجاعه عن جهله ولم تنجح فاضطرت ذات ليلة لاقتفاء أثره فى الباللوتم فى المواخير وقلدته فى جميع أعماله ثم أخبرته بذلك بتفصيل وتدقيق أثبتت له حضورها فى المكان الذى كان فيه متخذة لها صاحبا حيثما اتفق من الشبان الى غير ذلك مما لايساعدنى القلم على كتابتـه وان كانت فى آخر الامر أثبتت براءتها بقولها عن الشاب المذكور (لقد كذب) فانها طلبت من زوجها أن يستعلم منه بطريقة خفية فأخبره بمايؤكد

الظن والريبة وانى أدع الآن تفصيل أفكارى فى هذا الموضوع الى الرحلة وانما أقول ان أغلب الروايات التى تشخص فى فرنسا بل وفى أوروبا يكاد يكون الغرض منها تعليم النساء الحيل والمكايد مع انهن بنات بجدتها وسأقيم البراهين على ذلك بتلخيص بعض الروايات التى يزدحم عليها القوم ولا ازدحام الجياع على القصاع

وكذلك أقول عن جميع التياترات التى زرتها ماعدا الاوبرا فى قليل من الاحيان وتياترو الشاتليه غالبا فانه مخصص للقطع التاريخية ومما يستحق الذكر فى هذا التياترو الاخير أن عدد الراقصات فيه يبلغ ٢٠٠ عدا المشخصات والمشخصين

واعلم أنه يوجد فى بعض التياترات نظارات موضوعة فى ظهور الكراسى بكيفية ميكانيكية لطيفة بحيث ان غطاءها ينفتح بمجرد وضع نصف فرنك فى فتحة فيها وبعد تمام التشخيص يعيدها المتفرج لمكانها

ومن أغرب مايتعلق بالتياترات تلك الآلة الكهربائية المسماة بالتياتروفون (أى سماعة التياترو) وبيان ذلك أن لاغلب الجرائد المهمة قاعات فسيحة يسمونها قاعة التلغرافات ولكنها أشبه شئ بمعرض للصور والرسوم وبعض المصنوعات الدقيقة اللطيفة وغير ذلك من مستظرف الآلات ومستحدث البدع فتوجهت

الى كثير منها و رأيت فيها شيأ شبيها بالتلفون وفيه فوهة مخصوصة يضع الانسان فيها نصف فرنك أوفرنكا بحسب المدة التى يريدها ثم يضع السماعات على أذنيه فيسمع التشخيص بغاية الوضاحة كأنه حاضر فى أحسن محل بالتياترو و يسمع الغناء بصوت صريح ويقف على جميع الاقوال التى يتبادلها المشخصون أثناء التمثيل مما قد لايسمعه اذا كان جالسا فى الصف الخامس من المتفرجين ولكن هذه الآلة لاتمكن المستمع بها من سماع التصفيق أو الموسيقى أوغير ذلك مما لايتعلق بالتشخيص مباشرة لانها مدبرة بحيث تنقل كل صوت يقع فى نفس المرسح الذى يقف عليه المشخصون دون سواه وقد حضرت بهذه الكيفية قطعا كثيرة من بعض الروايات التى أعرفها اذ كنت كل ليلة أتوجه الى قاعة التلغرافات فى جريدة غير قاعة جريدة الامس

أما قهاوى المغانى وأماكن الرقص وما يشابهها مما يدخل فى هذا الموضوع فهى أكثر من أن يتصوّرها الانسان وكلها فى كل ليلة تكون غاصة بالجماهير المجهرة والعوالم المتقاطرة

أما المنتزهات والمسابقات على الخيول والعربات والاقدام والمحمولات المفردة والثنائيه والثلاثية (السيكلات والبيسكل والتريسكل) وقبقاب الزحلقة على الثلج الطبيعى والصناعى والسباحة

والملاحة والصيد والقنص والرماية ومرائى العالم (صندوق الدنيا أو البانوراما) فقد تفننوا وتنمقوا فيها الى درجة قاصية حتى ان جرائدهم تخصص لذلك كله أعمدة طويلة فى كل يوم بل ان لكل نوع منها جريدة أو أكثر خاصة به ومنتدى (كلوب) يجمع أهله — وكثيرا ما تكون مسابقاتهم على الاقدام أو العجيلات المفردة من مدينة الى مدينة أخرى بعيدتين عن بعضهما بمسافات كبيرة وقد يشاركهم كثير من النساء فى هذه المسابقات ويفزن فى غالب الاحوال بقصب السبق فى هذه المضامير المتنوعة المتعددة

ومن شدة غرامهم بالزحلقة على الثلج أحدثوا فى الصيف الماضى قبل رجوعى الى باريس بقليل مكانا سموه (القطب الشمالى) وأحضروا له من آلات التبريد والتثليج (مثل الآلات المعروفة فى مصر المعدة لاصطناع الثلج) ما فيه الكفاية لتجميد الماء وايجاد الثلج الصناعى بكمية وافرة وحجم سميك يمكن المولعين بهذا النوع من الرياضة من قضاء ما ربهم فى غير فصل الشتاء وقد نال هذا المحل اقبالا عظيما جدا مع ارتفاع أثمان الدخول وتأجير القبقاب وتناول المشروبات وغير ذلك وهذا أكبر دليل على أن القوم لم يقدروا على كتمان اشتياقهم لهذه المسابقة الى أن يحل أوانها حتى انى لم أر بدّا من زيارته فى بعض الليالى حبا للاستطلاع

والوقوف على حركته وكيفيـة ادارته فتوجهت أوّلا الى الحمام التركى (وهو على طرز الحمامات العموميـة فى مصر لا يفترق عنها الا بفـرط نظافته ووجود المرشات الباردة وبركة السباحـة وكمال المعدات) وقد رأيت فى جملة المكبسين الافرنج الذين به رجلا من الاسكندرين اسمـه حسن قد فارق ديار مصر مـع عائلة أمريكانية منذ ١٨ سنة ثم انفصل من هذه العائلة واستقر فى باريس يكسب قوته بكده وسعيه وبعد الحمام انتقلت الى القطب الشمالى فاذا هو مكان فسيح جـدا فيه صور ورسوم تصوّر هيئة القطب الشمالى وثلوجه ونباتاته وسحبه وكواكبه وغير ذلك ورأيت الآلات وكيفية ادارتها ووقفت على سير هذه المصلحة المستجدة بالتفصيل وعرفت أسرارها مما سأخلده بالبيان الشافى فى الرحلة ان شاء الله وقـد هـزنى الشوق الى مجاراتهم ووطء الثلج بتلك الاقدام المصرية التى لم يتح لها قط فرصـة مثل هذه فى وادى النيل السعيد فاتخذت أستاذا يسندنى وكنت أحس بالبرد فى أقدامى والخجـل فى نفسى من رؤية الغلمان والفتيان والبنات والعذارى يتسابقون كالريح الهبوب ويرقصون على هـذه المرآة الصقيلة رقصا موزونا مع نغمات الموسيقى وايقاعاتها ومنهم من كان يرسم دوائر كبيرة ثم صغيرة فأصغر وهكذا حتى يصل الى نقطة المركز

ومنهم من ..... كان يقع على قطبه الجنوبى .... فى هذا القطب الشمالى .... وأنا فى خلال ذلك أنقل رجلا بعد أن أتحقق من ثبات الاخرى مع التوثق من استنادى على أستاذى كأنى طفل قد ابتدأ فى التخطى أو فيل جسيم يسير بكل تؤدة على حافة هاوية عميقة أو على شفا جرف هار وفى أثناء ذلك أخبرنى الاستاذ بان جماعة من الافرنج عزموا على ايجاد محل نظير القطب الشمالى فى مصر القاهرة بدلا من المكان المصفح بالقار والاسفلت المعروف باسم (كيروسكيتنج رنك) فقلت فى نفسى لقد صدق من قال ان هؤلاء القوم لايمتنع عليهم شئ من مستصعبات الطبيعة (لان عقلهم فى كفهم)

١٢

التماثيل والميادين والزهريات المربعة (الاسكوير) والارصفة والقناطر

تجلت مدينة باريس مثل أكثر المدائن الاورباوية بتماثيل كثيرة لاعظم رجالها ولاأذكر الآن مافى داخل القصور والنظارات والمصالح العمومية الاميرية وديار البلدية والمتاحف وغرف الجمعيات العلمية والصناعية والتجارية وغير ذلك من دور العامة والخاصة وانما أذكر مارأيته فى بعض الشوارع والميادين فمن ذلك تمثال الجمهورية وتحت أقدامها غضنفر يحمى كأس الانتخابات العمومية

وعلى قاعدة التمثال رسوم بارزة تمثل أهم أعمال الجمهورية الاولى والثانية والثالثة فى فرنسا وتماثيل الحرية والمساواة والاخاء وارتفاع هذا الاثر ٢١ مترا ثم تمثال الملك هنرى الرابع وتاريخه مشهور خصوصا فى توددّه للامة وتقربه من الاهالى حتى انه حينما كان غائبا عن باريس وتمرد عليه أهلها ورفعوا لواء العصيان لبعض أمور دينية رجع اليهم وحاصرهم وضيق عليهم الحصار ولما علم بشدّة الضنك الذى صاروا اليه أخذ يرسل اليهم الخبز من فوق الاسوار مع استمراره على الحصار وكان يقول انى لاأريد أن أتملكهم بالجوع فذلك مما تأباه الشهامة والفروسية (١) ثم تمثال

---

(١) الابلغ من ذلك فى الشهامة والكرامة والمروءة والانسانية ماسبق اليه العرب أهل النخوة والنجدة قبل هذا الملك الفرنساوى بسنين وقرون فقد روى ثقات المؤرخين عن قبليتى الاوس والخزرج (الانصار فيما بعد) وهم أعز الناس أنفسا وأشرفهم هممالم يؤدوا اتاوة قط الى أحد من الملوك أن تبعا الاكبر المعروف بابى كرب كاتبهم يستدعيهم الى طاعته ويتوعدهم ان لم يفعلوا أن يغزوهم فكتبوا اليه

العبد تبعكم بريد قتالنا ❊ ومكانه بالمنزل المتذلل
انا اناس لاينام بأرضنا ❊ عض الرسول ببظر أم المرسل

فغزاهم أبو كرب فكانوا يحاربونه بالنهار ويقرونه بالليل فقال أبو كرب مارأيت قوما أكرم من هؤلاء يحاربونا بالنهار ويخرجون لنا العشاء بالليل ارتحلوا عنهم (انظر صحيفة ٥٥ من الجزء الثانى من العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة بولاق سنة ١٢٩٣

وأبلغ من هذا وذاك ماوقع من رجل وحده لكتيبة تحاربه فقد جاء فى الانباء

الجمهورية أمام قصر جمعية المعارف وتمثال الفتاة جان دارك المشهورة باخراج الانكليز من فرنسا وتمثال لويز الرابع عشر ملك فرنسا المشهور وتمثالين لفولتير وتمثال لكلود برنار وآخر لدانتي الشاعر الطلياني المخلد الذكر ولويز بلان الكاتب الطائر الصيت خصوصا بتواريخه على ثورات فرنسا وشارلمان الملك وديدرو من أكبر فلاسفتهم ورأس المؤلفين للموسوعات الفرنساوية وبيرانجية صاحب التلاحين والاغاني التي يكاد يحفظها كل فرد منهم والكساندر دوماس صاحب الروايات العديدة المترجم بعضها الى اللغة العربية وجان جاك روسو ذلك الفيلسوف العظيم الذي كان له يد طولى في

الصادقة ان تبعا الاخير وهو أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري خرج من اليمن يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل فر بالمدينة وخلف بها ابنه ثم ذهب الى الشام فالعراق وهناك بلغه قتل ابنه غيلة بالمدينة فكر راجعا وقد أقسم بخراب المدينة وقطع نخلها واستئصال أهلها وسبي الذرية ثم أرسل الى أشراف المدينة وفيهم أُحَيحة بن الجُلاح (والاحيحة في اللغة الغيظ وحزازة الغم والجُلاح السيل الجراف) فلما تقابل الجماعة مع الملك لم يفطن أحد منهم لما اضمره السيئة نحوهم سوى أحيحة فذهب وتحصن في حصن له وأرسل الملك بالليل فقتل القوم كلهم وجرد كتيبة من خيله لطلبه فحاصروه ثلاثا فكان يقاتلهم فيرميهم بالنبل والحجارة نهارا ويرميهم بالتمر ليلا فلما مضت الثلاث رجعوا الى تبع فقالوا له تبعنا الى رجل يقاتلنا بالنهار ويضيفنا بالليل فتركه وأمرهم أن يحرقوا نخله

(انظر حديث الرجل في صحيفة ١١٩ من الجزء الثالث عشر من كتاب الاغاني المطبوع في بولاق سنة ١٢٨٥ وفي صحيفة ٢٣ من الجزء الثاني من خزانة الادب البغدادي المطبوعة في بولاق سنة ١٢٩٩

تثقيف عقول الامة وتنوير الاذهان وشاكسبير شاعر الانكليز وفيلسوفهم صاحب رواية كيلوبطرة ملكة مصر وقد بلغ فيها نهاية الاجادة ولامرتين ذلك الشاعر المفلق والكاتب المجيد وكثيرا ما كتب على المشرق ومصر والدولة العلية خصوصا كتابات تسحر العقول وتخلب الالباب وقد تولى رياسة الجمهورية وتمثال دانتون المشهور الذى حرك ساكن الوطنية فى قلوب قومه بخطبه الرنانة ومقالاته المأثورة ومن أهم كلماته قوله (لكى نقهر عدو الوطن يلزمنا الاقدام ثم الاقدام وعلى الدوام الاقدام) وهى بلغتهم فى نهايات الفصاحة مع بساطة الشكل كالسهل الممتنع عندنا وتمثال الاب دولوبى (ذى الحسام) وهو أول من عنى بتعليم الخرس وقد سبق لنا ذكره ثم تمثال الرياضى المحقق والطبيعى المدقق العلامة پاسكال وقد أشرنا اليه فيما سبق وهنالك تماثيل كثيرة لعظمائهم يضيق عن سردها المقام والذى يستحق التخصيص الآن هو تمثال رجل كان چاويشا فى غزوة التونكين واسمه الچاويش بوبيللو وليس فى فرنسا كلها تمثال لصف ضابط سواه وسبب عناية القوم به لهذه الدرجة واكتتابهم فى جميع أطراف فرنسا لجمع المال اللازم لتشييد هذا الاثر أن الجنود الفرنساوية حاصرهم أهل التونكين فى غابة كثيفة وأوشكوا

على إبادتهم عن آخرهم لولا وجود هذا الرجل فانه تعرض لهم وفدى قومه بنفسه اذ شاغل التونكينيين بثبات جاش وجراءة حتى تيسر لقومه وجود مخرج من هذه الورطة وقد قتل الرجل فى هذه الواقعة بعد أن أبلى فى أعدائه بلاء حسنا وبهذه المناسبة أذكر مارأيته فى تورينو والشئ بالشئ يذكر رأيت فى أحسن ميادينها تمثال رجل من افراد العساكر (نفر) لم يحرز أدنى رتبة فتعجبت من هذه الحفاوة به واستفهمت عن السبب فقيل لى انه أنقذ المدينة بأسرها من أعدائها وفدى بلاده بنفسه وذلك أنه لما كانت الحرب بين النمساويين والطليانيين اتفق أن أهل أوستريا فازوا على أهل تورينو وألزموا جنودهم الفرار واحتلوا قلعتهم فلكى ينتقم هذا الجندى من أعدائه ويأخذ بثار وطنه اختبأ فى مخزن البارود (الجبخانة) ثم أولع فيه النار فطارت القلعة بمن فيها وهلك هو وجميع الجنود النمساويين وقد كانوا اعتقلوا بها وكان الرجل أول من مات ولكنه أنقذ حياة بنى وطنه أجمعين

أما الميادين فى باريس فكلها فى غاية الجمال ونهاية النظافة تحف بها المبانى الخطيرة والقصور الجسيمة ويبلغ عددها نحو الستين ولكنى بالمقابلة وحفظ النسبة أقول ان الميادين العمومية فى فلورانسة أكثر منها فى باريس وقد رأيت أيضا كثيرا من

الزهريات المربعة (واسمها بالافرنجية سكوير لفظ انكليزى لانها من خصوصيات المدائن الانكليزية) ولها فى مصر نظائر مثل التى فى رحبة عابدين والعتبة الخضراء وميدان الاوبرا وغير ذلك وكلها مزدانة بالتماثيل والفساقى والازهار والشجيرات الغريبة والاعشاب النضيرة وهى محط العناية التامة من ديوان البلدية لانها تساعد مثل الميادين على اصلاح الهواء وترويح النفوس وعددها ٢٥ زهرية

أما الارصفة والقناطر التى على نهر السين فهى من أهم المنتزهات وجميع الارصفة مبنية بحجر الدستور ولها برازيق ودرابزونات عليها كثير من صناديق الخشب هى مخازن لبائعى الكتب القديمة ومتسوقى كتب (اللقطة) ولقد استغرقت منى هذه الارصفة ساعات طويلة فى أغلب أيامى واشتريت منها كتبا كثيرة باثمان زهيدة وعدد الارصفة ٣٦ وأغلبها عليه أشجار ظليلة وأما القناطر فعدتها ٢٨ ومنها ماهو مبنى بالحجر ومنها ماهو مركب من الحديد وعلى بعضها تماثيل فوق سطحها أو على أساطينها ومن المعلوم ان نهر السين يخترق باريس كهيئة قوس يبلغ طوله ١٢٫٠٠٠ مترا إلا قليلا فتكون المسافة المتوسطة بين كل قنطرة والثانية نحو ٤٦٧ مترا تقريبا وأحسن وقت لرؤية هذه القناطر

هو الليل اذ تكون مضاءة هى والارصفة بالمصابيح المختلفة الالوان وترسل النور على صفحات النهر فتكون كذهب الاصيل على لجين الماء

١٣

المطبعة الاهلية وبنك فرانسا وبنك الرهونات

لايمكن زيارة هذه المطبعة الا فى يوم الخميس الساعة ٦ بعد الظهر بالضبط بعد الاستحصال على تذكرة خصوصية من المدير واذا حضر الزائر بعد الميقات المحدد لايجوز له الدخول وقد طفتها ورأيت أعمالها الجسيمة وعمالها العديدين الذين يزيدون على ١,٢٠٠ ذكورا واناثا يقومون بكافة ماتستلزمه صناعات الكتب من سبك الحروف الى تجليد الكتب ونقش الفوتوغرافيه والرسوم على الاحجار وفى المطبعة ٢٨٨ نوع من الحروف منها ١٥٣ خاصة باللغات الاجنبية وبواسطتها يتيسر لها طبع كتب بثمانية وخمسين لسانا شرقيا وقد ظهر فيها من الكتب والرسائل العربية أصلا وترجمة مايكاد يكون مجهولا فى بلادنا وفى فنائها تمثال لجوتنبرج مخترع الطبع

أما بنك فرنسا فيكاد يضارع مثيله فى انكلترة ولقراطيسه ثقة عامة فى جميع أنحاء المسكونة وقد تزيد قيمتها فى بلاد كثيرة

من أوروبا وأمريكا ومن أهم مايستوقف الانظار به بهو الذهب وهو عبارة عن قاعة طويلة مزخرفة بنقوش مذهبة وأخشاب مصنوعة باتقان واجادة وقد كانت بالقصر الذى هو فيه الآن أيام كان سكنا لبعض أفراد العائلة الملوكية فابقاها البنك على حالها بل أجرى فيها ترميمات تزيد نفقتها عن المليونين من الفرنكات وهى معدة لاجتماع المساهمين فى بعض أيام من السنة فقط

أما بنك الرهونات فتعريب اسمه الفرنساوى هو (جبل التقوى) وله فروع ونظائر فى جميع أقطار الارض وفى اسمه العربى دلالة كافية على مايتعاطاه من الاعمال وفى كل سنة يباشر جرادا عموميا على الامتعة والجواهر والسندات والقراطيس المالية المرهونة فيه منذ سنوات عديدة وفى هذه السنة حصلت هذه العملية المهمة ومن جملة الغرائب التى تدوّنت فى قائمة الجرد ستارة مضى عليها فيه اثنتان وعشرون سنة وصاحبها يجدد الرهن فى كل سنة وهذا الامر ليس فى شئ من الغرابة بجانب مطرية مرهونة فيه منذ سنة ١٨٤٩ على مبلغ ٦ فرنكات وقد أربت فوائد هذا المبلغ على ثلاثين فرنكا فتأمل

١٤

الاسواق والمطاعم ومعارض الصناعة والزراعة ونحو ذلك

أسواق المؤنة المركزية فى هذه المدينة تشغل مسطحا من الارض قدره ٧٠,٠٠٠ متر مربع وقد كان وضع أول حجر منها فى سنة ١٨٥١ وهى عبارة عن كشكات من الحديد ليس الا يعلوها سطح من التوتيا وتحتها سراديب فيها مخازن وسكة حديدية ستتصل عما قليل بسكة حزام العاصمة وفى كل كشك ٥٢٠ دكان وعدد الكشكات الموجودة الآن ١٠ وقد قدروا نفقات هذا العمل الجسيم بستين مليونا من الفرنكات واستخدموا الكهرباء فى اضاءتها بالليل منذ سنة ١٨٩١ ويوجد فى جميع أقسام باريس أسواق مؤنة ثانوية منظمة على نسق الاسواق المركزية وأحسن وقت لزيارتها ورؤية حركتها هو وقت التموّن أى فى بكرة النهار قبل طلوع الشمس وضف الى ذلك أسواق الأزهار وهى تزيد على الخمسة وأسواق الاطيار وسوق الكلاب وسوق الجلود وسوق الخيول وسوق العلف وسوق البهائم (وله اتصال بالمذابح) وسوق التمبل (الهيكل) وهو فى يد قومبانية ومسطحه ١٤١١٠ متر وفيه ٢٤٠٠ دكان تباع فيها جميع الاصناف

أما المطاعم المعروفة باللوكاندات فهى كثيرة جدا ومنها

مايكون الاكل فيه بثمن محدود أو بحسب قيمة كل صنف على حدته ومنها ماقد تبلغ الغدوة والعشوة فيه ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة فرنك ومنها مالا تتجاوز الاكلة فيه ثلاث فرنكات أواثنين بل أقل من ذلك وأغلبها مزخرفة مضاءة بالكهرباء وفى كثير منها خلايات منعزلة خصوصية ومنها ماهو مخصص لصنف واحد من المأكولات و بعضها يكون مفتوحا طول الليل وغير ذلك وأغلب القهاوى ومشارب الجعة (البيراريات) والخمارات تقدم الزاد لمن أراد

والذى ينبغى ذكره بنوع التخصيص فى هذا الباب هو مطاعم دوفال فقد بلغنى أن هذا الرجل كان قصابا (جزارا) ثم كانت تتأخر عنده اللحوم فيبيعها بأبخس الاثمان أولا يجد لتصريفها من سبيل فخطر على باله أن يتخذ مطعما يشوى فيه هذه اللحوم و يبيعها بثمن بخس للآكلين فشرع فى العمل وأقبل عليه الدهر فتوسع فى هذا الموضوع حتى صارت مطاعمه مقصودة من العامة والخاصة يتقاطر عليها الاكابر والاصاغر وذلك لبخس الاثمان وزيادة العناية وجودة المأكولات مع زخرفة الاماكن واضاءتها بالكهرباء وادارة هذه المطاعم الآن فى يد قومبانية من المساهمين وقد بلغ عددها فى أول يناير سنة ١٨٩٢ ٢٦ خلاف فندقين كبيرين وخلاف المخازن العمومية ومعمل الفطير والمغسل ومخازن الانبذة وعددها أربعة منها واحد فى بوردو وخلاف دكاكين الجزارة فى ثلاثة شوارع واذا توجه

الانسان الى مطعم من هذه المطاعم فى وقت الظهر أو بعد المغرب رأى منظرا غريبا اذ يرى كتائب الخادمين مسرعين مهرولين وجيوش الآكلين متشدقين ماضغين بالعين مع المواظبة على الشراب الحلال والحرام والداخلين أكثر من الخارجين ويكون المكان بهذه الخلائق المتموّجة أشبه بأحد شوارع لوندرة وعلى ذكر لوندرة أقول اننى أتعجب كل العجب من عدم مجىء هذه الفكرة لرجل من أبناء بريطانيا العظمى فانها أشبه بما صنعه كوك وهو يتلى وغيرهما والاغرب من ذلك أنه لم يقم للآن رجل من الانكليز بعمل يضارع هذه المطاعم فى «موسوعات الدنيا» بل قد نسجت قومبانية باريسية أخرى على منوال دوفال وأنشأت أربعة مطاعم وفندقا بقهوة ومطعم فى أهم شوارع باريس ودروبها وهى وان كانت فى درجة من الرفاهية وحسن الحال لكنها لا تضاهى نجاح مطاعم دوفال - والعادة فى هذا النوع من المطاعم أن يعطى للانسان عند دخوله قائمة مطبوعة فيها الاثمان فقط ومتى طلب صنفا أشر الخادم أمام الثمن المقرر له حتى اذا فرغ الآكل توجه بهذه القائمة الى أمين الصندوق ونقده المطلوب ثم ردها عند الخروج للعامل الذى أعطاها له عند الدخول

أما معارض الصناعة فلها فيما أرى غايتان أولاهما تنشيط

الصناع وحثهم على التفنن والاختراع وثانيتها تعريف الاهالى بما ينجم عن ذلك من الفائدة والاقتصاد والحصول على أمور قد تطلبها النفس من غير أن يقدر اللسان على التعبير عنها لعدم سابقة العلم بها ولذلك أنشأت مدينة باريس كشكا على حافة نهر السين يعرف باسمها وتأتى الجمعيات الحرفية والطوائف الصناعية لعرض مصنوعاتها فيه والمباراة لحيازة شهادات الشرف ووسامات الافتخار من أعضاء مجلس المحلفين الخبيرين المعينين لكل نوع — واتفق انه فى أثناء وجودى بباريس كان الدور لمتعاطى صناعة لحم الخنزير فتوجهت الى الكشك حبا للاستطلاع ورأيت فيه الموسيقى العسكرية تصدح بألحانها المطربة وأعمال الصناع معروضة على الانظار بتأنق وتجمل بحيث كانت تستوجب إعجاب القوم وتستدعى شهيتهم فينظرون اليها نظرا متواليا ويبلعون ريقهم ثم يقصدون الحانات فيتعاطون المشروبات فكأنهم حينما أطربتهم نغمات الموسيقى تصوروا أنهم أكلوا من هذا الصنف المستطاب لهم ورأوا من الواجب اتمام القصف بمعافرة بنت الكرم وسأتكلم فيما بعد على هذا المعرض بتفصيل يشفى الغليل — ثم جاء الدور للطحانين فافتتح مؤتمرهم باحتفال عظيم كان رئيسه وزير التجارة ومعه كثير من كبار الموظفين فى نظارته

ورئيس جمعية الطحانين بفرنسا - ثم معرض جمعية المشتغلين بتربية الازهار ثم معرض دولى للاطيار ثم غير ذلك من المعارض التى لايسعنى سردها الآن وكلها تتجدد فى كل عام مع زيادة فى التفنن والاغراب - وكل واحد من هذه المعارض يبتدئ باحتفالات باهرة وينتهى بولائم فاخرة

١٥

ضواحى باريس

لاتخلو عاصمة من ضواح يقصدها أهل الثروة وطالبوا النزهة لترويح النفس من ضوضاء المدائن الكبيرة ولكنى لم أر من ضواحى باريس سوى فنسن وڤرساوى فأما مدينة فنسن (وسكانها ٢٢,٢٧٨) فما تستحق الذكر لولا الغابة الجميلة التى بها والقلعة المهمة المنيعة المعروفة باسمها وقد زرت هذه القلعة بتصريح خصوصى ورأيت غرف التعذيب وآلات العذاب والمكان الشاهق الذى هرب منه الدوك دوبوفور وقناة السين التى كانت ترمى بها جثة المعذب بعد أن يسقى كأس الحمام وغرفة سجن بها أحد القساوسة ٧ سنوات وأخرى اعتقل فيها أحد الكرادلة ٧ شهور ولكن ذلك كله أصبح أثرا بعد عين وصار كأداة ملغاة لاعمل لها حتى انهم سدوا فوهة البئر الموصل لقناة السين وقد

يبلغ غلظ الحائط فى أعالى هذه القلعة ثلاثة أمتار ورأيت خزائن السلاح ولكنها ليست شيأ مذكورا بجانب مارأيته فى برج لوندرة وحصن دوفر من أعمال انكلترة وأما الغابة ومتنزهاتها وبحيراتها وجزائرها وخلاويها فسأتكلم عليها فى الرحلة مع الالماع بشئ الى غابة بولونيا والبوت شومون وغير ذلك

أما قصر فرساى فقد كان مقر ملوك فرنسا وهو فى منتهى الجلالة والفخامة بحيث لايكاد يعادله شئ مما رأيته وقد حوى صور جميع ملوك فرنسا ومشاهيرها على الجدران والرخام والقماش وغير ذلك بغاية الابداع ونهاية الاتقان ومن أراد أن يقف على تاريخ فرنسا فى سويعات قليلة فما عليه الا أن ينظر الرسوم التى ازدانت بها غرفه فانه يرى فيها جميع وقائعها وأعمالها وكل مايتعلق بتواريخها ومما استوقف انظارى بنوع خصوصى صورة الشيخ السادات والسيد البكرى والشيخ الشرقاوى وغيرهم من أكابر مصر أيام دخلها بونابرت وقد رأيت أسرة ملوك فرنسا وأثاثاتهم وأمتعتهم الخاصة بشئونهم الداخلية ورسوما تمثل الحروب الصليبية وحروب افريقية والقرم وايطاليا وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر وأحفظ لنفسى حق الكلام عليه وعلى الروض الانيق والفساقى البديعة وعربات

الملوك التى بقصر آخر بجواره يعرف بـ(التريانون) وغير ذلك مما يضيق عنه نطاق هذه الاوراق

١٦

اهل باريس

أف لك يا باريس وألف أف فقد أعيانى فيك الوصف واضطرتنى كثرة مافيك من المآثر والمفاخر وتعدد المشاهد والمعاهد للاطالة فى المقالة بما ربما يوجب الملالة والكلالة مع أنى لم أغترف للقارئ الا قطرة من بحرك ولم أروّحه الا بنفحة من زهرك ولا يزال مجال الكتابة واسعا أمامى فسيحا لجولان أقلامى ولكننى لا أرى مندوحة عن اقفاله الآن لافتتاحه بعد القفول الى الاوطان وأختم هذه الرسالة بذكر كلمات عن أهلك وأخلاقهم وحركتهم ونشاطهم وأفكارهم وآرائهم فقد آن لى أن أقدمهم الى بنى مصر بناء على ماحققته بالاختبار وعرفته بعد بعض المعاشرة حتى انى لا أرى وصفا يصدق عليهم أكثر مما قاله أحد ولاة قرطبة فى أيام الاسلام بعد أن تخلى عن ادارتها فانه وصف أهلها بالقيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بامورهم كالجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته به صاح فلا يدرى أين رضاه وفى ذلك دليل على ان أفراد الانسان مهما كانت بلادهم قاصية وعاداتهم

متباينة وطبائعهم متخالفة وأقاليمهم متنوعة ومعتقداتهم متباعدة فلا تزال فى أفكارهم وحدة تجمعهم وفى نفوسهم حاجات مشتركة بينهم

وأهل باريس أكثر من رأيتهم من الامم نظرا فى الفرق الحاصل بين أفراد الهيئة الاجتماعية فانهم يرون الوضيعين كثيرين والرفيعين قليلين والواصلين الى ذروة النعيم عددهم أقل من القليل فيقولون لهذا الاختلاف ونحن كلنا متساوون وأبناء نوع واحد تجمعنا راية الجمهورية وقد كتبت عليها هذه الكلمات (حرية — مساواة — إخاء) ولما انتشر التعليم فيما بينهم ونفذت أشعته بين لفيف المتناولين الحرف الدنيئة منهم تصور هؤلاء الافراد أنهم يعرفون أكثر مما يعلمون وصاروا لا يقيسون أنفسهم بمن هو أعلم منهم بل ينظرون الى من هم أحط فى الدرجة فداخلهم الاعجاب بنفوسهم حتى خيلت لهم الخيلاء أنهم أهل للكلام فى كل موضوع وأن لهم الحق فى الحل والعقد فى جميع المسائل على اختلاف طبقاتها وأخذوا يجاهرون باللوم والتأنيب ويقولون انهم لو كانت الامور بايديهم لكانت مساعيهم أحد عاقبة وأعمالهم أتم فائدة ولذلك تشعبت أفكارهم وكثرت مقالاتهم فى حل المسئلة الاجتماعية وترتيب نظام الجمعية البشرية على أسلوب يفى بجمع

الحاجات فيقول فريق منهم (انا لا نطلب شيأ ما من أحدما ولا حاجة لنا بكائن من كان فلماذا لايتركنا الغير نعيش ممتعين بالحرية راتعين فى بحبوحة الاستقلال . أليس من المستغربات الزامنا بدفع الضرائب والغرامات من المال الذى جمعناه بكدنا وسعينا بحجة القيام بنفقات يسمونها عمومية وهى لاتهمنا ولاتعنينا . أليس أن مانكسبه بعرق جبيننا ملك حلال لنا فلماذا يضطرنا الغير لبذله فى إغناء الغير) ويقوم فريق آخر يعضده ويقول (ليت شعرى هل كتب علينا التعب والنصب لاجل أن نحمل ثمرة اتعابنا الى مأمور التحصيل لاغناء المميزين وهم عدد قليل لعمرى انه لاحاجة لنا فى أن يتحلى رئيس الشرطة وصاحب العسس باشرطة من القصب والذهب أوأن يكون لحضرة المدير عربات تجرها الجياد الصافنات) فيقوم فريق آخر ويقول (انى لا أكثر التندب على المال فانه لامراء أن رئيس الشرطة وصاحب العسس لايمكنهما ان يتفرغا للزراعة والصناعة بينماهما آخذان فى تعقب اللصوص وقطع دابر قطاع الطريق ولذلك فانه ينبغى لنا ان نكسوهم ومن رأيى أن شرائط القصب والذهب ليست من الزيادات والنوافل لانها تحدث الهيبة ولاألوم المدير على اتخاذ الخيول فانه يجب عليه قطع المسافات الطويلة لتفقد

أحوال مديريته ولكن الذى لايمكننى ان أتحمله أوأرضى به هوأن القوم يفدون علينا فى كل عام وينتزعون منا زهرة الشبان ليدخلوهم فى سلك الاجناد والاعوان . . . . الله الله أليس من أشنع الامور وأبشع الاعمال سوق أولئك الفتيان الى سوق المذبحة الذى يسمونه بالحرب فلماذا نحارب ولماذا نضارب أليس أن الاولى ان نلبث فى ديارنا بسلام وأمان منقطعين لحرث الارض وحمل المحصول الى السوق ومعاملة كافة الناس بالتى هى أحسن) فيقوم فريق آخر ويقول (نعمت هذه الافكار وياحبذا هذا الرأى لو كانت الناس كلهم عقلاء وقائمين برفع منار العدل فيما بينهم . قولوا الحق أفلو اعتدى جاركم على قيراط من أرضكم أما تقوم القيامة . لعمرى انكم تشرعون الاسنة وتشهرون السيف البتار وتفضى بكم الحال الى اهراق الدماء . ألانعمت الحرفة حرفة الجندى يذود عن حياض وطنه ويحمى أهل بلده فان ذلك من أوجب الواجبات اذ من المنازعات مالا يجدى فيها المكالمة بل الملاكمة ومنها مالاينجح فيها المُدافع الا اذا صاح بافواه المدافع) ثم تتشعب أفكار كل فريق ويستحسن بعضهم مايقبحه الآخر ويأتى هذا ببعض التعديل وذاك بشئ من التبديل

ولهم مثل ذلك فيما يتعلق بالنواب عن البلاد فيقول بعضهم

(انى لاأرى الفائدة التى تعود علينا من اختيار رجل يذهب الى مجلس النواب لينوب عنا وليشتغل بمصالح البلاد وذلك لوجوه أقلها أننا نجرى فى هذا الانتخاب كالعميان الذين لايهتدون الى الطريق فان القوم يقولون لنا هذا الرجل يصلح وذلك الرجل لايصلح ونحن نجهل حقيقة الاثنين فى أغلب الاحوال وكل منهما يشنف أسماعنا بما يخرجه من وطابه من مستعذب المقال ويعدنا بانه يوصلنا الى تمام السعادة ولكن أين منا الماهر الذى يقدر على تمييز البواطن من الظواهر وتعرّف الخبيث من الطيب فانى اذا توجهت الى السوق أقدر على تمييز الحبوب الجيدة والاثمار الصالحة ولكننى أقول الحق انى فى اختيار النائب لاأعرف ماذا أنا صانع ولا أقدر أن أحكم عليه مثل حكمى على غيره من الاشياء التى لى بها تمام الخبرة فان حضرة شيخ البلد «أمين المدينة» يوزع علينا قوائم الانتخاب ويقول لنا ان فلانا هو الحائز لكافة الاوصاف اللازمة وينبغى انتخابه فمن رأيى ان ينفرد أمناء المدن بعملية الانتخاب لأن رأيهم هو الغالب وحينئذ يتم هذا الامر فى وقت قصير وفى اختصار الزمن فائدة عظيمة) فيقول فريق آخر (متى عجز الانسان لاى سبب من الاسباب عن مباشرة شؤنه بنفسه فالواجب عليه أن ينيط واحدا غيره يختاره لها فاذا لم يكن

عنده من المعلومات مايكفى لهذا الانتخاب يجب عليه الاسترشاد برأى حكيم ناصح يثق بقوله ويعوّل على رأيه وحينئذ يكون له يد فى ادارة أحوال بلاده ويداخله السرور بأن له كلمة معدودة وصوتا معتبرا) فيقول فريق آخر (كل ذلك حسن ولكنى أرى أن أمور البلاد وادارة شؤنها تصلح كثيرا اذا كانت فى يد رجل واحد يحكمها بحسب ماأوتى من الحكمة فانه متى كان الحاكم واحدا كانت مصلحته الشخصية أكبر قاض عليه فى ادارة الامة على أكمل منوال حتى يتقرب منها ويتحبب اليها ومن المقرر الذى لايختلف فيه اثنان غرق السفينة التى فيها ريسان وقد رأيت فى بعض الايام عربة يجرها ستة من الافراس ارتبكت فى طريق كثر وحله ووعثه فتقدم لانقاذها كثير من الناس فكان بعضهم يدفع العربة ذات اليمين وآخر ذات اليسار وبعضهم يشدها من الخلف بينما نفر يجرونها من الامام ويجبى عجاعة فيفوقون السياط على الخيول وهى لاتزداد الاحرنا وتعاصيا وفى أثناء ذلك تزداد العربة غوصا فى الوحل وارتطاما ولما رأى سائق العربة هذه الحالة أبعد جميع هؤلاء الناصحين الغيرناصحين ورصف خيوله بجانب بعضها ثم استوى على كرسيه وهمهم على الخيل من غير أن يرفع عليها سوطه فعرفت صوته وجمعت قواها ثم نهضت بحملها الثقيل نهضة

واحـدة استخلصت العربة من الاوحال وسارت تركض بهـا فى أحسن حال فهكذا تكون ادارة الاعمال) فيقوم فريق آخر ويقول (انما أفلح سائق العربة لمهارته وحسن ادارته ومعرفتـه بمهنته ولان خيوله كانت قادرة على جرجلها والا فـلو كان فوق طاقتها لما قدرت أن تقوم به أبدا ولكن الرجل لو كان غير كفء لوظيفته لاشك انه كان يعتبر نفسه سعيدا من وجود ناصحين له صادقين فى خدمته يعاونونه على الخروج من مثل هذه الورطة بسلام بل ربما كان يشكر العناية الصمدانية اذا كانت تقيض له فى مثل هذه الحال رجلا أقدر منه على قيادة العربة وخيولها حتى يلقى اليه بالزمام ويتعلم منـه كيف تكون الادارة فى المسالك الحرجـة والمواقف الوعرة ولو كانت خيـله لاقبَل لها بجر العربة فهـل كان يرفض نصيحة العقلاء الذين يشيرون عليه بتخفيف الحمل أو تمهيد الطريق امام العجلات وازالة مايعترضها من الاحجار والموانع الاخرى فلذلك لا ينبغى الاستخفاف بالمشورة فان من انفرد برأيه زل ومن استغنى بعقله ضل وما خاب من استخار ولا ندم من استشار)

هـذا مثال من ألف مثال مما رأيتـه من حركة الافكار ولاأود الاطالة بشرح أفكار القوم فى المسئلة الاجتماعية وهيجانهم الى درجة لايتصورها العقل وسأشرح ذلك فى الرحلة بالتفصيل وأطلع قومى على غرائب هؤلاء الاقوام والله المستعان

الرسالة السادسة عشرة

وهي الاخيرة من الرسائل المؤثرية

وداع باريز

وذكر الاندلس والبرتقال

بوجه الاجمال

من غرناطة في يوم الاثنين المبارك ٥ رجب الفرد سنة ١٣١٠

٢٣ يناير سنة ٩٣

وداع باريز

قضت نواميس الكون الانساني ونظامات الوجود العمراني بان دوام الحال من المحال وانه لابد من الفراق مهما طال التلاق وان لكل اجتماع انقطاعا ولكل اتصال انفصالا تلك سنة الله في خلقه جيلا فجيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا

أطلت المقام في باريز الى مابعد الميقات الذي كنت ضربته لمبارحتها بايام كثيرة فانني كنت كلما عزمت على السفر رأيت وجوب التأجيل لمناظرة بعض الآثار أو اشهود أنواع من الاحتفال أو غير ذلك مما يستوقف الراحل ويستغرق الاوقات ويحبس السائر عن عدوه ويخرس الطائر المفصح بشدوه فكم فيها من مسارح

تنضح بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره السانح ومطارح تطرح ذكر الوطن من ذاكرة السائح حتى اعترانى الكلال والملال من كثرة مارأيت وما سمعت وصرت أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام فيسر الله الاسباب وفتح الابواب فودعتها فى منتصف ليلة ١٩ الى ٢٠ نوفمبر سنة ٩٢ ورحلت عن هذه الارجاء المتألقة والروح بها وبمن فيها متعلقة ثم سار القطار ينهب الارض نهبا ويقطع الفيافى فدفدا فدفدا ومرّ على كثير من مدائن فرنسا العامرة مثل تور (Tours) وهى مشهورة باعتدال اللسان الفرنسوى وصفاء اللغة حتى ان أكثر الطالبين لابدلهم من الاقامة فيها شهورا طويلة لترسخ فيهم ملكته التى لاتشوبها أدنى شائبة ومثل انجوليم (Angoulême) المذكورة فى كتب العرب باسم انقلزم ومثل بوردو (Bordeaux) المشهورة بخمورها شهرة تغنى عن وصفها وقد سماها العرب بحسب التسمية اللاتينية بردیل وبردال (وبالذال المعجمة فى كلتا اللفظتين)

وكان بودى أن أقف بكل من هذه المدائن الثلاث بضعة أيام ولكن وقتى لم يكن يسمح لى بانالة نفسى هذه الامانى ولم أصل الى تخوم اسبانيا (١) الا بعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع

(١) وقد ورد اسمها فى كتب العرب اشبانيا وفى كتاب مختصر الدول لابى الفرج إسفانيا

وعشرين ساعة لم تكتحل فيها عيني بالمد الكرى حتى أجهدني السير وأضناني السرى ولكنني تجددت في القوى حينما شممت عبير الاندلس واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر الى صافي سمائه وقد ترصعت بالدراري كما هو الشأن في بلادي وأرض مهادي بخلاف ما كنت قد اعتدت عليه في انكلترا وباريز من كدورة الجو وقتمة السماء وتوالي الغيوم وتعاقب الامطار فصرت اسامر بدر الظلام واطارح الكواكب الحديث واشكو اليها مالاقيته في غربتي واطيل النظر اليها حتى لقد كان

يخيل لي ان سمر الشهب في الدجى * وشدت باهداب اليهن اجفاني

التحسر على الاندلس

وحينئذ شطحت مع تيار الافكار ولكنني مالبثت ان انقبض صدري وعلتني الكآبة وتوالاني الانزعاج اذ أحاطت بي جيوش من اللوعة والاسف والحسرة واللهف لانني تفكرت مانالهُ الاسلام من العز والاقتدار في هاتيك الديار أيام كانت تخفق فوق الاندلس اعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة رافعة رايات المجد والكرامة أيام كانت المآذن قائمة على أعاليه وروابيه تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء فتخشع القلوب وتعنو الوجوه لذكر الحي القيوم أيام كانت المساجد عامرة بجماعات الموحدين القانتين وربوع

العلم زاهرة زاهية بالدارسين والمدرسين أيام كان التمدن العربي باسطا بساطه من اطرافه الى اطرافه والمروءة والشهامة ساريتين في جسمانه أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها في المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت ملوك أوربا تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين أفادوا العالم باجمعه ورفعوا كلمة الاسلام وجاؤا باقوم برهان على ان الدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث في اسرار الطبيعة وانه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها (١)

وقد اشتد بي الوجد والوله حتى عدمت التعبير وغاب عقلي وما أبصرت نفسي الاولساني يندفع بترديد بعض أبيات من القصيدة المشهورة التي نظمها أبو البقاء الرُّندي في رثاء الاندلس وترجمت نثرا ونظما الى اللغة الالمانية والفرنساوية والاسبانية وغيرها وكنت أكثر من ذكرى هذه الابيات بحسب ورودها على لساني واني أوردها الآن بنصها (٢)

---

(١) ومازلنا الى الآن نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التي استبقتها يد الصدفة فنجت من التبديد والتمزيق وسأشير الى بعضها في الرحلة

(٢) ان العلامة الفرنساوي جرنجره ديلاجرنج (Grangeret de la Grange) طبع في باريس سنة ١٨٢٣ كتابا اسماه «نخب الازهار في منتخب

لكل شئ اذا ماتم نقصان * فلا يغرّ بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول * من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد * ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة * اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضى كل سيف للفناء ولو * كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذو والتيجان من يمن * وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ماشاده (١) شدّاد فى إرم * وأين ماساسه فى الفرس ساسان
وأين ماحازه قارون من ذهب * وأين عاد وشدّاد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مردّ له * حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا

الاشعار وأذكى الرياحين من أسنى الدواوين» جمع فيه كثيرا من مستجاد شعر المتنبى بشرح الواحدى له وشعر ابن الفارض وشرحه والصفدى ومن فتوح الشام للواقدى وجملة شعراء متعددين ثم ترجم ذلك كله الى الفرنساوية وعلق عليه كثيرا من الحواشى الادبية والانتقادية واورد فى جملتها قصيدة أبى البقاء هذه نقلا عن نسخة من نفح الطيب فى مكتبة باريس وهى مترجمة بغاية الدقة والضبط ولما كان الناقل أخطأ فى نقل بعض الكلمات فى ترتب على ذلك ان ترجمة بعض الابيات جاءت مختلة فأحببت التنبيه على هذه الابيات هنا لاكمال الفائدة

(١) نقلها العلامة لاجرانج المذكور هكذا (ساده شداد) بالسين المهملة وترجم بما معناه السيادة ولا معنى لذلك اذ المقصود المبانى والآثار التى أقامها شداد فى إرم المشهورة بمبانيها الفاخرة

وصار ما كان من ملك ومن ملك * كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله * وأم كسرى فما آواه ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب * يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة * وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها * وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له * هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت (١) * حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية * وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم * من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه * ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما * عسى البقاء اذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف * كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية * قد أقفرت ولها (٢) بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما * فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة * حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة * ان كنت في سنة فالدهر يقظان

---

(١) أوردها العلامة المذكور (فامتحنت) وهي بالبناء المجهول والمعنى واحد
(٢) ..... (وبها بالكفر الخ) وهي غلط في الطبع

وماشيا مرحا يلهيه موطنه * أبعد حمص لعز(١) المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها * ومالها مع طول الدهر نسيان
يارا كبين عتاق الخيل ضامرة * كأنها في مجال السبق(٢) عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة * كأنها في ظلام(٣) النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة * لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس * فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم * اسرى وقتلى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم * وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم * أما على الخير انصار واعوان
يامن لذلة قوم بعد عزهم * أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم * واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم * عليهم من ثياب الذل ألوان

---

(١) وفي رواية أخرى (تغر المرء اوطان) وانى استحسن قوله (لعز المرء) اى الاندلسى لانه صار لا وطن له

(٢) استبدل العلامة ديلاجرانج لفظة (السبق) بقوله (السيف) وترجم بهذا المعنى وهو غلط واضح

(٣) وفي رواية اخرى (في مُثار النقع) والمعنى صحيح لكن الظلام انسب لظهور النيران فيه بوضوح اكثر

ولو رأيت بكاهم حين(١) يبعهم * لهالك الامر واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل (٢) بينهما * كما تفـــرق أرواح وأبدان
..... * .....
..... * .....
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * ان كان في القلب اسلام وايمان

استمرار الحسرة

وصرت أردد هذه الابيات وغيرها حتى وصلت مدينة ايرون Irun أوّل تخوم اسبانيا من الشمال فنزلت بها وقد انتصف الليل وما صدقت الوصول الى الفنـدق حتى اضطجعت على الفراش طلبا للراحة الضرورية ولبثت به على خلاف عادتي الى أن قرب الظهر

---

(١) اورد العلامة ديلاجرانج (عند بيعهم) وهو واحد غيرانه قدم هذا البيت على الذى قبله وهو غلط يدل عليه سياق الكلام وانسجام المعانى

(٢) اورد العلامة ديلاجرانج الشطر الاول من هذا البيت هكذا (يارب ام وطفل جبل بينهما) وترجم بما معناه (يا الله هل يلزم ان جبلا يوضع بين الام واولادها وان الارواح تفصـل عن الاجساد) وهو غلط مبين لانه تصور ان رب بضم الراء هى رب بفتحها واللفظـة الثانية من أسمائه تعالى وأما الاولى بمعنى ربة ور بتما ور بما من حروف الجر للتقليل فى المشهور وللتكثير وقيل بل انهما يستفادان من سياق الكلام ثم انه أخطأ فى قراءة (حيل) فوزع النقطتين على الحرفين فرأى (جبل) وهى قراءة يترتب عليها هدم بيت الشعر وكان الرجل عارفا بحوره وأوزانه كما يسـتدل عليه من شرحه للقصائد التى فى كتابه

ولم أستيقظ الاعلى جلبة الاطفال وصياحهم فى لعبهم ولهوهم بترنيمات تكاد تنطبق على وزان هذين البيتين

شرد النوم عن جفونك وانظر * حكمة توقظ النفوس النياما
فحرام على امرئ لم يشاهد * حكمة الله ان يذوق المناما

فقمت فزعا مرعوبا وأنا أقول «أين هذه الحكمة ولماذا ورد هذا البيت على خاطرى مع ان القصائد التى من بحره كثيرة» ثم تذكرت ان السبب فى ذلك ما كنت فيه بالامس فهرعت الى الخروج لانظر البلد وما فيه وما حواليه فرأيت المبانى والنوافذ والاسطحة تشبه ما عهدته طول عمرى فى مصر وكذلك الحارات والزقائق وغيرها

معرفة النحو لا تغنى

وقد كنت وأنا فى باريز درست نحو اللغة الاسبانية للاستعانة على مخاطبة القوم ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ولكننى لما حضرت ايرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصا مع الدليل تحقق لى ان درس النحو شئ ومعرفة اللسان شئ آخر وحينئذ زال ما كنت أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة مديدة فى درس النحو بجميع فروعه ثم هم لا يعرفون من العربية سوى هذه الآلة

اشتباك الحيرة والهوس بالوطن

وأقول الحق انى لما رأيت اضطرارى لمخاطبة القوم ساعة بالايطالية وتارة بالفرنساوية وغالبا باللغة الاشارية التى يفهمها

جميع أصناف بنى آدم تراخت عزيمتى وثبطت همتى وهممت بالرجوع من حيث أتيت وخصوصا لما كان يقوم بفكرى من ان أهل الاندلس الآن أشد أهل الارض تعصبا على المسلمين وكراهة للعرب وجفوة للغريب مع ماهم فيه من الهرج الدائم على حكومتهم مما كنت قرأته حديثا فى التلغرافات وانا فى باريز فضلا عما رأيته فى كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف الغريب من الدخول الى ديارهم ولما كان حب البقاء طبيعة فى الانسان وكانت الحياة غالية خصوصا عند وشك الوقوع فى الخطر مع اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع الى الوطن بعد طول الغيبة كادت هذه الافكار واضرابها تفوز على ماعندى من الشوق لرؤية هذه البلاد الجميلة وتعهد بقايا العرب فيها فتذكرت حينئذ المثل السائر (من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب) وانشدت على نفسى لاحياء مائت قوّتى قول الشاعر

التغلب على الصعوبة

ان كنت تطلب عزا فادرع تعبا * أو فارض بالذل واختر راحة البدن

فتجددت فىّ عوامل القوى وانبعثت فى جسمانى روح النشاط وتذكرت انى أكون أول من زار جميع الاندلس من المسلمين والمصريين خصوصا من ابناء هذا الجيل وكتب مارآه فيها وقارن بين حالتيها وفى ذلك فخر عظيم

ومن يجد الطريق الى المعالى * فلا يذر المطى بلاســـنام

زيارة بعض المدن

ولذلك توكلت على الله وقمت من ايرون الى فنترابيا (Fontarabia) الى سان سيبستيان (SanSebastian) الى بنبلونة (Pamplona) وتسمى فى قليل من كتابات العرب بمفلونة وقد حكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط وهى أنظف مدينة رأيتها وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائى

ثم قمت الى سرقسطة Zoragoza (Saragosse) وقد (مدينة سرقسطة والجمعية العلمية) نزلنا بها بغى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرا

فانى القيت بها من كرم أهلها وحسن مجاملتهم وكريم توددهم ما كاد ينسينى الاخوان واطلعت فيها على كتب عربية نادرة جدا وتعلمت فيها الكلام الاسبانى

ثم ان جمعية العلوم الشرعية والادبية Academia Juridico-literaria عينتنى عضوا افتخاريا بها واحتفلت بى احتفالا فائقا وعقدت جلسة مخصوصة لاستقبالى بغاية التكريم والترحيب فخجلت ان أدخل بينهم خالى اليدين لا أقدم لهم موضوعا فى هذه الحفلة المهمة وألهمنى الله ان أكتب لهم خطبة باللغة الفرنساوية على مدينتهم فى أيام العرب فاستعنت ببعض الكتب القليلة التى وجدتها عند المشتغلين بالعربية من اساتذتها وببعض ما عن بالخاطر وقدمت لهم

خطبة فى ١٥ صحيفة من الورق الكبير المعروف بالفولسكاب المستعمل فى الدواوين وقد راقت لديهم حتى طنطنت الجرائد بها وذكرت هذا الاحتفال بالفاظ التبجيل والاجلال (١) وترجم كثير منها خطبتى الى اللغة الاسبانية على ماعلمته بعد قيامى من سرقسطة وان الجمعية شرعت فى طبعها فى مجموعتها وقد أتحفنى أكثر المؤلفين والعلماء بكتب كثيرة من تأليفهم وخلاصة القول ان هذا اليوم كان من أسعد أوقاتى وانى أحمد الله على هذا التوفيق الذى مكننى من تشريف اسم بلادى وقد أجابوا على خطبتى بالاسبانية والفرنساوية والعربية والطليانية

والسبب فى ذلك انه اتفق فى بعض الأيام انعقاد جلسة الجمعية الشهرية فدعانى حضرة رئيسها الافتخارى وهو العلامة پابلو خيل D. Pablo Gil مقدم الاساتذة فى المدرسة العالية للفلسفة والآداب لان أزورها فتوجهت بصحبته وأجلسنى عن يمينه وبعد ان تمت أعمال الجمعية قدمنى اليها ثم دعانى لان أخطب عليهم بشئ مما يفتح الله به علىّ واذ لم يكن لى سابقة علم بهذا الامر وقفت فيهم وحييتهم بالعربية ليهدأ روعى وأستجمع أفكارى ثم خاطبتهم بالفرنسوية بكلام طويل ولما جلست طلبوا منى أن

(١) أرسلت فى ذلك الوقت نسخا من هذه الجرائد الى العاصمة لبعض اصدقائى

أتكلم بالطليانية ففعلت وحينئذ قام الرئيس الاصيل وطلب من الجمعية تعييني عضوا افتخاريا بها فاجابت بالاجماع ثم عينوا جلسة غير اعتيادية لاستقبالي وحينئذ أشار علىّ الرئيس الافتخاري بان أشكر الجمعية باللغة الاسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة وكنت حينما لا أجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طليانية أوفرنسوية ولوشئت ترجمة ماذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر من هذه الرسالة

فأما الخطبة التى أجاب بها بالاسبانية الاستاذ المتضلع العلامة خوليان ريبيرا D. Julian Ribera فكانت كلها دررا وغررا تشهد بمزيد اطلاعه على العلاقات العلمية الادبية التى كانت بين المشارقة وخصوصا المصريين وبين أهل الاندلس وسأورد ترجمتها فى فرصة أخرى ويحق لى أن أورد هنا الخطبة العربية التى ألقاها أثناء الاحتفال أحد أعضاء الجمعية وهو الدون سان پيو D. San Pio الذى تلقيت عليه اللغة الاسبانية وها هى بنصها الفائق

« بالنيابة عن جميع اخوانى سلام عليك ياأيها العلامة المصرى »
« أحمد زكى أفندى بودى أن ألقى الآن خطبة ولكنى مثل »
« أيوب قد ازدحمت علىّ الافكار وقد دعانى اخوانى أن أقول شيأ »

«بلغتك الفصحى فأقتصر على ايراد بعض جمل من الكتاب المقدس»
« يخرجك الرب الى مصر فى سفن واذكر ما لاقيته فى هذه »
« المدينة والقادر الكافى يباركك فى السفر والاقامة والسلام»

اللغة الاعجمية الاندلسية

وقد اطلعت فى مكتبة الدوق بابلو خيل المذكور على كتب عربية كثيرة وأغلبها باللغة التى يسمونها الخيادو (Aljamiado) وذلك لان العرب لما انقرضت دولتهم بالاندلس وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وقد رأيت فى سرقسطة ومدريد عددا عظيما من هذه الكتب فى أنواع العلوم النقلية والعقلية ورأيت كثيرا من المصاحف الشريفة مكتوبة بهذه اللغة ترجمها الى الاسبانية بقايا الاعراب المسلمين وهذه اللغة تعرف بالأخيادو) ووجه هذه التسمية ان العرب يسمون كل ما ليس بعربى أعجميا وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم (الاعجمية) ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله فى اللغات الافرنكية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (ألاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت كما سنبينه قالوا (ألاخاميا) أو (ألخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد ان

سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) اى «الاعجمى»

تحريف الكلمات العربية

واليك الشواهد على قلبهم الجيم خاء فانهم يقولون فى الحجام «الفاخى» وفى علم الجبر «الخبرا» وفى الجص «الخيذ» وفى الجب بمعنى الصهريج والجابية «الخبى» وفى الحاجة بمعنى أمتعة البيت «الهاخا» وفى الجعبة «الخابا» وفى الجفنة «الخفنا» وفى الجرس «الخرذ» وفى البرتقال «نارنخا» من قول العرب نارنج وفى محل سجن النصارى عند عرب الاندلس «ساخينا» من قول العرب سجن وفى الترنجة «ترنخا» وفى الجوهر «الخوفر» وفى الجبة «الخوبا» وفى المنجنيق «المنخنيكى» وللجيفة «خيفا» وتاريخ الهجرة «هخيرا» ولخنزير الجبل أو الحلوف «خبلى» من قول العرب جبلى * هذه بعض ألفاظ علقتها أثناء تلقى اللغة حتى اننى لاحظت دوران هذا الحرف فى غالب كلماتهم الافرنجية التى يكون فيها شين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لاستضحك من القارئ السماح وقال ان لغة القوم تدور على حرف الخاء

ولقد سمعتهم فى بعض الاحيان يقولون الخشيرا (Aljecira) فسألت عن ذلك فاعلمونى بانها الجزيرة الخضراء وحينئذ تشوفت لان أعرف

كيف يسمون بلاد الجزائر فان الفرنسوية يقولون الجيري (Algérie) والطليانية الجريا (Algeria) ولكنني حمدت الله حينما رأيتهم قد قلبوا فيها وضع الحروف فجعلوا الراء مكان اللام وقالوا أرخليا (Argelia) ولم يقولوا غير ذلك . . .

وقد لاحظت بعض ألفاظ تنافى هذه القاعدة فيقولون فى الخزانة «الأثينا» بمعنى الخزانة المنقورة فى حائط البيت وفى الخروع «تشرفا» وفى طير الخطاف «فاتكسا» وفى المسجد «مسكيتا» ومنها قول الفرنساوية موسكى (Mosquée) وفى المخراز «المفريز» بياء مالة وفى المخدة «الموهادا» وفى تصغيرها «الموهاديدا» وفى النخاع «الموكاتى» من قول العرب المخ وفى الخبازى «الهبازى» وفى البطيخة «البوديجا والبوديكا وباديها وباديا» وفى الخرشوف «الكتشوفا والكرتشوفا» وفى البخور «البافور» وفى الخروب «الجروبا» وفى الخزامى «الهوثيما» وفى المخزن «المائن» وهو اللفظ الشائع ويقولون فيه أيضا «انجائن والمارئن ومجائن» (ومنها انتقلت الى كافة اللغات الافرنكية بهذه الصورة ثم ان أهل مصر نقلوها عنهم وتناسوا أصلها فقالوا «مغازة» للمخزن الكبير) والسخرة بمعنى العونة «اذوفرا» والزرنيخ «اذرنيفى» بياءين ممالتين والرخ فى لعب الشطرنج «روكى» وفى الشيخ «كسيكى» بياءين ممالتين وفى الخز أى الحرير «التشز» وفى الخياط «القيات» هذا بعض مالاحظته وسألم فى الرحلة بشئ كثير من قواعد التحريف عندهم فهلا من المستغرب بعد ذلك انهم يقولون ان كلام العرب كله يشبه هذه الاصوات «خبط خبط خبط»

وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية وصعدت الى قمة البرج المائل الذى يشبه برج كنيسة بيشة وهو من صنع الاعراب المرتدين وقد شرع القوم فى تقويض دعائمه خوفا من سقوطه ثم خرجت منها شاكرا أفضال أهلها مرددا ثنائى عليهم وعلى أخلاقهم الزكية

تجول فى بعض المدن

وزرت قسطجون (Castejon) وميرندة (Miranda) ثم برغش (Burgos) وكنائسها المشهورة وقد رأيت فى احداها لواء فى غاية الابداع والجمال أخذه الاسبانيون من العرب فى واقعة العقاب التى سأذكر عنها شيأ يسيرا فى هذه الرحلة ثم زرت آبلة Avila ثم مدريد Madrid (وتسمى فى كتب العرب (مدريد ومقابلة (سفير الدولة (العلية) القديمة مجريط) (١) وقد رأيت جميع مافيها من المتاحف والمعارض

(١) مجريط بفتح الميم كما ضبطه ياقوت فى معجم البلدان وقد عقد العلامة أحمد فارس المشهور فصلا فى كتاب «الجاسوس على القاموس» أشار فيه الى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزابادى بمناسبة ذكره لبعض بلدان الاندلس فى قاموسه ولكن وقع صاحب الجاسوس نفسه فى وهم ارى من الواجب اصلاحه فى هذا المقام وبيان ذلك ان المجد ذكر بلدا اسمه النبرة وقال انه من عمل ماردة فجاء صاحب الجاسوس (صحيفة ٣٠) معقبا لهذه العبارة بالتفسير قائلا (أى مدريد) وأقول ان ماردة *Mérida* بلد ومدريد بلد آخر وماردة فى الجنوب الغربى بقرب بطليوس *Badajos* على نخوم البرتقال ومدريد فى الوسط وماردة كانت بلدا مشهورا جدا فى أيام العرب ولا يزال فيه الى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته بخلاف مدريد فانها عند العرب مجريط وكانت فى أيامهم عبارة عن حصن ليس الا

ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها واجتمعت بصاحب العطوفة طرخان بك سفير الدولة العلية الذى كان واليا على جملة ولايات مهمة من قبل مولانا الخليفة الاعظم أدام الله نصره ورفع كلمته وقد رأيت منه رجلا عالما بالسياسة والقوانين والنظامات وفيه من الوطنية وحب الاسلام مالم أجده فى غيره الى الآن ويسرنى أن أقول انله مقاما كبيرا فى نفوس كبراء اسبانيا والاسرة المالكة باسرها وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية والفرنساوية والاسبانية وله المام عظيم بالالمانية والارمنية وبعض العربية وانى أتمنى من صميم فؤادى ان يكون جميع نواب الدولة العلية أيدها الله فى جميع الممالك الاوروبية على شاكلته فانما تعلو الدول بنوابها وتعرف قيمتها بمندوبيها وقد أكثرت فى مدريد من زيارة المعرض الاوربى الاسبانى الذى أقيم احتفالا بمهرجان كرستوف كولمب وذلك لانى رأيت فيه كثيرا من الآثار العربية الاندلسية التى تبعث فى النفس تخارا وفى القلب أحزانا ورأيت لواء عربيا يشبه لواء برغش تمام المشابهة وبجانبه لواء آخر مما أخذه الاسبانيون من العرب وقد رأيت فى القسم المخصص للطوبجية المدافع التى سبق الى اختراعها أهل غرناطة لصدّ عدوّهم عنهم ورأيت غير ذلك مما لاتمكن الاحاطة به الآن وكنت أكثر من

زيارة التياترات فى كل ليلة لاتقان اللغة ولانها فى مدريد مدرسة حقيقية لاخلاق القوم وعاداتهم حتى انى أثناء التشخيص كنت أتصور نفسى فى بعض الشوارع أوفى احدى القرى ثم زرت طليطلة Tolède (١) فاذا هى مدينة عربية محضة لم يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولاأتذكر أن مدينة فى مصر حفظت هذا الشكل العربى المعهود كما بقى فيها الى الآن مع توالى الازمان وتبدل الاحوال فلا تزال شوارعها وأزقتها حجوج أى متعرجة ملتوية ملتفة صاعدة نازلة حتى يخالها الانسان أشبه شئ بتلك الحشرة المعروفة بام أربعة وأربعين وقد رأيت فيها من آثار العرب ماينطق بفضلهم ويخرس كل متعصب عليهم طليطلة

ثم رجعت الى مدريد وتفرجت فيها ثلاث مرات على مقاتلة الاثوار المعروفة عند الفرنساوية باسم Course des Taureaux و Combat des Taureaux وعند الاسبانية باسم Corrida de los Toros وقد عرفت جميع تفاصيلها

(١) تسمى عند العرب مدينة الاملاك أى الملوك لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا (Urbs Regia) وكانت تسمى عند الرومانيين كذلك (Toletum) و بالتصغير (Toletula) ومنه الاسم العربى طليطلة وقد ورد اسمها فى قليل من كتابات العرب توليطُه مثل التسمية الاسبانية ويقول مؤرخو العرب ان معنى توليطُه بلسان قيصر «انت فارح»

وقوانينها وشهدت غرام الاسبانيين رجالا ونساءبها الى الدرجة التى لايكاد يتصورها العقل بحيث ان المقاتلين يعتبرون من أهم رجالهم ومن أحب الناس الى الامة التى تجلّ ذكرهم الى حد يحسدهم عليه سراوات القوم وأماثل الاماجد وانى أؤخر شرح ذلك الى فرصة أخرى لما يستوجبه من زيادة البيان مع مافيه من الطلاوة والمباحث الرائقة وانما أقول الآن ان عرب الاندلس كانوا مولعين بهـذا القتال أيضا وكانوا يضارعون الاسبانيين وربما كانوا يفوقونهم

دخول بمملكة البرتقال وذكر لشبونة وشنترة

وبعد أن أطلت الاقامة فى مدريد ركبت قطار الاكسبريس الدولى متوجها الى بلاد البرتقال (Portugal) (١) وزرت عاصمتها المعروفة بلسبون Lisbonne (Lisboa) (٢) وقد بدأت بزيارة حضرة قنصل جنرال الدولة العلية وويس قنصلها ورأيت آثارها العربية وغير العربية وفى ثانى يوم من وصولى وردت لى تذاكر من الجمعية الجغرافية الملوكية بالتحية والسلام وبوضع مكتبتها ومتاحفها ومعروضاتها وغرفة السلاح والنشان والبلياردو وغير ذلك تحت تصرفى فزرتهم وشكرتهم واستفدت

---

(١) هذا هو اسمها فى كتب العرب لابورتغال أو بورتكال أو بغير واو فيهما

(٢) يذكرها العرب باسم لشبونة واشبونة والاشبونة

كثيرا من لقائهم وقد زرت المكتبة الاهلية ومدرسة المهندسخانة ومعرض التاريخ الطبيعي وكل ماقدرت عليه ورأيت من أهلها حفاوة تخلد لهم الثناء على صفحات الفؤاد ثم زرت مدينة شنتره Cintra ورأيت حصون العرب على قمم الجبال وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره للآن وعلى مقربة منه قبر دفن فيه القوم عظاما وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال ثم رجعت الى لشبونة وزرت فيها القسم الذى كانت تسكنه العرب وكان يعرف عندهم باسم الحمة « بتشديد الميم » ويسميه البرتقاليون الآن من باب التحريف « الفاما »

التشرف بمقابلة جلالة الملك

وقد تشرفت بمقابلة جلالة الملك فأكرم وفادتى وأحسن لقائى ولبثت مع جلالته مدة طويلة ثم خرجت شاكرا جليل رعايته وهذه المدينة لها موقع من أجل مواقع الدنيا يشبه أو يفوق موقع جنوة ونابولى ويقرب من القسطنطينية على ماسمعت ومنظرها يشبه المدائن الشرقية

الفول المدمس بأوروبا

ومما يحسن ذكره من باب الفكاهة انى خرجت ذات يوم فى بكرة النهار لاتفرج على حركة المدينة فى مبدئها فمن جملة مارأيت فيها كثيرا من النساء يسارعن فى حركاتهن وهن حفاة الاقدام وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزا شديدا عن بقية

الجسم بخلاف سائر الافرنجيات فانهن يبذلن غاية جهدهن فى تنحيل الخصر وترفيعه ومما امتازبه هؤلاء النساء فى البرتقال انهن يضعن فى أعناقهن قيطانا يتدلى الى حد ثنيات البطن وينتهى بصليب كبير من النحاس وفوق رؤسهن قطعة من القماش ملتفة على بعضها مثل الحواية و يحملن عليها شيأ شبيها بطست نحاسى مفرطح جدرانه مرتفعة قليلا ورأيت احداهن تصيح بكلام لاأفهمه فتشوفت لاستوقفها وأعرف مامعها فسألت الدليل ذلك ولكنها لما نظرت الى حالتنا وهيئتنا توسمت أننا ممن لايشترى مما معها فهمّت بمغادرتنا فأظهرت لها قطعة من الورق قيمتها نحو قرش صاغ فوقفت وأخذتها ثم فرجتنى على مافى الطست واذا به الفول المدمس ففرحت به كثيرا ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى بلاد أوروبا ثم استفهمت عن الاسم فاذاهو (Fava Rica) أى الفول الغنى ولما رجعت الفندق أوصيت صاحبه أن يستحضر لى فى صباح اليوم الثانى مقدارا من هذا الفول الغنى وقد كان غير أنى أردت أن تكون الاكلة مصرية محضة وعلى الاسلوب المتبع عند عموم المصريين فلبثت فى غرفة النوم وأقفلتها إقفالا محكما بعد أن استحضرت البصل حتى لاأكون مثل بنى اسرائيل حينما خرجوا من مصر ولم يجدوا البصل فى التيه فتأسفوا عليه

وتلهفوا ثم انى تمتعت بهذا الفطور والحق يقال أكثر من جميع أيام سياحتى فى أوروبا

مدينتى قلمرية وبرتقال

ثم قمت من الاشبونة الى مدينة كويمبرا Coïmbra المعروفة فى كتب العرب باسم قلمرية وهى الآن دار العلم ومحط المعارف فى بلاد البرتقال وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها وبستان النبات البديع فيها وبعد ان طفت على معظم آثارها قمت الى مدينة بورتو (Porto) واسمها فى كتب العرب برتقال وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما نقول بنى سويف وبندرها بنى سويف والفيوم وبندرها الفيوم والمنيا وبندرها المنيا وهكذا فى سيوط وقنا وكما كان الشان فى القليوبية وجرجا والمنوفية قبل أن ينتقل مركز المديرية الى بنها وسوهاج (المعروفة عند العرب بسوهاى) وشبين الكوم وساورد فى الرحلة نصوصا عربية معتبرة تكاد تكون مجهولة للدلالة على صحة هذا الاسم (برتقال)

رأيت فى مدينة البرتقال هذه آثارا كثيرة ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيأ يذكر لانهم كانوا يجيئونها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم غير انى رأيت دار البورصة فيها وهى من الفخامة والجلالة بمكان قد تألف التجار على انشائها

على الطراز العربى ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها البديعة أشعارا عربية سأوردها فى الرحلة وفى جميع الطرازات هذه العبارة ﴿عز لالانا السلطانة مريم ٢﴾ يريدون عز لمولاتنا السلطانة مريم الثانية

إشكال على الفول المدمس

وقد عن لى وأنا فى هذه المدينة أن أمتع نفسى بأكلة ثانية من الفول الغنى فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لى جانبا من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغدى به فى وقت الظهر وأوصيته أيضا باستحضار الزبد والبصل فنظر الىّ نظر المستغرب وقال كيف يمكن الغداء بالفول الغنى والبصل والزبد فقاطعته وقلت له هذه ارادتى وما عليك الا الاجابة فامتثل غير قادر على اخفاء زيادة الاستغراب ثم توجهت لزيارة الآثار وغير ذلك حتى جاء وقت الظهر فأسرعت الى الفندق وأنا أتلذذ مقدما بأكلة الفول الغنى التى أعددت نفسى لها فى هذا اليوم السعيد حتى اننى لم أتناول شيأ من الزاد فى الصباح وقد صعدت فى الحال الى غرفة نومى فوجدت صينية عليها شئ كثير من .... من .... من الخروب فدققت الجرس بعنف وشدة لكثرة ما اعترانى من الغيظ والحنق فحضر الخادم فقلت له ماهذا الذى فعلت أيديكم فقال انما أجبنا أمرك وأحضرنا الفول الغنى فكررت الاستفهام فقال لى هذا

هو الفول الغنى بعينه فنزلت لصاحب الفندق وباحثته فى هذا الموضوع وأعلمته بمقصودى الذى رأيته بكل انشراح فى مدينة الاشبونة فأدرك السر وقال لى ﴿ياسيدى أهل بورتو يسمون الخروب فولا غنيا ولا يعرفون ذلك الصنف الموجود فى أشبونة بل انهم يتهكمون على الاشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية فولا غنيا مع انه هو الخروب للمشابهة بين قرن الخروب وقرن الفول ولما كان فى الخروب مميزة على الفول دعوه بالفول الغنى ولهم الحق(١) وهذا مادعانى للاستغراب حينما طلبت منى فى الصباح أن أحضر لك غداءك من الفول الغنى مع الزبد والبصل﴾ فانشرحت من هذا الشرح مع اننى انقبضت للحرمان من أكلى المصرية والاضطرار للاكل على المائدة العمومية بالطريقة الافرنكية ولكن هى السياحة يرى فيها الانسان مايسوء وما يسر

لغة البرتقال والتحريف فيها

ثم خرجت منها قاصدا سلمنقة (٢) Salamanca من بلاد اسبانيا ولم أتعرض لتعلم اللغة البرتقالية خوفا من الاختلاط ولكنى

(١) ليتنبه القارئ الى أنه منهم فلذلك هو يصوب رأيهم

(٢) هذا هو اسمها الحقيقى فى كتب الجغرافية العربية القديمة وابن الاثير فى حوادث سنة ١٤٠ فى الجزء الخامس وقد وهم صاحب دائرة المعارف حيث سماها سلمنقة بالسين المهملة ثم خلط بينها وبين بلد أخرى اسمها طلمنكة فقال انه اسمها فى بعض كتابات العرب والصواب غير ذلك فان طلمنكة Talamanca بليدة فى ولاية مدريد فى وسط الاندلس كانت من أعمال طليطلة فى أيام العرب وأما سلمنقة فهى فى الشمال من ولاية جليقية التى قد يسميها العرب غليسية Galicie

لاحظت كثرة تردد الفاء والشين والراء فيها فمثال الفاء الخروب يسمونه الفروب والبحيرة يسمونها البفيرة والصهريج يسمونه زفريش ويسمون نوعا من الاغطية والفراء يعرف عند العرب بالحنبل بقولهم «الفامار» وهذه الكلمة الحديثة الآن مأخوذة من الكلمة البرتقالية المهجورة المحرفة عن العربية مباشرة وهى «ألفبر» ويسمون الخس «ألفس» والهدية «الفدية» والحرمل وهو السذاب البرى «الفرما» وفى الحلاوة «الفلوا» ويقولون فى الحمة «الفاما» والخياط يسمونه «الفيات» وأمثال ذلك كثيرة لأطيل بها الآن وأما الشين فان معظم السينات التى فى اللغات الافرنجية يقلبونها شينا ولعل ذلك هو السبب فى ان العرب نطقوا باسماء البلدان التى فيها سين بالشين والامثلة كثيرة يعرفها من له أقل اطلاع على جغرافية هذه البلاد فى كتب العرب وأما الراء فهى كثيرة جدا خصوصا مع الشين حتى تكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية ولكن الخاء معدومة بالكلية

ذكر النقود باسبانيا والبرتقال

وهنا أذكر أمرا غريبا وهو انى لما كنت فى سرقسطة توجهت فى صباح يوم وصولى الى أجل دكان للزين فيها وبعد ان حلقت ذقنى وأصلحت شعر رأسى وضمخته بانواع الخلوق

المستعملة عندهم سألت الرجل عن الاجرة فقال لى ٣ ريالات فبهت فى قلبى وأسفت على مجيئى اليه ولكننى تجلدت وأظهرت (مثل الكثير من الناس) تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل العارف ثم قلت وهو كذلك ودفعت اليه ورقة قيمتها ٢٥ فرنكا فردّ لى ٢٤ فرنكا وربعا فعلمت بكل سرور ان الريال عند أهل اسبانيا يساوى جزأ من عشرين منه عند أهل بلادنا بل هو أقل من القرش الصاغ بقليل ولكننى حينما جئت الى بلاد البرتقال ونزلت فى لشبونة اكتريت عربة أوصلتنى الى الفندق ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الاجرة فقال لى ٦٠٠ ريال فقلت فى نفسى هذه هى الطامة الكبرى وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهل وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ومع ذلك تجلدت وصبرت على مضض الايام واتقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة فقلت له بصوت أبح «وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق» وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا لاسداس ولما أصبح الصباح كان أوّل شئ طلبته هو الحساب فجاءنى بعشرات الآلاف فقلت وأنا خائف واجم وكم يساوى هذا كله من الفرنكات فقيل لى

ان الفرنك مائتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لاتضرع بالشكر منفردا وقد قاسيت كثيرا من اشتداد الازمة المالية على هذه البلاد حتى انى كنت أصرف الفرنك الصحيح المعتبر بمائتى ريال وبمائة وتسعين وبمائة وثمانين وبمائة وسبعين بل بمائة وستين فى قلمرية وعرفت حينئذ ان هؤلاء القوم يلزمهم عدد كبير لقيمة قليلة

العودة الى الاندلس

ولما توالت هذه الخسائر المالية استخرت الله فى الرجوع الى الاندلس ووصلت شلمنقة ورأيت آثارها ومدارسها فانها فى اسبانيا مثل قلمرية فى البرتقال وأكسفورد وكبريج فى انكلترة ورجعت منها الى مدريد فأصابتنى النزلة الوافدة واشتدت علىّ وطأتها حتى كدت أيأس من الحياة لولا مداركة كثير من أصحابى وأصدقائى وعناية الاطباء بشأنى

مقابلة جلالة ملكة الاندلس

وقد كان صاحب السعادة طرخان بك طلب من البطانة الملوكية تشرفى بمقابلة جلالة الملكة وأجيب السؤل ولكن المرض كاد يحول بينى وبين هذا الشرف الاسنى غير ان الله سبحانه وتعالى رأف بى فخفف النازلة عنى وبذلك تيسر لى مقابلة جلالة الملكة فلاطفتنى وتعطفت علىّ كثيرا وتكلمت معى فى اشتات العلوم والادبيات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ودار الحديث مليا على اللغة العربية وآثار العرب باسبانيا وبغيرها واستطالت المقابلة مدة تنيف على

العشرين دقيقة وكان معى حضرة السيد المفضال والامير الكريم طرخان بك وسأذكر فى الرحلة مادار بيننا من الحديث ثم خرجت من بين يديها شاكرا افضالها على هذه المقابلة الجليلة وقد أخبرنى كثير من أهل البطانة وخصوصا صاحب العطوفة طرخان بك بانها أكثر من المعتاد بكثير فشكرت الله ثم لبثت بمدريد ثما تعافيت قليلا من النزلة الوافدة التى ضربت فيها أطنابها الآن وفتكت بالاهالى فتكا ذريعا فمات بها كثير من الشيوخ وزاد عدد الوفيات بها وبغيرها من الامراض فى مدريد حتى بلغ ستا وستين وفاة يوميا وكان معدل عددها قبلا احدى وأربعين فى اليوم

ولاجل ذلك أمرنى الاطباء بالتوجه الى بعض البلاد الحارة فى جنوب الاندلس والعبور منها مباشرة الى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتنى العافية

اشبيلية

فقمت الى اشبيلية (Sevilla) التى كانت تسمى أيضا بحمص وزرت جميع آثارها ودار القطاء فيها وكنائسها وصعدت الى قمة المنارة الاسلامية الفخيمة البديعة التى كانت بجانب أحد المساجد وكانت مستعملة عند العرب لرصد الافلاك فأصبحت الآن مقر الناقوس وزرت القصر Alcazar الذى أنشأه الاسلاميون فانسانى كل مارأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التى رأيتها فى

أعظم مدائن أوروبا وقد وقفت فيه متلهفا وكنت كذلك الشاعر الذى قال

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا
فاجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ومن غريب مافى اشبيلية ان جميع دورها وقصورها لها فى وسطها فناء فى غاية الاتقان مغروس بزاهر الاشجار ومحفوف بفائق العمدان وفوقه رواق مثل ماهو معروف فى الاسكندرية باسم الحضير وعليه عمدان وحنايا وقواصر مثل التى فى الفناء ولقد تحسنت صحتى باعتلال هوائها حتى صدّقت من أنشأ مشيبا بها

هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ماان يبالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد أن لاتحل الشمس بالحمل

ولاغرو فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المبانى وهى واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادى الكبير Guadalquivir يصعد المدّ فيه ٧٢ ميلا ثم ينحسر ولذلك قال شاعرهم

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزا فضم من الحياء ازاره

ولقد صدّقت حينما حللت فيها قول بعض واصفيها

ان شَرَفها غابة بلا أسد ونهرها نيل بلا تمساح

وهـذا الشَرَف المذكور هو اقليم من أعمالها كائن على تل عال من التراب الاحمر ومسافته ٤٠ ميلا فى مثلها يمشى بها السائر فى ظل التين والزيتون واعلم ان الاسبانيين والافرنج يرسمون اسم هذه البقعة هكذا Axarafe و Aljarafe وهو الآن فى الجغرافية الجديدة لتلك الاقطار عبارة عن البلاد التى فى قسم سان لوكار لامايور أى سان لوكار الكبير San Lucar la Mayor وبعض القرى التابعة لمدينة اشبيلية

ثم خرجت من هذه المدينة الجميلة قاصدا غرناطة (Grenade) Granada وأنا أردد قول الشاعر فيها

ذكرتك ياحمص ذكرى هوى * أمات الحسود وتعنيتـــه
كأنك والشمس عنـد الغرو * ب عروس من الحسن منحوته
غدا النهر عقدك والطود تاجـ * ـك والشمس أعـــلاه ياقوته

مدينة غرناطة وقصر الحمراء

وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرنى ماعهدته فى بلاد المشرق وخصوصا المنارات التى كانت قائمة بجانب الجوامع فصارت مجاورة للصوامع وما آذن المساجد التى أصبحت نواقيس للمعابد وصرت أتذكر مجد العرب وعظم دولتهم حتى قدمت الى غرناطة المعروفة قليـلا باسم اغرناطة ويسميها العرب دمشـق من باب التشبيه واسمها معرب عن الاسبانية ومعناه الرمانة

وصلت هذه المدينة الى مالم تكد تصل اليه مدينة مّا فانها حينما استولى الافرنج على معظم بلاد الاندلس انتقلت اليها بقايا المسلمين فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود حتى بلغ عدد فرسانها وحدها ٥٠٠ر٥٠ ورجالها ٣٥٠ر٠٠٠ من غير ضواحيها وأعمالها فقد كانت جيوشها تبلغ بهم ٢٠٠ر٠٠٠ يخرجون للقتال من أهل غرناطة والبُشَرّات Alpujarrat (Alpuxarat) ووادى آش Guadix وقد رأيت أن أختم رسائلى المؤتمرية فى هذه المدينة التى كانت آخر ملاذ للمسلمين

وصلتها بالليل ونزلت فى فندق واشنطون وهو على ماعلمت فيما بعد من أهل التحقيق والمعرفة قائم (يالله أسف) على نفس مكان المقبرة الملوكية التى كانت ملوك المغرب تدفن بها ويسميها ابن الخطيب « التربة »

وبعد ان تناولت شيأ من الزاد عجلت بالاضطجاع وحينئذ ذهب عنى الرقاد لهجوم الافكار وتذكر ماوقع بتلك الاعصار والتفكر فى أحوال الدنيا وتقلبها باهلها حتى أثقلنى السهر وبرّح بى التعب فانمضت الجفون وما استيقظت الا على تجاوب الاطيار فوق أغصان الاشجار كأنها تقول لى

تنبه فقد شق البهار مغلسا * كمائمه عن نوره الخضل الندى
مداهن تبر فى أنامل فضة * على أذرع مخروطة من زبرجد

فقمت ونظرت الى الرياض وغابات الاشجار وتدفق المياه فقلت لله در الشاعر فى وصف مثل هذه المناظر

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنـــة * وكل طريق اليها سـقر

ولكنى تذكرت قول الوزير ابن عبدون الاندلسى ولاغرو فان أقوال الوزراء وزراء الاقوال

يانفحة الزهر من سرائك وافانى * خلوص ريالك فى انفاس آذار
والارض فى حلل قد كاد يحرقها * توقد النور لولا ماؤها الجارى
والطير فى ورق الاشجار شادية * كأنهن قيان خلف اســتار

ثم طفت بالحمراء Alhambra (١) وقصرها ومساجدها وساحاتها وأطلالها ورسومها وبقاياها التى تذهب بالجنان وتأتى بالجنون فوقفت باهتا حائرا فاقدا اللب والرشاد من هذا الاتقان الذى لم يكن يخطر على قلبى مع ما سمعته عنها من الاوصاف وماشاهدته من غرائب المبانى فى غير هذه الدار حتى لقد اشتد بى الهيام وكنت

أمر على الديار ديار قومى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

---

(١) وهى مدينة ثانية قائمة على قلة الجبل وأما غرناطة فهى فى سفحه

وماحب الديار أهاج وجدى * ولكن حب من سكن الديارا

ثم خرجت منها وأنا أخاطبها بقول الشاعر

وقفت بالحمراء مستعبرا * معتبرا أندب اشتاتا

فقلت ياحمرا ألا فارجعى * قالت وهل يرجع من ماتا

فلم ازل ابكى وابكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا

كأنما آثار من قد مضى * نوادب يندبن امواتا

وعند الباب قدموا لى دفتر الزيارات فكتبت هذه العبارة التى املاها الخاطر واليد مرتعشة والفؤاد واجف والعين باكية

أحق بهذه الحمرا أحقا أننى فيها

لله هذه القصور وهذه الدور ولله قوم خلد وا فخرهم على مدى العصور بذى آثارهم الباقية تنطق بعظمتهم الغابرة وتنبه الغفلان الى بقاء الملك الديان وأن كل من عليها فان وتذكر بنى الانسان بوجوب التعاون على البر والاحسان والتباعد عن التخاذل فهو الخسران ويرحم الله عبدا رأى فتذكر ونظر فاعتبر

يوم الثلاث ٧ رجب الفرد سنة ١٣١٠
(٢٤ يناير سنة ١٨٩٣)

أحمد زكى
مندوب الحكومة المصرية
فى مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة

ثم انتقلت من الحمراء وزرت اسوار المدينة وأبراجها وبعض مناراتها وكثيرا من قصور ملوكها ويعلم الله انني مارأيت فى طول سياحتى شيأ أدق واتقن وأجل وأكمل مما رأيته فى هذه المدينة حتى لقد رأيت ان المقرى لم يقرب من الحقيقة حينما مدح غرناطة اثناء وصفه للاندلس بقوله

هى جنة الدنيا التى * قد أذكرت دار المقامه
لاسيما غرناطة الـ * ـغراء رائقة الوسامه
بروائها وبمائها * وهوائها النافى الوخامه
ورياضها المهتزة الـ * ـاعطاف من شدو الحمامه
وبمرجها (١) النضر الذى * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التى * يابى لها الحسن انقسامه

ولقد كانت غرناطة لايعدلها فى داخلها وخارجها بلد من البلدان

---

(١) مرج غرناطة يعرف عند الافرنج بهذا الاسم (La vega) وهو كلمة اسبانية معناها المرج ومن الغرائب ان الدون ايجيلاذ (Eguilaz) وهو من أعيان أهلها ومن نبهاء المشتغلين بالآداب والآثار العربية قد أطلعنى على صورة خاله مصرى طولها ٨ سنتيمترات ومنقوشة بالحروف الهيروغليفية وأخبرنى ان أحد الفلاحين قد عثر عليها فى المرج أثناء الفلاحة وتقليب الارض فنبهته الى وجوب الاعتناء بهذه المسئلة وموالاة البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية التى لاتنكر كما علمت ان القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة

ولا يضاهيها فى اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الاوطان ولا يأتى على حصر أوصاف جمالها وأصناف جلالها قلم البيان وكانت فى آخر الامر قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها ويقول كتاب العرب ان خارجها لانظيرله فى الدنيا وهو مسيرة ٤٠ ميلا يخترقه نهر شنيل (Jenil) Xenil المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لامثيل له بسواها ويعرف عند المؤلفين الاسبانيين بهذا الاسم Aindamar محرفا عن اللفظ العربى

ومازلت اتردد بين هانيك الديار واجوب تلك المعاهد وأنا أرى فى كل حجر وفى كل جدار آية ناطقة بعظمة هذه الامة ومجدها وقد جرنى ذلك الى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ أهل الاندلس أرقى ذروة من ذرى النعيم وتأنقهم وترفههم للدرجة التى ليس بعدها مطلب أو غاية

لمع من تأنق الاندلسيين

فمن ذلك ان اعتماد وهى زوجة المعتمد وأم أولاده المعروفة بالرميكية رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن وهى رافعات عن سوقهن يخضن الوحل والطين فقالت له اشتهى ان أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد

وصير الجميع طينا فى القصر وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين الثمين وانالت النفس مناها ثم اتفق بعد خلعه انه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين الازواج فقالت له والله مارأيت منك خيرا فقال لها ولايوم الطين تذكيرا بهذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال مالايعلم مقداره الا الله فاستحيت واعتذرت وسكتت

وقد مدح بعض الشعراء يعقوب أمير المؤمنين بالاندلس بقصيدة فيها ٤٠ بيتا فأعطاه على كل بيت ألف دينار

وكان بعض ملوكهم اذا جاءته رسل من أعدائه يأمر فى الحال باصطناع برك وحولها آساد وأشجار وازهار كلها من الفضة الخالصة والذهب النضار ترهيبا لهم وايقاعا للرعب فى قلوبهم من غير أن يشافههم بكلمة واحدة فينال من ملوكهم كل مايرتضيه

وقد كان عبد الرحمن بن الحكم أمير الاندلس كثير الميل الى النساء وولع بجارية له اسمها طروب وكان بها كلفا شديدا واتفق انها غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والاعراض وافتصرت فى مقصورتها فأرسل يترضاها وهى لاترداد الا اصرارا على الجفاء حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج فغلقت الابواب فى وجوههم فذهبوا الى الخليفة يستأذنونه فى اقتلاع الباب فامرهم

بان يسدوه بيدر من الدنانير يرصونها عليه رصا ثم جاء بعد ذلك يترضاها بنفسه ويعتذر اليها ففتحت الباب وانهالت عليها الاموال فقال لها كل هذا المال لك دون سواك ثم أعطاها حلية قيمتها مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا وأكرم جوهرا وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا مابدت لي شمس النهار * رطالعة ذكرتني طروبا

ومن ذلك ان محمد بن عامر المنصور وزير الاندلس المشهور صنع قصرا من فضة صافية وأهداه للسيدة صبح البشكنشية أم الخليفة هشام وحمله على رؤس الرجال فجلب حبها بذلك وقامت بامره عند سيدها الخليفة الحكم حتى قال الخليفة لبعض خواصه ان هذا الفتى سلب عقول حرمنا بما يتحفهن به

ومن ذلك ان الحكم ثالث خلفاء الاندلس كان له خاصة ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصره تجمعها داران

والاعجب من ذلك ماروا ه المؤرخون من ان الخليفة عبد الرحمن الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم فجلس في البهو الكبير المشرف باعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة

وحبس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها الفاصد رفقا * بأمير المؤمنينا
انما تفصد عرقا * فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين ذلك غاية الاستظراف وسُرَّ به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة أم ولده وولى عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لمثل هذا اليوم فوهب لها ما ينيف على ٣٠ ألف دينار

تقدم الاندلسيين

وأمثال هذه الوقائع أكثر من أن تذكر وأقول ان أول تبليط حصل بالمدائن كان فى قرطبة وكذلك الانارة العمومية بالليل قبل أن يعرف ذلك أحد من أهل الارض قاطبة فقد كان السائر يمشى فيها وفى أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة ١٠ أميال

معارف الاندلسيين

وأما رسوخ قدمهم فى العلم والعرفان فأمر يشهد به العدوّ والصديق ولا أذكر منهم الآن سوى أبى القاسم بن فرناس فانه أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فكّ كتاب العروض للخليل وأول من فكّ الموسيقى وقد صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق وصنع الآلة المعروفة بالمنقالة ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال

وقد احتال فى الطيران فكسا نفسه بالريش واتخذ جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال فى السقوط فتأذى اذ غفل عن اتخاذ الذنب ولم يتنبه الى ان الطائر انما يقع على زمكّاه

ولقد كانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء من العرب واليهود الاندلسيين وكانت الصنائع والفروسية والابهة فى عهدهم فى مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو أما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن الا فى قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان شانجه ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى أن يسافر اليها ليأخذ الطب عن رجل كان مشهورا فى عصره فلما استدعى به الملك أجابه مع الرسول قائلا ان كان للملك حاجة الىّ فليقدم علىّ ومثل ذلك الزيج الذى اشتهر به الفونس العاشر ملك قشتيلية وصار له به فخر على ملوك أوروبا انما حرر له علماء العرب كما يشهد بذلك علماء الافرنج أنفسهم

أسوة حسنة للمصريين

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام ان القوم ما وصلوا الى هذه الدرجة الا بالعلم والعرفان وما أجدر شبابنا المصريين الاذكياء المتعلمين أن يقتدوا بأهل الاندلس فى ذلك الزمان فانهم كانوا جميعا أحرص الناس على التميز حتى ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ ان يرى فارغا عالة على الناس وكانوا

يقرؤن جميع العلوم فى المساجد بالاجرة لانهم كانوا يتعلمون لاجل أن يعلموا الخلائق وينوروا الاذهان لالكى يأخذوا جاريا أومعلوما ولذلك كان العالم منهم بارعا لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم ومثلهم الآن معظم علماء أوربا

مراعاة الشرع

ومما ينبغى اضافته للعلم مراعاتهم للشرع الشريف حتى لقد كان للدولة الاموية فى أيام عز الاندلس هيبة وتمكين ناموس من قلوب العالم فكان فى ذلك ضخامة لدولتهم ورسوخ لاقدامهم وقد ذكر ابن حيان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكم على خليفتهم أوعلى ابنه أو على أحد حاشيته المختص به وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد للحق لهم أوعليهم وبذلك انضبطت لهم الامور وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وتوطدت القواعد ولما خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم واضمحل شأنهم وفشلوا وذهبت ريحهم حتى قال شاعرهم

أسباب دمارهم وفيها أعظم عبرة

مما يزهدنى فى أرض أندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

ومازالوا على هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتى تقلبت الدول وكان الخرق لايزداد الا اتساعا وصدق عليهم قول الشاعر

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة نتنصّف

فوقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف وأعيا العلاج حكماء الرجال وعصفت عليهم ريح العدوّ والحرب سجال حتى لقد تمكن منهم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين بعضهم بقبيح المنافسة ومرذول الطمع وآل أمرهم الى أن استقل العمال وأقام كل واحد منهم نفسه ملكا فى بلد واحد وصاروا يطمعون فى بعضهم ويستجيشون بالاسبانيين وبطاغيتهم ويسلمونه حصون المسلمين تشفيا لبعض غاياتهم حتى ان بعض ملوك الطوائف واسمه المأمون قبحه الله وأخزاه بعث الى ملك قشتالة أوقشتالة المعروفة أيضا باسم قشتيلية (Castilla) يستنصره على الموحدين ويسأله ان يبعث له جيشا من الروم يجوز به الى العدوة أى مراكش لقتال يحيي ومن معه من الموحدين فقال له ملك قشتيلية «لاأعطيك جيشا الا على شريطة ان تعطينى ١٠ حصون مما يلى بلادى كما أختارها لنفسى واذا منّ الله عليك ودخلت مدينة مراكش تبنى للنصارى الذى يسيرون معك كنيسة فى وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم أوقات صلواتهم وإن أسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه

من سبيل» فاسعفه النذل الجبان فى جميع ماطلب من غير تبصر فى العواقب

ويشبه ذلك أيضا ماجرى فى واقعة العقاب (١) وذلك ان محمد الناصر المشؤم على المسلمين وجزيرة الاندلس بالخصوص جمع جموعا اشتملت على نحو ٦٠٠٠٠٠ مقاتل وداخله الاعجاب والغرور بكثرة من معه من الرجال فصاف الافرنج فكانت الدائرة عليه وعلى المسلمين فان الافرنج دهموهم وهم على غفلة وغير أهبة وخلا بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب واستولى الافرنج على معظم الاندلس اذلم ينج من الستمائة ألف غير عدد يسير جدا لايقارب الالف وكانت هذه الواقعة هى الطامة الكبرى على الاندلس بل والمغرب وما ذلك الا لسوء التدبير فان الناصر ووزيره استخفا برجال الاندلس العارفين بقتال الافرنج وشنقا بعضهم وظنا ان كثرة الاجناد تغنى عن دربة القواد ففسدت النيات وتفرقت الكلمة وتخاذل المسلمون حتى ان جماعات الموحدين لم يسلّوا سيفا ولم يشرعوا رمحا ولاأخذوا فى شئ من أسباب الدفاع ولا أهبة القتال بل انهزموا الاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك والعدو يلى

(١) جمع عقبة لكثرة العقبات التى بجانب مدينة طلوسه *Tolosa* فى شمال اسبانيا وتعرف هذه الواقعة عند الافرنج بما هو ترجمتها *Las Navas de Tolosa* وقد أشرت الى الراية التى أخذها الاسبانيون منهم وهى فى برغش

فيهم ويقتل فيهم قتلا ذريعا وهم (يالنذالة يالنذالة) معرضون عنه بل عن الدفاع عن أنفسهم ويقول المؤرخون ان الناصر ثبت فى ذلك اليوم ثباتا لم يرلملك قبله

ولم يزل حالهم على هذا الاختلاف حتى حينما تضعضع أمرهم وضيق عليهم العدو أشد الضيق وأحدق بغرناطة من كل مكان ومع ذلك لم تنقطع شأفة الشقاق حتى كان فى هذه المملكة الصغيرة ثلاثة ملوك (١) أحدهم فى غرناطة نفسها والثانى فى أحد ضواحيها

---

(١) فمن أكبر المصائب ان أباعبدالله (المعروف عند الافرنج باسم *Boabdil* وهو الذى اضطر فيما بعد لتسليم غرناطة للاسبانيين) ثار على عمه أبى القاسم ملك غرناطة فساعده على خلع الطاعة وشق عصا الجماعة الملك فرديننند الكاثوليكى طمعا فى اشتداد الحصار واحتدام الفتنة ليضعف كل من الاميرين المسلمين صاحبه ويبقى فتح غرناطة هينا عليه ثم توفى أبو القاسم فخلفه على سرير الملك أبو عبدالله المذكور فلم يلتفت فرديننند الى ما بينهما من سابق المؤالفة والمحالفة بل استضعفه ورأى الغنيمة باردة فهجم عليه بجيوش قشتالية واراغون وبما جاءه من المدد الكثير من أور با ومع ذلك لم يتمكن من فتح غرناطة الا بعد ست سنوات فانه فى آخر الامر تمكن من حصارها ثمانية شهور وساعده نزول الثلج وكلب الشتاء على قطع الطرق وتضييق الحصار فجاءت الملكة ايزابلا لتحضر هذا الفتح بنفسها وتمتع بالدخول الى غرناطة

وقد تم التسليم بشروط وامتيازات تدل على ان المدينة كان فى وسعها استمرار الدفاع فانه تقرر ان الفاتحين لا يمسون شيا من أموال المسلمين ولا شرائعهم ولا ديانتهم

المعروف بربض البيازين (١) والثالث فى عملها القريب منها وهو مدينة وادى آش المعروفة أيضا بواديا ش و بوادى الآشات وكانوا قد أحسوا بهذا الخطر احساسا لامزيد عليه حتى (٢) انهم استبدلوا الاقوال التى كانت تستعمل عادة فى ضرب السكة بآيات وعبارات توافق

ولا حريتهم وأن لا يتعرضوا لهم بأى وجه كان بل انهم يردون اليهم اسراهم من غير فدية ومما يمدح عليه المسلمون و ينبغى تسطيره فى بطون التواريخ تخليد المكارم انهم اشترطوا أن يكون لليهود كل هذه الامتيازات أيضا وعلى هذا العهود خرج أبو عبد الله من غرناطة وسلم مفاتيحها للفرد نندوايزابلا

و يقول المؤرخون العصريون انه أذرف الدموع حينما رمى ببصره الى هذه المدينة التى كانت فى يد المسلمين منذ ٥٠٠ عام تقريبا فاضطرته الاقدار لتركها عامرة آهلة تفوق كل مدينة سواها وقد رأيت فى بعض التواريخ الافرنكية أنه حينما خنقته العبرة وأخمه البكاء قالت له أمه بيتا من الشعر معناه

انتحب مثل النساء على ملك لم تقدر على حفظه مثل الرجال

ولم أقف للآن على لفظ هذا الشعر بالعربية غير ان الشاعر الاديب محمود أفندى واصف قد نظمه فى هذا البيت

ابك مثل النساء ملكا مضاعا ✻ لم تحافظ عليه مثل الرجال

(١) هذا المحل سمى كذلك لكونه كان سوقا لاناس اتخذوا تربية البازحرفة لهم ويسمى عند الافرنج *Albaïcin*

(٢) هذا الاستخراج مما ينبغى الالتفات اليه وأقول انه مما لم يتنبه اليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم وهذا من ضمن الفوائد التى تنتج من علم النقود والمسكوكات

مقتضى الحال وقد رأيتها منقوشة على الدراهم والدنانير المحفوظة في متحف مدريد وعند الماجد الفاضل الدون أنطونيو ڤيڤس(١) D. Antonio Vives وهو من علماء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود وذلك مثل (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ولا غالب الا الله) . ومثل (غرناطة حاطها الله) . (غرناطة حرسها الله . مالقة حاطها الله) . (المرية حرسها الله) - ومثل (بحمراء غرناطة . نصر من الله وفتح قريب) - ومثل (العاقبة للمتقين) - ومثل (وما النصر الا من عند الله) - ومثل (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم صدق الله العظيم) - ومثل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) - ومثل (الامير فلان أعانه الله ونصره) . أو (أيده الله ونصره) وجميع هذه العبارات لم تكن مستعملة في نقودهم قبل الايام الاخيرة التي أعقبها انقراض دولتهم وما زالوا على هذه الفتن حتى امحى أثرهم من الجزيرة ولقي من بقي فيها من أنواع الاضطهاد والهوان ماسأفصله في الرحلة ان شاء الله

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام انهم قد شهد لهم الاعداء قبل الاصدقاء بأنهم لم يتم لهم في ظرف أربعة عشر شهرا فتح اسبانيا كلها فما عدا مغارات وصخور أستوريش Asturias (Les Asturies)

(١) انظر النبذة التي وضعتها بخصوص سماء الاعلام صحيفة ٤٢٦

لم يتجاوزوا الحدود ولم يشطوا فى الطلبات كما فعلنه جميع الامم الفاتحة بل أبقوا للمغلوبين أموالهم وشرائعهم وديانتهم مكتفين بضرب الجزية وبشرف السيادة والسيطرة (١) بل انه لم يجل قط بخواطرهم الزام أهل الجزيرة بالدخول فى دين الاسلام ولكن لما سقطت غرناطة اشتدت وطأة المحكمة المعروفة بمحكمة التحرى القسيسى (Inquisition) فكان لها من القسوة مع التسطيم فى ارتكاب الفظائع مايخجل له كل من فى قلبه ذرة من المروءة والانسانية وهذه المحاكم قد أمر الباباوات بانشائها لخدمة الدين ظاهرا والسياسة باطنا ولكن الاسبانيون أضافوا عليها أعمالا بربرية وحشية تقشعر لهولها الجلود وتجمد منها الدماء فى الشرايين فمن ذلك احراق الملايين من الكتب النفيسة وإبادة الآلاف المؤلفة من النفوس البريئة البريئة بأنواع العذاب والاحراق والاغراق وغيرذلك مما لايكاد يخطر على بال وعندماسقطت غرناطة أراد الكردينال شمينيس Xéminès ان يتنصر جميع المسلمين الذين فيها مع مخالفة ذلك للمعاهدة الصريحة التى عقدت

---

(١) وكذلك السلطان محمد الثانى لما فتح القسطنطينية وبلاد الاغارقة (*La Grèce*) ترك أهلها يتمتعون بحياتهم بكل سلام وأمان وأباح لهم ممارسة ديانتهم كأنه لم يطرأ عليهم شئ من الانقلاب وجرى على سننه الشريف خلفاؤه من بعده

مع أهل غرناطة وقت التسليم ولما كانت عملية التنصير تستوجب زمانا طويلا أراد الكردينال ان يصل اليها بغاية مايمكن من السرعة كما تم فتح غرناطة فى وقت قريب فأرسل قساوسته يعظونهم ويضطهدونهم كما يشهد بذلك نفس مؤرخيهم وما زالوا بهم حتى أخضعوهم واضطروهم للتعميد فدخل بهذه المثابة خمسون ألف نفس فى دين لايعتقدونه ولا يقولون به وياليتهم أبقوهم على ذلك بل جاء الكردينال تركماده Torquemada وزين لايزابلا انهم يظهرون خلاف مايبطنون وانه يسوغ حينئذ مصادرتهم فى أموالهم واعدامهم الحياة وقد كان

ولقد صدق على العرب ماقاله أحد ملوك فرنسا (وهو شارل مارتل) حينما فزع اليه أكابر دولته لما رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعة توغلهم فى البلاد فانه قال لهم مامعناه — (الرأى عندى ان لاتعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بايسر أمر) — فكان كذلك بالفتن التى استدامت بين البربر والعرب وبين العرب وبعضهم وصار بعض المسلمين يستعين ويستجيش على

بعض بمن يجاورهم من الاعداء وانقلب الموضوع وتبدلت الاحوال فقد أجلى المسلمون فى أول الامر جميع أهـل الجزيرة وأقصوهم الى آخر حدودها شمالا حتى لم يبق منهم الا ٣٠٠ رجل مع ملك يسميه العرب بلاى ويسميه الاسبانيون بلايو Pelayo ويسميه الافرنج بلاج Pélage فالتجأ هذا العدد القليل بمكان يعرف عند العرب بالصخرة ويعرف عند الافرنج الآن باسم جبـل كوفادونجا Covadonga ولم يزل المسـلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مات أصحابه جوعا وبقى فى ٣٠ رجلا و ١٠ نسوة ولاطعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيا المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا (ثلاثون علجا ماعسى أن يجىء منهم) وما علموا ان الائتلاف والاتحاد من جهة القشتاليين والتغابن والتخاذل من جهة أبنائهم وأعقابهم جعل لهؤلاء « الثلاثين علجا» من القوة والكثرة مالا خفاء به حتى قهروا العرب وأجلوهم بالمرة وأذاقوهـم أنواع الذل والهوان مما هو مسـطور فى كتب التواريخ وسألم ببعضه فى الرحلة ان شاء الله

واعـلم أن اخراج العرب من اسـبانيا أضر بهذه المملكة وبأهلها ضررا بليغا لم يحصل له نظير فى مملكة من ممالك العالم على الاطلاق فانها كانت فى أيام العرب عامرة زاهرة بالغة من الحضارة

والجلالة ماهو مشهور معلوم وكان عدد سكانها فى أزمانهم ٤٠ مليونا فاصبحت الآن مع الرجوع الى العمار وانتظام الاحوال بعض الانتظام ولم الشعث ورم الرث و رقع الخرق و رتق الفتق لاتحتوى على أكثر من ١٧ مليونا من النفوس فلذلك ترى أغلب أراضيها خالية وأكثر مزارعها خاوية ومصادر الثروة فيها مهملة وأصول الاسترزاق معطلة ولاأريد الاطالة بذكر الاسباب وانما أقتصر على ايرادشئ قليل يدل على مايضطرنى حجم هذه الرسائل وموضوعها للاجمال والاقلال فى المقال وذلك ان الملك فيليب الثانى وحده طرد ممن بقى من المسلمين مابين ٦٠٠ ألف و ٧٠٠ ألف نفس وكانوا كلهم لايشتغلون بغير الزراعة والتجارة والصناعة لايعرفون استعمال السلاح باى حال من الاحوال وكانوا مفيدين نافعين لانهماكهم فى الشغل والعمل فى بلاد اشتهر أهلوها بالبطالة والكسل وكان القوم يضطرونهم للتظاهر بالنصرانية ويكثرون مع ذلك من تعذيبهم واضطهادهم ومصادرتهم وتجشيمهم أنواع الاهوال التى لاتخطر على البال حتى انهم لما بلغ الضيم بهم منتهاه نزعوا الى الثورة وشق عصا الطاعة فاسترسلوا لداعى الفتنة ولكن أى فتنة وهم قوم لايدرون شيأ من الطعن والضرب ولذلك لم يكن على الدولة سوى ارسال نفر قليلين من جنودها لاخماد هذه

الشبه ثورة الضعيفة التي لاتذكر إخمادا تم في أقل من لمح البصر ولقد رقت لبلواهم حينئذ دولة فرنسا حيث رأتهم أناسا مستضعفين لاناصر لهم ولا معين سوى انكبابهم على اتقان الصنائع واخصاب الاراضي ولذلك راسلهم ملك فرانسا هنري الرابع (وقد أشرنا اليه أثناء كلامنا على التماثيل والانصاب في باريس) ووعدهم بالامداد والانجاد وانه يجعلهم تحت حمايته حتى لاينالهم ضير ولا أذى ولكن الدهر كان لهم بالمرصاد وشؤم الطالع ونحس البخت من ورائهم أينما وجهوا وجوههم لايرون الانكدا وبؤسا ولايلقون الاانتقاما وتعسا فقد قضى عليهم ان لايخلصوا من ورطة الاوقعوا في شرمنها وان لايسلكوا سبيلا للنجاة الا انقلب عليهم سبيلا للهلاك ولله في خلقه تدبير سبحانه قسم الحظوظ فلا عتاب ولاملامه وذلك أنهم لما تلهفوا بقدر ماتلهفوا ثم استنشقوا روح الامل القليل بمساعدة هذا الملك الجليل لم يلبثوا ان انقلبت أمانيهم خسرانا عليهم وويالا فان أحد الكتاب في نظارة الخارجية بفرنسا خان الملك وأذاع هذا السر وأعلم ملك اسبانيا بما عزمت عليه فرنسا فكان ذلك سببا للتعجيل في تفريقهم والاسراع بتمزيقهم والمبادرة لطردهم (وهم بقية بقايا البقايا بالاندلس) غير انهم كانوا شديدي التعلق بالبقاء بالاندلس للتمتع به واستنشاق

نسيمه فعرضوا على الملك ان يدفعوا له مليونين من الدنانير ثمنا لا بقائهم فى أرض مهادهم فلم يرض فيليب بذلك على الاطلاق ولكنهم لشدة تعلقهم ببلادهم أنفوا من الخروج مؤثرين الذل فيها على العز فى غيرها فالتجأ نحو ٢٠ ألفا منهم الى الجبال ولم يكن لديهم من وسائل الدفاع سوى الحجارة والمقلاع وهى من الوسائل التى لا تفيد شيأ ولذلك ما لبثوا ان اضطروا للتسليم ثم صار نقلهم خارج المملكة ففقد فيليب بذلك أفضل رعاياه وأكثرهم حذقا ومهارة . وقد لجأ أغلب من نجا بحياته من هؤلاء الاندلسيين المطرودين الى افريقية وطنهم الاول وأدخلوا بها من الصنائع والفنون ما جعل صحاريها جنانا وبواديها نعيما . وشخص بعضهم الى أرض فرنسا فى عهد مارى دومدسيس ثم بارحها الذين لم يرضوا بتغيير دينهم الى أرض تونس وأما الباقون فتقصروا واستقروا باقليم بروفنسه (Provence) ولانجدوك (Langdoc) بل ذهب بعضهم الى باريس واستوطن بها وكانوا معروفين متميزين عن بقية القوم ولكنهم مع توالى الزمن امتزجوا بالامة امتزاجا تاما فاستفادت فرنسا من حيث خسرت اسبانيا وهذه سنة الله فى خلقه تتداخل الامم فى بعضها بالاضطهاد و بالفتوحات — وقد قرر العلامة فولتير هذا الموضوع

ولقد أبقى العرب فى اسبانيا آثارا مادية كثيرة لا يزال بعضها باقيا الى يومنا هذا كما أنهم خلدوا فيها كثيرا من النظامات والقوانين

والسياسات والتراتيب والاحكام مما يراه الانسان فى هذه البلاد حتى اليوم كما انهم كان لهم مؤثر كبير فى الاخلاق والآداب حتى لقد رأيت فى أخلاق أهل إسبانيا أخلاق العرب وشهامتهم وكرامتهم فقد لقيت فيهم حسن الوفاء وحميد الطباع والتحبب الى الغريب والفرح بافادته واعانته سواء كانوا يعرفونه أولا يعرفونه وذلك مايجعلنى أفضلهم جهارا وأشهد على رؤس الاشهاد بان أخلاقهم أدمث وألطف وأشرف من جميع الامم التى طفت ديارها فى هذه الرحلة المستطيلة وسأشرح ذلك بالتفصيل عند الفرصة اعطاء لكل ذى حق حقه وتقريرا للوقائع كما هى حتى اننى وجدت فيهم من الطباع النبيلة ماقد نسيه أهل البلاد العربية واننى اذا تعصبت لامة من الافرنج فانما يكون ذلك لاهل اسپانيا حياهم الله وبياهم فقد آنست فيهم وفى بلادهم خصوصا أيام كنت أجهل لغتهم وليس لى من صديق فيهم وقبل وصولى الى مدريد مايجعل لسانى يتلو آيات شكرهم فى كل ناد ويفصح بمفاخرهم وآثارهم فى كل واد على توالى الآماد وأكرر قول الاندلسى على جميع البلاد

أخلاق الاسبانيين

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها ❋ تتعاقب الاحيان والازمان

تكملة الرسالة الاندلسية

وهى

(نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا)
(والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب)

اعلم أن كثيرا من أشراف العائلات الاسبانية الاصلية امتزجت بالعرب امتزاجا كليا ودخلت فى دين الله القويم ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لما كان لها بالطبع من الجاه والحسب وقد نبغ منها كثيرون

مثال ذلك ابن بونه وهو اسم لكثير من أدباء الاندلس وأصله الاسبانى (Bono و Bueno) ومعناها الطيب والجيد - ولاتزال عائلات اسبانيه كثيرة بهذا الاسم الى الآن ومثل ابن بيبش (وهذا هو الاسم الذى دعانى لتحرير هذه التكملة) وهو اسم لجملة أدباء اندلسيين منهم الغرناطى اللغوى الاديب أبوعبد الله محمد بن بيبش (Ibn Vivax) من شيوخ وزير الاندلس المشهور بابن الخطيب . وأصل اسم العائلة من كلمة اسبانية لاتينية (Vivas و Vives) مشتقة من فعل معناه الحياة والعمر والمعيشة - وربما كان صاحبنا الدون أنطونيو فيفس المذكور بالمتن (صحيفة ٤١٨) من نسل هذه العائلة فاذا صح ذلك الظن

تكون أصلها إسبانية ثم استعربت ثم استسبنت (أى صارت اسبانية كما كانت) ويكون الحكم كذلك فى بقية العائلات المذكورة فى هذه النبذة ❁ ومثل ابن بشكوال Ibn Paxcual وهو الشيخ العالم أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال من مشاهير المؤرخين من أهل قرطبة وله كتب كثيرة جزيلة الفائدة منها كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم وهو حجة ثقة واسمه مشتق من Pascual من كلمة لاتينية Paschalis ومعناها المنتسب لعيد الفصح ولا يزال باسبانيا وأوروبا عائلات كثيرة بهذا الاسم ❁ ومثل ابن الأَقْشْتِين وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الاديب محمد بن موسى بن هاشم وهذا الاسم من كلمة اسبانية Agustin فرنساويتها Augustin ولاتينيتها Augustinus ومعناها العظيم الجليل ❁ ومثل ابن البـاذش وابن البيذش Ibn-al-Pedex وهى كلمة اسبانية لاتينية نص ابن الأبار على ان معناها القدمان أى الرجلان Pedes وهو لقب لاديب غرناطى توفى سنة ٥٢٨ ❁ ومثل ابن بُرَّال Borrel و Burriel وهو أبو بكر من مشاهير أدباء الاندلس ولا يزال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ❁ ومثل ابن بَشْتَغِير (Ibn Baxtagair) وهو من أدباء الاندلس واسمه أبو جعفر ولقبه من كلمة لاتينية Bastagarius معناها الموكل بنقل أمتعة

الدولة أو الكنيسة فى الاحتفالات العمومية ❁ ومثل الرُّشَاطى وهو النسّابة الاندلسى أبو محمد الرشاطى Arroxati وهذا الاسم مشتق من كلمة اسبانية (روسيتا = Roseta بمعنى الوريدة تصغير وردة) ❁ ومثل ابن الرومية وهو لقب لاحد مشاهير علماء النبات من أهل اشبيلية وبما ان عادة العرب النسبة الى الاب لا الى الام الا فى أحوال استثنائية قليلة جدا فذلك يخيل لى أنهم أبقوا هذا اللقب دلالة على أصله كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس فان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza أو Vitiza المعروف عند العرب باسم غِيطشَه وربما كان الرجل من نسلها ❁ ومثل ابن غَرْسية وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الفقيه العلامة عبد الرحمن بن أحمد وهذا اللقب اسبانى محض Garcia وكان فى القديم يكتب هكذا Garsea و Garsia و Garseas و Garseanus ولازال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ❁ ومثل ذو الوزارتين السرقسطى ابن غُنْدَشَلْب وكان صاحب جاه عظيم ونفوذ كبير فى دولة بنى هود بمملكة الثغر الاعلى أى مملكة سرقسطة وله شعر جيد — وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo و Gonzalve و Gonzalez الخ ولايزال لقبا لكثير

من العائلات ۞ ومثل ابن فُورتش وهو لقب لبعض علماء الاندلس (ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد) — ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن ۞ ومثل ابن كُنبَراط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعمه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور — وهذا اللقب اسبانى محض ۞ ومثل ابن ليون لقبُ لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة المرية Almeria ولأبيه أبى جعفر من علماء الفلاحة المبرّزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب — وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجئ من اللاتينية Leonis, بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن ۞ ومثل ابن سَلْبَطُور من مشاهير علماء الاندلس وهذا اللقب مستعمل الى اليوم — وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلّص والمنقذ والمنجى وهو عَلَم فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه — ومثل ابن فيرُّه لقب للعالم الاندلسى المشهور صاحب الشاطبية وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد — واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيرُّه Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هييره » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Ferrocariles و Caminos de hierro فترى ان كلمة « فيرُّه » لازالت باقية عندهم فى بعض التراكيب ۞ ومثل ابن فوريتون وابن مورجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزالان مستعملين الى اليوم Fortun و Morejon ۞ — وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل توميرت وانجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله

ومن الامور التى يجب ذكرها تكملة لهذه الكلمة أن أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة «ويه» فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزدويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقاذويه وشيرويه وكاكويه وجويه ورجويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة «يان» و «آن» فى آخر أسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة «أوف»

و «إيف» ولا حاجة لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والجركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة «أوف» أو «إين» على أسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه «أحمد اغايف بك أى أحمد أغابك» واعلم ان نظير هذين الحرفين «الواو والنون» أى on فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية اذا وضعا فى آخر كلمة افرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا هذا المعنى من باب التسامى على المشارقة ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن :

بدرون . برون بكرون ـ جبرون . جلفون ـ حبرون .
حبنون . حضرون . حفصون . حكمون . حدون .
حمون . حيون ـ خلدون (١) خلفون . خيرون ـ دحون ـ

---

(١) أذكرهما من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو على المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

ياشاعرا يتسامى ❁ وجده خلدون
لم يكف أنك خل ❁ حتى بانك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبد الله محمد بن زيد بن على بن الحسن الواسطى المتكلم المشهور بقال

من سره أن لا يرى فاسقا ❁ فليجتهد أن لا يرى نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه ❁ وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط

رزقون - زرقون . زقنون . زكون . زيدون - سحجون . سعدون . سلبون . سلمون . سمحون . سمجون . سهلون - شبطون Xabaton - ضيفون - عبدون . عُبَيْدون (وفى هذا الاسم تصغير بالعربى وتكبير بالافرنجى) . عجلون . عسلون . عفيون . عمرون . عيسون . عيشون - غدرون . غلبون - فتحون . فلون . فرحون - قلمون . قنون - لطفون . وهبون - يسعون . يشعون . يحيون .

واعلم أن زيادة الواو والنون تعدت أيضا الى بعض أسماء النساء نذكر لك اسم الشاعرة نزهون وهى من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر المشتغلين بالنظم بديهةً واجادةً كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة حال مع شاعر أعمى من المشارقة تدل على شدة بديهتها حينما طارحته الشعر فى حضرة أحد الامراء ولولا مافيها من بعض الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر بها ولكن ذلك لايمنع الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب المطبوع فى بولاق صحيفة ٩٠ و ٩١ و ٩٢ وأخبارها فى صحيفة ١١٤٦ و ١١٤٧ من الكتاب المذكور وقد أورد الضبى شيأ من أشعارها فى كتاب بغية الملتمس فى تاريخ أهل الاندلس فى صحيفة ٥٣٠ (نمرة ١٥٨٨) من النسخه المطبوعة فى مدريد سنة ١٨٨٥

ونذكر أيضا اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك أن بعضهم أضاف على اسمه حرفى الواو والسين وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدوس أنسوس - عبدوس . عمروس - طحلوس . طملوس - فالوس فرعوس . فرغلوس - قبتروس . قبيلس ۞ ومنهم من يسمى حمديس وهذان الحرفان الانتهائيان هما أيضا من خصائص اللغة اللاتينية (Is) كما لايخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التى ذكرناها هى أعلام لعلماء ترى تراجمهم فى كتب ابن الابار وابن الفرضى والضبى وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة المعارف وآثار الادهار ومجموعة القطع العربية التى انتخبها العلامتان الاسبانيان لرتشندى و سيمونيت (Lerchundi y Simonet) والمعجم العربى الاسبانى الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

واعلم أيدك الله وأبقاك أنه لما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشى والاضمحلال وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن » واستبدلوها بعلامة الاضافة فى اللغة القشتالية وهى «دو» فكانوا يقولون (فلان دو فلان) أى (فلان من) أو (ابن فلان) ولقد نبهنى بعض الفضلاء الى أن الافرنج قد يكونون استعملوا لفظة (de = ذو) فى اضافة الاسماء والالقاب الخاصة بعائلاتهم الشريفة نقلا عن استعمال العرب اليمانيين الذين يستعملون لفظة (ذو = صاحب) أمام

أسمائهم وانى وان لم يتيسر لى استكمال البحث واستيفاء المراجعة لا أرى ما نعا من الظن بان الافرنج قد أخذوا ذلك عن أهل اليمن خصوصا وان التبابعة والاقيال كانوا يولون الغزو فى جهات الشمال من آسيا وفى بلاد فارس والهند ومن المحتمل ان كبار عائلات البلاد التى أخضعوها أو مروا بها قد تشبهوا بهم فى التكنيه بالقاب الشرف كما يحصل عادة من تقليد الامم المستضعفة للامم القوية العلية الشأن ولا يجهل الباحثون الواقفون على ارتباط اللغات ببعضها ان بين اللغات الفارسية والهندية وبين اللغات الاوروباوية ارتباطات ومشابهات كثيرة جدا فيما يتعلق باصول الالفاظ والتراكيب النحوية والاساليب الصرفية وطرائق التعبير وغير ذلك من العلاقات والمناسبات التى لا تنكر وانى أذكر لك الآن أسماء بعض ملوك اليمن الذين تصدرت ألقابهم بلفظة (ذو) : ذوالاذعار — ذوأصبح — ذوالاعواد — ذوجدن — ذوجيشان — ذورعين — ذو رياش — ذوسدد — ذوشدد — ذوالشناتر — ذوالصرح — ذوظلم — ذوفائش — ذوالقرنين — ذوقلاع — ذوكرب — ذو كلاع — ذو مرثد — ذوالمنار — ذومهدم — ذونفر — ذو نواس — ذوهجرس — ذوهرب — ذو يزن — ذو يمن

وكذلك وردت أعلام جغرافية كثيرة فى بلاد اليمن وغيرها مصدرة بهذه الاداة (ذو) ولعلى أستكمل البحث عن ذلك فى فرصة أخرى

ونرجع الى الكلام على ما يتعلق ببقايا الاندلسيين فى هذا الموضوع فنقول انهم بعد أن تناسوا لفظة (ابن) وصاروا يقولون (فلان دوفلان) استبدلوا لفظة السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون)(١) كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية

(١) وهى مستعملة عند أهل اسبانيا فى مقابلة موسيو عند الفرنساوية وسير عند الانكليز وسنيور عند الطليانية وهى مختصرة من كلمة لاتينية Dominus ومعناها الرب والمولى والسيد وقد أطلق هذا اللقب فى أول الامر على سادات اسبانيا ثم على ملوكها ثم هو الآن لقب التعظيم فيها

امام الاعلام العربية فى الكتابات والمخاطبات على ماهو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم الدون عيسى دوجابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع شقوبية (Ségovie) فى سنة ١٤٦٢ افرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى الفقه الاسلامى باللغة الاعجمية (الالخيادو) التى سبق لنا الاشارة اليها وقد طبعت هذا الكتاب جمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣ (فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة فضله وواسع علمه ۞ وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك التلقيب اليوم — والاغرب من هذا وهذا ما بلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (أى بعيدا عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أىّ تأثير للاختلاط مع أهل اسبانيا الآن) لايزالون يستعملون هذه الطريقة فى التسمية أى وضع كلمة « دو » فى المكان الذى يضع فيه بقية العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم — هذا وقد رأيت عند الدون بابلو خيل فى سرقسطة حججا شرعية وصكوكا معاملات ووقفيات مكتوبة باللغة الاعجمية (الخيادو) وفيها « الدُّنيا عائشة » أى السيدة عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى

استكمال البحث فانى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قد يكون بعضها مأخوذا بالوراثة وبعضها عفوا أولمناسبة أخرى ومثال ذلك Codera وهو قديرة (ولايزال الحاج قديرة والحاج قدور من أسماء أهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ومثل Zaïdyn = زيدين ❁ و Abad اى عباد ❁ و Alvarez = الفارس ❁ و Alvarez del campo أى فارس الميدان ❁ و Baguer = الباقر ❁ و Moreira = مريرة ❁ و Sofi = صوفى ❁ و Ferran = فران ❁ و Almenara اى المنارة ❁ و Alcayde = القائد ❁ و Alcalde = القاضى (ولايزال هذا اللقب عندهم مرادفا للمحافظ والمدير وحاكم البلد كما كان يسمى عند العرب بالقاضى اذ له اختصاصات كثيرة فى الشرع الشريف ويسمى عند الفرنساوية Alcade وان كان الاسبانيون أضافوا الاما L من باب التحريف فى قولهم Alcalde فانما ذلك لاظهار تفخيم الضاد) ❁ و Rabadan = رمضان (الباء حلت تحريفا محل الميم العربية) ❁ و Nasarre = نصار (والاسبانيون ينطقون بحرف S سينا على الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الاخرى) ❁ و Calaf = خلف ❁ و Maymon =

ميمون ۞ و Alvaro = البر ۞ و Meaza = معازة ۞ و Alfageme = الحجام الخ

وهذه الاعلام كلها لاناس موجودين فى اسبانيا الآن رأيت بعضها فى كتب الدلالات وعرفت بعضهم بنفسى ومن ينظر الى اعلام الاسبانيين الآن يرى فى آخر أكثرها هذين الحرفين Ez وهما على ماتأكدته علامة على البنوة فكل اسم فى آخره ذلك يكون معناه ابن فلان مثل Fernando أى فرنندو ثم Fernandez أى ابن فرنندو وهكذا فى جميع الاسماء ولم أر مايشبه ذلك فى بقية اللغات الافرنجية التى اطلعت عليها نعم ان كثيرا من أسماء الانكليز تنتهى بمرادف لفظة ابن وهى سَن أوسون son مثل سامويلسن وروبرتسن وجونسن ونحو ذلك ولكنها لاتشعر بالدلالة على البنوة وربما كان هذا المعنى مفهوما منها فى أول الامر ثم تنوسى الآن مرة واحدة بخلاف ماهو فى اسبانيا

وهذا مايدعونى الى الظن بانه أثر باق من آثار العرب الذين يتنسبون على الدوام الى الاب مع لفظة ابن والذى يقوى ذلك الظن ان هذه الزيادة فى آخر الاعلام الاسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة « زاده » و « أوغلى » التى تضاف على أواخر الاعلام التركية والله أعلم

(الخاتمة)

بعد أن زرت غرناطة وكتبت رسالتي الاندلسية التي لم يتيسر لي أن أورد فيها جزأ من عشرين مما وقفت عليه من أحوال الاندلس وما رأيته فيها من آثار العرب و بقية أخلاقهم وغير ذلك مما قد يستغرق مجلدا ضخما قمت الى قرطبة(١) وشاهدت المعاهد والبقايا في هذه البلدة الشائقة بل الجنة الرائقة التي يسقيها الوادي الكبير وتحفها أشجار الليمون والبرتقال والرمان فينتشر أريجها ويضوع نفحها فيتعطر هواؤها ويطيب المقام بها ولم تصل مدينة اسلامية الى ماوصلت اليه قرطبة من كثرة المساجد فانها بلغت فيها ١٦٠٠ مسجد وأوصلها آخرون الى مايزيد عن ضعف ذلك وأهم مارأيته فيها هو المسجد الجامع الذي لانظير له في العالم الاسلامي وقد كان في مكانه كنيسة فاشترى المكان عبد الرحمن الداخل بمبلغ مائة ألف دينار ثم صرف على بنائه وتشييده ثمانية آلاف ولكن الملوك والخلفاء الذين أعقبوه لم يقتصروا على ذلك بل رأوا من الضرورة توسيعه والزيادة فيه وعدد هؤلاء الخلفاء ثمانية وكان كل واحد ينفق بقدر سعته ومنهم الحكم أنفق وحده أكثر من ١٦١ ألف دينار وكلها من فيء المسلمين الذي يخص بيت المال

(١) يقول العرب ان معناها باللغة القوطية (القلوب المختلفة) وقال بعضهم (أجزوا سكنها)

وحده (وهو عبارة عن خمس الغنائم كما هو معلوم) ولما جاء المنصور بن أبي عامر وزير الاندلس المشهور وعزم على زيادة المسجد ليكون مناسبا لاتساع قرطبة وزيادة سكانها كان يحضر أرباب الدور التي يريد نقلهم عنها فيقول للواحد منهم «ان هذه الدار التي لك ياهذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطّط واطلب ماشئت» فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له وأن تشترى بعد ذلك له دار عوضا عنها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت «لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة» فقال «تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال» فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ في الثمن (وهو دليل على شدة عناية القوم باشياء المشرق وكثرة حنينهم الى النخل الخاص ببلادهم الاصلية ولعبد الرحمن الداخل ولغيره من الملوك قصائد جليلة في مخاطبة النخل) وقد استمر المنصور في أعمال الزيادة بالجامع مدة سنتين ونصف وكان يخدم فيه بنفسه كأحد العمال وكان قصده الزيادة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة واعلم ان هذا المسجد أصبح الآن عبارة عن كنيسة كتدرائية جامعة وقد بقيت معالمه الرئيسية على ماهي عليه وأقسم بالله انني أكثرت من البكاء المرحينما دارت في صحونه وبين عمدانه ووقفت في محرابه وتأملت مافيه من غرائب الاتقان التي لاتخطر على بال مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة يوجب المهابة التعبدية في نفس الزائر ويجعله يشعر

حقيقة بوجود خالق معبود قسم الحظوظ وقدر الارزاق وأراد ما أراد ولا أتصور أن الخشوع الديني والخضوع التعبدي يحدث في نفس أيّ انسان في أيّ معبد من المعابد التي اقامتها جميع الامم على اختلاف نحلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر وبانفعال أتم وأكمل مما رأيته في هذا الجامع الذي يحتوي على ١٢٩٣ عمود من مختلف الرخام والصوان وكلها منقوشة التاج والقاعدة بكيفيات تخالف بعضها وقد كانت قبته مستندة على ٣٦٥ عمود من نفيس المرمر وبلغ مسطحه ٢٣١٥٠ ذراع مربع وأما المحراب فقد رأيته مصنوعا من أحجار دقيقة مختلفة الالوان متركبة مع بعضها على نظام الفص والفسيفساء بحيث تحدث منها أشكال متناهية في الجمال وآيات قرآنية وأحاديث نبوية واذا نظر لها الانسان من ذات اليمين رأى ألوانا وأضواء وأشكالا وتراكيب تخالف كل ما يراه لو وقف جهة الشمال وكذلك الامر فيما لو وقف في الوسط أو تقدم أو تأخر وهكذا وخلاصة القول اني أتصور هذه القبلة مركبة من أحجار كريمة دقيقة مرصوفة بجانب بعضها باكمل ذوق وأحسن أسلوب

ثم خرجت من قرطبة منقبض الصدر مكلوم الفؤاد ولم أرض برؤية شئ غير المسجد في عاصمة الاندلس العربية

وقمت الى مدريد ومنها الى سرقسطة الى برشلونة Barcelone الى مارسيلية فبقيت بها أياما شاهدت كل ما يجوز للغريب وعابر

السبيل ان يراه فيها وفى أول فبراير سنة ١٨٩٣ امتنع الخبازون عن اصطناع الخبز لخلاف فى التثمين وقع بينهم وبين البلدية فكان لذلك منظر من أغرب المناظر واستمر الحال ثلاثة أيام كاد الناس يقتلون بعضهم فيها ثم انحسمت النازلة على أحسن حال

ورأيت فيها آثارا كثيرة وأعمالا عظيمة منها القصر والبستان والمتنزه (البرادو) الذى لانظير له فى العالم وكنيسة فاخرة على جبل عال يصعد اليها بعربات تجرها قوة الغاز من أسفل الى أعلى على قضبان حديدية تكاد تكون رأسية عمودية بلاصق الجبل وهى تزيد فى العظمة عما رأيته فى تورينو وركبت فى عربات الامنيبوس التى تجرها الكهرباء باسلاك معلقة فى الجو تتصل العربة بها بواسطة سلك معدنى فتندفع العربة الى الامام أو الخلف بقوة شديدة أو خفيفة أو تقف مرة واحدة بحسب ارادة السائق عند اللزوم . وأقول الحق ان أول شئ عنيت به عند دخولى اليها أننى أكلت من طعامها المشهور وهو البويابيس la bouillabaisse ورأيت كثيرا من مصانعها ومعاملها والذى يستحق الذكر منها الآن بغاية الايجاز هو معمل أنشأه أحد الاطباء للمساعدة على إتمام خلق الجنين الذى يولد بعد ٦ أو ٧ أو ٨ أشهر أى كل جنين يولد قبل الميعاد وتكون فيه الروح ولكنه اذا تُرك مات فى الحال فترى الاجنة موضوعة فى براقيل زجاجية فيها الحرارة والغذاء

مدبرتين تدبيرا عجيبا بأنابيب تتصل الى الجنين بدرجات معلومة ولله فى خلقه أسرار تبارك الواحد القهار

ثم قمت الى مدينة تولون وهى أهم ميناحربية بحرية ببلاد فرنسا وقد كان للمسلمين بها جامع فخيم فى أيام السلطان سليمان القانونى فان شرلكان ملك فرنسا استنجد بالسلطان العثمانى فارسل له عمارة بحرية تحت قيادة الاميرال خير الدين باشا المعروف عند الافرنج باسم Chéridin المشتهر عندهم أيضا باسم Barbeousse أى ذى الذقن الصهباء وقد أقام الاميرال العثمانى بالمدينة شتاء كاملا وكان له الحكم المطلق فيها وقد جعل أحد دورها الكبيرة مسجدا جامعا للمسلمين

ثم انى قمت الى مدينة نيس (Nice) المعروفة عند العرب باسم نيقة فانهم قد احتلوها هى وشواطئ فرنسا الجنوبية زمنا مديدا وهى من أجل المدن وألطفها وأنظفها وغاية ما أقوله عنها الآن أننى شاهدت فيها الاحتفال بالكرنڤال (أى عيد المرافع) وهو أعظم احتفال يحصل فى العالم كله من هذا القبيل اذ تجىء اليها قطارات مخصوصة لحضوره هذا اليوم المشهود من لوندره وباريس وبرلين وڤيانة ورومة وغيرها من امهات مدن أوروبا كلها بل ويحضرها فى هذه الفرصة كثير من أهل أمريكا ويحتفل به الاهالى والبلدية احتفالا يشمل جميع أجزاء المدينة ويدفع التجار رسما معينا لمعاونة

البلدية على تنظيم الاحتفال والانوار باغرب ماتتصوره العقول وأبهى ماترتاح له النفوس ومتى حلت أيام المرافع ارتفع سلطان العقل من آفاقها وذهب موليا الادبار طالبا النجاة بنفسه فى غير هذه الديار ثم يحتلها سلطان الجنون بجنوده فتسقط التكاليف وتمتنع الحيثيات ويبقى الناس كلهم كلهم فى درجة واحدة فرحين مستبشرين ضاحكين ساخرين وهم متشحون بغرائب الملابس ويتخذون لوجوههم ورؤسهم صورا ما أنزل الله بها من سلطان ويرقصون جميعهم فى الشوارع مختلطين نساء ورجالا وعذارى وأطفالا ويترامون بقصاصات الورق Confetti والارز والفصولية وباقات الازهار وغير ذلك مما لا تحيط به الافكار وهم يسيرون زرافات ووحدانا مشاة وركبانا ويتخذون عربات غريبة الشكل تضحك الثكلى وتزيل طوعا أوكرها تقطيب الوجه العبوس ويصطنعون سفنا تجرها الافراس والخلاصة أنهم يركبون من الرقاعة والخلاعة كل متن ويذهبون فيهما كل مذهب ومع ذلك ترى النظام سائدا والادب العمومى ضاربا أطنابه فى قواعده الكلية فقط وهم فى هذه الايام لا يعرفون الزعل أو الكدر أو الغيظ أو الحنق أو المضايقة أو غير ذلك مما هو من مستوجبات الطبيعة البشرية ولهم فى ذلك نظامات ورسوم معلومة لكل يوم من أيام الاحتفال ولا شك ان شرح ذلك بالبيان الذى يجيش فى صدرى

يستوجب رسالة ضافية مطولة لايسعها المقام الآن وليس الخبر كالعيان

ثم قت الى مدينة موناكو ومنت كارلو (منت قارلو فى كتب الجغرافية العربية القديمة) ورأيت جمال مناظرهما الطبيعية وصفاء البحر تحت أقدامهما وبهاء الجبال فوقهما ونضرة الاشجار فى جميع جهاتهما وغير ذلك من المنازه الطبيعية والصناعية التى تنبسط لها النفس وينشرح منها الخاطر ومدينة منت كارلو مشهورة بالمنتدى الذى هو أكمل وأجمل منتديات العالم فى لعب الميسر (القمار) وقد زرته للوقوف على حقائقه وأحطت علما بقوانينه واجراآته

ورأيت بها معرضا عاما خصصوا له محلا عظيم الاتساع ليعرض فيه العارضون كل مايريدونه من صناعة وتجارة وفنون وعلوم وزراعة وغير ذلك وتعطى فيه لاحسن العارضين وسامات وشهادات على سبيل المكافأة - وما أحسن ماقالته احدى الجرائد فى هذا المعنى « كان الاليق بهذه الامارة أن تقيم معرضا لفنون العاب القمار لانها احتكرتها ونبغت فيها بل تفردت بها على غيرها من الممالك والبلدان »

ثم خرجت منهما قاصدا بلاد ايطاليا فمررت على جنوة فبيشة (لاأنساها) فرومة وأقمت بها ثلاثة أيام ورأيت فيها الاحتفال بالكرنفال

وشاهدت حرب الزهور Bataille des fleurs ولكن احتفالها مع جسامته وفخامته لايساوى جزأ من عشرين مما رأيته فى نيقة Nice ثم ركبت البحر عن طريق برندزى ووصلت الى الديار وحمدت الله على ماحصل من توفيقه لى وعنايته بى أكثر مما كانت تحوم حوله آمالى

* * *

والناظر الى هذه الرسائل يعلم اننى بارحت القاهرة فى يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٩٢ ورجعت اليها فى يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ فتكون مدة رحلتى ستة شهور بالتمام قد لاقيت فيها حر أوربا وحمارته كأشد مايكون وقاسيت بردها وصبارته فوق مايقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوروبا لاول مرة ويرى اننى زرت مرتين ثنتين خمسة من عواصم أوروبا وهى رومة وباريس ولوندره ومدريد ولشبونة منها مملكتان يحكمهما ملكان من الرجال وهما ايطاليا والبرتقال ومنهما مملكتان أخريان تحكمهما ملكتان وهما انجلترة والاندلس والخامسة جمهورية فرنسا وتقابلت بمسلمى ليفربول وتشرفت بلقاء ملك البرتقال وملكة الاندلس وانى زرت أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق وتعلمت لغة أهل الاندلس الحالية حتى توصلت الى الكتابة والخطابة بها على قدر الامكان وزرت مناجم الفحم وبلاد

الاندلس بالتفصيل وكتبت شيأ يسيرا مما عرفته عنهما ففتحت هذا الباب وشاهدت ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم فقط وهى أكسفورد فى انجلترة وقلمرية فى البرتقال وشلمنقة فى إسبانيا وحضرت عيد الميلاد فى مدريد وعيد رأس السنة فى لشبونة وأكلت الفول المدمس باوروبا ولم يحصل ذلك لغيرى من المصريين وحضرت جلسات مجلسى النواب والشيوخ فى فرنسا وشاهدت الاحتفال الرسمى بافتتاح مجلس نواب البرتقال وحضور الملك والملكة والقاء الخطبة الملوكية وشاهدت قتال الاثوار فى اسبانيا واعتصاب الخبازين وامتناعهم عن عمل الخبز مدة ثلاثة أيام فى مارسيليا والاحتفال بالكرنفال (المرافع) فى نيقة Nice ورومية وغير ذلك من الامور الكثيرة المتعددة التى لم يتيسر حصولها مرة واحدة وفى رحلة واحدة لمصرى قبلى وان ماذكرته وخصوصا عن الاندلس فى هذه الرسائل هو قليل جدا فى جانب ماأتوسل الى القادر الكافى بوالت نعماؤه ان يوفقنى ويعيننى على تحريره وتدوينه فى الرحلة الكبرى لتكون هى وهذه الرسائل وسيلة لحث بنى الاوطان على السياحة والافادة والاستفادة وعسى ان كل واحد يذهب فى أوروبا من طريق غير الذى رسمته يكتب لنا عما يراه وعما تنبئه به احساساته ليتكون فى

لغتنا الغربية مجموعة سياحات توقف القارئ على أحوال هاتيك البلاد التى أصبحت منبع التقدم ومقر العرفان

***

والمأمول فى وجه الله الكريم المنان أن يوفق أبناء الوطن الى توفيته حقه من الخدمة فى ظل فخر الانام وعماد الزمان ولى العصر ومليك مصر مولانا الاكرم وخديوينا المبجل عباس باشا حلمى الثانى أدامه الله كهفا للمعالى فهو الذى تفضل علىّ بنظره العالى وانعامه المتوالى حتى كتبت هذه الرسائل وبثثتها فى قومى قياماً بما وجب له من فرائض الشكر على عبده

المخلص



ملخص الخطبة المؤتمرية

التى ألقيتها باللغة الفرنساوية فى جلسة القسم السامى العام المنعقدة
بمدرسة لوندرة الجامعة فى يوم الخميس ٨ سبتمبر سنة ٩٢
(وقد طبعت بالعربى والفرنساوى فى الجرائد
الرسمية المصرية ثم فى كراسين على
حدتهما بأمر دولتلو أفندم
رياض باشا رئيس مجلس النظار
وناظر المعارف العمومية)

صورة المقدمة التى نشرتها الجريدة الرسمية
(الوقائع المصرية) الصادرة فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٣

حضرة أحمد زكى افندى

فى المؤتمر الدولى التاسع للعلوم الشرقية بلوندرة

كان اجتماع المؤتمر التاسع للعلوم الشرقية فى مدينة لوندرة عاصمة الدولة الانكليزية وقد ندب له من مصر مبعوثون كبقية الدول الشرقية والغربية وكان ممن اختارتهم حكومتنا المصرية

لهذه المأمورية حضرة الفاضل الشهير أحمد أفندى زكى مترجم مجلس النظار لما له لديها من الاعمال العلمية النافعة فتوجه اليه فى أواسط أغسطس سنة ١٨٩٢ ومر قبل وصوله لوندره على بعض الممالك الاوروباوية وطاف كل مدن ايطاليا الشهيرة

وفى أوائل سبتمبر من تلك السنة وصل الى لوندره واشتغل فيها باكمال ما أعده حضرته للعرض على المؤتمر من المؤلفات والمصنفات وفى الخامس منه اجتمع المؤتمر ثم انقسم الى فروع للنظر فيما يعرضه العلماء من المباحث والعلوم فكان حضرته فى القسم المخصص للنظر فى الساميات (نسبة الى سام بن نوح عليه السلام) وقد انتخب للنيابة عن مصر فى اللجنة الدولية العامة التى نيطت بالنظر فى عقد المؤتمرات الآتية وتنظيمها ووضع القوانين اللازمة لهذه الاغراض وقد توالت الجلسات الى الثانى عشر من ذلك الشهر فاجتمع المؤتمر الاجتماع الاخير فخطب جناب الرئيس خطبة انتهائية شكر فيها كل من لبوا الدعوة من الممالك فكان لهم بين وفود المؤتمر علماء وفى هذه الحفلة الختامية ترجم حضرة أحمد افندى زكى القصيدة التى ألقاها حضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد راشد (زميله فى هذه المأمورية) من اللغة العربية الى اللغة الفرنساوية بطريقة تشبه ارتجال الشعر فى السرعة والحضور حتى شخص

له المجتمعون وأكبروا ماعمله اذلم يكن له عليها سابقة استحضار ولااطلاع ثم انفض الجمع باعلان الرئيس بانقضاء جلسات المؤتمر وشكران جميع من حضروه

أمّامالاقاه حضرته من كرم الوفادة والنظر اليه بعين الاعتبار وتقدير عمله واجتهاده والتعرف اليه بما له من آثار الفضل قبل وصوله هو اليهم فكان فوق ماعهد للنظائر والانداد حتى ان جناب اللورد نور ثبروك الذى حضر الى المؤتمر بالنيابة عن نجل جلالة الملكة الذى عقد المؤتمر تحت حمايته لما أولم وليمة الاجتماع الاول لهذا المؤتمر لم يدع فيها من علماء الدول الشرقية سوى هذا المندوب المصرى نائبا عن مصر فى تلك الوليمة التى أعدوها من الرسميات هذا ولما انفضت جلسات المؤتمر مكث حضرته فى لوندره أكثر من ثلاثين يوما للبحث فيها ودرس أحوالها ثم تنقل فى كثير من مدن انكلتره وبلاد الغال ثم عاد الى فرانسا وأقام بباريس أكثر من شهر درس فيه أحوال مدنيتها وعلومها وآثارها كما ينبغى ثم تنقل فى بعض مدنها الشهيرة وخرج منها قاصدا بلاد الاندلس (اسبانيا) فلبث بها مدة لاقى فيها أعاظمها وعلماءها وبعض وزرائها ثم توجه الى بلاد البرتقال ولاقى جلالة ملكها وزار بعض مدائنها وبعض حصون العرب الباقية على قلل الجبال الى الآن ثم رجع

الى البلاد الاندلسية لانها هى تقريبا الغاية المقصودة من تلك الرحلة وتشرف بمقابلة ملكة الاندلس مقابلة خصوصية ولبث فى الاندلس ونواحيه ومدنه العربية أسابيع قضاها كلها فى البحث وإمعان النظر فى نفائس الكتب والآثار الموجودة هنالك

ثم قدم الى مصر فى الرابع عشر من شهر فبراير الماضى سنة ١٨٩٣ معرجا على مدائن النزهة التى فى جنوب فرانسا وعلى رومية العظمى عاصمة ايطاليا وفى يوم الاربعاء الماضى تشرف بمقابلة الجناب الخديوى المعظم مقابلة خصوصية فى سراى عابدين العامرة فنال من لدن جنابه العالى وافر الاقبال ومزيد الالتفات وفى أثناء هذه المقابلة رفع حضرته الى المقام الكريم ما أرسله بعض علماء اسبانيا معه من الكتب العربية المطبوعة هنالك هدية للجناب الفخيم وقدم مجموعة صور قصر الحمراء الشهير الذى هو أعظم أثر للعرب قائم فى بلاد الغرب شاهد بما لهم من ضخامة الملك وعظيم العمران فلم يوجد له نظير بين أولئك الامم الى الآن على ما برعوا فيه من الاختراع وتقدمهم فى المدنية والعلوم وفى آخر هذه المجموعة صورة يوم تسليم غرناطة من آخر ملوك العرب وهو أبو عبد الله من بنى نصر الى الملك فرديننذ وزوجته ايزابلا الملكة وكذلك قدم للجناب الرفيع ملخصا عن أعماله التى

قدمها لذلك المؤتمر فى العلوم العربية وبعضا من كتبه التى ترجمها وطبعت أيام غيبته عن مصر فتلقاها الجناب العالى كلها بوجه طلق وأظهر حفظه الله مالا مزيد عليه من علامات الارتياح وقد كان حضرته فى أثناء عرض هذه الصور وتقديم تلك الهدايا يشرح حال الاندلس وما عثر عليه من آثار العرب وكتبهم ولغتهم وعلومهم وأخلاقهم بدقة أبحاثه هنالك وطول معاشرته لكبراء الباحثين من الاسبانيين كل ذلك والجناب العالى مقبل عليه كل الاقبال مظهر له علامات السرور والامتنان

وقد استدامت هذه المقابلة نحو نصف ساعة وخرج بعدها من بين يديه الكريمتين منطلق اللسان بشكر ولىّ النعم الاكرم الذى أنعم عليه بهذه المأمورية العلمية الجليلة وأتيح له بسببها الوصول الى تلك الغاية الحميدة وأجلها علمه بحالة بلاد الاندلس أيام العرب وما آلت اليه بعد صيرورتها الى الاسبانيين فانه قبل أن يسافر الى ذلك المؤتمر عرض على الجناب العالى حفظه الله أن يذهب الى اسبانيا وهو عائد الى مصر ليستفيد من البحث فيها ويدرس أحوالها القديمة والحديثة ويقابل بين تمدنها فى الحالتين فأذن له جنابه الفخيم فكان ذلك من أجل النعم التى تستوجب الدعاء بدوام مولانا ووليّ نعمتنا الجناب العالى أدامه الله قصيرا للعلوم وكهفا للمجتهدين من أبناء الوطن

(وهذا ملخص ترجمة الخطبة المؤتمرية)

سادتي

براعة الاستهلال فى هذا المقال حمد الله سبحانه وتعالى ثم شكر ولى النعم مولاى الخديو المعظم فانه أقر الله بوجوده عين بلاده قد تفضل واختارنى للنيابة عن مصر فى هذه الحفلة الجليلة العلمية

وانى أعرب لكم فى فاتحة الكلام عن مزيد سرورى ومنتهى إسعادى بدخولى فى زمرة المشتغلين بالعلوم الشرقية الفضلاء فقد اعترف الخاص والعام بأهمية أعمالهم واقتنع العالم كله بثمرات أتعابهم وسار بذكرهم القاصى والدانى وعضدهم الملوك والامراء فى كل زمان ومكان أجل فقد جمعت هذه الحفلة فحول العلماء وجهابذة الفضلاء الذين توخوا البحث عن الحق الصراح وارسال أشعة التمدن الصادرة عن شمس المعارف الحقيقية لاضاءة كافة الآفاق

وانى لأشكر مسعاكم أيها السادة بالنيابة عن ذلك الشرق الذى لم يقدره القوم حق قدره حتى جاءت أعمالكم المبرورة ومساعيكم المشكورة وزحزحت عنه ستار الاعتقادات الباطلة وبددت الاقوال الساقطة بما سيكون من ورائه نشر لواء المعارف على جميع الامم بالسواء

ولا غرو ان كانت مجاهدتكم العقلية التى يفتخر بها بنو الانسان سببا متينا فى التعجيل بازالة تلكم الحواجز التى كانت تحول بين

المشرق والمغرب وقد أقامها بين التوأمين أرباب التعصب الاعمى من بعض الطوائف حتى كان يخال أنها كثيفة ثابتة ليس فى الامكان دكّ معالمها وتقويض دعائمها

وهاهى مصر الآن تقاسمكم عن طيب نفس كنوز علمها وذخائر عرفانها وترى من سعادتها ان تعاوضها أوروبا بعرائس تقدمها ونفائس تمدنها

وأنتم تعلمون أن قومكم كانوا يجهلون قدر ما عندنا ويحكمون علينا بما نحن برآء منه حتى وقعت الالفة العلمية فانكشف لكم ما انطوى عليه العالم الاسلامى من جليل الشعائر المنبعثة عن الطوية الخالصة فأخلصتم لنا الودّ والصفاء كما أولينا كم الصدق والولاء

ولقد أحرزت جمعيتكم هذه فخارا من أول نشأتها وكللت أعمالكم بالنجاح وظهرت فوائدها للعيان ولا ريب انها ستفوز بتعميم شعائر الوئام على كافة الاقوام ونشر محامد الاخاء فى سائر الارجاء وقد نعت والحمد لله هذه المبادئ وأينعت أزهارها بين رجال المعارف على اختلاف الجنسيات وتنوع المشارب وأخذت فى السريان بين الامم وبعضها

وانى وان لم ألمّ من فرسان هذا الميدان الا أنى أشد الناس غيرة وأكبرهم حفاوة بهذا المجمع وأعدّ نفسى من السعداء بانضمامى اليه ودخولى فى نوال غايته الجليلة التى هى تبادل الصلة العلمية بين المشرقيين والمغربيين

نحن أبناء مصر قد عرفنا جمعية المستشرقين من عهد غير بعيد وما زلنا الى الآن غير واقفين على أحوالها كما ينبغى وذلك لان

المؤلفات الخاصة بها والكتب التى تطبعها بالالسنة المشرقية لم تنل فى بلاد الشرق حظوة الاشتهار

ولهذا فانى أتمنى أن تكون احدى اجتماعات هذا المؤتمر المقبلة فى احدى مدائن المشرق حتى يتيسر لعلمائنا أن يروا بأنفسهم مزايا هذه الاعمال و يقدروا ما ينجم عنها من الفوائد لعموم بنى الانسان فينضم الى هذه العصابة التى هى طليعة الافكار السامية والمقاصد النبيلة الفاخرة جم غفير من أهل التدقيق والتحقيق فينال المستشرقون من مواز رتهم ومعاونتهم فوائد تذكر فتشكر

وانى أعترف لكم بأنى لم أقف تمام الوقوف على أهمية جمعيتكم الزاهرة الا بعد أن ارتبطت بالارسالية العلمية الفرنساوية بمصر القاهرة فانها فتحت امامى الطريق وكانت فيها مكاشفتى بهذه المزايا المفيدة العديدة

وغير خاف ان الشرق فى هذا الزمان لا يخلو من رجال أفاضل قد نبغوا فى العلوم على اختلافها وضربوا من فنون العرفان بسهم وافر وحلاهم الله بالذكاء الفطرى والفطانة الطبيعية ولكن بعضهم معتكفون محتجبون فهم غير معروفين ولهم من الدنيا حظ قليل كما ان مؤلفاتهم و بنات أفكارهم منفردة عن بعضها مستورة فى خبايا الزوايا فليس فى الامكان ان تأتى بكل مافيها من الثمرات وهى بالحالة التى هى عليها الآن

ولما وقفت على الغاية الجليلة التى توخيتموها مالبثت ان انجذبت اليكم عواطفى وتوجهت نحوكم رغائبى فكانت أعظم أمنية تخالج فؤادى هى ان يتسنى لى مشاركتكم فى أعمالكم وقد نلت ولله الحمد المنى فى هذا اليوم السعيد بمحض فيض المكارم العباسية وعناية مولاى الافخم عزيز الديار المصرية

ولقد كان بودى أن أجيئكم بمواد تليق بهذا البناء الفخيم الذى أخذتم على أنفسكم اقامته لنفع بنى الانسان ولكن بضاعتى الى الآن قليلة فى جانب أعمالكم ومع ذلك فما وفدت اليكم صفر اليدين خالى الوطاب

نعم لقد كان يحق لكم أيها السادة الاماجد أن تنتظروا منى فى هذا النادى المشهود تصنيفا من الطبقة الاولى فى الاهمية والخطارة أو أن أتحفكم بطرفة فريدة نادرة أكون عثرت عليها أثناء البحث والمراجعة ولكنى لسوء حظى ليس معى الامتاع قليل ولى فى ذلك عذر أبديه لكم وهو أن انتدابى لهذا المؤتمر لم يتقرر الا فى أوائل شهر يوليو الماضى فلم يكن لى وسعة من الزمن للشروع فى عمل كبير أو الاشتغال بأمر ذى بال ولكنى مع قصر الوقت قد بذلت ما فى طاقتى واستخدمت هذا الزمن القليل بما لا يخيب ظنكم فى هذا العاجز ولا يذهب بانتظاركم أدراج الرياح واليكم الآن بيان الاعمال التى أتشرف بعرضها على المؤتمر وهى

(أولا) - كتاب على المصحف الشريف سميته (مفتاح القرآن) وخصصته لتسهيل مراجعة الآيات الكريمة ومعرفة مواقعها وأماكنها من غير أدنى تعب أو امعان نظر أو اعمال روية وفكر ولا يخفاكم أن هذا التصنيف ليس من المستحدثات المبتكرة فى هذا الزمان فقد تعرض لهذا الموضوع الشيخ محمد مراد النقشبندى وعبد الله باشا تكتمسى أمير الحج والموسيو فلوجل الالمانى وقد جاءت مولفاتهم بفوائد عظيمة ولكنها كلها لا تفى إلا ببعض الغرض المقصود وذلك لان الاسلوب الذى جروا عليه فى تحرير تلك المؤلفات يستغرق وقتا طويلا فى البحث والمراجعة

وهذا الكتاب المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو عمادنا نحن معاشر المسلمين فى جميع أعمالنا واليه مرجعنا فى كل أمورنا ومعاملاتنا وهو دليلنا وإمامنا فى طول حياتنا ولذلك يحفظه بعضنا كله عن ظهر قلب ويقضون عمرهم فى هذه الرياضة المقرونة بالتقوى والاجر ويعرفون عندنا بالحفاظ ولكثير منهم فضل لا ينكر وهم يقومون بخدم عظيمة لأمثالنا الذين لم تيسر لهم مجاراتهم فى اجهاد القوة الحافظة وابلاغها الى نهايتها فنراجعهم ونستفهم منهم عن مواقع الآيات الكريمة فى السور الشريفة بدلا من ان نضيع الوقت الطويل فى البحث والمراجعة على غير طائل فى كثير من الاحيان وهم يعرفوننا

فى الحال بمطلوبنا ولكن الانسان لايتيسر له العثور على الحافظ دائما بل كثيرا مايرتبك الحافظ وتتعسر عليه الاجابة بسبب التماثل الواقع بين كثير من الآيات الفرقانية

وكثيرا مايحتاج المستشرقون فى أعمالهم وتصانيفهم الى مراجعة الكتاب العزيز فمن منكم لم يضع أوقاتا ثمينة ولحظات نفيسة للعثور على الآية المطلوبة ؟

وقد تكفل فلوجل فى كتابه الذى سماه (نجوم الفرقان فى أطراف القرآن) ببيان عدد السور والآيات التى توجد فيها كل كلمة من كلام الله القديم ولما كانت الكلمة الواحدة كثيرا ماتتكرر فى عدد عظيم من السور والآيات كان من اللازم على كل من يستخدم نجوم الفرقان أن يصرف وقتا طويلا ويتجشم عناء ثقيلا فى البحث والمراجعة

وفضلا عن ذلك فقد التزم الرجل أن يرقم أعداد (نمر) السور والآيات بالحروف والاشارات الافرنكية فلذلك لاتتسنى مراجعة كتابه الا لعدد زهيد من الباحثين الذين لهم شأن فى هذه المواضيع أعنى الافرنج المشتغلين باللغة العربية دون سواهم والقليل من أبناء المشرق الذين لهم إلمام باحدى اللغات الافرنكية وهذا ماجعله قليل الانتشار فى ديار مصر

أما الشيخ محمد مراد النقشبندى وعبدالله باشا أمير الحج فقد اقتصرا فى كتابيهما (ترتيب زيبا) (أى الترتيب الجميل) على بعض بيانات

اجمالية بخصوص السور والآيات ولو أدخلت الاساليب المستحدثة في هذين الكتابين وبوشر طبعهما بعناية خصوصية واتقان زائد ربما جاءت مراجعتهما بكثير من الفوائد

وقد اطلعت في الكتبخانة الخديوية على نسخة من كتاب النقشبندي وتحققت أنّ المراجعة فيه من أصعب الصعوبات ومع ذلك فان العلماء المسلمين لايزالون يستخدمونه لعدم وجود ماهو أفضل منه وأوفى بالمراد وخصوصا في بلاد الاترالك لانه في مصر يكاد يكون مجهولا بالكلية

وقد رأيت في مكتبة حضرة الفاضل الاجل السيد محمد الهادي بيرم الكتاب المسمى (أنهار الجنان من منابع آيات القرآن) الذي ألفه الوزير عبد الله باشا الشهير باسم (چته جي) في أواخر سنة ١٢٦٤ في عصر السلطان محمود الاول ابن السلطان مصطفى خان قال فيه «لما احتجت الى وجدان آيات القرآن في أكثر الزمان سنح لخاطري الفاتر أن أجمع كتابا مع قلة البضاعة مشتملا على جداول في بيان مواضع الآيات» وقد رتبها على حروف الهجاء ثم أشار في الجداول الى بيان مواقعها في الجزء والحزب والعشر وعدد الآية في العشر واسم السورة . وقد وضع في أول الكتاب جدولا فيه الارقام النجومية وتفسيرها بالارقام الهندية والارقام النجومية هي عبارة عن حروف هجائية بحسب حساب الجمل وهي في الجدول من ١ الى ٧١ وفي آخر الكتاب هذه الجملة (تم ترتيب زينا بعون الله العلي الاعلى — مؤلفه چته جي عبد الله باشا رحمه الله عليه وعلى ما (من) شاء — كتبه محمد بن ابراهيم البليانبولي في بلدة قسطنطينية في مدرسة قبوجي مراد باشا في ٥ ج سنة ١٢٦٤) وفي أول صحيفة من الكتاب عبارة تفيد ان النسخة

الاصلية محفوظة فى كتبخانه مدرسة (لاله لى) بدار الخلافة العظمى

هذا وقد رأيت مصحفا مطبوعا على الحجر فى مدينة طهران سنة ١٢٧٩ وفى آخره فهرست ببيان مواقع جميع الكلمات القرآنية فى هذه النسخة وهو على نسق (نجوم القرآن فى أطراف الفرقان) الذى طبعه فلوجل الالمانى وقد نسجوا على منواله بالتمام وأشيرالى ذلك فى المقدمة الموضوعة فى آخر القرآن الكريم وفى أول الفهرست

وقد ألف العالم الحافظ الشيخ محمد بن شريف كتابا فى هذا الموضوع سماه (مصباح الآيات الجليلة الفرقانية ومفتاح التفاسير الجميلة القرآنية) وخصصه لبيان أسماء السور والاجزاء وعدد الصحيفة الموجودة فيها الآية المبحوث عنها ثم عدد الجزء وعدد الصحيفة فى ثمانية تفاسير (الرازى والقنوى وابن تجمجد وشيخ زاده وروح البيان وأبى السعود والتبيان والمواكب) ولهذا الكتاب مزايا خصوصية لاتنكر ولكن لاحاجة للقول بأنه يستوجب على الباحث فيه أن يستعمل نفس النسخ القرآنية والتفاسير التى استخدمها المؤلف وهو أمر متعسر بل متعذر لان المصحف الشريف قد طبع مئات ومئات من المرات فى أشكال مختلفة (سواء كان مجموعا فى مجلد واحد أو منقسما الى ثلاثين جزأ) وفضلا عن ذلك فان الذى يستعين فى أبحاثه بكتاب ابن شريف يلزمه أن يراجع هذه الثلاثين جزأ وكل جزء منها تبتدئ صحائفه بعدد ١ فان هذا الحافظ يسرد الآية ثم يقول انها فى صحيفة كذا من جزء كذا من سورة

كذا وتفسيرها فى الصحيفة الفلانية من الجزء الفلانى من تفسير الرازى أو القنوى الخ ۞ وقد طبعت الاجزاء القرآنية والمصحف الكريم وهذه التفاسير مرات كثيرة بما يوجب ولا شك تغيير صحائفها وحينئذ فالدلالة عليها لا تفيد الامن كان عنده نفس الطبعات التى استعان بها المؤلف وقد أشار الى السنوات التى ظهرت فيها فى فاتحة كتابه

ولقد كنت على الدوام متأثرا من وجود هذه الصعوبات التى تعرض فى طريق الباحث بواسطة أحد هذه الكتب وكنت أفكر فى طريقة تزول بها هذه العوائق حتى أسعدنى حسن حظى بالعثور على نسخة من كتاب قديم بخط اليد لمؤلفه محمد على الكربلائى تمت كتابتها فى غرة شعبان سنة ١١٦٢ هجرية ورأيت فيها سد بعض الحاجات التى لم تتكفل بها الكتب الموجودة من هذا القبيل فشمرت عن ساعد الجد فى تنسيق مواد هذا الكتاب وتهذيبه وترتيبه على أسلوب حديث منتظم مرتبط بعضه وقد تيسر لى بحول الله اتمام ذلك العمل وفق المرام ثم أضفت اليه بيانات كثيرة أرجو أن تتم بها فائدته وتزيد فى وضوحه وظهور ثمراته

قسم المؤلف كتابه الى قسمين رتب فى الاول الآيات باعتبار أوائلها وأبان مواقعها فى الكتاب العزيز وخصص الثانى لترتيب الآيات باعتبار أواخرها أعنى الحرف الاخير فالذى قبله فالذى قبله

وهكذا حتى تسهل بذلك المراجعة على من لم يتذكر من الآية الا آخرها فقط وأما الآيات المعروفة بـ(متشابه القرآن) فقد أوردها فى كلا القسمين من أولها الى الموضع الذى يظهر فيه فرق بينها وبحسب الكلمة الفارقة بين الآيتين المتشابهتين كان ترتيب أمثال هذه الآيات وراء بعضها . ثم انه رمز بحروف الجُمَّل بالحبر الاحمر الى عدد الجزء والحزب ووضع بعدها هذه الحروف الثلاثة (أ — و — ر) بحبر اسود للدلالة على ان الآية فى أول الحزب أو وسطه أو آخره ثم رمز باشارات مختزلة الى أسماء السور القرآنية ووضع جدولا بهذه الاختصارات ولكن لم يرتبه على حسب حروف الهجاء بل بحسب الترتيب المتبع فى المصحف ولذلك فمراجعة هذا الجدول تستوجب صعوبة زائدة فضلا عن أن كتابته جاءت متوالية وراء بعضها من غير فصل ولا فقرات بينها وأشباه ذلك من العلامات المميزة

وقد كنت حررت جدولا بأسماء السور تسهل مراجعته للغاية ثم عدلت عنه لانى آثرت وضع أسماء السور بأكملها حتى أريح الباحث من العناء فى تفسير الاختصارات والرجوع الى الجدول لتأويلها وبذلك يمتنع الاختلاط الذى ربما يحدث بسبب ان أسماء بعض السور تبتدئ بحرفين أو ثلاثة حروف هى واحدة

فى كل منها ولان أسماء بعض السور الاخرى تتركب من حرف واحد أو حرفين فقط

ولاشك أن هذا الكتاب هو أفضل بكثير من نظائره ولكنه فضلا عما وقع فى النسخة التى بيدى من الاغلاط التى لاتعد ولاتحصى لايزال ينقصه أمور بيانية كثيرة لاتمام فائدته فندبت نفسى لسد مافيه من الخلل واصلاح ماوقع به من الغلط (وسأودعه فى المكتبة الخديوية ليطلع عليه من يريد) وأظن أنى وصلت بمعونة الله تعالى الى الغرض المطلوب وحينئذ فبعدان كان يحتوى على بيان اسم السورة وعدد الجزء والحزب وان الآية فى الاول أو الوسط أو الآخر أصبح الآن يشتمل على البيانات الآتية وهى

أولا - عدد الجزء (والقرآن ينقسم الى ثلاثين جزأ) . ثانيا - عدد الحزب (وكل جزء فيه أربعة أحزاب) (١) . ثالثا - موقع الآية فى أول الحزب أو وسطه أو آخره . رابعا - اسم السورة . خامسا - عدد السورة (لان أهل المشرق انما يعرفون السور بأسمائها ولكن أهل أوروبا

(١) تقسيم الجزء فى مصر انما هو الى حزبين بحسب البدعة الحسنة التى أحدثها الحجاج الثقفى وأما الترك والعجم فيقسمونه الى أربعة أحزاب وقد اخترنا طريقتهم لما فيها من زيادة التسهيل فى البحث والمراجعة لكون مراجعة الآية فى ربع الجزء أسهل منها فى نصفه وفى ذلك وفر فى الزمن بمقدار النصف وهو مانسعى وندعو اليه

لايشيرون الاالعدد ترتيبها) . سادسا - عدد ترتيب كل آية بحسب القران المطبوع فى الآستانة العلية على نسخة الحافظ عثمان . سابعا - عدد ترتيب الآيات بحسب الطبعات العربية والترجمات الافرنكية التى ظهرت فى أوروبا

ولى أمل وطيد بأن يجىء عملى هذا وافيا بجميع الشرائط اللازمة لمراجعته بكل سهولة وفائدة فى بلاد المشرق والمغرب وأظن انه يكون مفيدا على الدوام حتى فيما يتعلق بالنسخ القرآنية الكثيرة الخالية من بيان أعداد الآيات فانه يشير بالضبط والتدقيق الى موقع كل آية ببيان عدد الجزء والحزب واسم السورة وبيان موضع الآية فى أوّل الحزب أو وسطه أو آخره

وإذ لم يكن لى متسع كاف من الوقت لم أتمكن من تبييض هذا التصنيف الذى يستدعى زيادة التدقيق لما هو محفوف به من الصعوبات وانما أقدم لكم الآن منه كراسين على سبيل النموذج والمثال ومتى عدت الى وطنى أتممته وأكملته بحيث يتيسر طبعه فى أقرب وقت بحوله تعالى (وقد تمّ إكماله كله بحمد الله)

(ثانيا) - نسخة معدة للطبعة الثانية من رسالتى الموسومة بـ(موسوعات العلوم العربية) وهى تكاد تكون غير الاولى بالمرة

وقد خصصتها لهذا المؤتمر بعد أن حليتها ونقحتها وشحنتها بكثير من الاضافات المهمة التى لم يسبق ظهورها الى الآن

ولا أذكر لكم على الطبعة الاولى من هذه الرسالة التى نفدت عن آخرها سوى الكتاب اللطيف الذى أتحفنى به جناب العلامة المسيو بار بيبه دومينار عقيب ظهور هذه الطبعة وقد أعلمنى فيه بأنه أوسع لها مقاما كريما وخصنى بمزيد الثناء والتهانى على اتمام هذا البحث الدقيق وسأنشر كتابه هذا فى ملحقات الطبعة الثانية ان شاء الله

(ثالثا) — معجم (قاموس) جمعت فيه الكلمات العربية المضعفة التى تكرر فيها المقطع الاوّل مثل مرمر وبربر ودمدم وربرب وسمسم ومشمش الخ وانى بفضل الله أوّل من جمع باللغة العربية أكثر من ١٠٢٠ كلمة من هذا القبيل وفائدة هذا الصنيع يعرفها المشتغلون برد اللغات الى أصولها والباحثون عن كيفية ابتداء الانسان بتقليد أصوات الطبيعة وحكايتها والتدرّج منها الى غيرها من المعقولات والخياليات وغير ذلك ولا أظن أنه يوجد تصنيف يماثله فى اللغات الاوروبية لان مادّتها فى هذا الموضوع غير غزيرة

(رابعا) — معجم صغير ضمنته كل ما عثرت عليه من الكلمات

الخاصة بالكلاب وكان من نيتى أن ألحقه بالكتاب الذى أجمعه على هـذا الصنف من الحيوان ولكنى رأيت أن الاصوب جعله رسالة قائمة بذاتها بعد ان عنيت بتهذيبها بقدر ماسمح لى به الوقت وأضفت اليها قصيدة للسيوطى لم يسبق طبعها جمع فيها أسماء الكلب وسماها (التبرى من معرة المعرى) وذلك لان أبا العلاء المعروف بـ(ملتن الشرق) دخل ذات يوم عند أحد الكبراء فوطئ من غير ارادته قدم بعض الحاضرين فتألم الرجل وقال «من هذا الكلب» فأجابه المعرى فى الحال بهذه العبارة «الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسما»

(خامسا) ـ معجم خصصته لتحرير الاعلام الجغرافية وردّها الى أصولها المعتبرة المعروفة عند أهلها فان نقلها من لغتها الاصلية والنطق بها بالعربية أو الفرنساوية أو أية لغة افرنكية قد أوجب تطرّق الفساد اليها ووقوع التحريف فيها بما يوجب ارتكاب متن الشطط والتورط فى الغلط أثناء ذكرها فى التراجم ومثل ذلك ان المدينة المعروفة عند العرب باسم المصيصة تعرف عند الافرنج بلفظ موپسويست واقليم ماوراء النهر يسمى ترانزوكسان والجهة المعروفة برأس التين فى بلاد تونس تسمى عند الافرنج زوكساتين وكانتين وكاپتين ونهر ملوية فى مراكش يسمى

مالويانا ومدينة شمشاط تسمى ارزاموزات ونهر دنيبر يسمى فى كتب العرب القديمة نهر ازّو أونهر طنابرس وجبل الحرث (بفتح الحاء والراء) يسمى بالافرنكية ارارات وقد أخطأ المترجون فى نقله الى العربية فقالوا عراراط أونقلوه بلفظه مهملين الاصل المتعارف فى كتب قومهم (وكثير من أمثال ذلك مما ذكرت نموذجا منه فى رسائلى المؤتمرية أثناء كلامى على برندزى ونابولى وروما وفلورانسة وپيزه وتورينو وطرف الغار) ومثل ذلك بلاد الانكليز تعرف فى كتب العرب القديمة بهذا الاسم (انكلطيرة وانكلاطيرة والانكتير) ولكنا الآن نتقرب كثيرا من اللفظ الفرنساوى فنقول انجلترة ولوندرة لانجلند ولندن ونقول فلورانسة لافيرنتزا

ولا أظن أحدا من أهل المشرق والمغرب تفوته فائدة هذا التصنيف الذى غايته تصحيح كثير من الاغلاط فطالما رأيت فى كتب مترجمة فى التاريخ والجغرافية اسم قرطبة المعروفة عندنا وفى كتبنا منقولة بحسب نطق الافرنج لها هكذا (كوردو) وهو اسم لايعرفه العربى مطلقا ومثل ذلك مدينة الأُبَيّض (تصغير أبيض) فى بلاد السودان أخطأ المترجون فى نقلها الى العربية بحسب النطق الفرنساوى فقالوا العبيد ووردت فى خريطة رسمية محفوظة فى الكتبخانة الخديوية (العباد) ومثل ذلك انى رأيت فى بعض كتب الجغرافية التى كان التدريس بموجبها فى المدارس الاميرية

لفظة سوتا (للدلالة على مدينة ساحلية فى مراكش) بدلا من سبتة لان مؤلفى تلك الكتب راعوا اللفظ الفرنساوى وأهملوا اللفظ العربى الاصلى وهو سبتة وأقول هنا ان هذا اللفظ منقول عن كلمة لاتينية (سپتا) معناها الحظيرة والسياج

ولا حاجة لبيان المزايا التى تترتب على وجود كتاب من هذا القبيل يكون سببا فى تحقيق الاعلام الجغرافية والارشاد الى صحتها والتنبيه على حقيقتها والاشارة الى الفساد الذى اعتورها حتى لايخلط المترجم بين الاسماء وبعضها أو يدل على المسميات باسماء غير معروفة بها وبذلك يمتنع وجود الخطا فى الابحاث التاريخية والجغرافية وانى أرجو أن أكون وصلت الى الغاية المقصودة وعلى كل حال فقد فتحت هذا الباب وهو حسبى

هذا ولما علم صاحب السعادة سليمان باشا أباظه بان الحكومة المصرية ندبتنى للنيابة عنها فى هذا المؤتمر تكرم وقدم لى كل الكتب النفيسة التى بخط اليد المحفوظة فى خزانته الثمينة ولكن ضيق الوقت لم يسمح لى الا باختيار بعض طرف لأتحف المؤتمر بنسخ منها بعد أن عنيت بتنقيحها وتهذيبها

﴿سادسا - وسابعا﴾ - فأول ما انتقيته منها كتابان للمقريزى الشهير أولهما اسمه (ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى) وهو يختص باقطاع النبى صلى الله عليه وسلم بلدتين من الشام الى

تميم هذا قبل أن يفتح المسلمون هذه الديار والثانى (تاريخ الغلاء الواقع بمصر) من أيام الفراعنة الى زمان المؤلف وقد جاء فى صك الاقطاع لتميم مانصه (هذا ماأنطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ) فهذه الكلمة (أنطى) مستعملة بدل أعطى بحسب لهجة اليمانين أهل تميم وقد رأيت فى معجم أبى السرور الصدّيقى الذى سأتكلم عنه انه يقال نطشان بدل عطشان ورأيت فى كتب اللغة فى ترجمة ن ط ش أنه يقال فلان عطشان نطشان على سبيل المتابعة وعلمت من الموثوق بهم ان بعض عرب البادية فى بلاد الشام لايزالون الى الآن يستعملون أنطى بدلا من أعطى ولعلهم من اليمن وربما كانوا من ذرية تميم صاحب الاقطاع فانه انتقل الى ورثته من بعده

وقد تكلم المقريزى على هذا الاقطاع وصحته ببراعة علمية وتحقيق دقيق حتى انه يوجب للقارئ الملال ولكنه برهان جديد على فضل الرجل وواسع اطلاعه

ومن سوء الحظ أن النسخة الثانية التى تكلم فيها المقريزى على تواريخ القحط والغلاء ينقص منها الصفحات الاخيرة ولكن هذا لايذهب بشئ من الفوائد الجليلة التى تضمنتها وأنا أظن أن هذه النسخة هى جزء من خططه المشهورة فقد أشار فى مقدمتها

الى انه سيتكلم فى القسم السابع منها على أسباب خراب مصر وانحطاطها ثم لم يرد شئ من ذلك فى الكتاب المطبوع فى بولاق أو النسخ التى بخط اليد المحفوظة فى مصر وأوروبا واذا صح هذا الظن كانت هذه الرسالة ذات فائدة عظيمة وقيمة خطيرة

(ثامنا) — ومما انتقيته من مكتبة سعادة أباظه باشا معجم أبى السرور الصدّيقى وهو يتضمن الكلمات العرفية الدارجة فى مصر التى تنطبق على أصول اللغة العربية الفصحى وقد اختصره من المعجم الذى ألفه الشيخ يوسف المغربى وسماه (رفع الاصر عن كلام أهل مصر) وبلغنى أنه يوجد منه نسخة عند بعضهم فى مصر ونسخة أخرى بمكتبة ليدن

وقد عنى صاحب المختصر بتجريد هذا الكتاب من الالفاظ اللغوية والشواهد والاشعار والاستطرادات والحكايات التى لا علاقة لها بالموضوع وسماه (المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب) ولما كان المستشرقون يهتمون بنوع خصوصى باللغة العربية الدارجة كنت واثقا من أنّ نشر مثل هذا الكتاب يقابل ببعض القبول ويصيبه شئ من الترحاب ولاجل ذلك أدخلت فيه بعض اصلاحات وتعديلات لاتمام الفائدة فأبدلت الترتيب المتبع فى صحاح الجوهرى وقاموس الفيروزابادى الذى يترتب عليه ارتباك

المباحث وتعقيد المطالب بالاسلوب الهجائى الذى جنح اليه الزمخشرى فى أساس البلاغة والفيومى فى المصباح المنير وهو الاسلوب المتبع فى جميع المعاجم الاوروباوية وسميته (ترتيب المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغات العرب) وفى هذا السفر مزايا كثيرة لمعرفة تاريخ علم اللغة العربية لانه يدلنا على أن اللغة العرفية كانت فى الزمان القديم متقاربة من اللغة العربية الفصحى وبه نعرف مقدار ابتعادنا عن هذه فى كل يوم بكيفية محسوسة ظاهرة ومما يزيد فى الطين بلة ويوجب ازدياد هذا الابتعاد كثرة علاقاتنا مع أهل أوروبا فان اختلاطنا بهم ألزمنا بنقل جملة كلمات وتعبيرات ينبغى المبادرة بدرسها والنظر فيها فان كثيرا منها له نظائر فى العربية الصحيحة بجمل بل يلزم تفضيلها على غيرها واستعمالها ومالم يكن له مقابل فى العربية يمكن الاستغناء عنه بنحت ألفاظ جديدة بحسب قواعد اللغة وأصول القلب والابدال فان ذلك أولى من استعمال ألفاظ وعبارات محرفة فاسدة أصبحت لاتنتسب الى لغة من اللغات

وقد اجتهد صاحبى العالم الفاضل الاستاذ الشيخ محمد راشد بكتابة رسالة عن الكلام الدارج الآن فى مصر القاهرة وشحنها بأمثال الزجل والمواويل والاغانى والادوار والموشحات المستعملة عند العامة وبلسانهم ولاشك أن المقارنة بين هذين الكتابين توقفكم على الحركة اللغوية الحاصلة فى بلادنا

واليكم الآن نسخا من أربع رسائل انتقيتها أيضا من مكتبة سعادة أباظه باشا وهى

(تاسعا) — معجم يحتوى على ٥٩٤ اسم يعبر بها عن الاسد استخرجها من قاموس الفيروزابادى العلامة الشريف عبد الله ابن محمد بن حسين المغربى وقد نحا فى ترتيبها نحو صاحب القاموس ولكنى استبدلت هذا الترتيب بالاسلوب الهجائى السهل للاسباب التى شرحتها فيما قبل

(عاشرا) — معجم يحتوى على كلمات الاضداد مثل جبر و بسل وزحل وأسد وسجد الخ وقد طبع الموسيو هوسما (كتاب الاضداد) لابن الانبارى فى مدينة ليدن ولكن المعجم الذى أقدمه لكم الآن له قيمة خاصة به وقد استخرجه الشريف عبد الله المذكور من القاموس أيضا

(حادى عشر) — معجم الكلمات اللغوية الفصيحة التى يصح استبدال السين فيها بالشين ألفه العلامة الفيروزابادى صاحب القاموس وسماه (تحبير الموشين فيما يعبر فيه بالسين والشين) وهذا الكتاب النادر لاتنكر قيمته وأهميته

(ثانى عشر) — القصيدة الفارقة بين الضاد والظاء لناظمها الشيخ الامام على بن عبد الله المروزى وقد كانت النسخة

التى عثرت عليها سقيمة للغاية محرّفة مشوّهة فاجتهدت فى اصلاحها وتهذيبها حتى أصبحت واضحة الفوائد ظاهرة المزايا ويمكن الانتفاع بمراجعتها وسأضيف اليها جدولا هجائيا عند طبعها لتتميم نفعها وتسهيل البحث فيها

(ثالث عشر) — ثم انى أرجع الآن الى المقريزى وأذكر لكم انه حل لغزا فى (الماء) وقد عثرت على تفسيره فى نسختين بخط اليد فى الكتبخانة الخديوية الاولى تمت كتابتها فى رمضان سنة ١١١٢ (وهى محفوظة بنمرة ٨٣ فنون متنوعة) والثانية فى رجب سنة ١٠٩٩ (وهى محفوظة بنمرة ٤١٨ مجاميع) وفى النسخة الاولى مقدمة موجزة قال المقريزى فيها ان أحد الكبراء أمره بحل هذا اللغز العسير وانه توصل الى ذلك مع قلة بضاعته وقال فى آخر الحل انه كتبه فى بضع ساعات من يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ٨٢٣ من غير مراجعة أى كتاب ومن غير تعليق مسودات وهذه النسخة أجود بكثير من الاخرى ولكنها خالية من متن اللغز مجموعا على حدته كما فى صدر النسخة الثانية وقد تحكك المقريزى وتمحك فى الحل حتى جاء جوابه غير مقرون بالاقناع والسداد فحررت التفسير وضبطته بحسب هاتين النسختين ولما كان الحل سقيما عقيما لم أر من فائدة فى ترجمته (الى الفرنساوية)

ولكننى حكمت بغير ذلك على نفس اللغز فترجمته لكم لاحاطتكم علما بمثال من غرابة ألغازنا العربية (والترجمة فى القسم الفرنساوى)

﴿رابع عشر﴾ — وأقدم لكم الآن أيها السادة نسخة من قصيدة تحتوى على الكلمات العربية التى اتفق لفظها واختلف معناها نظمها العلامة الفاضل الشيخ أبوالحسن على بن محمد بن عبد الصمد الهمدانى المشهور بعلم الدين السخاوى وهذه النسخة لم تكلفنى أدنى عناء لان الاصل الذى نقلتها عنه كان بخط الاستاذ الكبير والعلامة الشهير عبد القادر بن عمر البغدادى وهو كتبها بخطه وأصلحها معتمدا على نسخة قديمة سقيمة قد مسخها النساخ وأجحف بحقها الزمان وقد أتم البغدادى نسخته فى يوم السبت ٣ رجب سنة ١٠٧٤ من الهجرة ولست فى حاجة لاثبات فضل الرجل والاعلام بمقامه فانه فوق كل مديح يشهد له مصنفه الحافل المعروف بخزانة الادب المحتوى على أربعة أجزاء قد أودعها من طرف العلوم وتحف الفنون مايجعل له المكانة الاولى بين أرباب المعارف (١) وأقول ان عنايته بهذه القصيدة أصدق دليل على أهميتها وقد اشتغل كثير من الشعراء

(١) وقد وضع العلامة الطليانى المتبحر فى العلوم واللغات الشرقية السنيور أغناطيوس جويدى قاموسا مفيدا جدا ببيان أسماء الشعراء المنصوص عليهم فى هذا الكتاب المفيد وقد طبعه فى رومة سنة ١٨٨٧

بمسألة الكلمات المتفقة لفظا المختلفة معنى ولكن الجمهور منهم اقتصر على كلمة واحدة فان الازدى نظم قصيدة تكررت فيها كلمة (عجوز) ثنتين وستين مرة مع اختلاف المعانى وقد شرحها أبوحيان وأضاف اليها ١٣ معنى جديدا ونظم ابن تمام السبكى قصيدة فيها ٧٣ معنى لـ(العين) والحصكفى أورد فى احدى قصائده عشرة معان لـ(الهلال) وقد أضيفت اليها معان أخرى وقد أورد ابن معصوم فى كتابه (أنوار الربيع فى أنواع البديع) هذه القصائد كلها أما السبكى الذى نحن بصدد منظومته فقد أورد فيها أكثر من ٢٠٠ كلمة من هذا القبيل

(خامس عشر) — وأتكلم الآن على وصف مجالس المعددات والندابات فى مصر والمجموعة التى جمعت فيها أشعارهن ومراثيهن(١) نعم إن هذا الموضوع محفوف بالهموم والاحزان ولكن

(١) الذى دعانى للاهتمام بهذا الموضوع مارأيته من عناية أهل البحث والتدقيق من الافرنج بكل ماله صلة باحوال المشرق ولما كان كثير منهم قد يقع فى الخطا من حيث لايشعر ويجعل للامور علالا وأسبابا يعزيها الى الدين الاسلامى عن قصور فهم أو تتبادر الى مخيلته بحسب مايصورها له الوهم من غير أن يكون له من المعرفة والاطلاع مايجعله قادرا على تمييز الفكر الصحيح من القول السقيم أحببت أن أستوفى فى هذه النبذة كل ماوصل اليه علمى من بعض عادات قومى فضلا عن الفائدة الادبية الجليلة التى قد لايتنبه لها الانسان لاول وهلة وهى المحافظة على الاشعار التى تنوح بها المعددات والندابات أثناء الرثاء

البحث فيه يكشف القناع لارباب الاطلاع من علماء الاخلاق عن بعض أمور تهمهم معرفتها وهـذه العادات قد سبقنى غيرى الى الاشارة اليها غير أنى لا أعلم أن أحدا درسها كما ينبغى أو جمع المراثى التى أقدمها لكم الآن

ولست أوّل من قال (لايعرف صدق الاخاء فى أيام الهناء والرخاء بل عنـد وقوع المحن والبلاء) ولكنى قـد أكون أوّل من يؤكد لكم بان نساء العامة فى مصر ربما كنّ المتفرّدات بالعمل بهذه الموعظة البالغة ومراعاتها بكل دقة كأنما هى فرض من الفروض وذلك لانهنّ فى كل خميس (وهو يوم تجـدد الحـداد) يتجمعن زرافات زرافات ويسـعين فى بعض أزقـة العاصمـة ساكتات ساكنات كأنما على رؤسهنّ الطـير حتى يصلن الى دار صـديقتهنّ التى طرق الموت بابها واختطف واحـدا من أربابها

فان فى كثير منها معانى دقيقة وأنظارا حكمية قد لا يجدها الباحث فى المراثى الشهيرة التى يعمل الشعراء فيها فكرتهم ويضون الاوقات النفيسة الطويلة فى سبكها وحبكها بحسب ماتقتضيه صناعاتهم وممارستهم بخلاف أقوال العامة فانها خصوصا فى مثل هذا الموضوع صادرة عن الضمير مباشرة وليست الا ترجمة لما يكنه الفؤاد من عواطف الاشجان ولما كانت هذه الاشعار غير مدوّنة فى ديوان رأيت من الفائدة ضم أشتاتها مع عدم الادعاء بالاحاطة بها وذلك أفضل من اهمالها اذ لا يبعد أن يأتى يوم تزول فيه هذه العادات و ينمحى معها أثر هذه الاشعار الواجب حياطتها بالحفظ والتدوين

وكلهنّ يتدثرن بملابس سوداء ويضعن على رؤسهنّ مناديل زرقاء فان ذلك هو اللبس الرسمى المقرر عندهنّ فى مجالس الحداد

وقبل أن أتكلم على المعددات والندابات اللائى خصصت لهنّ هذا الفصل أقول كلمة ثانية على العصبية التى يرتبط بها نساء العامة بالسليقة والغريزة عندما تحل شدائد الحياة باحداهنّ أو يقلب الدهر لها ظهر المجنّ

فليس من النادر أن يرى الانسان أية امرأة تأخذ فى الولولة عند ما تمر جنازة فى طريقها وفى بعض الاحيان تقف أمام الدار التى فجع الموت أهليها وهى لم يسبق لها الدخول فيها ولم تعرف أحدا من ذويها ولكنها لا تلتفت الى ذلك بل تتساقط الدموع سراعا من ماآقيها ثم لا تلبث أن يتولاها الصياح والعويل وذلك لانها تتذكر بالمنظر الذى يتراءى أمامها أنها فقدت بعض أهلها فالجرح بفقده فؤادها جرحا لا يندمل بل ان الآلام القديمة التى كان يظن أن طول العهد محاها من ذكراها تتجدد فى الحال لان الضعف من طبيعتها والجزع من جبلتها فلا يمكنها أن تغالب نفسها وتكتم الحزن فى صدرها بل كثيرا ما تدخل الى الدار التى حصلت فيها الوفاة وتشارك أهلها فى أحزانهم ومصابهم

أما المعددات والندابات فليس لهنّ الآن من أثر فى ربوع

أوروبا ولكنهنّ فى مصر عبارة عن طائفة منتظمة مازالت محافظة على كل مالها من الحظوة والتأثير والمرأة منهنّ فى حياتها الاعتيادية وأعمالها الخصوصية تشابه غيرها من النساء على السواء ولكنها متى تفرّغت لوظيفتها دبت فيها حياة أخرى وظهرت فى نشأة ثانية بمظهر جديد فتضطرب وتنفعل وتتحرك ذات اليمين وذات الشمال كمن أصابه المس أو الصرع أو الخبال حتى يخال للرائى أنها أشبه بأولئك الكاهنات فى هياكل القدماء عند ماتأخذهنّ الرعشة والرعدة بسبب حضور الهاتف الالهى الذى جاء يوحى اليها أوامره ويلقى عليها مقاصده فان صوت الندابة وهى فى وسط عصابة من النساء قد هاجتهنّ الاحزان وبوّلتهن الاشجان يزيد فى غصتهنّ بما فيه من التفاطيع والتراجيع التى تذوب منها القلوب وتنفطر لها الاكباد وتتشقق من هولها المرائر بل ان كل كلمة من كلماتها ينقبض لها صدر الحاضرات ويوجب زيادة الكآبة فى نفوسهنّ فتأخذهنّ الصيحة بالرجفة وتهب عليهنّ أنفاس الندابة كأنها إعصار فيه نار تحترق منه الافئدة ثم ان الندابة تنقطع عن الرثاء فى أوقات معينة فيكون سكوتها موجبا لزيادة الجزع بين الحاضرات ويعبرن عنه بدموع متناثرات وترديد صيحات متواليات

وكما أن العامة فى ليالى الافراح يلحون على المغنى بان يطربهم بدور مشهور أو لحن مأثور فكذلك كل امرأة فى مجالس الحداد تلتمس من النسابة أن تذكر رثاء يختص بفقيدها العزيز فتجيبها الى ذلك فى الحال ومتى أتمت الرثاء وجب على تلك التى طلبته أن تغالى فى الصياح بصوت محزن صادر من فؤاد جريح وأما الجماعة فيشاركنها لاسناد عويلها ومقاسمتها فى حزنها

وتستمر هذه المجالس من الصباح الى وقت الظهر فى الايام الثلاثة الاولى التى تعقب الوفاة ثم تتكرر فى كل خميس الى انقضاء الاربعين (وهو ختام الحداد) وفى خلالها يستريح النساء بعض برهات قصيرة يتفرغن فيها لشرب القهوة والدخان ومتى حل الظهر تفرقن شذر مذر وتبدد شملهن فى كل أرجاء المدينة فيذهبن بعد أن فعل التأثير بهن ما يوجب انحناء الضلوع وبحة الصوت وضعف العيون ولكنهن ينصرفن مصاحبات للصمت والخشوع مقتنعات بأنهن قد قمن بأكبر الواجبات

ولا تظنن أيها السادة أنى تو خيت المبالغة فى هذا الوصف لاحداث ما تعبرون عنه بالتأثير الأدبى كلا فان من أتيح أو يتاح له منكم حضور أحد هذه المجالس فى مصر يقر ويعترف بأنى ما وصلت قط الى

الحقيقة ولابد لى من أن أكون مقتدرا على الانشاء وخصوصا الاسلوب الوصفى كبكابكم المجيدين (مثل تيوفل جوتييه وأمبير) حتى أتوصل للتأثير على عقولكم وأفئدتكم كما تفعله الحقيقة وانى لاسارع فأخبركم بأن الاعتياد على الانفعال فى المأتم بهذه الدرجة الزائدة التى تقابل الصرع والخبال ليست فى شئ بالكلية من ديننا الحنيف فان النبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نجعل الحزن فى قلوبنا وأن نمتثل لاحكام الله والاحاديث فى هذا الشأن كثيرة وليس هذا محل ايرادها

وأرى من الواجب علىّ أن آتى الآن على ذكر ملحوظ دقيق عنّ لى أثناء طبع هذه الخطبة فيما يتعلق بأصل هذه الاصطلاحات فى المأتم وما هى الطريق التى أوصلتها الى الامة المصرية حتى جعلتها متمسكة بها لهذا الحد الذى هو مناقض لاحكام الشرع الشريف والسنة النبوية الكريمة

فأما مسألة الجنازة وسير الكفارات والفقهاء والفقراء وأولاد الكتاتيب وجماهير المعزين أمام النعش وجماعات النساء خلفه صائحات نائحات راخيات الشعور داعيات بالويل والثبور فذلك كله مأخوذ عن قدماء المصريين مع بعض تعديل قليل وكل من اطلع على ماأورده العلماء عن الفراعنة من هذا القبيل أخذه

العجب من محافظة أهل وادى النيل على عاداتهم مع توالى القرون وتعاقب الدهور

وأما مسألة اقامة الاحزان مدة الثلاثة أيام التى تعقب الوفاة واختتام الحداد بحلول اليوم المتمم للاربعين فانى أحكم بأنها مأخوذة عن النصرانية وذلك لاننا لانرى لها أثرا فى البلاد الاسلامية المحضة بل لانجد فى سيرة السلف الاسلامى أصلا ما تستمد منه فان السنة جاءت بتعزية أهل الميت فى يوم الوفاة على القبر بعد الدفن ومن لم يتأت له ذلك يذهب الى بيت الميت لتعزية أهله وتسليتهم فوجب القول بانها خاصة بأهل مصر وحيث انها لم تكن فى أخلاق الفراعنة ولا مألوفاتهم وجب الجزم بانها جاءت عن طريق النصرانية وبيانه أن المسلمين لما افتتحوا مصر دخل فى دينهم فريق من قبطها وبقى هذا الفريق محافظا على أكثر عاداته (ولاتزال آثارها باقية بيننا الى اليوم)

ومن جملة هذه العادات ولاشك عادة الحداد مدة الثلاثة أيام ثم فى اليوم المتمم للاربعين فان المسيحيين يعتقدون أن سيدنا عيسى عليه السلام قال لتلامذته قبل الصلب انه سيقوم من القبر بعد ثلاثة أيام فاستمروا يتربصون ظهوره فى هذه المدة وهم فى غاية الحزن والقلق حتى حصلت قيامته فى أوائل اليوم الثالث ورآه

بعض النساء وأخبرن به بقية الذين آمنوا وهم يعتقدون أيضا أنه بقى بعد القيامة يظهر تارة ويختفى أخرى فى أوقات غير معلومة وأيام ليست معينة حتى حل اليوم المتمم للاربعين من يوم الصلب فارتفع الى السماء فى أجل المظاهر وأرفع الدرجات (انظر الاصحاحات الاخيرة من الاناجيل وأعمال الرسل) ولايزال الاقباط الى يومنا هذا يقيمون الحداد على موتاهم مدة الثلاثة أيام الاولى وفى اليوم المتمم للاربعين وبعده يعتبر أن الميت فاز بالزلفى وحظى باكرام المثوى كما حصل لسيدنا عيسى عليه السلام

أما مسألة اقامة الحداد فى الاخمسة فلا أراها الا اسلامية اذ تستحب فى ليلة الجمعة تلاوة القرآن الكريم والتقرب من المولى بالادعية والتوسلات والاذكار التى يقصد بها أن الميت ينال النجاة وحسن العقبى ولان الناس يتمكنون من السهر وتعزية بعضهم فى هذه الليلة التى يصبحون بعدها وهم خلو من الاعمال منقطعون فى الغالب للرياضة التعبدية ولا بأس من التنبيه بهذه المناسبة أيضا الى ان المسيحيين يقولون ان الحواريين قد اجتمعوا فى يوم خميس عقيب ظهور سيدنا عيسى عليه السلام من القبر وتحدثوا فى شأن دينهم الجديد وفيما ينبغى عليهم اجراؤه من حيث الثبات على معتقداتهم أو النكوص على أعقابهم فترا آى

لهم حينئذ سيدنا عيسى عليه السلام وأكد عليهم بوجوب المحافظة على ماجاء به ودعوة الخلائق اليه

وأقول هنا ان العادات التى أتيت على ذكرها هى الجارية فى المدن الكبيرة وانها قد يحدث فيها خلافات وتنويعات فى الاقاليم والارياف سواء كان عند المسلمين أو عند الاقباط

﴿سادس عشر﴾ — ولقد كان أشار علىّ المسيو بوريان رئيس الارسالية العلمية الفرنساوية بمصر والمسيو كازنوفا أحد أعضائها بجمع نبذة على عادات المصريين فى الاحتفال بزيادة النيل وأن أورد فيها بعض أقوالهم فى هذه الازمنة الحديثة كما صنع ذلك بعض علماء العاديات المصرية فيما يختص بايام الفراعنة فاجتهدت فى جمع كثير من المواد وأضفت اليها بعض الاستعلامات الرسمية ثم اتفق لى العثور على كتاب مطبوع اسمه (قطائف اللطائف) وليس فيه اسم المؤلف وقد تضمن كل ما كنت جمعته بل وزيادة فرأيت أن الغير لسعده قد سبقنى فيما كنت أظنه ملكا لى خاصا بى ولكنى لما علمت ان هذا الكتاب قد قامت بتأليفه وترصيفه احدى السيدات الشرقيات زال عنى ما كنت أجده وشمرت عن ساعد الجد فى ترجمة القطعة الخاصة بتفاصيل جبر الخليج فى مصر نقلا عن الفاضلة مؤلفته اجلالا للروابط الادبية والعلاقات

التأليفية التى بين المشتغلين بالمباحث المفيدة (والترجمة فى القسم الفرنساوى)

هذا وانى أشكركم أيها السادة على تفضلكم بالالتفات والاصغاء الى ماألقيته عليكم وأختم خطبتى بأنى أتمنى للمستشرقين الفوز بالنجاح فى جميع الاعمال وانى قد أخذت على نفسى بأن أكون فى بلادى من أول العاملين على تبيان حسناتهم واظهار فضائلهم وكمالاتهم

أحمد زكى

بعض أقوال الافاضل والجرائد

«صورة ما كتبه حضرة الفاضل اللوذعى الجليل محمد بك ذهنى»

«مفتش عموم المعارف ومراقب المطبوعات والجرائد»

«فى ولاية أزمير الى حضرة صديق الطرفين»

«الاديب المهذب محمد أفندى كامل تيمور»

«من تجار الاسكندرية»

عزيزى كنت شائقا الى مطالعة كتاب «السفر الى المؤتمر» تائقا الى اقتطاف يانع ثمراته من آن ماتكرمتم ووعدتم بارساله وهاهو قد وافانى من بضعة أسابيع فتهافت اذذاك لاستلامه من البريد تهافت الفراشة الى نور السراج ولم أصدق أنه بيدى الا وأكببت على مطالعته اكبابا لم يسبق له مثيل مدة حياتى فالتمته فى يوم واحد بحيث لم أشعر الا وسواد الصفحات قد انقلب بياضا فى النهاية وأنا غير متنبه الى ذلك فالفيته كتابا فريدا فى بابه قد فاز بقصب السبق فى هذا المجال على ماوضع فى هذا الباب مما عثرت عليه من المصنفات وذلك لترتيب ماهو جامعه من الابحاث والمواضع ترتيبا تدريجيا وللاسلوب الرائق الذى آثره حضرة المؤلف اللوذعى الاريب فى التحرير والافصاح عن أفكاره الفلسفية ووصف ماشاهده وتأمل من المعالم الشاهقة والمبانى الشامخة مع التنقيب الشديد والفحص الدقيق الذى تكبده لتحقيق ماوضعه العرب من الاسماء للبلدان الاروبية فى قديم الزمان ثم الغيرة العظيمة التى أبداها حضرته للدفاع عن حقوق الاسلام التى مسها الافتراق الشنيع الضارب أطنابه بين أفواج المسلمين ناصحا اياهم نصحا منبئا عن فؤاد سليم لاجماع كلمتهم واعلاء شأنهم واعظا لهم العظة الحسنة لطرح مساوى الاخلاق واعتناق مكارمها

فاستلذذت جدا من لطيف عباراته ورشيق اشاراته الى حد لا يقدر على وصفه الكلام ولا غرو فان حضرة المؤلف ممن اشتهروا فى صناعة التحرير وسائر المعارف على حداثة السن وبودى لو كان الكتاب أطول لكى أرتشف من حياضه زلال المعرفة استفادة وقد أريت هذه الرسائل متفاخرا الى بعض شبابنا المترين من أهل الكسل والبطالة الذين يذهبون أوقاتهم سدى فى سبيل الملاعب والملاهى راجيا أن تكون الوسيلة العظمى لحثهم على التحلى بالمعارف والفضائل . ولعمرى ان هذا المؤلف لقد أذكى فى صميم الفؤاد نار الاشتياق لاقتناء ما وعد حضرته من الرحلة التى لا ريب فى أنها تكون اكثر تفصيلا منه فيطفئ حينئذ باسها به نار التوقان و يبرد غليل الاشتياق فمن الآن ألتمس من مكارمكم التى عودتمونى بها أن تشتروه بل تخطفوه آن بروزه فى ساحة المطبوعات فترسلوه الى الفقير على جناح السرعة وغاية رجائى ان تسعفونى أيضا بجميع آثار المؤلف التى صدرت الى يومنا هذا

قال الكاتب الفاضل والمنشئ المجيد البارع أمين أفندى شميل صاحب جريدة الحقوق الزهراء فى العدد ٣٥ الصادر فى يوم السبت ٢٨ اكتوبر سنة ٩٣ مانصه

الرحلة الزكية

فى المحاسن الاوروبية

هى ست عشرة رسالة حررها حضرة اللبيب الفاضل والكاتب النحرير أحمد بك زكى مترجم مجلس النظار فى سياحته باوروبا وزيارته بالاخص مدينة لوندن الشهيرة مندوبا من قبل الحكومة المصرية لحضور المؤتمر المشرقى الدولى التاسع فاودع فيها من بديع الاخبار وجميل الفوائد والآثار وذكر ما هى عليه تلك البلاد من التقدم والرفاهية والثروة وبركات المدنية والراحة فى كل جهاتها ما يسحر المطالع و يستعظمه

السامع وقد جاءت شاهدة على ما الناظم نثرها وناثر نظمها من اتساع المطالعة ورفيع الميل الى نشر الفوائد اللامعة بما سمعه ورآه وشعربه واستحسنه ونبه أفكار الى ما فى تلك الاماكن من النادر والبديع والجليل والرفيع اذا قيس ببلادنا الشرقية ومعالمنا العظامية وجد بينهما بعد شاسع وارتفاع واسع وقد أجاد حضرته فى كل ماذكره عن المدن التى زارها وتركت فى قلبه حبا يكاد يقول معه

تملك بعض حبك كل قلبى ❊ فان تردى الزيادة هات قلبا

وقد يظن القارئ انه أطنب فى أوصافه وبالغ فى تعظيمه ولا نظنه الا أوجز فاعجز فان فى المدن التى زارها من نابولى الى مدينة لوندرة عاصمة انكلترا مايقصر اللسان عن مدحه والقلم عن ترقيمه فلا يقدر المطنب على الايفاء والمطيل على الايعاء فان ماجمعته تلك الديار من محاسن الوجود ووجود المحاسن لا يتصوره عقل من لا ينتقل اليها وينظر غرائبها وعجائبها وما اليها مما وصلت اليه قدرة الانسان

وما قاله فى لندن وباريس واسبانيا حقائق تاريخية قديمة وحديثة لا يختلف فيها اثنان ولذلك قد استحق هذا الكاتب البليغ شكران الرفيع والوضيع وانى أتخذ هذه الفرصة لانبه أفكار المصريين وغيرهم من سكان الممالك المحروسة العثمانية بان مانشاهده من غرائب الصنعة وبديع الاختراعات وجليل النظام فى أوربا لم يكن كله بفعل حكوماتها وعدل دولها وانما هو عن اجتهاد رجالها وهمم علمائها واتحاد قلوب أهاليها للوصول الى قمة السعادة فجابوا الاقطار نحو خمسمائة سنة حتى وصلوا الى ماهم عليه فقد كانوا أقل منا درجة وقتئذ تتجاذبهم أنواع الغيرة والحسد وتهوى بهم الاميال الاعتقادية الى تجديد النزاع كلما سكن ونفد والعمل على انحطاط التقدم كلما ظهر حتى رأوا ان فى ذلك تأخرا وخرابا فقللوا من اختلافهم ونبذوا عنهم تلك الاهواء المضرة ورفعوا انظارهم الى ماحولهم من المدن الشرقى ونظروا قوة ملوكها وسلاطينه فأرادوا التشبه بهم وجعلوا بازاء أعينهم مقاصدهى غير المقاصد الاولى ولم يعودوا ينظرون الى ماخلفهم

وكانت أول بعثتهم الى الامام فلبثوا عليها الى أن توصلوا الى النقطة الحاضرة التى نحسدهم عليها وكانوا هم الدافعين حكوماتهم الى تلك المراغب وتعميم تلك الرغائب

ثم استطرد حضرة الكاتب الفاضل الى نصيحة أهل الشرق وتنبيههم الى وجوب التعاون والتناصر والاستنارة بنبراس الحرية الحقيقية وهنأ نفسه وكل قارئ على مالاح من مبادئ التقدم وتعميم التعليم ثم قال

ونختم كلامنا هذا بالامتنان لحضرة زكى بك على ما أتحفنا به من درر رحلته ورسائله المذكورة نفعنا وجميع الامة بعدالة أفكاره ونافع تآليفه

وجاء فى جريدة الآداب الزاهرة الصادرة بتاريخ ٣٠ ربيع الثانى ما نصه

﴿ السفر الى المؤتمر ﴾

هو عنوان لذاك السفر الجليل الذى رقمه يراع حضرة الفاضل مثال الاجتهاد ودليل الساعين فى طريق النهضة المصرية الحديثة (أحمد أفندى زكى) مترجم مجلس النظار والنائب عن الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع الذى انعقد بلوندره السنة الماضية

قد طالعنا هذا الكتاب الجليل فالفيناه مصدقا لما امتاز به حضرة مؤلفه البارع من الكتابة بارشاد العواطف والهام الانفعال النفسانى الناشئ عن رؤية المناظر الجديدة الشائقة وتوخى التحقيق والتدقيق فى الاعلام الجغرافية والعلمية وهو البحث الجليل الذى يدل على سعة اطلاع حضرة المؤلف واحاطته بكتب المتقدمين من العرب ولموردهنا أمثلة من تلك التحقيقات تختص باسماء البلدان التى لها أسماء معلومة فى كتب المتقدمين ثم عمدنا الى تسميتها بما ينطبق على تمثيل اسمها عند سكانها الآن فبلد برندزى الشهيرة فى ايطاليا بانها ممر السفن التجارية التى تخترق البحر الادرياتيكى تسمى فى كتب العرب ابرندس ونابولى نابل ونابل الساحلية ونابل الكائن وبيزة بيشة وجنيفة جنبرة وباريز

بريس وترافلجار الطرف الاغراخ وا ما الاحصائيات التي وردت في الكتاب فهي في غاية الفائدة والنفع وقد مهدت لحضرة المؤلف استنتاج الحقائق واستقصاء الاسرار الاجتماعية ومن ذلك ما نقله عن تقويم تروبح النفوس (ونقلت الاحصائية الواردة في صحيفة ٩٦ و ٩٧) وبعد ان ترجم المؤلف انفعالاته من مناظر ايطاليا وفرنسا بما يخال معه القارئ انه كان رفيقاله في السفر وعطف في رسائل باريز الى الكلام على النساء الباريزيات شخص لنا لوندرة في مثال الضخامة والفخامة وروى لنا عنها أمورا تخلب عقل القارئ أهمها اجتماع الضدين وتوفر النقيضين فيها وانتقل الى الكلام على اسبانيا والبرتقال ولم يهمل حضرة المؤلف وصف المناظر الطبيعية والابنية الفخيمة والقصور والآثار الباذخة في كل جهة مر بها

وحسن الاسلوب الذي انبعه في كتابه هذا الا يسعنا معه الا الاقرار بعجز هذا اليراع عن استقصاء فضائله وتقريظه هنا بما يمثل للقارئ جزأ من أهميته ونفاسته فليعذرنا حضرة صديقنا الفاضل في هذا القصور الذي نأمل منه ان يتخذه دليلا على ما تملكنا من استحسان رسائله لدرجة لم تتمكن معها الا من تخريج عيب واحد في هذه الرسائل وهو ان لا عيب فيها

جاء في جريدة الزراعة الغراء الصادرة في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ما نصه

﴿ السفر الى المؤتمر ﴾

اهدانا حضرة صديقنا الاديب الفاضل والكاتب المدقق احمد زكي أفندي مترجم مجلس النظار العالي هذا الكتاب الذي وضعه بعد عودته من اوربا حيث كان مندوبا مصريا لدى مؤتمر المشرقيات وقد طالعناه مطالعة المنتقد الواضع لديه كفتي الاستحسان والاستهجان تاركين جانبا هوى القلب الخافق سرورا لدى أثر هذا الصديق الفاضل وقد جئنا الآن نظهر رأينا فيه

مزايا الكتاب — يظهر لمن يطالع كتاب السفر الى المؤتمر ان نية كاتبه الفاضل معقودة على إشراك مواطنيه في كل ما رأى من مشاهد التمدن الاوربي ومظاهر الحضارة الغربية لانه يعلم ان القسم الاعظم منهم لم يردوا غير ماء النيل من مياه المعمورة . وقد أحسن كل الاحسان في عدم الوقوف عند حد الاخبار عما رأى وما سمع بل قد وضع ما رآه وما سمعه على قوالب ارائه وأجال فيها نظره الحديدي الذكاء فامكنه أن يضع لدى مطالع كتابه مشهد العالم الاوربي بعناصر تقدمه ومجالي رونقه وبهائه والشهادة لله ان سفر سفر صديقنا الزكي الى المؤتمر كأنه معرض تشريحي للحضارة الاوربية او هو رسم فوتوغرافي منقول عما ارتسم على مخيلة كاتبنا الزكي من مشاهداوروباومرئياتهاثم والكتاب فصيح العبارة لطيف الاشارة من أحسن ما كتب في باب السياحات فهو اذا شبه بكتابات المسعودي وابن بطوطة في اسلوب كتابته فاشابهاه في شيء من جهة الصلة بالحقيقة والفوائد الجمة والبعد عن الاوهام وقد علمنا من ترتيب الكتاب ان كاتبه كان اذا نزل في بلد او حل في مدينة يزور كل ما هو عظيم وذا شأن فيها ويودعه مذكراته الا انه كثيرا ما يرى في الكتاب اثر الاقتضاب والاختصار كذلك كثير مما نعلم وجوب ذكره وليس مذكورا وكثير من ابحاثه مما يفيد تفصيله ليس مفصلا الا اننا نجد عذرا للكاتب في وقته القصير بجانب كثرة اشغاله واتساع جولاته وجسامة مهماته

وكان بودنا لو نترك القلم مع هواه في الكلام على اثر من يهواه ولكن المضمار قصير والخاطر حسير لكلا نوقفه حتى نذكر للكاتب الزكي صفته الوطنية وغيرته الشرقية الظاهرتين في كل عبارة من عبارات الكتاب . وسنعود الى مشاركته في الكلام على البحث الذي هو أول طارق لبابه وهو المتعلق بلغة الاعراب وآثارهم في الاندلس

جاء فى جريدة الشرائع الغراء الصادرة فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٣

السفر الى المؤتمر

هو عنوان كتاب مجموع الرسائل التى بعث بها حضرة امام المترجمين ونخبة الشبان المصريين الكاتب الفاضل والاصولى المدقق أحمد أفندى زكى مترجم رياسة مجلس النظار حين كان ببلاد أوروبا اذ عهدت اليه رياسة الوفد المصرى الى مؤتمر المستشرقين بمدينة لوندرة جمعه حفظه الله بعد عودته بالسلامة وطبعه على نفقته بالمطبعة الكبرى فجاء كتابا جليلا يقوم برهانا قاطعا الشبان يتحدون به فى مقام الفخر باعمالهم بل لحاما يرد جماح الذين يجحدون أن فى السويداء رجالا وفى الكنانة ابالا بل قدوة حسنة لمن يريد خدمة بلاده وسدا أفواه حساده وماعساني أن أقول فى سفر يصور للحال أوروبا أغلبها أكمل التصوير ماديها وأدبيها من الطبيعيات كوصف البلاد والمدائن والجبال والآبار والبساتين والطرق والطقوس والاهوية والاطعمة والاشربة ثم المصنوعات من قديمة وحديثة وجيدة ورديئة فالآثار وأصحابها وتواريخ تأسيسها من عجيبها وغريبها وعظيمها وصغيرها فالتجارة وروابحها وكسادها والصناعة والاقبال عليها أو العدول عنها والزراعة وأصنافها وهيآتها ومناظرها فحال البلد العام غناها أو فقرها ووفرة حاصلاتها أو قلة موجوداتها فطباع كل شعب حسنها ورديئها من ائتلاف الافراد أو اختلافهم وتناصرهم أو تقاطعهم ونشاطهم أو بلادتهم واقبالهم على العمل أو اعراضهم عنه ثم أفكارهم صحيحها وفاسدها واخلاقهم لينها وجافيها وأميالهم خيرها وشرها ثم غرائب ماعندهم على العموم من المعامل وتشغيلها والمحاجر وأصنافها على ماهو عليه مع ذلك كله من دقة المعانى وجزالتها وعذوبة الالفاظ وسلاستها ولا غرابة فقد كتب بقلم بليغ عربى واحساس شرقى مصرى ودافع قوى وطنى فياحبذا الوينسيج

شبابنا المصريون على منواله اذ فى هذا فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون ولقدوة بحضرة الكاتب أدامه الله خير قدوة للشبان فى كتابه هذا بطبع رحلته الكبرى فاطلعنا بها اذا كانت هذه حال الصغرى * وان غدا لناظره قريب أكثر الله فى مصر من أمثاله انه سميع مجيب

ولقد يسرنا ان نظارة المعارف العمومية قد اشتركت فى . . . . . نسخة من السفر المذكور لتوزيعها على طلبة المدارس افادة لهم وتعويضا لبعض ما أنفق حضرة المؤلف وتشجيعا لغيره فى الاقدام على مثل ذلك فلا عدمنا من يسهرون على تقدم البلاد ونجاح شبانها آمين

قالت جريدة المقتطف الاغر الصادرة فى أول اكتوبر سنة ١٨٩٣ مانصه

السفر الى المؤتمر

هو مجموع الرسائل التى كتبها حضرة اللبارع فى ميادين المعارف أحمد أفندى زكى مترجم مجلس النظار فى سياحته باوربا نائبا عن الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع الذى عقد فى العام الماضى وقد أطال الكلام فيها على لندن وباريس ومدائن اسبانيا فجاءت كتابا كبيرا فى أربعمائة صفحة جامعة لاشتات الفوائد (١)

وفى رسالته عن اسبانيا والبرتغال (أى البرتقال) فوائد كثيرة ونكات بديعة عن ذلك ماوقع له فى طلب أجرة المركبة منه ستمائة ريال (٢)

ويتلو ذلك نبذة بديعة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا وسنأتى على ذكرها فى فرصة أخرى وجملة القول ان هذه الرسائل شاهدة لحضرة مؤلفها بسعة الاطلاع ودقة البحث وبانه لقى من الحفاوة والاكرام مايفتخر به شبان مصر

---

(١) ثم أورد بعض نقول من المقدمة صحيفة ٤

(٢) ثم أورد القصة المسطورة فى صحيفة ٣٩٩

Du *Journal Officiel* du 6 novembre 1893.

Sous le titre : « *Départ pour le Congrès* », Ahmed effendi Zéki, chef du bureau de traduction à la présidence du Conseil des Ministres, vient de réunir en un volume publié en langue arabe par l'imprimerie nationale de Boulaq, ses impressions de voyage au cours de sa mission à Londres, où il avait été envoyé, l'année dernière, au Congrès des Orientalistes.

Le livre de Zéki effendi se distingue par un style élégant, mis au service d'un talent de description de bon aloi, et, par son intérêt soutenu, qui assure à l'avance son succès de lecture.

De l'*Egyptian Gazette* du 14 novembre 1893

(La traduction française a paru dans la partie française du même numéro).

Under the title of *Al Safar illa Al Motamar* (the journey to the Congres), Ahmed Zeki Bey, the head of the translating department at the President of the Council of Ministres, has pu-

blished in Arabic an account of his recent travels in Europe, which is very interesting from both scientific and literary points of views. In an elegant and clear style, the author gives his impressions of his journey when he proceeded to London to represent the Egyptian Government at the IXth Congress of Orientalists held in that city.

The work abounds with ethnographical and literary notes and gives a very correct idea of the state of civilisation in several countries of Europe, of their industrial and commercial progress and of the manners and customs of their inhabitants. Specially worthy of attention are the author's remarks respecting the beauties of Paris, the grandeur of London, his visit to the South Wales coal mines and the description of his journey through Spain and Potugal.

We compliment Ahmed Bey Zeki on the able manner in which he has compiled his work which shows great originality of thought on his part and which, as a book written by an Egypt-

ian for the benefit of his fellow countrymen, is one deserving of an extensive circulation among Egyptians.

Du *Phare d'Alexandrie* du 15 novembre 1893.

Bibliographie. — Les jeunes et vieux égyptiens qui n'ont pas eu l'occasion de contempler les merveilles de la civilisation européenne, feront bien de lire attentivement l'ouvrage qui a pour titre : *Départ pour le Congrès*.

L'auteur, M. Ahmed Zéki effendi, dont les divers et nombreux travaux littéraires et scientifiques ont déjà obtenu tant de succès, a réuni dans un remarquable ouvrage en langue arabe, les impressions recueillies au cours de son récent voyage en Europe.

Délégué par le Gouvernement égyptien au Congrès des Orientalistes à Londres, M. Ahmed Zéki, en homme intelligent, a su mettre à profit les courts instants dont il a pu disposer pendant son séjour en Europe. En lisant : *Départ pour le Congrès*, on demeure étonné de la somme de

travail fournie par l'auteur, pour recueillir tant de notes intéressantes, pour s'assimiler tant de détails de mœurs, tant d'observations d'un si haut intérêt.

Les récits, tout vibrants d'émotion, concernant la grandeur de Londres, les magnificences de Paris, les curiosités artistiques et archéologiques du Portugal et surtout de l'Espagne où l'on rencontre tant de vestiges de la civilisation arabe, tout est pensé et dit avec un grand charme infini.

M. Zéki sait communiquer son enthousiasme au lecteur.

Dans son ouvrage, M. Zéki s'adresse plus spécialement aux Égyptiens, ses compatriotes, et, à ce titre, le travail de l'auteur est non seulement une belle œuvre, mais une bonne action.

Nous recommandons vivdment la lecture de : *Départ pour le Congrès,* à toute personne éprise d'art, de science et de littérature. On y rencontrera toutes les qualité, qui sont l'apanage des bons écrivains.

قالت جريدة الهلال الاغر فى العدد الصادر فى ١٥ ديسمبر سنة ٩٣ مانصه

السفر الى المؤتمر

هو كتاب يتضمن الرسائل التى جادت بها قريحة حضرة صديقنا الكاتب الالمعى رفعتلو أحمد أفندى زكى رئيس قلم ترجمة مجلس النظار اثناء رحلته فى بلاد أوروبا مندوبا للنيابة عن الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع الذى التأم فى لندرا أواخر العام الغابر. وقد أفرغ الوسع فى وصف العواصم التى مر بها وأقام فيها وصفا دقيقا لم يغادر فيه شاردة ولا واردة مما يهم المطالع معرفته عن أحوال تلك البلاد. ومن مزايا تلك الرسائل أنه كتبها بقلم مصرى ينظر الى الاشياء بعينى مصرى بحت ينفعل بانفعال المصريين ويكتب للمصريين. وأول مدينة نزل فيها ووصفها نابولى ثم رومة العظمى فقلورانسا فبيزة فجينوة فتورينو فودان فباريس فلندرا وبعض مدائن الانكليز ثم بلاد الغال ووصف بلاد الاندلس وآثار العرب فيها وغير ذلك من الفوائد التى لا يعثر عليها الا بالاسفار الشاقة والابحاث الطويلة

وقد أسهب الوصف بنوع خاص فى مدينة باريس فلم يغادر شيأ لم يصفه وصفا دقيقا من أحوالها المدنية والسياسية والعلمية والتاريخية ومتاحفها ومعارضها وأبنيتها وعوائد أهلها وأخلاقهم رجالا ونساء حتى تمثلت المدينة لدينا تمثل العيان. وقد أجاد فى الكلام عن الاندلس وتأثير التمدن العربى على الاسبان وأورد كثيرا من الاسماء العربية التى اختلطت بلغة هؤلاء الاقوام وردها الى أصلها العربى لغويا وتاريخيا

وبالجملة فانه قد أشبع الكلام وأفاد فيه افادة يستوجب عليها الثناء ويليق من اجلها أن يكون قدوة ومثالا فى الاقدام والاجتهاد ودقة البحث

على اننا نستأذنه بعد أن وفيناه بعض الواجب من الثناء ان نذكر طرفا مما رأينا فيه

وجها للنقد اجابة لطلبه . ونحن على يقين أنه لا يستنكف من سماع ملاحظتنا لعلمنا أنه ممن يحبون البحث عن الحقيقة ولا يستعظم الرجوع الى الحق فنقول

قدرأينا في وصف مدينة لندرا ايجازا يكاد يبلغ حد الاخلال على حين اننا كنا نتظر الافاضة في وصفها أكثر من سواها لما حوته من الآثار والمتاحف والعظمة ولا سيما انها مقر المؤتمر ومحط رحال حضرة الكاتب في رحلته هذه فانه لم يذكر متحفها الشهير المعروف بالمتحف البريطاني الا بطريق العرض عند كلامه عن متاحف باريس ولم يشبع الكلام فيه ولا ذكر شيأ عن مسرحها (معرض الحيوان) ولا منبتها (معرض النبات) ولا غير ذلك مما يستغرق في وصفه المجلدات الضخمة وخصوصا المتحف البريطاني الذائع الصيت فانه من أعظم متاحف الدنيا اذا لم نقل أعظمها وفيه آثار العالم على اختلاف الزمان والمكان

وقد قال اثناء كلامه عن لندرا تحت عنوان «تبويذ الانكليز» صفحة ١٠٨ (١) «وأما جيش السلام فلا أتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لندرا بقصد تبويذ الانكليز (ان صح التعبير أي جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذة) وبلغني ان لهم هيكلا تقام فيه شعائرهم الدينية في خط ويت شبل المعمور بألوف من الخلائق وعلمت ان أعمالهم سائرة في طريق التقدم وان بعض امرر جال البوليس الانكليزي قد دخلوا في زمرتهم»

نقول ولا نعلم بوجود هذا الجيش في لندرا ولا شيء مما نسبه اليه ولعله أراد «جيش الخلاص» Salvation Army وليس جيش السلام أما جيش الخلاص فهو بريء من تلك التهم اذ لا علاقة له بالبوذيين ولا مذهبهم وأما هو فعبارة عن جماعة من المسيحيين يدعون أنفسهم المبشرين المسيحيين Mission Christian وهم أخلاط من بقايا عدة جمعيات مسيحية تألفوا سنة ١٨٦٥ لتبشير أسافل الناس وقد نظموا أنفسهم على هيئة جيش له قائد (جنرال) وضباط وصف ضباط وعساكر وقائده أو رئيسه الآن

(١) من الطبعة الاولى ويقابلها ١٣٩ في هذه الطبعة

الجنرال «بوث» أو «بوذ» ولعل ذلك ما التبس على حضرة الكاتب بمذهب بوذة . وقد مر على هذا الجيش الآن زهاء ثلاثين سنة عاملا على خطته وله نفقات خصوصية من أوقاف محدودة وقامى مشقات عظيمة فى سبيله ولكنه كان يكتسب أموالا طائلة يجمعها من أموال المحسنين تتجاوز مئات الالوف من الجنيهات ولم يقتصر انتشاره فى لندرا بل تجاوزها الى الضواحى والمستعمرات ومدن كثيرة من أوروبا فان منه فروعا فى كوبنهاجن وبرلين وهمبورج وغيرها وفى جنوبى أفريقيا واستراليا

ولا يزال الجنرال بوث قائما باعمال هذا الجيش عاملا على نصرته الى هذه الغاية وقد شاهدنا من هذا الجيش أثناء زيارتنا عاصمة بلاد الانكليز سنة ١٨٨٦ جماعات يطوفون الشوارع يعزفون بالموسيقى العسكرية ورأيناهم يقفون على ملتقى الطرق وفى المتنزهات العمومية يعظون الناس ويحثونهم على الصلاح وربما كان بين وعاظهم من لا تليق به هذه المهنة وسبب ذلك ما قدمناه من ان الجيش تألف لهداية السوقة وأسافل القوم فانتظم فى سلكه جماعة منهم فشوهوه وأما مقامهم ففى خط «ويت شبل»

على أن ما ذكرناه لا يحط شيأ من قدر حضرة صديقنا الفاضل ولا يقلل شيأ من قيمة مؤلفه الجليل ونحن نعلم انه كتب ما كتبه فى أضيق الاوقات وأقصر الفرص والعصمة لله وحده سبحانه وتعالى

ايضاح الحقيقة

عما ورد فى النبذة المتقدمة

لما اطلعت على ما كتبه الهلال الاغر أرسلت اليه رسالة مطولة أخلصها هنا فى كلمات وجيزة وسطور قليلة

الاعتراض الاول وهو الايجاز فى وصف لوندره ينفيه الاطلاع

على الكتاب ومقارنة الجزء المخصص فيه لها وحدها وهو لاشك كثير جدا بالنسبة لغيرها من البلدان الكثيرة التى زرتها وهذا الا ينافى أن هذا الوصف مهما طال ومهما كثر فليس يستحق الذكر بجانب جسامتها وانى قد سبقت الى الاشارة الى ذلك فى صحائف ١٠٣ و١٠٧ و١١٣ و١١٤ و١١٥ و٢٠١ و٢٠٣ و٢٠٨ و٢١٥ (١)

أما ما يتعلق بالمتحف البريطانى فانى لم أذكره فقط بطريق العرض اثناء الكلام على متاحف باريس بل قد ذكرته وأشرت اليه فى صحيفة ٢٠٦ فى رسالة لوندره ولما كان وصف هذا المتحف قد أسهب فيه حضرة العالم الفاضل أمين بك فكرى فى «ارشاد الالبا الى محاسن أوربا» ما رأيت وجوبا لاعادة الكلام عليه بل آثرت الدخول فى مواضيع أخرى لم ترد فى الغالب فى كتاب حضرته كما أنى اذا اضطررت للكلام على موضوع قد سبق له الخوض فيه أجتهد فى شرح أمور جديدة وبيانات لم ترد فى كتابه حتى يكون لمن قد قرأ كتابه الانيق فائدة فى تلاوة كتابى أيضا . وكل من قابل بين الكتابين يعلم أن أحدهما لا يغنى عن الآخر ولابد من الحصول عليهما معا . ومن رأيى أن القارئ العربى يكفيه أن يعلم عن المتحف البريطانى ما ورد فى ارشاد الالباء وأنه من الواجب أن يجد معلومات جديدة ومزايا أخرى فى

(١) اعلم أن النقول والنصوص الموجودة فى هذه الصحائف هى الواردة فى الطبعة الاولى حرفا بحرف

«السفر الى المؤتمر» وهو الامر الذى دعوت اليه فى خاتمة كتابى هذا لتكمل الفائدة (ص ٤٦٦)

أما الاعتراض الثانى فهو مبنى على كون صاحب الهلال الأغر ظن أننى جعلت أهل جيش السلام من البوذيين الوثنيين وتصوّر أن الذى أوجب عندى (أنا) حصول الالتباس أن قائد جيش السلام يسمى (بوث) ثم بنى على ذلك الشرح الذى علقه على عصابة هذا الجنرال وأحوالها بما فيه فوائد جمة كنت أدخر شرحها لرحلتى الكبرى فجزاه الله خيرا على هذا الاستعجال

غير أنى لم أقصد ما فهمه حضرته بالمرة ولم يدر فى خلدى شئ من التهم التى تصورانى نسبتها لهم لان قولى « وأما جيش السلام فلا أتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندره بقصد تبويذ الانكليز (ان صح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذة) وبلغنى أن لهم هيكلا الخ» وذلك لانه لو تدبر كتاباتى فى الرسائل لرأى أننى عند ما تزدحم علىّ المواضيع وتتوارد المطالب أجنح الى هذا الاسلوب من التعبير «وأما الامر الفلانى فلا أذكر عنه شيأ الآن - أو - فانى أؤخر شرحه لفرصة أخرى - أو - ما أشبه ذلك من العبارات » ثم أعقب هذه الجملة بقولى « وانما أتكلم على الامر الفلانى » الذى يكون غير

الاول ولكنه يكون منطويا تحته فى باب واحد وله به تمام الارتباط وشواهدى على ذلك كثيرة فى الكتاب أكتفى بذكر واحد منها لكون الاطالة لاطائل تحتها وهو « أما نزهتنا فى لوندره فلا أتكلم عليها الآن وانما أذكر أنى شفيت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية فى احدى ضواحيها وهو محل متسع الخ » فقد أغفلت الكلام على النزهة فى لوندره وذكرت شيأ عن النزهة فى ضواحيها وهذا له تمام المشابهة فى كونى أغفلت الكلام عن جيش السلام وتكلمت على تبويذ الانكليز (بحسب مذهب الهنود) لان سياق الكلام كان على « أفكار الانكليز واعتقاداتهم وآرائهم ومقالاتهم »

هذا وان فى قولى « ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندره الخ) كفاية تامة للتعريف بمن أريد وانى لاأقصد أهل جيش السلام الذين هم من طوائف النصارى كما هو اعتقادى الحقيقى الظاهر فى عبارتى وهنا أرى وجوب الرجوع الى الاحق من حيث التسمية لان الترجمة التى قال بها صاحب الهلال الاغر « جيش الخلاص » هى فى الحقيقة أفضل وأدل على المراد من ترجمتى لاسمهم بقولى « جيش السلام » لكن لفظة الخلاص هى خاصة بالاصطلاح المسيحى فلذلك أعذر على كونها فاتتنى مع كون الكثير من الكتاب يذكرون « جيش السلام » ويريدون به كتيبة الجنرال بوث وأهل طريقته وهذه الترجمة متداولة معروفة

وقد أخبرني حضرته انه قرأ العبارة هكذا « وانما أقول انه جماعة من البوذيين » فلما وضع هو الضمير في لفظة «انه» توهم اني خلطت هذه الجماعة النصرانية بالطائفة البوذية وليس الامر كذلك فاني ماقلت الا « أن » في الطبعة الاولى والطبعة الثانية هذه

هذا مارأيت ذكره بالاختصار بيانا للحقيقة التي أراني متفقا مع حضرة الفاضل صاحب الهلال الاغر على تحريها وتفضيلها على عواطف الوداد وروابط الاجتهاد واني أشكره في هذا المقام على توخيه هذا الاسلوب المفيد في الانتقاد فاني لاأزال أجاهر بانى ممن يفتخر بمحبة الانتقاد ويرى وجوبه على الدوام فيما يتعلق بكل كتاب يظهر في عالم المطبوعات لان «الحقيقة بنت البحث » وياحبذا الانتقاد الصادر عن طوية خالصة ونية صافية بمقتضى قواعد العلم ونواميسه المعتبرة فانه مما يوجب ارتقاء المعارف ورفع مقام الكتاب أرشدنا الله جميعا الى السداد والصواب



كانت براعة الاستهلال فى هذا الكتاب الرسالة الفائقة التى كتبها تاج المنشئين وفخر الكاتبين الاستاذ الاجل الشيخ عبد الكريم سلمان والحمد لله الذى وفق له براعة ختام من أحسن ماتستطيبه العقول وتنتهى اليه المطالب ويكمل به اختتام هذا الكتاب على أجل منوال فقد جادت قريحة الذى لايصح أن ينتهى الشعر الا الى بابه ولا تقف مطايا العلم الا عند رحابه حضرة الفاضل الجليل اسمعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف الاهلية بهذه القصيدة الفائقة وهى

أهجر النوم فى طلاب العلاء * وصل الصبح دائبا بالمساء
والتمس بالمسير فى كل قطر * رتبة العارفين والحكماء
ان غض الشباب فقهه الستر * حال شيخ فى أعين العقلاء
ومقام الحسام فى الغمد يزرى * بالذى حازمتنه من جلاء
فدع الغمد يبد للعين من فضـ * ـلك ماكان فى زوايا الخفاء
ان أمضى الرجال من كان سهما * نافذا فى حشاشة الغبراء
واللبيب اللبيب من دار فى الار * ض لعلم يناله أو ثراء

انما الارض والفضاء كتاب * فاقرأوه معاشر الاذكياء
واقرنوا العلم بالسُّرى رب علم * لم تحزه قرائح العلماء
وأطيلوا ما كان من قصر العيـ * ـش بحث الركاب في الانحاء
وطن المرء مهده وبقايا الـ * ـكون بيت له رفيع البناء
ومعيبٌ ان تصرف العمر في المهـ * ـد وتنسى البيت الوسيع الفناء
هذه الفلك يستحث خطاها * هزج الريح في صحاري الماء
كم أطالت مدى الرحيل ووالتـ * ـه فعادت بالخير والسراء
وهلال السماء يزداد نورا * كلما خاض لجة الظلماء
لو ونى عزمه لما فاز بالقد * ح المعلّى في القبة الزرقاء
خلق المرء للتنقل في الار * ض والسعي لا لمحض الثواء
فتحرك بحكم طبعك أو كن * جوابا في مجاهل البيداء
حبذا رحلة تمثل تمثيـ * ـلا مزايا الاسفار للقراء
قد أجادت فيها براعة منشيـ * ـها اختيار الاخبار والانباء
فأجل في جمالها نظرات * فهي بكر الاداب والانشاء
وتفهم حديثها ثم سافر * ليس من يسمع الحديث كرائي



جدول

اجمالي بيان الاعمال المقدمة للمؤتمر

كتب أصلية ألفتها	كتب قديمة صححتها ونقحتها
١ — مفتاح القرآن	١ — ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى للمقريزى
٢ — النسخة المحررة للطبعة الثانية من موسوعات العلوم العربية	٢ — ذكر الغلاء الواقع بأرض مصر له
٣ — معجم الكلمات المضعفة	٣ — ترتيب المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغات العرب (أصله للصديق وقد غيرت ترتيبه)
٤ — معجم الكلمات الكلبية ويليه التبرى من معرة المعرى	٤ — أسماء الاسد ٥ — الاضداد (مستخرجة من القاموس)
٥ — معجم تحرير وضبط الاعلام الجغرافية بالعربى والفرنساوى	٦ — تحبير الموشين فيما يعبر فيه بالسين والشين للفيروزابادى
٦ — وصف مجالس النداءات ومجموعة فيها أكثر من ٢٠٠٠ بيت من مراثيهن	٧ — القصيدة الفارقة بين الضاد والظاء
	٨ — حل لغز الماء للمقريزى (وترجمته بالفرنساوى)
	٩ — قصيدة علم الدين السخاوى فيما اتفق لفظه واختلف معناه
	١٠ — الاحتفال بزيادة النيل وجبر الخليج (وترجمته الى الفرنساوى)

﴿استدراكات﴾

(١) سهوت ان أذكر فى حاشية صحيفة ٢٣ ان لفظة دار الصناعة كانت مستعملة أيضا فى الديار المصرية فخشيت ان يتصور القارئ ان مصر لم يكن لها شأن كبير فى ذلك فاخترت نقل ما أورده المقريزى فى صحيفة ١٨٩ من الجزء الثانى من خططه المشهورة المطبوعة فى بولاق سنة ١٢٧٠ هجرية تحت عنوان (ذكر المواضع المعروفة بالصناعة)

قال بعد ان عرف لفظ الصناعة من حيث اللغة (وأما فى العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعد لانشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن واحدتها سفينة وهى بمصر على قسمين نيلية وحربية فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما الى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الاسطول ولا أحسب هذا اللفظ عربيا وأما المراكب النيلية فانها تنشأ لتمر فى النيل صاعدة الى أعلى الصعيد ومنحدرة الى أسفل الارض لحمل الغلال وغيرها) ثم قال فى صحيفة ١٩٠ مانصه (وأول ما أنشئ الاسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم عند ما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان وثمانين ومائتين وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق فلكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال ومضوا الى تنيس فأقاموا باشتومها فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بامر الاسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر وأنشئت الشوانى برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر الخ) وقال فى صحيفة ١٩٥ مانصه (قال ابن أبى طى فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله انه أنشأ بها دار الصناعة التى بالمقس وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا*

وقال المسبحى (١) ان العزيز بالله نزار المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا) وقد ذكر المقريزى فى صحيفة ١٩٦ و ١٩٧ تفاصيل أخرى عن دار الصناعة بالجزيرة أى جزيرة الروضة ودار صناعة مصر

(٢) قلت فى صحيفة ٩٧ أن بهاء الدين العاملى وصف النساء فى الارجوزة الشهيرة التى كتبها على رحلته فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول وحقيقة الرحلة أنها كانت فى هراة والارجوزة اسمها الفاخرة وهى واردة فى الجزء الاول صحيفة ٧٢ و ٧٣ و ٧٤ من الجزء الاول من كشكوله المطبوع فى بولاق سنة ١٢٨٨ وهذه هى الابيات

نساؤها مثل الظباء النافرة * ذوات ألحاظ مراض ساحرة
يسلبن حلم الناسك الاواه * يسلمن جسمه الى الدواهى
من كل خود عذبة الالفاظ * تقتل من تشاء بالالحاظ
أضيق من عيش اللبيب ثغرها * أضعف من حال الاديب خصرها
فاتكة قد شهدت خداها * بما بنا تفعله عيناها
ترنو بطرف ناعس فتاك * يفسد دين الزاهد النساك
والصدغ واو ليس واو العطف * والشدى رمان عز القطف
والجسم فى رقته كالماء * والقلب مثل صخرة صماء
ولفظها وثغرها والر . . . ف * سحر حلال أقحوان حقف
وقدها ونهدها والخد * غصن ورمان طرى ورد
والشعر والرضاب والاجفان * صوارم مدامة ثعبان
غيد حميدات خصالهن * طوبى لمن نال وصالهن

(١) اعلم أن حقيقة اسمه بالباء الموحدة بعد السين المهملة وقد وردت غلطا بالياء التحتية المثناة فى جميع المواضع فى طبع خطط المقريزى فليحرر ذلك

(٣) مسئلة تساؤل الانكليز بعضهم بعضا عن الوجود والصلاة فى الكنائس فى يوم الاحد (صحيفة ١٤٢) تشابه تساؤل المصريين بعضهم بعضا فى شهر رمضان (انت صايم والا فاطر ؟) يريدون مفطرا

(٤) يقول المغاربة فى تعظيم السيدات (للاّ) فربما كان ذلك أصلا للعبارة المكتوبة فى بورصة مدينة بورتو التى أوردتها فى صحيفة ٣٩٦

وقد راجعت مذكراتى فرأيت ان العبارة المكتوبة على زجاج البورصة هى (عز لانا السلطانة مريم ٢) وانى أوردهنا الابيات التى رأيتها على طرازات الزجاج فى دار البورصة المذكوره وذلك بناء على طلب أحد الاصدقاء الفضلاء وهى

« سعد الرجاء وساعد الاقبال ❊ ودنا الهنا وأجابت الآمال »

وأقول ان أصل هذا البيت بحسب ما أورده السعد فى مقدمة شرح التلخيص هى

سعد الزمان وساعد الاقبال ❊ ودنا المنا وأجابت الآمال

وهى أجود وأمتن فى بابها

ثم انه يوجد فى شبابيك البورصة المذكورة وردات من الزجاج وفى وسطها هذه العباره

(عز نصره)

وبهذه المناسبة أوردهنا ماعندى من النصوص العربية المعتبرة التى تدل على أن بورتو هى المعروفة عند العرب باسم برتقال بالباء الموحدة والراء المهملة والتاء الفوقية والقاف يتلوها ألف ولام والذى دعانى للتعجيل بايراد هذه النصوص فى هذا المقام مع أننى كنت وعدت فى صحيفة ٣٩٥ بأننى سأوردها فى الرحلة أن بعض الادباء قد طالبنى بها فلم أر مندوحة عن تعجيل الجواب

قال فى الجزء الثانى من البيان المغرب فى أخبار المغرب للمراكشى الذى طبعه

العلامة المحقق دوزى فى مدينة ليدن سنة ١٨٤٩ مانصه بالحرف «الى أن خرج»
«الحاجب المنصور أبو عامر بموضع برتقال على نهر دويرة ..... وقد كان»
«المنصور تقدم فى انشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من»
«ساحل غرب الاندلس وجهزه برجال البحريين وصنوف المترجلين وحمل»
«الاقوات والاطعمة والعدد والاسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة»

وقال فى الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس المطبوع فى مدينة أوبسالا Upsala سنة ١٨٤٣ مانصه بالحرف الواحد «وفى سنة أربع وخمسين ومائة فتح الامير سير بن أبى بكر سنتريش»
«وبطليوس وبرتقال وناقورة والاشبونة وجميع بلاد الغرب»

وفى هذا أكبر كفاية وأوفى غاية والله محيط بالمخلصين من عباده

(٥) يقول مؤرخو الافرنج ان الذى بقى مع بلاى أو بلايه أو بلايو Pélage أو Pelayo ٤٠٠ رجل فقط لا ٣٠٠ كما ذكرته عن مؤرخى العرب ولكن الطرفان متفقين على تمام القصة المذكورة فى صحيفة ٤٢١

(٦) قد قلت فى صحيفة ٤٣٨ أثناء الكلام على «ابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس «ان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza أو Vitiza المعروف عند العرب باسم غيطشة وربما كان الرجل من نسلها»

والحمد لله فقد تحقق هذا الظن وصار الآن من اليقينيات فاليك أيها المحب للابحاث التاريخية ما أورده بهذا الخصوص العلامة ابن خلكان فى ترجمة أبى بكر محمد بن القوطية قال

(والقوطية بضم القاف وسكون الواو وكسر الطاء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة هذه النسبة الى قوطبن حام بن نوح عليه السلام نسب اليه

حدة أبي بكر المذكور . . . . . وهي أم ابراهيم بن عيسى ابن مزاحم جد أبي بكر المذكور وهي ابنة وبة بن غيطشة وكان من ملوك الاندلس وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها ارطباس المذكور فقتز وجها بالشام عيسى بن مزاحم المذكور وهو من موالي عمر بن عبد العزيز الاموي رضي الله عنه وسافر معها الى الاندلس فكان ذلك سبب انتقال عيسى بن مزاحم الى الاندلس وانساله بها . . . . . وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم الخ)

(٧) قلت في صحيفة ٤٣٠ اني لم أتعرف الاصل الافرنكي في جملة اعلام أندلسية منها انجلينو ومردنيش وأقول الآن ان انجلينو مأخوذ من أنجيل Angel بمعنى الملك بفتح اللام في اللغة الاسبانية وهم يقولون بالتصغير Angelino وعنه أخذ اللفظ العربي ولا يزال هذا الاسم مستعملا في التسمية عند الافرنج عموما وأما مردنيش فاني أظن انه مأخوذ عن Martin مرتين و Martinis مرتينيس ثم صارت مردنيش

(٨) بمناسبة ماذكرته في صحيفة ٤٣٣ من ان بعض الاندلسيين أضافوا الى أسمائهم الواو والسين والياء والسين وان ذلك شبيه باللاتينية التي تنتهي الاعلام وأغلب الاسماء فيها بهذه الاداة Us أو Is أقول الآن انه يوجد في نفس اللغة العربية ألفاظ تدخل عليها الواو والسين والياء والسين لزيادة التأكيد مثل قدم وقدموس والقط والقطوس والاس والاسيس والبقس والبقسيس والقس والقسيس واني أورد لك الآن جملة كلمات من هذا القبيل ترى معناها محفوظا فيها بعد حذف الحرفين الاخيرين منها فاحرص على ذلك وراجع كتب اللغة بكل

عناية وتدقيق وهي بقوس . جعسوس . جموس . حرقوس . حربسيس .
عربسيس . حمقوس . حندوس . دحموس . خربسيس . خلبوس .
خلبيس . خلنبوس . دردبيس . درعوس . دعبوس . درهوس . دلعوس .
دلعبيس . ضبوس . طرطبيس . طرموس . طمهوس . طالهيس .
طمروس . عبقوس . عتريس . عنتريس . مرمريس . عرنسيس .
عسطوس . عيطموس . عفروس . كموس علطيس . علطوس . عطميس .
عمروس . فرطوس . فلطوس . فنجليس . قربوس . قرطبوس . عرقوس . قرعوس .
قرنوس . قنطريس . هيجوس . هلبسيس . هاطوس .

واعلم ان من تتبع كتب اللغة علم ان الكلمات التى فى آخرها سين تدل فى أغلب الغالب على القوة والشدة والصلابة

(٩) تكلمت فى صحيفة ٤٦٩ على اقطاع تميم الدارى وأقول الآن انى رأيت بعد ذلك فى الكتبخانة الخديوية رسالة للسيوطى على هذا الاقطاع فى مجموعة نمرة ٥٣ ولكن شتان بين كتابة السيوطى والمقريزى فى هذا الموضوع الدقيق

(١٠) تكلمت فى صحيفة ٤٧٣ على لغز الماء الذى أورد المقريزى حله وأقول الآن انى رأيت هذا اللغز تحت عنوان (لغز فى ٣١٢) فى صحيفتى ٢٣ و ٢٤ من كتاب الكنز المدفون والفلك المشحون المطبوع فى بولاق سنة ١٢٨٨ فليتنبه لذلك غواة الالغاز وكذلك هو فى الكشكول

(١١) فاتنى أن أذكر أثناء الكلام على الكتب التى ترتبت فيها آيات القرآن الكريم ان الحاج صالح ناظم بن محمد بن اسمعيل رتب كتابا باسمه (ترتيب زيبا) ورأيت نسخة منه مطبوعة على الحجر فى القسطنطينية سنة ١٢٨٤ وفيه جدول يرمز به لاسم السورة ثم جدول آخر للآيات مرتبة بحسب حروف الهجاء فى أوائلها فقط ثم جدول ثالث لعدد الآية وهو كتاب مختصر مفيد

تصحيحات

صحيفة	سطر		
٣١	١٦	وقعت فيه كلتا Naples الفرنساوية و Neapoli الطليانية كل منهما محل الاخرى	
٣٨	١٨	الصغر	صوابه الصفر
٥٥	١٥	ثانيتها	» ثانيتهما
٧٠	١٧	فيها تميزت	» فيها الحيزت
٧٨	١١	نفطن	» تفطن
١٠٧	١٦	(لندرس)	» (لندرس = Londres)
١٠٧	١٧	Londres	» London
١٣٧	١٣	البرزرق	» البرزوق
١٣٩	١٢	تبويد	» تبويذ
٣٤٦	١٣	ولم أو	» ولم أر
٤٠٨	١٦	وهى	» وهن

فهرست الكتاب

الفاتحة

مقدمة الكتاب ٢٠ - مقدمة الطبعة الثانية ٥ - كلمة الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ٦

الرسالة الاولى

مبدأ الرحلة

فراق الوطن ١٧ - احتفال الاخوان ١٨ - شرف المثول بين يدى ولى النعم ٢٠ ركوب البحر وزيادة الامتحان ٢٠ - تعب البحر ٢١ - وصول برندزى ٢٤ الطريق من برندزى الى نابولى ٢٥

الرسالة الثانية

وصول أوروبا

فوائد السفر وتسهيلاته ٢٩ - نابولى ورؤية أول مدينة من أوروبا ٣٠ - عود لوصف الطريق الى نابولى ٣٠ - عجالة على نابولى ٣١ - لحيظة فى المحاسن ٣٥ - المتاع وعذابه فى السفر ٣٦ - الطريق لرومه ٣٧

الرسالة الثالثة

رومة

الاندهاش من رؤية رومة ٣٨ - نخامة رومة ٣٨ - غرام أهلها بالتجمل والتجميل ٣٩ - كنائس رومة ٤٠ - بعض مشاهد رومة ٤١ - تخليد ذكر

الاعيان والاماجد ٤١ — تأسف على عظماء مصر واهمال ذكراهم ٤١ — نهوض ايطاليا في طريق التقدم ٤٣ — أمور ثانويه والقيظ باوروبا ٤٤

الرسالة الرابعة

فلورانسة

تأسف لفراق رومة ٤٦ — عذاب المتاع ٤٦ — وصول فلورانسة ٤٧ — عليك بالشباب ٤٧ — هيئة فلورانسة ومحاسنها ٤٨ — استعداد الطليانية للفنون المستظرفة ٤٩ — عناية الافرنج بالصغائر ٥٠ — التشوق للوطن ٥١

الرسالة الخامسة

مدينة بيزا

تأوه على عدم رؤية مدينة البندقية ٥٣ — عجالة على بيشة ٥٤ — نظام المكتبة والمتاحف ٥٥ — البرج المائل وغرائب الصدى ٥٦ — جبانة بيشة ٥٧ — كنيسة بهجة ٥٨ — أحاسن بيشة ٥٨

الرسالة السادسة

مدينة جنوه

فراق بيشة ووصف الانفاق ٦٠ — اهم جنوة ٦١ — منظر جنوة ٦١ — براهين الوطنية في أوروبا ٦٢ — العملة والطربوش في أوروبا ٦٤ — الضرر في اتخاذ الملابس الافرنكية ٦٦ — معامل الشفقشي ٦٨ — أول رؤية مسلم بأوروبا ٦٨

الرسالة السابعة

من تورينو الى مودان الى باريس

فراق جنوة وقرافتها ٦٩ - منظر تورينو ٧٠ - دليل عجوز ٧٠ - آثار مصر في تورينو ٧٣ - نفق جبل سنيس ٧٤ - وصف جنوب فرنسا ٧٦

الرسالة الثامنة

باريس

الانبهار من رؤية باريس ٨٦ - أهمية المرأة في الوجود ٨٧ - المرأة في فرنسا ٩١ - أحاسن باريز في غابة بولونيا ٩١ - وجوب حجب النساء ٩٥ - زيارة سفير الدولة العلية ٩٧

الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندره وخلاصة وجيزة على المؤتمر

وصف بحر المانش والاكل الانكليزي ٩٩ - دخول انكلتره ١٠٢ - وصول لوندره ١٠٢ - بعض زيارات ١٠٣ - أعمال المؤتمر بغاية الايجاز ١٠٤ - تنزه على الاسلوب الانكليزي ١٠٨ - ضيافة عند غني انكليزي ١٠٨ - البندقية في لوندره ١١١ - معرض التاريخ الطبيعي ١١١

الرسالة العاشرة

لوندره

عظمة لوندرة وجسامتها ١١٣ - حركة لوندرة ١١٤ - وابورات

لوندرة ١١٤ - فوائد الشركات ١١٥ - باجتهاد الافراد نجاح المجموع ١١٦ - استئثار الانكليز في كل شئ ١١٧ - تصوير الوطنية الحقة باوروبا ١١٨ - احصائيات ناطقة بجسامة لوندرة ١٢١ - وسائط النقل ١٢١ - وصف القطارات بلوندرة ١٢٥ - تشخيص حركة لوندره ١٢٦ - سكة حديد العاصمة ١٢٧ - شركات الاستدعاء بالكهربائية ١٣١ - شركة حماية الحيوانات ١٣٢ - شركات المطالعة والكتبخانات ١٣٣ - شركات التوريد ١٣٣ - النوادى وغرابة تنوعها ١٣٤ - مطاعم لوندرة وقهاويها ١٣٥ - أماكن الاجتماع العمومية ١٣٦ - الحمامات ١٣٧ - التياترات والملاهى ١٣٨ - جرائدها وديانتها ١٣٨ - الكويكرز ١٣٨ - تبويذ الانكليز ١٣٩ - الاستراحة يوم الاحد بانكلترة ١٤٠ - الخطباء فى هايدپارك وغيره ١٤٢ - التناقض بانكلتره ١٤٤ - لاتكلم من لاتعرفه بلوندره ١٤٥ - عموميات على البريد ١٤٥ - عموميات على التلغراف ١٤٧ - عموميات على التلفون ١٤٧ المدارس ١٤٨ - الاعلانات وهولها ١٥٠ - العميان فى لوندرة ١٥٣ عواطف وطنيه ١٥٤ - وداع وسياحة بانفراد ١٥٥ - أخلاق الانكليز ١٥٥ - ولوع الانكليز بالرياضات ١٥٦ - حرصهم الكلى على الوقت ١٥٨ - تحشمهم فى بعض عبارات ١٥٩ - الثقة والصدق ١٥٩ - مبادى الزواج ١٦٠ - شدة تمسكهم بعاداتهم ١٦١ - احذر النساء ١٦١ - مبانى لوندرة ١٦٢ - المطبخ الانكليزى ١٦٣ - تعمير المساكن ١٦٤ - المرتفقات والمباول العمومية ١٦٤ - وصف الستى ١٦٥ بلوندرة روح التجارة ١٦٦ السعادة بالاجتهاد ١٦٧

الرسالة الحادية عشرة

تجوّل فى بعض مدائن الانجليز

وصف المطر والضباب ١٧٢ - مدينة برمنغام ١٧٤ - مدينة دربى ١٧٥ -

مدينة منشستر ١٧٥ - لفربول وفندق ادلفى ١٧٨ - الجمعية الاسلامية الانكليزية ١٧٨ - الزمهرير فى سبتمبر ١٧٩ - نار السعير ١٧٩ - عموميات ١٨٠

الرسالة الثانية عشرة

تجول فى بلاد الغال

نظرة فى الانسان ١٨٣ - السبب فى عدم تغرب المصريين ١٨٣ - السبب فى ولوع الانكليز بالسياحة ١٨٤ - استعداد المصريين للسياحة ١٨٥ - الاندفاع للسياحة ١٨٦ - دخول بلاد الغال ١٨٨ - لنجولن ومناظرها ١٨٩ - عموميات على لنجولن ١٩٠ - طباع أهل الغال ١٩١ - نساء الغال ١٩١ - معامل الصوف ١٩٣ - منبع نهر الدى ١٩٢ - وصف مناجم الفحم الحجرى ١٩٣ - مجرب صحيح ١٩٨ - مدينة شستر ١٩٩

الرسالة الثالثة عشرة

العودة الى لوندرة

الرسالة الرابعة عشر

مبارحة لوندرة ٢٢٠ - التعصب والتساهل المطلقين ٢٢٠ - نفقات أمين مدينة لوندرة ٢٢٢ - مصاريف الانتخابات ٢٢٣ - القيام من لوندرة ٢٢٤ - عموميات على دوفر ٢٢٥ - حال المفارق وطنه والقادم عليه ومن لا يزال بعيدا عنه ٢٢٧ - منظر المطر فى البحر ٢٢٨ - دخول فرنسا ٢٢٨ - عموميات على اميان ٢٣٠ - تجارة اميان وصناعتها ٢٣٣ - التعليم باميان ٢٣٣ - عموميات على اميان ٢٣٤ - تكية المجاذيب والعميان ٢٣٥ - الكنيسة الجامعة باميان ٢٣٦

الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

كلمتان على باريس ٣٤٠ – متاحف باريس ٣٤٢ – قصور باريس ٣٥٦ – معامل باريس ٣٧٠ – خزائن الكتب بباريس ٣٧٣ – العمائر الدينية فى باريس ٣٨٤ – جبانات باريس ٣٩٩ – بعض الاعمدة والبوابات والفساقى وبرج ايفل ٣٠٩ – بستان النباتات ٣٣٠ – المدارس والمحلات الخيرية والاعانات ٣٣٤ – التياترات والملاهى والمتنزهات ٣٤٣ – التماثيل والميادين والزهريات المربعة (الاسكوين) والارصفة والقناطر ٣٥٢ – المطبعة الاهلية و بنك فرنساوا بنك الرهونات ٣٥٨ – الاسواق والمطاعم ومعارض الصناعة والزراعة ونحو ذلك ٣٦٠ – ضواحى باريس ٣٦٤ – أهل باريس ٣٦٦

الرسالة السادسة عشرة

وداع باريس وذكر الاندلس والبرتقال بوجه الاجمال

وداع باريز ٣٧٣ – التحسر على الاندلس ٣٧٥ – استمرار الحسرة ٣٨٠ – معرفة التحولات فى ٣٨١ – اشتباك الحيرة والهوس بالوطن ٣٨١ – التغلب على الصعوبة ٣٨٢ – زيارة بعض المدن ٣٨٣ – مدينة سرقسطة والجمعية العلمية ٣٨٣ – اللغة الاعجمية الاندلسية ٣٨٦ – تحريف الكلمات العربية ٣٨٧ – تجول فى بعض المدن ٣٨٩ – مدريد ومقابلة سفير الدولة العلية ٣٨٩ – طليطلة ٣٩١ – دخول مملكة البرتقال وذكر اشبونه وشنتره ٣٩٢ – التشرف بمقابلة جلالة الملك ٣٩٣ – الفول المدمس بارو با ٣٩٣ – المدينتى قلمريه وبرتقال ٣٩٥ – إشكال على الفول المدمس ٣٩٦ – لغة البرتقال والتحريف فيها ٣٩٧ – ذكر النقود باسبانيا والبرتقال ٣٩٨ – العودة الى الاندلس ٤٠٠ – مقابلة جلالة ملكة الاندلس ٤٠٠ – اشبيلية ٤٠١ – مدينة

غرناطة وقصر الحمراء ٤٠٣ — لمع من تآنق الاندلسيين ٤٠٨ — تقدم الاندلسيين ٤١١ — معارف الاندلسيين ٤١١ — اسوة حسنة للمصريين ٤١٢ — مراعاة الشرع ٤١٣ — أسباب دمارهم وفيها أعظم عبرة ٤١٣ — أخلاق الاسبانيين الآن ٤٢٥ —

كمالة هذه الرساله فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد بالاسماء والالقاب ٤٢٦

الخاتمة

وفيها ذكر قرطبة ومسجدها الجامع — ومرسيليا وآثارها — وتولون والجامع الذى كان أقيم فيها — ونيس والكرنفال بها — ومونا كو ومنت كارلو — ثم الرجوع الى رومة — والعودة الى الوطن

الخطبة المؤتمرية

وفيها الاشارة بالتلخيص الى المصنفات والكتب المقدمة الى المؤتمر ٤٤٨ — جدول بيان الاعمال المقدمة للمؤتمر ٥٠٦

بعض أقوال الافاضل والجرائد

ما كتبه حضرة محمد بك ذهنى مفتش عموم المعارف ومراقب المطبوعات فى أزمير ٤٨٥

كتابات جرائد الحقوق والآداب والزراعة والشرائع والمقتطف والجريدة الرسمية الفرنساوية وجريدة الاجبسيان غازت الانكليزية والفارد الكسادرى والهلال (مع ايضاح عليه) ٤٨٦ — ٥٠٢

قصيدة حضرة اسماعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف الاهلية ٥٠٤

استدراكات ٥٠٧

اصلاح خطأ ٥٠٩

الرقي في الإسلام

ألفه باللغة الفرنساوية

احمد شفيق بك

الكرتير الخصوصي لسعادة ناظر الخارجية

الحائز للدبلوم من مدرسة العلوم السياسية ومن مدرسة
الحقوق العليا بباريس واحد اعضاء جملة جمعيات علمية
بفرانسا والمانيا

وترجمه الى اللغة العربية
وحلاه بحواش علمية وفوائد تاريخية وجغرافية

احمد زكي

مترجم مجلس النظار

الحائز لدبلوم العلوم الحقوقية واحد اعضاء الجمعية الجغرافية
الخديوية واستاذ اللغة العربية في الارسالية العلمية الفرنساوية
بمصر ومدرس الترجمة في المدرسة الخديوية

التزم طبعه

حضرة الوطني الغيور محمود افندي انيس

الطبعة الأولى

بالمطبعة الاهلية الاميرية ببولاق مصر المحمية
سنة ١٣٠٩ هجرية — سنة ١٨٩٢ ميلادية

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه وأهله ونسله والمقتدين بسنته من ذوى ملته فى قوله وفعله

(وبعد) فان الكردينال لافيجرى قد طبق الارض ذكره واشتهر فى الخافقين أمره وجرت على لسان البرق خطاباته واستفاضت فى الجرائد والصحائف كتاباته لانه تصدى كما يقول للأخذ بناصر الارقاء ولكنه تطرف وتغالى فقادته الغاية العمياء الى الطعن على الديانة الحنيفية الغراء فعدل عن واجب الاعتدال فى جادة الجدال ولذلك انبرى للرد عليه كثيرون من حلفاء هذا الدين المبين وأتوه بالنبأ اليقين ولكن الذى فاز بقصب السبق فى هذا المضمار وحاز الفضل والفخار هو حضرة المحقق البارع أحمد بك شفيق

كاتم أسرار سعادة ناظر الخارجية المصرية فانه أجاد فى الكلام على الرق عند جميع الامم وفى جميع الاديان ثم انتقل من هذه التوطئة الى بيان الاسترقاق فى الاسلام ليظهر فضل الدين المحمدى فى هذا المقام فينجلى الصبح لذى عينين اذ بضدها تتميز الاشياء وحينئذ يحكم العاقل الخبير والناقد البصير بأن جناب الكردينال جنح الى الاعتداء بدلا من الاعتدال ولما أتم المؤلف هذه الرسالة خطب بها على الجمعية الجغرافية الخديوية فى جلسات متوالية ونالت من الاعجاب والاستحسان مانالت ولذلك طلب الى كثير من الكبراء وأهل الفضل أن أنقلها الى اللغة العربية ليعم نفعها وتكمل فائدتها فرجوت حضرة مؤلفها أن يجعل لى قسطا من الفضل فى هذا العمل فتفضل بالاجابة فاستخرت الله فى هذه الخدمة الوطنية غيرة على هذا الدين القويم وشمرت عن ساعد الاجتهاد فعربتها بغاية العناية حتى جاءت بحمد الله تعالى مثالا للترجمة التى يحافظ فيها على المعنى تمام المحافظة مع مراعاة القواعد الانشائية العربية والاساليب القولية الكلامية التى تجعلها أهلا للقبول عند الناطقين بالضاد فى جميع البلاد ثم حليتها بفوائد علمية وحواش تاريخية جغرافية لكى يكون المطلع عليها فى غنى عن الرجوع الى غيرها مما يدخل فى دائرة بحثها وقد راجعت الاصول وأمهات الكتب فنقلت منها الاحاديث الشريفة بشرح بعضها

وكذلك فعلت ببعض الآيات القرآنية الكريمة وأكملت القصص والحوادث التاريخية من مصادرها المعوّل عليها الموثوق بها * وفوق ذلك فقد لاحظت بنفسي طبع هذه الرسالة على هذا الشكل الفائق الانيق والاسلوب الشائق الرقيق فمزجت بين الحروف المختلفة المقدار كلما رأيت ذلك واجبا لتنبيه القرّاء واستلفات الانظار وفصلت الفقرات عن بعضها فصلا يسهل به التمييز بين المواضيع جاريا فى ذلك على النمط الذى اصطلح عليه أهل أوربا من اتقان الطبع واحكام الوضع

احمد زكى

فاتحة الكتاب

اتفق لى فى أول يوليو سنة ١٨٨٨ أن حضرت بكنيسة (١) سان سولبيس (٢)

---

(١) الكنيسة ليس لها اشتقاق فى اللغة قيل انها لفظة عربية وقيل انها معرب كنشت وقيل ان العرب لفظة أخذوها عن الروم وهى قُلَّيْس أو قُلَّيس أو قَلِيس وانها كنيسة بناها أبرهة على باب صنعاء على ما قاله ياقوت قالوا ومن المحتمل أن كنيسة تحريف لفظ قليس أقول ويشهد لهذا الاحتمال أن اسمها بالتركية كليسة وربما كانت منها القلاية التى هى صومعة الراهب عند الاقباط وانها فى الفرنساوية اجليز وفى التليانية كيزا وهى عند الافرنج مشتقة من لفظة يونانية (اكليزيا) معناها الاجتماع والكنيسة فى أيامنا هذه تُسَلَّم على متعبد النصارى والكنيس على متعبد اليهود اه مترجم

(٢) هى من أشهر العمائر بباريس فى خط سان جرمان مضى عليها زمان طويل حتى أمكن اتمامها فانها كانت موجودة فى القرن الثانى عشر ثم دعت الحال لتوسيعها فى القرن السادس عشر ثم اضطر القوم لاعادة بنائها كله فوضع الحجر الاول منها فى سنة ١٦٤٦ ولكنهم رأوا تغيير التصميم حتى تكون فسيحة ولم تتم بنايتها الا فى سنة ١٧٤٩ بواسطة اجتهاد القسوس وتبرع أهل الخير والمال الكثير الذى تحصل من بانصيب (لوتريه) فتحوه لاجل هذا الغرض وفى أيام الثورة الفرنساوية أطلق عليها اسم «هيكل الانتصار» وقد أولمت فيها وليمة عظيمة للجنرال بونابرت بعد عودته من مصر وهى الآن أكبر محل لتخريج القسس وتعليم الرهبان اه مترجم

فى مدينة باريس وسمعت نيافة (٣) الكردينال (٤) لافيجرى (٥) وهو يخطب بها على أهل تلك المدينة ويصف فظائع النخاسة بافريقية الوسطى و يسوق لهم الحديث على الاسترقاق وبشاعته فى البلاد الاسلامية ولم يكتف نيافته بادانة المتدينين بالدين المحمدى بهذا الامر بل نسب قبائحه الى نصوص الشريعة التى جاء بها النبى عليه الصلاة والسلام

ولما كانت هذه التهم لا أساس لها ولا برهان ينهض عليها وقد بثها

---

(٣) نيافة تعريب اصطلح عليه العيسويون للفظة *Éminence* وهو لقب افتخارى خاص بالكرادلة (جمع كردينال) منحهم اياه البابا أوربانوس الثامن بمرسوم أى منشور أى تقليد (دكريتو) أصدره فى ١٠ يناير سنة ١٦٣٠ وفى نيافة معنى الارتفاع والارتقاء يقال جبل عالى المنافى أى المرتقى وذلك موافق لمعنى اللفظة الافرنجية اه مترجم

(٤) الكردينال معرب وهو أحد السبعين حبر الذين تتألف منهم الدائرة المقدسة التى تجتمع لانتخاب البابا وفى أثناء اجتماعهم لا يكون لهم أدنى علاقة أو أقل مواصلة مع الخارج وكان مبدأ هذه العادة فى سنة ١٢٧٠ فان البابا اكليمنضس الرابع توفى سنة ١٢٦٨ ولم يتفق الكرادلة على تعيين خلفه الى سنة ١٢٧٠ حتى تعبت الامة من هذا التوانى فحجزتهم كلهم فى محل اجتماعهم الى أن انتخبوا واحدا منهم للجلوس على كرسى البابوية اه مترجم

(٥) أما الكردينال لافيجرى فنكتفى بضبط اسمه الآن فقد رأيت كثيرا من الناس ينطقون به على كيفيات مختلفة أغلبها بعيد عن الصحة فهو لام بعدها ألف ثم فاء فارسية فراء فارسية المخرج من الواو بعدها ياء ثم جيم فارسية ساكنة فراء مكسورة بعدها ياء ساكنة وسنأتى على ترجمة حاله فى آخر الرسالة اه مترجم

فى لوندرة وبروسل (*) دعانى حب الحقيقة الى البحث عن هذا الموضوع فى الكتب الدينية المعتبرة لدينا المعوّل عليها عندنا فاتاح لى الجدّ بفضله تعالى اقامة الحجة وايراد الدليل على أن القرآن الشريف فوق كونه لم يعتبر الرقيق بمنزلة الحيوان فقد جاء بكثير من النصوص والوصايا التى تفرض على المسلمين أن يحسنوا رعايته والعناية بشأنه وأن تكون معاملتهم له بالحسنى والمرحمة وهو أمر يجهله الى الآن عامة الاوروباويين حتى القاطنين منهم بديار المشرق اللهم الا ماندر فانه بديهى أن مجرد السكنى فى بلد من البلاد لايوقف الانسان تمام الايقاف على كنه شرائعها بل يعوزه أيضا أن يكون عارفا حق المعرفة بلغة أهليها ولا ريب فى أن علماء المشرقيات المتوفرة فيهم هذه الصفات هم أقل من القليل

واتعشم فى وجه الله الكريم أن يجعل نتيجة بحثى تميط اللثام عن حقيقة هذه المسألة الخطيرة التى كثر اهتمام الحكومات والافراد بها فى هذه الايام

(*) جاء فى رسالة مدرجة بجريدة الاندبيندنس بلج (الاستقلال البلجيكى) الصادرة فى بروسل بتاريخ ١٦ اغسطس سنة ١٨٨٨ كلام على خطابة ألقاها الكردينال لافيجرى قال صاحبه «ان الخطيب .... لم يقدر على الامتناع عن المجاهرة بأن المسلمين يرون أن اصطياد الرقيق حق لهم يكاد يكون واجبا عليهم وهو حق لهم لانهم يعتقدون ويقولون بأن الاسود ليس من العائلة البشرية وأنه متوسط بين الانسان والحيوان بل ان بعضهم يرونه أدنى من الحيوان مقاما» مؤلف

(الرق فى الاسلام)

قبل الخوض فى هذا الموضوع ينبغى لنا أن نأتى بالايجاز وبوجه العموم على ذكر الاسترقاق عند الامم المختلفة فنقول

الرق هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكا للغير (٦)

قالوا ان الاسترقاق ظهر منذ كان الاجتماع الانسانى وهو قول فى غاية الاصابة والسداد فانه ظهر حقيقة عند ماوقعت الاجتماعات البشرية الاولى أيام كان حجاب الجهالة مسدولا على عالم الفطرة والذى أوجب حصول هذا الفعل هو أمر يسهل بسطه وايراده وذلك أنه لما كان العمل من أصعب الضرورات وأشقاها أخذ الانسان فى البحث عما يخلصه من عنائه ومكابدته فاذا بطلبته بين يديه عند الهيئة الاجتماعية فان القوى ألزم الضعيف بالاشتغال ومن ذلك نشأ الاسترقاق

ثم جاءت الحروب وتولدت الاطماع فبثت الاسترقاق فى جميع أجزاء العالم وعند معظم الامم وصار الناس لايقتلون العدو بل يبقون عليه ليعمل لهم هذا واعلم أن طبيعة الاقليم وهى من أقوى العوامل

(٦) هذا هو حده عند الافرنج وقال فى التعريفات الرق فى اللغة الضعف ومنه رقة القلب وفى عرف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الاصل جزاء عن الكفر أما انه عجز فلانه لاتملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما وأما انه حكمى فلان العبد قد يكون أقوى فى الاعمال من الحر حسا اه مترجم

فى إنماء الجمعيات البشرية كان لها تأثير عظيم فى زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه حتى انه مالبث ان بلغ عند الامم التى على البساطة والفطرة فى جميع بلاد المشرق مبلغا عظيما ودرجة قاصية وانتشارا زائدا فان ثمن الرقيق كان زهيدا وعمله مفيدا بالنظر الى ماصارت اليه الصناعة والتجارة من التقدم والاهمية ولقد كان الحال على خلاف هذا المنوال عند أمم الشمال فان تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم مصرفا جسيما ولم يكن لعمله كبير جدوى ولا فائدة فلهذا كان الاسترقاق فى بلاد الشمال منذ العصور الخوالى أقل انتشارا منه فى جهات الجنوب من المعمورة وهذا يدلنا على أن الاسترقاق هو من الامور الاقتصادية التدبيرية المترتبة على العمل والاشتغال

ولنبحث الآن فى حالة الرقيق عند الامم المختلفة واحدة واحدة

الباب الاول

﴿ الاسترقاق فى الازمان القديمة ﴾

(الفرع الاول)

﴿ الاسترقاق عند قدماء المصريين ﴾

كان الرقيق فى مصر عبارة عن آلة للعمل وكان أيضا من الاشياء المعدة لمشاهد الزينة ومظاهر الأبهة فكان الارقاء يقصور الملوك وبيت الكهان ودار المقاتلين ثم ان الفاقة جعلت لسائر الافراد سبيلا الى امتلاك الارقاء أيضا وكان الاسترقاق عبارة عن الحق فى اعدام الحياة والابقاء عليها وكان الاسارى على العموم أرقاء للدولة يقومون بالاعمال والاشغال التى تستلزمها حاجات القطر أو التى تدعو اليها موجبات زخرفته وتحسين هيئته وفيما عدا هذه التشديدات الخاصة بالاستخدام فى الصالح العام قد تحسنت حالة الرقيق وتلطفت كثيرا فكان يجوز رفع الأمة الى مقام الزوجة ثم ان الاخلاق والعادات كانت تقضى بالشفقة على الرقيق والدفاع عنه بل ان الشريعة كانت تجعل حوله سياجا يقيه من البغى والاذى فقد نصت على أن من قتل الرقيق يقتل فيه (٧)

---

(٧) وكذلك الديانة فقد تقرر بها أن الميت عند محاسبته أمام محكمة أزيريس يشهد على نفسه فى خلال تنصله بأنه لم يسع فى ضرر العبد عند مولاه (انظر تاريخ المشرق لماسبيرو وقد أخذت فى ترجمته بناء على طلب نظارة المعارف للتدريس عليه فى مدارس الحكومة وسيطبع قريبا ان شاء الله) اه مترجم

(الفرع الثانى)

(الاسترقاق عند الهنود)

قد حددت شريعة مانو (٨) بطريقة شرعية دينية درجة السودرا (هو الرجل من الطبقة الدنيئة المستخدمة) مع البرهمى بل ومع سائر الناس فقد ورد بها « أنه اذا اشترى البرهمى رجلا سودرا بل واذا لم يشتره فانه يجوز له أن يجبره على خدمته بصفة كونه رقيقا (دازا) لان مثل هذا الانسان ماخلقه واجب الوجود الا ليخدم البراهمة »

ثم ان السودرا وان أطلق سيده سراحه لاتفارقه صفة الخدمة لانه من ذا الذى يمكنه أن يزيل عنه حالة طبيعية مرتبطة به ثم قيل فى تلك الشريعة

---

(٨) مانو هو مشرع هندى ينسبون اليه وضع مجموع شرائع مشهور وهو أقدم الجاميع المعروفة من هذا القبيل واسمه بلغتهم (مانافا ذارما ساسترا) أى مجموع شرائع مانو وهو كتاب واف فى علم الاخلاق وفى الشرائع منظوم باللغة السنسكريتية وقد ترجم الى اللغة الانجليزية وطبع فى كلكته سنة ١٧٩٤ وفى لوندرة سنة ١٧٩٦ ثم ترجم الى الفرنساوية وطبع من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٣٣ فى باريس ويقولون انه ابن برهمة وانه الانسان الاول وأما الوقت الذى كان عائشا فيه فهو مجهول ومع ذلك فان مجموع القوانين المنسوب له هو متأخر على القيدا (أقدم وأقدس كتاب عند الهنود) وقد رأى بعضهم فى مشابهة الاسماء أن مانو هذا هو نفس منا أو مينيس أول ملوك مصر ومينوس ملك اقريطش (جزيرة كريد) ومشرعها اه مترجم

« اذا اضطهد السودرا أحد البراهمة فلا مندوحة عن قتله البتة - واذا وجه رجل من الطبقة الدنيئة سبابا فاحشا الى أحد الدويدياس (أى أولئك الذين تتألف منهم الطبقات العليا الثلاث وهم البراهمة وكشاتریاس وفيزياس) فجزاؤه سل لسانه لانه ناتج من القسم الاسفل من برهمة - واذا ذكر أحدهم باسمه وبطبقته على هيئة يؤخذ منها الازدراء فجزاؤه أن يوضع فى فمه خنجر طوله عشرة أصابع بعد احمائه بالنار احماء شديدا - فاذا ساقه عدم الحزم وقلة التبصر الى بذل النصائح والمواعظ للبراهمة فيما يتعلق بواجباتهم فعلى الملك أن يأمر بوضع الزيت المغلى فى فيه وفى أذنه - اذا سرق البرهمى من السودرا عوقب بالغرامة أما اذا سرق السودرا من البرهمى فجزاؤه أن يحرق - واذا تجاسر السودرا على ضرب أحد القضاة فليعلق بسفود (٩) وليشو حيا فاذا ارتكب البرهمى مثل هذه الجريمة فليغرم »

وقد تقرر فى الشرائع البرهمية تقسيم جميع الاشخاص الملتزمين بالخدمة الى قسمين وهما الخادمون والارقاء فالاعمال الطاهرة من خصائص الخادمين والاعمال النجسة على عواتق الارقاء

---

(٩) السفود كتنور ويضم وهو حديدة يشوى بها اللحم (وهو المعروف بالسيخ) وجمعه سفافيد وسفد اللحم نظمه فى السفود للاشتواء اه مترجم

(الفرع الثالث)

(فى الاسترقاق عند الآشوريين والامم الايرانية)

من نظر الى تاريخ مملكة آشور (١٠) فى الاحقاب السوالف علم أن الاسترقاق كان عريقا بها متأصلا فيها فقد كانت القصور مغتصة بالنساء والارقاء المخصصين للجمال والزينة

أما مملكة الفرس التى امتد سلطانها الى حدود آسيا المعروفة فى وقتها فقد استجمعت جميع أنواع الاستخدام المعروفة عند كثير من الامم المختلفة فكان فيها الارقاء الرعاة والارقاء الخاصون بحاجات الزينة والثروة واليسار وكان فى معبد أنايتس (١١) بارمينيا وهيكل

---

(١٠) اسمها بالفرنساوية *Assyrie* وقد وردت فى الكتب العربية القديمة المعتبرة مثل مروج الذهب ومختصر الدول وطبقات الاطباء وغيرهما آثور بالثاء وجاءت فى التوراة اشور بتشديد الشين اه مترجم

(١١) وهى إلهة تسمى أيضا أناهيد كان الليديون والارمن والفرس يعبدونها وقد شبهها اليونان تارة بالآلهة ديان (إلهة الصيد) وتارة بالزُّهَرَة (إلهة الجمال التى تولدت من زبد البحر) وكانوا يحتفلون بموسمها بارمينية فى كل ستة شهور وكان الكهنة يزفون تمثالها ويرقصون حوله شاكى السلاح ويتجمع الاهالى وتأخذهم السورة الدينية مأخذها حتى اذا تملكهم السرور ولاهم الابتهاج خلعوا العذار وارتكبوا أعمالا فاحشة مستنكرة من غير أن يكون لهم من الحياء رادع وكانوا يقربون اليها بينات أبكار يرين فى بذل عرضهن وهتك حجابهن تزلفا اليها اه مترجم

كومانة بكبدوكية (١٢) أرقاء قد أعدوا لعمل الخبائث المستقبحة المنكرة التى قضت بها خرافات القوم

وقد أوجد العرف والاصطلاح فى بعض البلاد أوقات للارقاء يتفرغون فيها لانفسهم طلبا للراحة بل قد اجتهد واضعو الشرائع عندهم فى تقليل إجحاف الموالى بمواليهم وتخفيف وطأة مظالمهم عليهم قال هيرودوت (١٣) « لايجوز لاى فارسى أن يعاقب عبده على

---

(١٢) كومانة (واسمها الآن البستان) هى احدى مدائن كبدوكية على نهر ميلاس (الذى هو الآن نهر قره صو ولفظة ميلاس معناها الاسود وقره بالتركية معناها كذلك أيضا) كان يحكم هذه المدينة كاهن بصفة ملك ويقيم فى هيكل به ٦٠٠٠ آلاف قسيس وكان هذا الرئيس ينتخب من العائلة الملوكية بكبدوكية وكانت الآلهة المعبودة فى هذا الهيكل هى التى يسميها الرومان بيلونه آلهة الحرب وربما كانت هى نفس آناتيس الارمينية وكبدوكية اسم مملكة قديمة صغيرة مستقلة من بلاد آسيا الصغرى وهى فى الجهة الشرقية على حدود أرمينية وسورية اهـ مترجم

(١٣) مؤرخ يونانى شهير يلقب بابى التاريخ ولد فى سنة ٤٨٤ ق م وساح فى شبيبته ببلاد اليونان ومصر وآسيا ليقف على أنباء الامم وعاداتها وآثارها وجد الظلم ضاربا أطنابه فى وطنه فاضطر لان ينزح الى ساموس ولكنه رجع الى بلده بعد قليل وكسر شوكة الطاغية وقلبه قلبا لارجوع له بعده ولكن بنى وطنه لم يعرفوا له هذا الجميل فبارحهم وأخذ فى كتابة تاريخه وقد تلاه على اليونانيين وهم مجتمعون فى احد الالعاب العمومية المعروفة عندهم فصادف نجاحا تاما حتى انهم كافئوه بمبالغ عشر وزنات ذهبا (٥٤٠٠٠ فرنك أى ٢٠٧٧ جنيها مصريا تقريبا) ثم اعتكف فى بلاد ايطاليا ومات بها طاعنا فى السن فى سنة ٤٠٦ ق م وتاريخه عبارة عن سبعة كتب موضوعها حروب اليونان مع الفرس والمادين وتكلم فى مقدمته على تاريخ المادين والفرس والمصريين وجملة امم أخرى

ذنب واحد قد اقترفه بعقاب بالغ فى الشدّة والصرامة » ولكن اذا عاد العبد لارتكاب هذا الذنب بعد ما أصابه من العقاب فلمولاه حينئذ أن يعدمه الحياة أو أن يعاقبه بجميع مايتصوّر من أنواع العذاب

(الفرع الرابع)

(فى الاسترقاق عند الصينيين)

قد أرخت الايام سدالها وألقت الليالى ستارها على مبدأ ظهور الاستعباد بهاتيك البلاد(١٤) فلقد كان الاستخدام للمنفعة العمومية موجودا بها قبل التاريخ المسيحى بأجيال طوال يقوم به المحكوم عليهم والاسارى ثم امتزجت أخلاق القوم بهذه العادة فاستعملوا الاسترقاق وكانوا يجلبون الرقيق من الخارج أو يأخذونهم من ذات

وهو يعتبر أصدق مؤرخى السلف على مافيه من السذاجة وكثرة التصديق لكل مايلقى اليه والبحث على الامور العجيبة الخارقة العادة ولكنه يرويها على سبيل أقاويل وينسبون اليه ترجمة حياة هومير وس الشاعر الطائر الصيت وهى ليست له ولكنها قديمة جدا وقد ترجم كتابه الى أغلب لغات أور وبا والى اللغة العربية أيضا واسمه فى الكتب القديمة هيرودطس اهمترجم

(١٤) هذا أصلها الفرنساوى *L'origine de l'esclavage enChine se perd dans la nuit des temps* ولكونى تعبت كثيرا فى وضعها فى قالب عربى يوافق الذوق الافرنجى ولا تنفر منه أذن العربى فقد أحببت وضع الاصل هنا حتى يكون نبراسا لغيرى ويكفيهم مؤنة البحث والعناء لان هذه الاستعارة الفرنساوية كثيرة الاستعمال جدا عند الافرنج اه مترجم

الصين كما كانت تفعل الدولة نفسها أما من الخارج فبواسطة الحروب والاسلاب اذ كانوا يوزعون الغنائم من أناس وأشياء على كبار الضباط أو يأتون بأثمانهم لخزينة الدولة وأما فى نفس البلد فبسبب الفاقة والاحتياج لان الفقير كان يضطر لبيع نفسه أو لبيع أولاده

فكان هناك عائلات مستعبدة بسبب الشدّة وأرقاء قد بيعوا بالثمن وكان للمولى على رقيقة التصرف المطلق ببيعه كما اشتراه بل وببيع أولاده

والظاهر أن الاسترقاق كان فى بلاد الصين قليل الشدّة والصعوبة فان الشرائع والعرف والاخلاق كانت تساعد على تلطيف حاله فقد أصدر الامبراطور كوانجون (وهو الذى كان عائشا بعد المسيح بخمسة وثلاثين سنة) أمرين اثنين بوقاية حياة الرقيق وشخصه ضمنهما عبارات تشف عن كمال المروءة وتشعر بمقام الانسانية ودرجتها العالية فقد قيل فيهما « ان الانسان هو أفضل وأشرف المخلوقات التى فى السماء والتى على الارض فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل فى اخفاء جرمه ومن أخذت به الجرأة فكوى رقيقه بالنار حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة ومن كواه سيده بالنار دخل فى عداد الوطنيين الاحرار » ولقد كان بعض الارقاء يصادفه الحظ ويقبل عليه الدهر

فتسمو به المناصب الى أن يكون موضع الثقة من مولاه بل ويجد فى بعض المكاسب طريقة ينال بها حريته و يتخلص من ربقة الرق ولهذا كان الاسترقاق قليلا عند أمة الصينيين التى امتازت بجودة الفطانة وسلامة الفكر واصالة الرأى

(الفرع الخامس)

(فى الاسترقاق عند العبرانيين)

وجد الاسترقاق عند هذه الامة منذ الازمان القديمة جدا وكان الارقاء فى زمن أنبياء بنى اسرائيل معدودين من أصول الثروة وأسباب الغنى عند أولئك الرؤساء الذين كان دأبهم الحل والترحال والضرب فى أطراف البلاد وكان مقام الارقاء كمقام الماشية ولكن كما أن صاحب الدابة لايرضى بتحميلها فوق طاقتها وكما أن صاحب الناقة لايجهدها أكثر مما فى استطاعتها كذلك كان شأن السيد الحكيم المتبصر فانه ما كان يلزم رقيقه بعمل يزيد عن الحد وكان للارقاء عندهم بعض الحقوق فكان لهم أن يستريحوا سبعة أسابيع فى السنة ولا يجوز للرجل أن يضرب عبده ضربا مزهقا ومن فعل ذلك أوخذ بعقاب فيه بعض الشدة وكذلك من بتر الرقيق أوكسر له عضوا أو سنا ولهذا يصح القول بأن العبرانيين كانوا يعاملون الارقاء معاملتهم أنفسهم وكان كثيرا مايتفق للمولى أن يميز احدى امائه

فيتخذها حليلة له بل الاغرب من ذلك أن العبد الذكر كان يتاح له فى بعض الاحيان أن يتزوج ببنت مولاه وذلك حينما لا يكون للمولى أولاد ذكور وفوق ذلك فان العبرانيين كانوا يتسرون غالبا بجواريهم

وخلاصة القول أن الاسترقاق عند العبرانيين وعند غيرهم من سائر أمم المشرق كان مقرونا بالتلطف والتعطف اللذين لا يرى لهما مثيل فى بلاد اليونان ولا فى مدينة رومة وفضلا عن ذلك فقد ورد بشريعة سيدنا موسى عليه السلام أن العبد اذا استحق القصاص فلا يصدر الحكم عليه الا من القاضى دون سواه فكان فى ذلك احتياط دقيق ورحمة بأولئك المساكين لئلا يكونوا عرضة لقساوة الموالى وغرضا لسهام أهوائهم (١٥)

---

(١٥) جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج ما نصه اذا ابتعت عبدا عبرانيا فليخدمك ست سنين وفى السابعة يخرج حرا مجانا وان دخل وحده فليخرج وحده وان كان ذا زوج فليخرج زوجه معه وان زوجه مولاه بمرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه وهو يخرج وحده وان قال العبد قد أحببت مولاى وزوجى وبنى لا أخرج حرا يقدمه مولاه الى الالهة الى مصراع الباب أو قائمته ويثقب مولاه اذنه فيخدمه الى الدهر وان باع رجل ابنته أمة فلا تخرج خروج العبيد وان كرهها مولاها الذى خطبها لنفسه فليدعها تفك وليس له أن يبيعها لقوم غرباء لانه قد غدر بها اه مترجم

(الفرع السادس)

(فى الاسترقاق عند الاغريق) (١٦)

كان الاسترقاق أمرا شائعا فى جميع بلاد اليونان ولم يكن فى الفلاسفة الكثيرين الذين تفتخر بهم هذه البلاد من أنكر الاسترقاق أو اعتبره مخالفا للعدالة والآداب ومكارم الاخلاق بل ان ارسطو نفسه أيد صحته وأثبت مشروعيته معتمدا فى رأيه على اختلاف السلائل البشرية وتنوع أصناف بنى آدم وقد عرف الرقيق بأنه « آلة ذات روح أو متاع قائمة به الحياة » (١٧) ثم قسم الجنس البشرى الى قسمين وهما «الاحرار والارقاء بالطبع»

وكان اليونان يقسمون الرقيق الى صنفين متباينين فالصنف الاول سكان الاقطار التى افتتحوها وغلبوا أهلها على أمرهم وكان هؤلاء الارقاء تابعين لأرضهم ومعتبرين كجزء منها والصنف الثانى

---

(١٦) هو اللفظ الوارد فى الكتب العربية القديمة علما على قدماء اليونان وهو تعريب لفظة جريك Grecs اه مترجم

(١٧) *Une machine animée, une propriété vivante.* هذا التعريف غريب صدر عن أبى المنطق ومخترعه فانه غير جامع وغير مانع كما هو ظاهر وأرسطو أو ارسطاطاليس أو ارسطوطاليس أشهر من نار على علم اه مترجم

أرقاء البيع والشراء وهؤلاء كان للموالى عليهم حق السيادة المطلقة وأغلب الارقاء كانوا من الفريق الثانى وما كان للمرأة التى تباع أوتؤسر أن تمتنع عن الافتراش لسيدها وكانوا يقولون بحرية من يولد من مثل هذه المخالطة ولكن ذلك كان وصمة عليهم وموضع معرة تدنسهم وسببا فى سقوط اعتبارهم عن غيرهم

وكان الاسترقاق للعهد الاول بالتلصص فى البحار فكانوا يختطفون سكان السواحل لاسترقاقهم ثم صارت المستعمرات اليونانية فى آسيا الصغرى أسواقا عظيمة تباع فيها العبيد وتشرى بل كانت أثينة (١٨) نفسها من أهم هذه الاسواق ولم يكن لها من يزاحمها فى هذه التجارة الا بعض أسواق قديمة لقربها من موارد الرقيق وذلك مثل قبرص وساموس وخصوصا صاقس (١٩) بل قيل ان سكان هذه الجزيرة هم أول من اتجر بالارقاء والاماء

---

(١٨) وقد تكتب أثيناوهى عاصمة بلاد اليونان الآن وقد كان لها شهرة فائقة فى قديم الزمان لكونها كانت منبع الصنائع والعرفان وعدد سكانها ٦٦٥١٠ اهـ مترجم

(١٩) قبرص أوقبرس جزيرة بالبحر الابيض المتوسط كانت للدولة العلية وتخلت عنها للانكليز بمقتضى معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ وعدد سكانها ١٥٠٠٠٠ نسمة وساموس احدى جزائر الارخبيل وهى امارة مستقلة تابعة للدولة العلية وسكانها ٣٦٠٠٠ نفس وساقس اوصاقس وقد كتب ساقز احدى جزائر الارخبيل وأهلها يدعون أنها مولد هوميروس شاعر اليونان المشهور اهـ مترجم

وكان العبيد يعملون لمواليهم أو لانفسهم فاذا عملوا لانفسهم كان عليهم أن يدفعوا لاسيادهم مبلغا معينا فى كل يوم على سبيل جعالة يجعلونها لهم بل يظهر انه كان يوجد كثير من بنى يونان ممن اشتروا العبدان وخصصوهم للاجارة ليس الا — ولعمرى ان ذلك من أفضل الوجوه وأحسن الطرق فى استعمال المال واستغلاله

وكان العبيد قائمين فى أثينة بخدمة المنازل أيضا ولم يكن فى هذه المدينة رجل عضه الفقر وأخنى عليه الدهر حتى أحرمه من امتلاك عبد واحد على الاقل يشغله فى القيام بلوازم منزله

وكان حق المولى على عبده لايختلف فى شئ من الاشياء عن حقه على سائر مملوكاته فكان يجوز له رهنه (٢٠) على ان حالة العبد عند اليونان لم تكن فى الشدة والمقاساة مثلها عند أمة الرومان وذلك فيما خلا مدينة اسبرطة (٢١) فقد قال المؤرخ

---

(٢٠) فى الاصل الفرنساوى رهنه أو ارتهانه *le donner ou le recevoir en gage* ولا معنى للارتهان فى هذا المقام فلا يتصور أن السيد يرتهن لنفسه عبد نفسه كما هو ظاهر اه مترجم

(٢١) اسبرطة وتسمى أيضا لقدمونه كانت من أشهر بلاد اليونان القديمة وكانت عاصمة لاكونيا أو جمهورية اسبرطة وكانت مناظرة أثيناوهى الآن أكوام من الاطلال اه مترجم

بلوترك (٢٢) « ان الحر فيها كان أكثر الاحرار حرية وان الرقيق أكثر الارقاء استرقاقا »

وكان المولى منهم يعاقب عبده بالجلد بالسوط وبالطحن على الرحى وكان يكوى الآبق أو الوارد من البلاد المتبربرة (٢٣) بالحديد المحمى على جبهته على ان حياة الرقيق وشخصه كانا فى كنف القانون ورعايته فما كان يجوز اعدامه الحياة الا بعد صدور الحكم القانونى عليه

وقد كان يوجد باثينة أناس من العتقى ولكنهم ما كانوا يكتسبون الحقوق الوطنية فكان مقامهم كالاغراب المتوطنين فى البلاد ليس الا بل كانوا ملزمين بالولاء لمواليهم مدى الحياة وأن يقوموا لهم بواجبات مفروضة وكان هنالك أرقاء عموميون تشتريهم الدولة للقيام ببعض الشؤون فمنهم فريق كان يناط به حفظ المدينة وحفارتها

---

(٢٢) ويسمى بلوطرخوس بالطاء أو بالتاء مؤرخ وأخلاقى يونانى مشهور ألف كتابا جليلا اسمه (تراجم المشاهير والاعيان برومة وبلاد اليونان) وغير ذلك من الرسائل العديدة فى السياسة والتاريخ والفلسفة مثل أصل النفس وصمت الهاتفين بالغيب وذكاء سقراط والتربية وكيفية تلاوة منظومات الشعراء وتناقض الرواقيين (أصحاب زينون) وثروة الرومانيين والولية وأمور تتعلق بالمائدة اه مترجم

(٢٣) يريدون بالامم المتبربرة كل من عدا اليونان كما أن الرومانيين يقصدون أيضا بهذا اللفظ كل من لم يكن له حق الوطنية فى مدينة رومة والعجم عند العرب كل من ليس بعربى وهذا منشأه حب الاستئثار ونظر كل أمة الى نفسها بعين الاجلال والاكبار اه مترجم

فكان الواجب عليهم المحافظة على استتباب الامن وتوطيد دعائم الراحة فى الاجتماعات العمومية

(الفرع السابع)

(فى الاسترقاق عند الرومانيين)

ان العادة التى جرى عليها السلف فى الازمان القديمة من استعباد الاسارى كانت بالطبع متبعة أيضا عند الرومانيين فكان العمل برومة (٢٤) فى مبدأ الامر موكولا الى العاملين الاحرار ولذلك

(٢٤) هى أشهر من أن تعرف فقد مضت عليها الشهور والدهور وهى سيدة الدنيا القديمة باسرها وكانت جمهورية ذات شوكة ومنعة وعاصمة للمملكة الرومانية وهى الآن تخت لمملكة ايطاليا ويقيم فيها الملك وأيضا البابا (وهو رأس الديانة العيسوية الكاثوليكية) وفيها كثير من الآثار الفائقة والعمائر المعجبة وعدد سكانها ٢٣٥٣٠٠ وهى قائمة على سبعة تلال أسسها رومولوس فى سنة ٧٥٣ قم على ماجاء فى الروايات المتواترة وتولاها سبعة ملوك ثم حكمها السناتو ثم القنصلان معا وتاريخ تلك الايام سقيم غير صحيح ولا محقق وكان لقب أسقف رومة هو اللقب الوحيد الذى يعرف به فى الاجيال الاولى من الكنيسة الاحبار الذى سموا فيما بعد بالبابوات وتاريخ رومة هو الذى يبتدئ من عام تأسيسها فى سنة ٧٥٣ قم ولشهرة هذه المدينة قد ضرب بها المثل فى اللغات الافرنكية فى أمور كثيرة فمن جملة امثالهم قولهم (كل طريق يوصل الى رومة) و (رومة لم تتم فى يوم واحد) و (بالسؤال يذهب الانسان الى رومة) و (يلزم الانسان أن يعيش فى رومة بحسب اصطلاح أهلها) و (من يذهب الى رومة وهو كالبهيم يرجع منها وهو كذلك) و يقابلها فى الامثال العامية عندنا (سكة أبوز يدكلها مسالك) و (ربنا خلق الدنيا فى ستة أيام) و (اللى يسأل مايتوهش) و (ان دخلت بلد والتقيت أهلها يعبدوا الثور حش وادى له) و (حمار الصيف حمار الشتا)

انبثت روح الشهامة والرجولية فى جميع سكان هذه المدينة الشهيرة فى مبادئ تاريخها على ان هذه الحالة لم تبق على ما هى عليه بل زالت بالمرة لاتساع نطاق المدنية وتطرق وجوه الزخرف والبهرجة اليها فكثر عدد الرقيق ثم ازداد لما توسعت رومة فى الفتوحات وغزو البلاد فوضع البطارقة (٢٥) والاغنياء أيديهم على العبيد واستعملوهم فى حراثة أراضيهم ولم تلبث الصنائع والفنون الميكانيكية ان وقعت أيضا فى أيدى الرقيق

وكانت وجوه الاسترقاق برومة متعددة فانه فضلا عن استرقاق الامم المغلوبة بالحرب واستعبادها كان هناك صنف آخر وهم العبيد بالولادة أى الذين يولدون من الارقاء وصنف ثالث من الاحرار الذين قضت عليهم بعض نصوص القانون بالوقوع تحت نير العبودية (٢٦) ولا حاجة للقول بان الحرب كانت من أعظم موارد الاسترقاق عند الرومانيين ولذلك كان النخاسون يرافقون الجيوش عادة وكثيرا ما كان يتفق بيع آلاف من الاسارى بأثمان بخسة وذلك عقيب فوز عظيم

---

(٢٥) جمع بطريق Patricien وليس البطارقة رؤساء الديانة كما يتبادر للوهم وكما ورد فى بعض الكتب العربية خلطا لها بكلمة بطرك وبطريرك (رئيس رؤساء الاساقفة) وانما هى كلمة يونانيه Patricius وهى تطلق على أعضاء العيال الاصلية التى كان أشراف الرومان مؤلفين منها أو سلالتهم بالولادة أو التبنى اه مترجم

(٢٦) مثل المدين الذى لم يتيسر له ايفاء دينه فانه كان يصير رقيقا لدائنه وغير ذلك اه مترجم

فى وقعة مهمة وكانوا يسرقون الاطفال ليبيعوهم والنساء ليتخذوهن لقضاء الفاحشة وارتكاب الفجور

وكان الرومانيون يعتبرون هذه التجارة مخلة بالشرف مسقطة للاعتبار ولكنها كانت تجارة رابحة ناجحة وكان الذين يتعاطونها يحصلون على أموال طائلة وثروة وافرة فنهم النخاس توزانيوس الذى كان فى أيام اغسطس متمتعا بشهرة فائقة وصيت بعيد

وكانت العادة فى رومة بيع الرقيق بالمزاد فكانوا يوقفونهم على حجر مرتفع بحيث يتيسر لكل واحد أن يراهم ويمسهم بيده ولو لم يكن له رغبة فى الشراء وكانت العادة ان المشترى يطلب رؤية الارقاء عراة تماما لان بائعى الرقيق كانوا يستعملون وجوها كثيرة من المكر لاخفاء عيوب الرقيق الجثمانية كما يفعل اليوم الجمبازجية(٢٧) فى الخيول

وكانت أثمان العبيد المتعلمين المتأدبين غالية جدا ومثلهم المعدّون لتشخيص الروايات ولا تسل عن المغالاة فى دفع الاثمان الزائدة لمشترى الجوارى الحسان البارعات فى الجمال اللاتى يجعلن لمقتنيهن حظا كبيرا فى الاستحصال على كثير المال بسبب تعريضهن للفسق والفجور وفى عهد الدولة كان القوم يدفعون المبالغ

---

(٢٧) بياعو الخيل اه مترجم

الباهظة للاستحصال على بنات ذات دلال وذلك حينما ازداد فساد الاخلاق واختلت قواعد الآداب وانتشر الزخرف فيهم الى ما تجاوز الحدود

وكانت رومة شبيهة ببلاد اليونان فى تقسيم الارقاء على أنواع فمنهم الارقاء العموميون (٢٨) ومنهم الارقاء الخصوصيون فافراد الفريق الاول كانوا ملكا للحكومة وكانت حالتهم أفضل وأحسن من حالة اخوانهم بكثير فكان عليهم العناية بشأن المبانى العمومية بل ومساعدة القضاة والكهنة فى القيام بواجبات وظائفهم وكانوا يستخدمون فوق ذلك سجانين وجلادين (سيافين) وملاحين وأمثال ذلك من الوظائف . وأما افراد الفريق الثانى فكان عليهم أن يقوموا بكافة شؤون الخدمة فى دور مواليهم كأن يكونوا بوابين وخدامين وطهاة (٢٩) ومستخدمين لقضاء الحاجات وماأشبه ذلك

ولم يكن الرقيق فى نظر القانون الا كشئ من الاشياء فليس له ملكية ولا عائلة ولا صفة شخصية

وقد سبق لنا القول بان الولادة قد تكون سببا فى الاسترقاق ولذلك كان القانون يبيح للسيد استرقاق من تلده أمته والمقرر فى

---

(٢٨) جاء فى الاصل Privés سهو وحقها Publics اه مترجم

(٢٩) طباخين اه مترجم

الشريعة الرومانية انه فيما عدا النكاح تكون حالة الولد شبيهة بحالة امه حين وضعها له بمعنى انها اذا كانت حرة فى ذلك الوقت فالولد يكون حرا واذا كانت رقيقة فالولد يكون رقيقا أيضا مهما كانت حالتها فى أثناء الحمل على ان هذه الشدة قد تلطفت فيما بعد وتقرر أنه يكفى فى حرية المولود أن تكون امه نالت حريتها أثناء الحمل (٣٠) (انظر فتاوى يوستينيانوس)

وكان حق العقوبة من نتائج سلطة الموالى على أرقائهم فكان الارقاء الذين يأتون بهفوة يجازون عليها بالشدة وفى بعض الاحيان بقساوة فائقة عن الحد لم يسمع لها بمثيل فكان أخف العقوبات وألطفها عندهم استعمال الرقيق فى مشاق الحراثة والزراعة وهو مكبل بالسلاسل مثقل بالاغلال معرض لاقسى أنواع العذاب وأما العقوبة بالجلد بالسياط فكانت فى غاية القسوة ونهاية الشدة حتى انها كانت تنتهى بالهلاك فى أغلب الاوقات وكانوا يعاقبون الرقيق أيضا بتعليقه من يديه وربط الاثقال فى رجليه

ومازال الارقاء يقاسون أنواع العذاب ويعانون أصناف الاوصاب حتى آل الامر بواضعى الشرائع للنظر اليهم بعين الشفقة والمرحمة وتدوين الاحكام القاضية برعايتهم وحسن معاملتهم وأول قانون فى

(٣٠) ولو كانت فاقدة لها حين الوضع فان نوال الحرية ثم فقدها ثم نوالها وهكذا كان كثير الوقوع عندهم بمقتضى قانونهم اهـ مترجم

هـذا المعنى هو قانون بترونيا وفيـه انه يحرم على الموالى الزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش الضارية والحيوانات الكاسرة على انه قد تدوّن فيه ان الرقيق الذى يأتى جرما يستوجب هذا الجزاء يجوز لسيده أن يعاقبه به بعد التصريح من القاضى وقد أصدر أنطونان (٣١) أمرا حصر فيـه مايسمونه بحق الحياة والممات الذى يعتبره المفتى جايوس (٣٢) من حقوق الامم والملل فقال أنطونان «اذا قتل المولى عبده بغير حق وجبت معاقبته كأنه قتل عبدا لغيره» (٣٣) وقد تقرر فى هذا الامر أيضا نهى الموالى عن سوء معاملة أرقائهم ثم صدر أمر من كلوديوس تدوّن فيـه انه « اذا قتل السـيد عبده عدّ مرتكبا لجناية القتل »

---

(٣١) ويلقب بالتقى وهو امبراطور رومانى حكم بالقسط والاعتدال من سنة ١٣٨ الى سنة ١٦١ ولفظة امبراطور مشتقة من كلمة لاتينية معناها الامر والحكم وكان الجنود يلقبون بها كل قائد جيش وخصوصا القواد الذين كانوا يفوزون بالغلبـة والانتصار ثم ان الامـة الرومانية منحت هذا اللقب الى يوليوس قيصر فى سنة ٧٠٨ ق م دلالة على ما كان له عليها من السلطان المطلق ويطلق هذا اللفظ الآن على رؤساء الممالك الكبيرة اه مترجم

(٣٢) هو فقيـه رومانى له كتاب فى الفتاوى وهو من أبناء القرن الثانى للميلاد اه مترجم

(٣٣) أى بالاعدام أو الابعاد من البلاد اه مترجم

الباب الثانى

﴿الكلام على الاسترقاق فى القرون الوسطى﴾

ان قوانين الامم المتبربرة(٣٤)تشابه قوانين الرومانيين فى كونها تعتبر الرقيق كشئ من الاشياء فانها تجعله بمنزلة الفرس والثور وغيرهما من الحيوانات المستخدمة الاهلية فكان المولى فى شرعهم يتصرف بعبده كما يتصرف بما عنده من الاشياء ذات القيمة وكان يجوز له قتله لانه شئ من الاشياء التى تملكها يمينه وهم فروع

---

(٣٤) الامم المقصودة فى هذا الفصل هى أمم مخصوصة أغارت على المملكة الرومانية جملة مرار لاسباب غير معروفة واليك تفصيلات مهمة عليها هذه الامم تتألف من ثلاثة أجناس كبيرة وهى الجنس الجرمانى أو التوتونى والجنس الصقلبى أو السرماتى والجنس السيتى أو السكيتى وتحت هذه الاجناس أنواع وأصناف وقبائل وعشائر لا تدخل تحت الحصر فمنها أمة الالين Alains وكانت لا تعرف الاسترقاق بل كانوا جميعا أحرارا من نسل أحرار ومن عادة هذه الامم كلها شرب الجعة (البيرة) والماء واللبن والنبيذ فى جماجم الاعداء ومتى تم لهم الانتصار ارتكبوا فظائع جمة ولكن اذا دارت عليهم الدائرة كانوا يقعون على بعضهم بعضا ويهجمون على أنفسهم غيظا وحنقا فيربطون الواحد بالآخر ولا يزالون كذلك حتى يموتوا لانهم يقولون الموت ولا التقهقر والمنية ولا الدنية ونساؤهم يتسلحن بالسيوف والبلط ثم ينقضضن على رجالهن وعلى أعدائهن من غير تمييز وهن يصحن صياحا مفزعا مرعبا من شدة ما ألم بهن من الكدر والغضب فكن يقتلن رجالهن لجبنهم والرومانى لانه عدوهن وعند التحام المعركة يقبضن بأيديهن وهى عارية على سيوف الاعداء البتارة وينزعن منهم تروسهم الى أن يشربن كأس الحمام وقد شوهد كثير منهن مرخيات الشعور مضرجات بالدماء متشحات بالملابس السوداء يركبن على

(الفرع الاول)

(الاسترقاق عند الغاليين) (٣٥)

كانت أعمال الحراثة والفلاحة فى عصر سيسرون (٣٦) من موجبات الهوان والاحتقار ودواعى الذل والصغار ولذلك كان الارقاء هم المنوطين بحرث الارض والزراعة والحصد

عربات الحرب ويقتلن أزواجهن واخوتهن وآباءهن وأولادهن ويخنقن أطفالهن ثم يقذفن بهم جميعا تحت سنابك الخيل ثم يطعنّ أنفسهن ويلحقن بهم وقد شنقت احداهن نفسها على عربتها بعد ان صلبت غلامها على ساقيها وقد يسعى الرجل من هذه الامم عند وقوع الهزيمة عليه فى البحث عن شجرة ليصلب نفسه عليها فاذا لم يجد وضع فى رقبته حبلا مربوطا بانشوطة من أحد طرفيه ثم ربط الطرف الآخر فى قوائم وقرون أثوار وفلا يلبث أن يهلك وكان بعض هذه الامم يعتقد بالقضاء والقدر من غير أن يكون له دين ما وبعضهم يعبدون سيفا يغرزونه فى الارض وبعضهم يعبدون الها اسمه ديس (أبو الليل) ويتقربون اليه بذبح الشيوخ والطاعنين فى السن وكان الاسترقاق معروفا عند جميع هذه الطوائف وكانوا يقسمون التركة بالمساواة على جميع الاولاد بل ان آخر الاولاد كان أكثر حظا من اخوته لانه يعتبر أضعفهم وأقلهم اقتدارا على كسب الرزق اه مترجم

(٣٥) هم سكان تلك البلاد القديمة المعروفة باسم غاليا وهى غاليا الحقيقية (فرنسا) وغاليا التى أمام جبال الالب (ايطاليا الشمالية) ثم حكومة أقاليم الغاليا (الجزائر البريطانية وفرنسا واسبانيا القديمة) اه مترجم

(٣٦) وقد يكتب شيشرون أوقيقرون وهو أفصح خطباء الرومانيين ولد سنة ١٠٦ ق م ثم درس البلاغة والفلسفة على أشهر أساتذة عصره وانتظم فى سلك المحامين وعمره ٢٦ سنة ثم ذهب الى أثينة لتكميل العلوم والتوسع فى صناعته وعاد الى وطنه ولما دخل فى الثلاثين من عمره تقلد المناصب والوظائف فعين أمينا لبيت المال فى صقلية وجمع

(الفرع الثانى)

(الاسترقاق عند الجرمانيين) (٣٧)

كانت هذه الامة منهمكة فى لعب القمار انهما كالاحد له كما رواه المؤرخ تاسيتوس (٣٨) حتى كان كثيرا مايخرج الولوع

أفئدة الاهالى على محبته والولاء له حتى انهم كلفوه بالمدافعة عنهم فى دعوى أقاموها على رجل من الحكام نهبهم واغتصب اموالهم بطرق فاضحة وقد كسب الدعوى مع ماخصمه من الاقتدار ونفوذ الكلمة وكثرة المال ثم عين قنصلا (علم على أحد القاضيين الاولين اللذين كانا على رأس حكومة رومه) واكتشف على مؤامرة خيب مساعى أهلها فلقبه مجلس الشيوخ (السناتو) أبا الوطن ثم قاز عليه أصحاب المؤامرة المذكورة فنفوه بحجة أنه أمر باعدام المتآمرين من غير محاكمة ثم أعيد الى بلده بعد ١٦ شهرا واستقبل بمظاهر الاحتفاء والاحتفال ثم عين فى حكومة كيليكيا (بآسيا الصغرى) وانتصر فى وقائع حربية كثيرة حتى لقبه عساكره بالامبراطور ثم تخلى عن الاعمال وتفرغ لتاليف كتبه الجليلة الفريدة ثم عادى انطونيوس وتحزب لاوكتافيوس ولكن الخصمين اتحدا مع بعضهما فلم يلتفت اليه اوكتافيوس ولم يدفع عنه كيد عدوه فدس له انطونيوس من قتله فى سنة ٤٣ ق م وكان عمره ٦٤ سنة اه مترجم

(٣٧) هم سكان جرمانيا التى هى الآن المانيا اه مترجم

(٣٨) أو تاشيتوس وقد يكتب اسمه تاقيطس وهو مؤرخ لاتينى ولد فى سنة ٥٤ ميلاديه وانتظم أولا فى سلك المحامين ثم فى الخندية وتقلد وهو شاب وظيفة فى الحكومة وتزوج بابنة من بنات أغريكولا ثم صار عاملا على ولاية ثم قنصلا وتوفى بعد أن تجاوز الثمانين فى سنة ١٣٠ أو سنة ١٣٤ ميلاديه على خلاف بين المؤرخين اشتهر فى الخطابة والشريعة وقد ضاعت أغلب تآليفه ولكن بقى منها جزء من تاريخه وترجمة حال أغريكولا وأخلاق الجرمانيين ومحاورة على الفصاحة ينسبها بعضهم الى الفيلسوف كوانتليانوس وكان يبحث فى مؤلفاته بحثا تاريخيا فلسفيا فلذلك جاء انشاؤه جزلا وافيا دقيقا وكثيرا ما يبالغ فى الكلام على عادات الجرمانيين اه مترجم

به بعضهم الى الشطط فيقامرون على نسائهم وأولادهم بل وعلى حريتهم الشخصية

أما الارقاء الذين يحتكمهم الجرمانيون بطريقة الشراء أو الميراث فما كانوا يكلفون بخدمة المنازل بل كان لكل واحد منهم مسكن خاص به يدبره كيفما شاء وكان المولى يفرض عليه مقدارا من القمح أو الماشية أو الملابس كأنه من مؤاجريه وفى ذلك كان ينحصر الاستعباد عندهم

(الفرع الثالث)

(الاسترقاق عند الفرنج) (٣٩)

وصل الاسترقاق عندهم الى نهاية الشدة والقسوة فان القانون السالى (٤٠) جعل من مبدا الامر بين الارقاء والاحرار من الموانع

---

(٣٩) أمة حرة مؤلفة من جملة عائلات جرمانية سكنت بطائح نهر الرين الاسفل ومنها تناسل الفرنساويه وهى من أشهر الامم التى ظهرت فى القرن الثانى والثالث بعد المسيح وكان فى طبعهم الجراءة والاقدام والشمم ولم يكن عندهم شئ من العلوم ولا من الصنائع سوى أن الرجل يولد عسكريا وكانوا يتعيشون من الصيد وقطع الطريق وكان الرجل منهم لا يتزوج الا بامرأة واحدة له عليها سلطان مطلق وكانوا على جانب عظيم من الدهاء والمكر والخيانة والغدر لا يرون الاقسام والايمان شيأ مذكورا اه مترجم

(٤٠) Loi Salique هو فى فرنسا ومقتضاه حرمان النساء من الجلوس على كرسى المملكة وكان فى أول الامر خاصا بملاك الاقسراد ومانعا للاقطاع من الوقوع فى أيدى النساء ثم سرى مفعوله على الوراثة الملوكية للمرة الاولى فى سنة ١٣١٦ بعد وفاة لويز الهوتينى ومن ذلك الوقت يعتبر من القوانين الاساسيه للمملكة الفرنساويه فى القرون الوسطى وهو يحتوى على ٤٠٠ مادة أغلبها فى الكلام على الجنح والجنايات مثل السرقة والاكراه والجرح والقتل اه مترجم

والحواجز أسوارا كثيفة فكان التناكح بينهما غير جائز مطلقا اذ فى صريح القانون عندهم انه « اذا تزوج أحد الاهالى برقيقة أجنبية وقع فى الرق والاستعباد » وكذلك المرأة الحرة التى تتزوج برقيق تفقد حريتها وينالها هذا العقاب

(الفرع الرابع)

﴿ الاسترقاق عند الويزيقوط ﴾ (٤١)

قوانين النكاح عند هذه الامة أبلغ فى الشدة مما هى عند التى قبلها فقد تدوّن بها « أن المرأة الحرة اذا تزوجت برقيقها كانت عقوبتها ان تحرق هى واياه وهما على قيد الحياة » وأما اذا كانت لامتملك العبد يفسخ النكاح ويجلد كل منهما بالسياط ولكن الرقيق لم يكن ملكا لسيده بوجه الاطلاق بحيث تكون حياته فى يده يتصرف فيها كيفما شاء بل كان القاضى هو الذى يحكم على العبد بالموت اذا كان يستحق ذلك ثم يسلمه لسيده يفعل به مايريد

(٤١) هم فرع من أمة القوط وهى أمة قديمة بجرمانيا جاءت الاندلس ولها ذكر فى ابن خلدون وغيره من مؤرخى الاسلام اه مترجم

(الفرع الخامس)

(الاسترقاق عند الاوستروقوط واللومباردين) (٤٢)

وضعت أحكام صارمة عند هاتين الامتين فكانت المرأة الحرة التى تتزوج برقيق تعاقب بالاعدام

(الفرع السادس)

(الاسترقاق عند الانجلوساكسون) (٤٣)

كانوا يقسمون الرقيق الى صنفين عظيمين كما عند الامم الاخرى وهما الرقيق المشبهون بالمنقولات والرقيق المشبهون بالعقارات فافراد الصنف الاول يجوز بيعهم وأما الآخرون فكانوا لاينفكون عن الارض القائمين بحراثتها وزراعتها وفى أواخر حكم هذه الامة كان يجوز للأرقاء أن يكون لهم رأس مال خاص بهم وكانوا يشتغلون بتحصيل مايدفعونه لمواليهم لاجل نوال حريتهم

وسنتكلم فى الباب الرابع على الاسترقاق فى الديانة النصرانية

---

(٤٢) الاوستروقوط فرع آخر من الامة المذكورة ملك ايطاليا مدة من الزمان واللومباردون هم سكان لومبارديا من القرن السادس الى الثامن بعد المسيح قهرهم شارلمان ولومبارديا قسم فى شمال ايطاليا تحته ميلانو وهى الآن احدى مقاطعاتها اه مترجم

(٤٣) هو اسم جنس أطلق على الامم الجرمانية التى أغارت على بريطانيا العظمى فى القرن الخامس للميلاد ومنهم تناسل الانكليز اه مترجم

الباب الثالث

﴿الاسترقاق فى الازمان الحديثة﴾ (٤٤)

اذا انتقلنا الى الازمان الحديثة وجدنا أن استرقاق الزنوج يشابه الاستعباد عند الرومانيين من حيث الشخص المستخدم ولكنه يخالفه مخالفة جوهرية من حيث أصله ومنشأه وذلك لان فتوح المستعمرات لم يأت بامتلاك الارض مع العامل الذى يحرثها بل انه بعد اكتشاف الاراضى صار تبديد أهاليها أو ابادتهم فكانت

---

(٤٤) قد اعتاد أهل التاريخ عند الافرنج على قسمة سنى العالم الى ثلاثة أقسام وهى الازمان القديمة والقرون المتوسطة والازمان الحديثة وجمهورهم على أن الازمان القديمة تبتدئ من خلق الدنيا الى سنة ٣٩٥ ميلادية التى انقسمت فيها المملكة الرومانية الى شرقية تختها القسطنطينية وغربية عاصمتها رومة ويقول آخرون انها تنتهى فى سنة ٤٧٦ التى انقرضت فيها المملكة الرومانية الغربية على يد الامم المتبربرة (وليس فى ذلك الخلاف أهمية كبيرة فان انقراض الهيئة الاجتماعية الرومانية لم يتم فى يوم واحد بل ابتدأت فى السقوط على إثر موت تيودوز الذى قسم المملكة الرومانية بين ولديه الى شرقية وغربية كما ذكرنا ثم ان انقراضها تم نهائيا فى سنة ٤٧٦ ميلادية) والقرون الوسطى هى المدة التاريخية المحصرة بين انقراض الهيئة الرومانية أى انتهاء الازمان القديمة وبين فتح المسلمين لمدينة القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ مسيحية وتدميرهم المملكة الرومانية الغربية وأما الازمان الحديثة فتاريخها من ابتداء استيلاء السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية الى أن وقعت الثورة الفرنساوية فى سنة ١٧٨٩ مسيحية وأما تاريخ الازمان التى بعد سنة ١٧٨٩ فقد اتفقوا على تسميته بالتاريخ العصرى اه مترجم

الحاجة ماسة الى اعادة السكان فيها ولم يكن ثمة من واسطة سوى جلب الزنوج اليها

(القانون الاسود)

اعلم أن هذا الاسم يطلق فى جميع البُلدان على مجموع القواعد والاصول المدونة بشأن الاسترقاق

وقد صدر فى ١٧ مارس سنة ١٦٨٥ مرسوم بتنظيم أحوال الارقاء والعتق فى جميع المستعمرات الفرنساوية وتقرر فيه تخويل الحق المدنى والسياسى للاحرار من ذوى الالوان واعتبار العتق ولادة جديدة للمعتوق على أن الجمعية الدستورية لما أرادت العمل بهذا المبدإ واستنباط النتائج المترتبة عليه عقلا صادفت صعوبات عنيفة ومعارضات قوية وما ذلك الا لان القانون الاسود لم تنفذ منه الا القواعد الصارمة والاحكام البالغة فى الشدّة أما الاصول المقتضية حصر سلطة الموالى أو تحميلهم بحقوق لارقائهم فكانت مهملة متروكة كأنها لم تكن

واذا اعتدى الزنوج بأقل اكراه على ساداتهم أو على الاحرار أو ارتكبوا أخف السرقات جزاؤهم القتل أو العقاب البدنى بالاقل وهذا دليل كاف على مافى القانون من الشدة التى ليس بعدها شدّة

وان الانسان ليمتلئ غيظا وغضبا اذا ذكر أنواع العقاب التى كانت موضوعة للآبقين فقد كان عقاب الإباق فى المرة الاولى والثانية قطعا للآذان ومسحا بالسوق وكيا بالحديد المحمى وفى الثالثة القتل

ومهما بلغت شدّة هذا القانون فانها لاتنقص عن قانون المستعمرات الانكليزية اذا قابلناها بها فقد تقرر فى مستعمرة الجامايك وانتيجوا (٤٥) آن من أبق واستمر فى إباقه أكثر من ستة شهور جزاؤه الاعدام

ومن أسوإ الاحكام التى جاء بها المرسوم الصادر فى مارس سنة ١٦٨٥ انه عند مايرتكب المالك أو الرئيس أية جناية على الرقيق ولو كانت جناية القتل يكون للقضاة الحرية فى مراعاة أحوال البراءة وأن يبرؤا ساحة المتهمين الغائبين من غير أن تكون هنالك حاجة للاستحصال على العفو وقد كتب هيليار دوبرتوى فى (ملاحظاته على مستعمرة سان

---

(٤٥) جزيرة جامايك هى من أكبر جزائر انتيليا التابعة لانجلترة فى بحر انتيليا المعروف ببحر الكارايب وعدد سكانها ٨٠٠ر٥٨٠ نفس وتختها كنجستون (أى حجر الملك) وجزيرة انتيجوا هى من صغار جزائر انتيليا التابعة لانجلترة أيضا وأما جزائر الانتيليا برمتها فهى عبارة عن أرخبيل كائن بين قسمى أمريكا وينقسم الى جزائر انتيليا الكبيرة وجزائر انتيليا الصغيرة وعدد سكانها كلها ٤٦٢٠٠٠ نفس اه مترجم

دومينج) (٤٦) ان « المرسوم الصادر فى سنة ١٦٨٥ لايمنع من هلاك الارقاء فى كل يوم بسبب تكبيلهم بالسلاسل أو جلدهم بالسياط ولا من ضربهم ضرب التلف والازهاق ولا من احراقهم عسفا واستبدادا وكل هذه الفظائع يرتكبها القوم فى المستعمرة ولا رادع يردعهم حتى ان كل ذى لون أبيض يعامل الاسود بالغلظة والقسوة ولا حرج عليه فى ذلك واذا لحق ضرر بعبد من العبيد فالقضاة اعتادت عدم النظر الى هذا الضرر الا من حيث انه ينقص من ثمن العبد المجنى عليه »

وقد أيدت الجمعيات الاستعمارية فى كل زمان هذه القاعدة وهى أنه لايسوغ للمتشرعين أن يتوسطوا ويتداخلوا بالشرائع بين العبد ومولاه وكان الاحرار من ذوى الالوان محرومين من وظائف النفوذ والاعتبار

بل قد صدرت أوامر متنوعة من نظارات الحكومة بمنع التوسع فى تأويل مواد القانون الاسود فنها ما كان بالنهى عن البحث فى الاوراق المثبتة أن صاحبها من طائفة الاشراف متى تزوج بامرأة امتزج بها دم الارقاء وكان مثل ذلك الرجل يعدّ غير جدير

(٤٦) هى عاصمة الجمهورية الدومينيكانية (احد قسمى جزيرة هايتى) وعدد سكانها ١٦٠٠٠ نسمة وجزيرة هايتى (ومعناها البلاد الجبلية) هى من كبار جزائر انتيليا اه مترجم

باية وظيفة فى المستعمرات بل يعتبر ساقطا من درجة ذوى اللون الابيض ومنها ما كانت بتحريم حضور ذوى الالوان الى بلاد فرنسا للتغذى بألبان المعارف واقتطاف ثمرات التأديب والتهذيب ومنها ماتضمن عبارات صريحة هذا تعريبها « ان حسن النظام مما يوجب عدم إقلال الصغار والاحتقار المرتبط بالجنس الاسود مهما كانت درجته ومنزلته وقد صمم جلالة الملك على ابقاء الحكم الاعتبارى الذى مقتضاه أن يحرم الى أبد الآبدين ذوو الالوان وذريتهم من المزايا الخاصة بالجنس الابيض » (يناير سنة ١٧٦٧)

هذا كله كان جاريا فى أواخر القرن الثامن عشر وقبيل الثورة الفرنساوية وما زالت مواد القانون الاسود تزداد شيأ فشيأ بما يصدر من مركز الحكومة أو جهات السلطة بالمستعمرات من الاوامر ومعظمها لم يقصد به ترقية حال الرقيق ولا تحسين درجته كما رأينا وقد صار هذا القانون أساسا لتقرير الاحكام وسن النظام فى الاملاك الفرنساوية وفى الجهات المستعمرة لها الى أن حصلت الثورة فى فبراير سنة ١٨٤٨ فعملت على ابطال الاسترقاق مرة واحدة فكان لها بذلك تخريد كر فيشكر

أما القوانين القديمة الخاصة بذوى الالوان وبالارقاء فى الولايات الجنوبية من بلاد أمريكا المتحدة المعروفة أيضا بالقوانين السوداء

فكان فيها من الشدة والصرامة ماتنقبض له النفوس وتنفر منه القلوب فقد صرحت الشريعة فى ولايات لويزيانا وكارولينا (٤٧) وغيرهما من الولايات الجنوبية أن المولى « له حق الملك المطلق على عبده» فله بيعه واجارته ورهنه وخزنه واجراء الجرد عليه وأن يقامر عليه وغير ذلك من الاعمال ولما كان العبد مسلطا عليه أبدا كان من المحتوم عليه أن يحترم سيده وأعضاء عائلته احتراما ليس بعده احترام ويطيعهم طاعة لاحد لها (يراجع القانون الاسود لولاية لويزيانا)

أما حق مدافعة الانسان عن شخصه وهو من الحقوق المخولة بالطبع لكل فرد من أفراد بنى آدم فما كان للزنجى المستعبد أن يتمتع به وذلك كما قضى به القانون الاسود لولاية كارولينا الجنوبية ولم يكن للعبد حق فى الذهاب والمجىء وما كان له أن يخرج من الزرع الا بتصريح قانونى واف لجميع الشروط المفروضة على أن

(٤٧) لويزيانا هى احدى الولايات الشمالية من الممالك المتحدة بامريكا على خليج مكسيكا وعدد سكانها ٩٣٩٩٤٦ نفسا وعاصمتها باتون روج (العصا الحمرا) وفيها معادن الخارصين والنحاس والفحم الحجرى والحديد وأرضها خصبة خصوصا فى انبات القطن والارز وقصب السكر وأما ولاية كارولينا فهى فى شمال بلاد أمريكا المتحدة وهى قسمان كارولينا الشمالية وينبت بها الارز والذرة وكثير من الحبوب والقنب وفيها غابات كبيرة من الصنوبر وكارولينا الجنوبية وفيها كثير من البطائح وغابات الصنوبر الراتنجى وهى خصبة خصوصا فى انبات القطن والارز والذرة والدخان والنيلة وصناعتها قليلة ولكن زراعتها زاهرة اه مترجم

هذا التصريح كان له آفة تذهب بالغاية منه وذلك أنه اذا اجتمع في الطريق العام أكثر من سبعة من الارقاء يعتبرون مخالفين للاوامر وأول أبيض يصادفهم في الطريق له أن يلقي القبض عليهم ويجلدهم عشرين جلدة وكان العبد معتبرا شيئا لا انسانا فكان الذين ينقلونه من مكان الى آخر مسؤلين عن فقده وضياعه وعن العوارض التي تصيبه كما كانوا يسئلون عن خسارة أو تلف حل من الاحمال أو طرد من الطرود

هذا وقد نص القانون على أن العبيد لانفس لهم ولا روح وقضى بأن لافطانة ولا ذكاء لهم ولاارادة وما كانت الحياة تدب الا في أذرعتهم فقط

فمن ذلك يتضح أن حرية الزنجي كانت معدومة لاوجود لها ولكن في نظير ذلك كانت مسؤليته عظيمة جدا فكان يعتبر شيأ من الاشياء فيما يختص بحقوقه وأما فيما يتعلق بالواجبات المفروضة عليه فانه كان يعوده اعتبار الصبغة الآدمية والصفة البشرية وكان القوم يعتبرونه حرا كلما كانت حريته تسوغ الحكم عليه بالسوط أو بالموت وكان القانون ومشيئة المولى يفرضان عليه واجبات كثيرة ويلزمانه بامور متعددة ويعاقبانه بالشدة والصرامة اذا ظهر منه العصيان وكل مايعتبر جناية من الابيض فهو كذلك بالنسبة الى الاسود من غير عكس فيعاقب القانون الزنجي على جنح وجنايات

يفعلها ولا يسوغ معاقبة الابيض عليها اذا وقعت منه وما هذا الا لمجرد اللون ولذلك كانت العقوبات مختلفة اختلافا بيّنا بحسب الحكم بها على الاسود أو على الابيض وكان القانون العادى يحكم بالاعدام على كل زنجى يضرب ويجرح مولاه أو مولاته أو أولادهما أو يبيت عمدا عضوا من أعضاء شخص أبيض أو يعود لضرب أبيض مرة ثالثة أو يسرق أو يرفع لواء العصيان أو يرتكب ما أشبه ذلك من الجرائم ويحكم بالجلد على كل من كان سائرا بلا تصريح أو يُغضب مولاه بسبب ما أو غير ذلك

وفى الولايات الجنوبية المختلفة كان العتق أيضا واقعين تحت طائلة القوانين الصارمة المسنونة لاجلهم فما كان لهم قبل ابطال الاسترقاق أن يشهدوا فى قضية ما الا اذا دعوا للشهادة على الارقاء أو على أمثالهم ومع ذلك فما كان يجوز تحليفهم اليمين القانونية لانها أشرف وأسمى من أن يتفوهوا بها فيدنسوها بتفوههم وكان لا يجوز لهم حمل السلاح ومن خالف هذا النهى حكم عليه بالجلد وقد ورد فى نص القانون نفسه أنهم لا يجوز لهم أن يستروا جلودهم الا بثياب من القماش الخشنى الدنىء حتى يكون فى ذلك اعلام بشأنهم لمن يراهم من بعيد مثل اللمانجية (المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة) وكان ذو اللون الذى يسب الابيض أو يضربه يعاقب بالحبس والغرامة فاذا كان الابيض هو

الذى سبق بضربه ثم تجارأ هو بالدفاع عن نفسه وقتل المعتدى عليه حفظا لحياته كان يعتبر مرتكبا لجريمة القتل وواقعا تحت العقاب الذى تستوجبه ولم يقتصر القانون على هذه النصوص والاحكام بل حرم عليهم تقريبا حرية المرور ولم يكن لهم الحق فى طلب ورقة الجواز (٤٨) وكان لونهم سببا للريبة فى أمرهم والاشتباه فى أحوالهم لانه يجعلهم بمثابة الارقاء فلذلك ما كان يجوز لهم أن يسافروا خارج الحى المتوطنين به لئلا يعرضوا أنفسهم للحبس والاهانة من ذوى اللون الابيض فانهم يمكنهم أن يسرقوهم ويبيعوهم وفى بحر سنة ١٨٥٩ اقترعت الجمعية التشريعية فى ولاية أركانزاس (٤٩) على قانون مقتضاه نفى جميع ذوى الالوان من أراضيها ثم ضبطت الحكومة جميع المنفيين الذين لم يُتح لهم مفارقة مواطنهم قبل أول يناير سنة ١٨٦٠ وباعتهم أرقاء فى المزاد

---

(٤٨) وقد ضبطها فى دائرة المعارف بالكسر سهوا . قال فى القاموس الجواز كسحاب صك المسافر وقال فى أساس البلاغة وخذ جوازك وخذوا اجوزتكم وهو صك المسافر لئلا يتعرض له . والفسح بالفتح شبه الجواز يقال فسح له الامير فى السفر اذا كتب له الفسح كما نص عليه صاحب القاموس وغيره من علماء اللغة . وهذان اللفظان يؤديان تماما المعنى المقصود من لفظة بسابورت *Passe-port* الشائعة الآن . اه مترجم

(٤٩) هى احدى الاقطار الشمالية من الولايات المتحدة وسكانها ٨٠٢٥٢٥ وقاعدتها ليتل روك (الصخرة الصغرى) اه مترجم

العمومى وقد حصل مثل ذلك أيضا فى ولايتى ميسورى (٥٠) ولويزيانا وغيرهما

أما الذين كانوا يسعون فى ابطال الاسترقاق و ينادون بوجوب الغائه فأولئك كانوا موضوعا للاحتقار والاهانة بنوع خاص فى مواد القانون الاسود وكان الاعدام جزاء لكل من أشار على أحد الارقاء أو على جماعة منهم بالهيجان وخلع الطاعة سواء كان ذلك بقول أو فعل أو كتابة أو بغير ذلك من الطرق الاخرى وكان الاعدام أو الاشغال الشاقة مؤبدا جزاء لكل من نشر رسالة أو كراسة أو مطبوعا فى أى موضوع من شأنه احداث السخط وعدم الرضى بين الاحرار من السود أو تحريض الارقاء على عدم الامتثال وكان الاعدام أو الاشغال الشاقة من خمس سنين الى احدى وعشرين سنة عقابا لكل من قال مقالا أو أشار اشارة أو عمل عملا من شأنه أن يثير الغيظ فى قلوب الزنوج الاحرار أو الارقاء وكذا كل من أدخل بعلمه فى أرض الحكومة جرائد أو كراسات أو كتبا مؤلفة بالطعن فى الاسترقاق

هذه هى أخص الاحكام التى كانت مدونة فى القانون الاسود قبل

---

(٥٠) هى أيضا من الاقطار الشمالية الداخلة فى الولايات المتحدة وسكانها ٢١٧٠٠٠٠ وقصبتها جفرسون اه مترجم

أن تهيج الحرب المدنيـة التى خربت الولايات المتحدة سنين متوالية مبدؤها سنة ١٨٦٢ وهى تأتينا بالنبإ الصادق والدليل الواضح على ماكان يجول فى خواطر واضعى القوانين نحو الارقاء والمستعبدين ولكن الزنوج أصابوا من هذه الحرب غنيمتهم ألا وهى الحرية ونعمت النعمة

الباب الرابع

﴿ الاسترقاق فى الديانة النصرانية ﴾

هل تمكنت الديانة النصرانية من الغاء الاسترقاق أومن تلطيف شدته وتخفيف وطأته حقا جاء فى الانجيل أن الناس كلهم يعتبرون اخوانا وانه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا لكن لانجد فيه نصا صريحا ضد الاسترقاق وهذا الامر الذى لم يأت به عيسى عليه السلام لم يأت به الحواريون من بعده فلا ترى طائفة من الطوائف المسيحية قالت بتحريم الاسترقاق وكان الامر كذلك عند الكنائس المختلفة التى تولدت من هذه الطوائف وهى الكنيسة اليونانية (الرومية) والكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانت

وقد أوصى بولس (٥١) الارقاء فى رسالته التى بعث بها الى

---

(٥١) ولد هذا القديس فى السنة الثانية الميلادية من أبوين يهوديين فى مدينة طَرَسوس التى كان لها حق التبعية والوطنية الرومانية وكان اسمه شاول فى أول الامر وكان أولا من أشد مضطهدى المتنصرين ولكن ظهرت له رؤيا فبدلت أحواله فدخل فى الدين المسيحى وصار داعيا غيورا الى هذا الدين الذى كان يضطهده ويسعى فى تقويض دعائمه وبشر بالانجيل عند وثنيى آسيا وجزائر اليونان ثم عاد الى اورشليم سنة ٥٨ وكان اليهود يكرهونه أشد الكراهة فنصحه اخوانه أن يسعى فى تقليل كراهتهم له منعا لاذاهم عنه وبغيهم عليه وحيث ان الديانة النصرانية تحافظ على الشريعة الموسوية فتوجه الى هيكل اليهود فى بعض الاحتفالات وأخذ يتمم التطهير الطقسى المنصوص عليه فى شريعة اللاويين لكن هذه الواسطة التى كان المراد بها تخليصه من أعدائه كانت

الأفسسيين (٥٢) أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب كما يطيعون المسيح عليه السلام وقد أمر الارقاء فى رسالته الاولى الى تيموثاوس (٥٣) ان يعتبروا ساداتهم أهلا لكل تشريف وتبجيل وأوصى العبيد الذين يكون مواليهم من النصارى بان

سببا لوقوعه فى أيديهم فانهم قبضوا عليه بحجة انه يسخر بديانتهم فخلصه الحرس الرومانى من أيديهم ولكن فيلكس والى اليهودية من قبل الرومانيين وضعه فى السجن ارضاء لليهود ثم أرسل الى روميه للمحاكمة ويقول قوم انه بقى مسجونا فيها الى أن توفى والمرجح أنه حوكم وظهرت براءته ولكن قبض عليه مرة ثانية واستجاب سخط الامبراطور الرومانى باجاباته فحكم عليه بالقتل اه مترجم

(٥٢) هم سكان مدينة افسس القديمة — *Ephèse* — فى أسيا الصغرى وهى شهيرة بهيكل ديانا الذى يعد من عجائب الدنيا السبع وقد أحرقه رجل اسمه ايراستراتوس فى الليلة التى ولد فيها الاسكندر لنوال الاشتهار ليس الا وهى الآن اطلال بالية قائمة على جزء منها مدينة آجياسلوق وقد توالت على المدينة القديمة امم ودول كثيرة وخرج منها فلاسفة وشعراء ومصورون ونقاشون لهم ذكر وشهرة وقد بنيت فيها كنيسة نصرانية هى من أول الكنائس عهدا وكان على رأسها يوحنا الانجيلى حتى ان بعضهم يقول ان اسمها التركى الحديث وهو أجياسلوق مشتق من لفظتى اجيوس ثيولوجوس اليونانيتان ومعناهما القديس اللاهوتى وهو لقب يوحنا المذكور واجتمعت بها مجامع مسكونية نصرانية لتقرير بعض المسائل الدينية وأما رسالة بولس الى أهلها فكتبها اليهم وهو أسير فى روميه على الاصح وهى تتضمن ستة اصحاحات تنقسم الى قسمين كبيرين تعليمى وعملى وفى مراجعتها غنى عن التفصيل اه مترجم

(٥٣) هو تلميذ بولس الرسول ورفيقه فى السفر والتبشير كان أبوه يونانيا وأمه يهودية فلكى يمنع بولس تذمر اليهود ختنه اه مترجم

يبالغوا فى حسن القيام بخدمتهم ثم قال بان هذه هى تعاليم يسوع المقدسة وانها منطبقة على التقوى ثم وصف بالكبرياء والجهالة كل من علّم بغير ذلك ولكنه من جهة أخرى يوصى الموالى باتباع خطة الانصاف فى معاملة أرقائهم وأوصى الارقاء فى رسالته الى تيطس (٥٤) بان يستجلبوا رضا مواليهم فى كل أمر تعظيما وتمجيدا لتعاليم المخلص (سيدنا عيسى عليه السلام) وقد أوصى الحوارى بطرس (٥٥) الارقاء فى رسالته الاولى بان يكونوا خاضعين لمواليهم وأن يخشوهم

---

(٥٤) *Timothée* هو رفيق لبولس وشريك له فى العمل وهو يونانى وقد ناب عن بولس فى قرنثية ودلماسيا وأقيم لخدمة كانائسية فى كريت وهو أول أسقف بها وقد اختلفوا فى صحة نسبة الرسالة المذكورة هل هى من بولس حقيقة أم لا اه مترجم

(٥٥) أحد الحواريين الاثنى عشر ولد فى بيت صيدا من الجليل واسمه الاصلى سمعان وسماه عيسى عليه السلام عند ما رآه كيفا ومعناه بالسريانية الصخرة أو الحجر (الصفا) وبطرس مرادف له باليونانية وكان صيادا للسمك فدعى لترك هذه المهنة وأن يكون صيادا للناس وكان هو أحد الثلاثة الذين اختارهم المسيح ليشاهدوا تجليه على جبل طابور وكان له بعض التقدم بين الحواريين وبناء على ذلك وعلى أمر المسيح له بان يرعى خرافه وانه على تلك الصخرة يبنى كنيسته بنى الكاثوليك تعليم رئاسة البابوات كخلفاء لبطرس وأما البروتستانت وغيرهم الكاثوليكيين فيخالفونهم فى أمر السيادة وما يترتب عليها من حقوق الخلافة وكان غيورا على دينه شديد التعلق بعمله جسورا صرف أكثر وقته فى تشييد الكنائس فى فلسطين والكور (المقاطعات) المجاورة لها وتكميل نظامها وهو يعتبر أول أسقف لرومة وقال قوم انه لم يأت هذه المدينة الا فى السنة الاخيرة من حياته ويقال

ولما جاء آباء الكنيسة على إثر الحواريين اقتفوا أثرهم وساروا على سَنَنِهم فأباحوا الاسترقاق وأقروه

فقد استند القديس سيبريانوس (٥٦) والبابا القديس غريغوريوس الاكبر (٥٧) على ما قاله القديس بولس وصرحا بضرورة الاقرار

انه صُلِب مُنَكِّسا اجابة لطلبه لانه قال انه لا يستحق أن يصلب كسيده وقد خاطب فى رسالته الاولى المرتدين من اليهود خاصة والمقصود منها تثبيتهم فى الايمان تحت الاضطهاد ودحض ضلالات سيمون والنيقولاويين وأما الثانية فهى موجهة لليهود واليونانيين اه مترجم

(٥٦) هو من أهم آباء الكنيسة اللاتينية ولد فى قرطاجة من أبوين وثنيين فى أوائل القرن الثالث للميلاد ثم تنصر وانتخب أسقفا لوطنه ثم اضطهد حتى اضطر لمغادرته وعاد اليه بعد قليل وأبطل البدع والضلالات التى ظهرت فيه فى غيبته وحصل له جدال عنيف مع البابا استفن فى مسألة معمودية الهراطقة وأثبت خلافا لهذا البابا انها غير صحيحة ثم نفى فى عهد الامبراطور فاليريانوس وتوفى بعد ذلك وله مؤلفات كثيرة طبعت وترجمت الى الفرنساوية . (ومحل الاستشهاد هنا كما نبه عليه المؤلف هو الباب ٧٢ من الكتاب ٣ من مؤلفه المسمى *Testimonia*) اه مترجم

(٥٧) فى الباب الخامس من القسم الثالث من كتابه المسمى *Regulæ pastoralæ* كما أشار اليه المؤلف . أقول وهو مولود برومة فى سنة ٥٤٠ وتوفى بها سنة ٦٠٤ كان من أرباب الوظائف الادارية فى الحكومة برومة ثم ترهبن وانتخب لوظيفة البابوية لحسبه ونسبه وتقواه وورعه ودرايته باساليب الادارة ويقال انه سعى فى ابطال الاسترقاق وأسس أديرة كثيرة وهو الذى نصر بريطانيا العظمى والقوط الآريين وقيل انه أحرق الكتب الغير الدينية وأباد كثيرا من الآثار والمعالم الوثنية ولكنهم قد أدحضوا هذه التهم وله مؤلفات كثيرة كانت أحسن طبعة لها فى باريس سنة ١٧٠٥ فى أربعة مجلدات اه مترجم

على الاستعباد وقال القديس باسيلوس (٥٨) بعد أن أورد ما جاء في الرسالة الى أهل افسس ماتعريبه «وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة مواليه بقلب سليم تمجيدا لله العلي العظيم» وقال القديس ايزيدوروس (٥٩) من بيلوزة (الطينة بالقرب من الفرما) مخاطبا للرقيق «إني لانصحك بالبقاء في الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك فانك بذلك تحاسب حسابا يسيرا لانك تكون خدمت مولاك الذي في السماء ومولاك الذي على الارض» وقال القديس توماس من مدينة اكوين (٦٠) «ان الطبيعة خصصت

---

(٥٨) (في الباب الاول من القسم ٧٥ من كتابه الذي اسمه القواعد الادبية *Morales Regulæ* كما أشار اليه المؤلف) وهو الملقب بالكبير ومن آباء الكنيسة اليونانية برع في الفصاحة والمنطق وجد في تحصيل الفلسفة والطبيعيات والطب والشعر والفنون المستظرفة وقد أنشأ مدرسة للبيان نجحت نجاحا عظيما ثم تركها وانقطع للعيشة الرهبانية وكان متى فرغ من العبادة صرف أوقاته مع صديق له في قطع الحجارة وحمل الحطب وغرس الاشجار وحفر الاقنية لسقي الاراضي الرملية ولما توفي شيع جنازته جميع سكان المدينة وشاركه اليهود والوثنيون النصارى في البكاء عليه اه مترجم

(٥٩) (في الفصل ١٢ من الكتاب ٤ من رسائله كما أشار اليه المؤلف) ولم أقف له على ترجمة اه مترجم

(٦٠) (في الفصل ١٧ من الباب ١٠ من الكتاب الثاني من تأليفه المسمى *De regimine principum* كما أشار اليه المؤلف) وهو من مشاهير اللاهوتيين ولد سنة ١٢٢٧ ميلاديه في قصر روكا سيكا من مملكة نابولي من عائلة عريقة في الحسب

بعض الناس ليكونوا أرقاء» وأيد ما ذهب اليه بالعلاقات المختلفة التى تجعل بعض الاشياء خاضعة لبعضها حسا ومعنى واستشهد على ذلك بالشريعة الطبيعية والشريعة الانسانية (الوضعية) والشريعة الالهية وبما ذهب اليه الفيلسوف ارسطاطاليس

وقداستنتج بوسُّويى (٦١) من الفوز والانتصار حق قتل المكسور المقهور ولذلك يقول ان استعباد ذلك المغلوب نعمة ورحمة

كرية النجار وقد عرض عليه كثير من البابوات مناصب الكنيسة العالية لما امتاز به من المعارف والتقوى والغيرة على الدين ولكنه رفض كل ذلك وكان أعلم أهل زمانه وأكثرهم معرفة باللاهوت وله مؤلفات كثيرة فيه وفى الفلسفة وغيرهما اه مترجم

(٦١) (فى انذاراته الى البروتستانت وغيرهم يراجع فى الانذار الخامس المادة ٥٠ من الباب الرابع وهذا الكتاب مطبوع فى باريس سنة ١٧٤٣ كما أشار اليه المؤلف)

وبوسويى بياءين آخرهما مكسورة ممالة أفصح وأبلغ خطيب وواعظ فرنساوى وهو من عائلة شريفة كان أكثر أعضائها حكاما وقضاة وكان يلقى عظاته فى الجنائز فيكون لها فى القلوب أشد تأثير وعهد اليه تأديب ابن ملك فرنسا فألف له خطابا فى التاريخ العام تكلم فيه عن الحكمة الالهية فى تقلبات الاحوال على الكنيسة وقد ترجم الى اللغة العربية ورسالة فى معرفة الله ومعرفة الانسان نفسه وبعد أن أتم تأديبه ألف كتابا معتبرا فى التعليم المسيحى والف لراهبات أسقفيته تأليفين فى الدين من أحسن ما كتب فى بابهما وقد اجتهد فى اقناع البروتستانت بصحة التعليم الكاثوليكى وألف فى ذلك كتابا بل قد اتفق مع بعضهم على ضم الكنيستين الكاثوليكية واللوثيرية (البروتستانتية) ولم ينجح وفى أواخر حياته اشتغل بدحض تعليم الاتكال على الايمان دون الاعمال وقد ناظر فنلون الشهير (صاحب كتاب تليماك الذى ترجمه العلامة رفاعه بيك طيب الله ثراه) فغلبه اه مترجم

ولم تتغير آراء الكنيسة فيما يتعلق بالاسترقاق من عهد بوسويي الى يومنا هذا ونحن نستشهد على ذلك بما أورده بعض علماء اللاهوت المتأخرين الموثوق بأقوالهم المعتمد على آرائهم

قال بايي (٦٢) بصحة الاسترقاق معتمدا على ما ورد فى الاصحاح الحادى عشر من سفر الخروج والاصحاح الخامس عشر من سفر الاحبار (٦٣) وعلى تعريفات مختلفة جاءت فى قوانين الكنائس وقال ان الانسان يجوز له أن يبيع نفسه وأن الحرب يترتب عليها حق استعباد العدو واسترقاقه وفى أيامنا هذه قد أقر نيافة بوفيية أسقف ألمان (٦٤) على الاسترقاق فى (فتاواه اللاهوتية) المتخذة أساسا للتعليم فى الاديرة بل انه اعتبر فوق ذلك أن النخاسة تجارة محللة وقد نحا هذا النحو أيضا جناب الاب ليون فى كتابه (العدل والحق)

---

(٦٢) فى كتابه *Theologia dogmatica et moralis, de justicia et jure* فى الجزء الاول الباب الثانى المادة الاولى المسألة الثالثة من القسم الثامن وهذا الكتاب مطبوع فى ديجون سنة ١٧٨٩ كما أشار اليه المؤلف وهو من كتاب اللاهوتيين ولد سنة ١٧٣٠ ميلاديه وتوفى سنة ١٨٠٨ وله كتب كثيرة دينية معتبرة اه مترجم

(٦٣) اسمه بالافرنجية *Lévitique* اه مترجم

(٦٤) *Le Mans* هى بندر مقاطعة السارت فى فرنسا على بعد ١١٠ كيلومترات من باريس وهى مشهورة بدجاجها وعدد سكانها ٥٣٤٧٥ نفسا وفيها أسقفية اه مترجم

وقد أثبت جناب الاب فوردينيه رئيس دير الروح القدس ان الاسترقاق من جملة النظام المسيحي وصرّح بذلك فى كتاب تعليم الديانة المسيحية المخصص للخوريات (٦٥) بالمستعمرات الفرنساوية وقد نشر هذا الكتاب فى سنة ١٨٣٥ بتصديق من المجلس الدينى فى رومية وقال الاب بوتان (فى صحيفة ٨٩ من كتابه الذى اسمه فلسفة الشرائع المطبوع فى سنة ١٨٦٠) « ان مايتعلق بالحوادث متغير وحينئذ فالاسترقاق الذى يباح فى بعض الاحوال قد لايباح فى البعض الآخر وهو فى كلا الامرين صحيح موافق للديانة » وقد أثبت الموسيو پاتريس لاروك فى كتابه الذى عنوانه (الكلام على الاسترقاق عند الامم النصرانية المطبوع فى باريس سنة ١٨٦٤) ان الديانة العيسوية لم تحرم الاسترقاق نصا ولم تلغه عملا وأيد قوله بما ورد عن القديسين من النصوص التى سردناها وبغيرها

وقد قال پيرلاروس (٦٦) (فى المعجم العام الكبير للقرن التاسع

---

(٦٥) وهى القرى التى يقوم بالخدمة الدينيه فيها كاهن أوخورى اه مترجم

(٦٦) هو من كبار الناشرين للكتب ومن علماء الادب بفرنسا ولد فى سنة ١٨١٧ واشتغل بالتدريس فى أول الامر ثم عاد وتلقى الدروس فى باريس ثم درس فى احدى المدارس وأسس مكتبة مدرسية طبع فيها كتبه العديدة المختصة بالنحو والتعليم الابتدائى وهى مشهورة متداولة فى مصر أيضا — وله كتابان فى الافكار والكلمات المأثورة هما أزهار لاتينية وأزهار تاريخية ثم ألف موسوعات فى ١٩ جزأ ابتدأ فيها سنة ١٨٦٤ ولها تكملة طبعت سنة ١٨٧٧ وسماها (المعجم العام للقرن التاسع عشر فى اللغة

عشر المطبوع فى باريس سنة ١٨٧٠ جزء ٧ حرف E صحيفة ٨٥٧ عمود ٢ فقرة ٢) « لايجب الانسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحيين الى اليوم فان نواب الديانة الرسميين يقرون على صحته ويسلمون بمشروعيته »

وقد ذكر أيضا ان بعض القسس المسيحيين قد اجتهدوا فى تخفيف مصائب الاسترقاق فساعدوا على العتق والتحرير ولكن ذلك انما هو محض اجتهاد ذاتى لاينقض ما سبق لنا تقريره

ثم قال وخلاصة الكلام فى هذا المقام أن الديانة المسيحية قد ارتضت الاسترقاق ارتضاء تاما الى يومنا هذا ويتعذر على الانسان أن يثبت انها سعت فى ابطاله بل قد لزم ظهور أفكار اخرى وانتشار مبادئ جديدة حتى تم الغاؤه فهى الثورة الفرنساوية التى أعدمته بما بثته من مبادئ الحرية وما نادت به من

ان جميع الناس متساوون لدى القانون

الفرنساويه والتاريخ والجغرافيه وغيرذلك) وكتبه فى التعليم الابتدائى تشتمل على المطالعة والنحو وعلم اللغة ومبادئ الانشاء واللغات المدرسية القديمة (أى اليونانى واللاتينى) وأسس جريدتين للتعليم احداهما فى سنة ١٨٥٨ واسمها مدرسة المعلمين والثانية فى سنة ١٨٦٠ واسمها المباراة *La concurrence* وقد توفى سنة ١٨٧٥ ميلادية اه مترجم

الباب الخامس

﴿ الاسترقاق عند أهل الاسلام ﴾

تمهيد

ظهرت الديانة المحمدية وكان الاسترقاق ضاربا أطنابه عند الجاهلية من الاعراب كما كان منتشرا عند غيرهم من الاقوام

فان قيل هل أقرته الديانة على ما كان عليه قلنا ينبغي قبل الاجابة على هذا أن نلاحظ أولا حال الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما الاسلام

وذلك انا بينا فى مبدإ هذه الرسالة ان طبيعة الاقليم كان لها دخل فى اتساع نطاق الاسترقاق بالمشرق أكثر منه بالمغرب وأتينا على ذكر السبب فى ذلك

ولما كان منشأ الديانة المحمدية ببلاد العرب فلا يصعب الوقوف على ما كانت عليه درجة الاسترقاق عند أهل هاتيك البلاد وشغفهم به ومن جهة اخرى فان النبي صلى الله عليه وسلم لقى فى مبدإ رسالته بل وفى كل أيامها شدائد ومقاومات بالسلاح وغيره فى سبيل نشر الدين الحنيفى فان من أصعب الاعمال ولا جدال ماقام به عليه الصلاة والسلام من اخراج الاعراب من ظلمات الجهالة التى كانوا هائمين فيها ومقاومة الشرك بالله وعبادة الشمس

والكواكب لاجل تعليمهم الاعتقاد بالله واحد وترك ما كان عليه آباؤهم من الاباطيل والاضاليل وهدايتهم الى طريق الفضائل وحثهم على رعايتها واتباع سنتها فكم من مرة تصدى له صلى الله عليه وسلم زعماء القبائل وهددوه وتوعدوه لاستشكافهم ترك ما تتوق اليه أنفسهم من الاستقلال وكراهتهم لكل سلطان يكون عليهم لرسول قد بعثه الله عز وجل

وبهذا يتضح ما كان عليه هياج الافكار وثورة الخواطر فى تلك الايام وحينئذ نقول لما كان النهى عن أمر ألفته الطباع أعواما بل أجيالا واعتادته الاخلاق حتى امتزجت به مما يزيد فى ذلك الهياج وتلك الثورات فلا ينطبق بالضرورة على قواعد الحكمة والتدبير ولا يوافق المصلحة والنظام لم تأمر الديانة الاسلامية بالغاء الاسترقاق مرة واحدة ولكنها لم تقره على ما كان عليه لان اصولها العمومية لم تكن لتنطبق على ما كان جاريا فى ذلك العهد فعملت على إنضاب منبعه وتقليل أثره من الوجود وحصره فى حدود ضيقة على وجه يخالف تماما ما كان عليه فى تلك الايام

قال العلامة جوستاف لوبون فى كتابه الذى سماه تمدن العرب ما تعريبه « ان لفظة الرق اذا ذكرت امام الاوربى الذى اعتاد تلاوة الروايات الامريكية المؤلفة منذ نحو ثلاثين سنة من الزمان ورد على خاطره استعمال أولئك المساكين المثقلين بالسلاسل المكبلين

بالاغلال المسوقين بضرب السياط الذين لايكاد يكون غذاؤهم كافيا لسد رمقهم وليس لهم من المساكن الاحبس مظلم وانى لا أقصد أن أتعرض هنا للبحث عن صحة هذا الوصف وانطباقه حقيقة على ما كان واقعا من الانكليز فى أمريكا منذ سنين قليلة وعما اذا كان من الامور المحتملة أن مالك الارقاء قد قام بفكره أن يسيئ معاملتهم ويذيقهم العذاب والهوان بما يكون فيه تلف لبضاعة غالية مثل ما كان الزنجى فى ذلك الزمان أما الحق اليقين فهو أن الرق عند الاسلاميين يخالف ما كان عليه عند النصارى تمام المخالفة »

ألا ان الاسلام قد ابتدأ بتقرير هذه القاعدة

إن المسلم المولود من أبوين حرين لايجوز استرقاقه فى أى حال من الاحوال

ولعمرى ان فى هذه القاعدة مزية كبرى وفائدة عظمى لانها تخرج من هذا الظلم الفاحش المهين قسما عظيما من العائلة البشرية

وهذه القاعدة هى والحق يقال مفتاح لحل المسألة المعضلة التى حق للعالم المتمدن أن يشتغل بها فى هذا الزمان

أفلا تسعى الدول الاوروباوية فى البحث عن الطرق الفعالة التى يكون بها الغاء النخاسة اذا كان ذلك كذلك فلعمرى انها ما عليها الآن تساعد مصر التى هى عنوان فخار الاسلام فى أفريقيا على

نشر التمدن وبث الحضارة بين قبائل هـذه القارة بواسطة الديانة الاسـلامية ومتى صار أولئك الوثنيون الفتشيون (٦٧) مسـلمين تلاشت النخاسة من نفسها وبطبيعتها حيث إن الاسترقاق لايجوز بين أهل هذا الدين بل قد ورد فى القرآن الشريف نهى لهم عن مقـاتلة بعضهم بعضا قال تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » (سورة الحجرات ٤٩ — آية ٩)

الفصل الاول

(فى منبع الاسترقاق)

الحرب هى المنبع الوحيد للاسترقاق ولكن لا على اطلاقه بل ذلك مقيد بشرطين أحدهما أن تكون الحرب قانونية منتظمة والآخر أن يكون القتال مع القوم الكافرين

---

(٦٧) هذا اللفظ مشتق من كلمة فتسيو البرتغاليه ومعناها الاشياء المسحورة وقـد أطلقها البرتغاليون على عبادة الزنوج التى يتوجهون بها للاشياء الدنيئـة وهى عبارة عن عبادة الامم الضاربة فى فيافى الهمجية فى قارة أوسترالياوأواسط آسياوأفريقياوأمريكا الشمالية والنارأخص معبودات أولئـك الاقوام ثم غـيرهامن العناصر ثم الاشجار والانهاروالارواح الطيبة والارواح الخبيثة التى صورهالهم التخريف أوالتخويف اهـ مترجم

قال الله عز وجل فى كتابه المنزل على نبيه المرسل « قاتلوا (أى قتالا قانونيا) الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله (يعنى الخمر والميسر) ولا يدينون دين الحق (لا يتدينون بدين الاسلام) من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية (ان لم يسلموا) الآية » (فى هذه الآية تمييز بين الوثنيين والكتابيين)

ولذلك كان المسلمون قبل أن يفتحوا بلدا من البلدان يبعثون اليها وفودا للمداولة فى شأن الصلح ويقترحون أمورا تكاد تكون واحدة فى كل البلدان والاقطار وذلك انهم يقولون مامعناه قد أمرنا رئيسنا بقتالكم اذا لم تقبلوا شريعته فكونوا منا تكونوا اخوانا لنا واتبعوا ما فيه صالحنا واقتدوا بشعائرنا حتى لا يمسكم سوء منا فان لم تفعلوا فادفعوا لنا جزية سنوية فى مواقيت معينة مادمتم على قيد الحياة ونحن نقاتل كل من يريد أن يلحق بكم ضيرا أو ضررا وكل من يعاديكم باى وجه من الوجوه ونحافظ على محالفتنا لكم بالصدق والامانة فان أبيتم هذا أيضا فليس بيننا وبينكم سوى الحرب ولا نزال نصلى عليكم نار الوغى حتى نتم ما أمرنا به الله عز وجل

ومتى قبل الكفار باحد هذين الشرطين وفاهم المسلمون عهودهم وأنجزوا معهم وعودهم ولم ينحرفوا قط عن هذا السير المحمود وكانوا يعاملون المغلوبين المكسورين باللطف والمجاملة وشاهدنا

على ذلك مافعله الخليفة عمر بن الخطاب (٦٨) رضى الله عنه فى بيت المقدس (٦٩) (مدينة اورشليم) فانه لم يرض بالدخول فى هذا البلد الحرام الابفئة قليلة من أصحابه وطلب الى البطريرك صفرنيوس

(٦٨) عمر الفاروق ابن الخطاب هو الخليفة الثانى وقد كان فى الجاهلية من ألد أعداء الدين الاسلامى وأكبر المناصبين للنبى صلى الله عليه وسلم ثم ان الله عز وجل أعز به الاسلام اجابة لدعاء سيد الانام وهو أول من تلقب بامير المؤمنين ووضع التاريخ الهجرى ووسع نطاق المملكة الاسلاميه بغزواته وغزواة قواده ففتح الشام وفارس ومصر وبث سراياه الى طرابلس الغرب وهو عنوان العدل ومثال الكمال وشخص الفضل والشهامة وعندى ان قولهم «لا يخشى فى الحق لومة لائم» لا يصح أن ينطبق الا عليه وكيف يتيسر لى ان ألم بلمع يسيرة من حياته الطيبة ومناقبه وفضائله وقد اشتهرت فى الخافقين وعرفها المسلمون والافرنج وأقرله بها جميع الخلق . لعمرى ان المقام لا يساعد فى على ذكر شئ من فضائله فانها تستغرق مجلدات عظيمة ومن أراد الوقوف على ذلك فليراجع الطبرى وابن الاثير وأبا الفداء وأسد الغابة واعلام الناس وكتب السير والتواريخ وغير ذلك من المصنفات العديدة التى باللغة العربية ونذكر من ضمن التواريخ الافرنكية التى كتبت عن هذا الرجل الجليل كتاب الموسيو الكساندر مازا *Mazas* من ضباط أركان الحرب سابقا الذى سماه أعيان الشرق *Les hommes illustres de l'Orient* وكتابه فى مجلدين ومطبوع فى باريس سنة ١٨٤٧ فقد كتب عليه فى الجزء الاول فصلين مطولين من صحيفة ١٠٦ الى صحيفة ١٦٠ وننبه أيضا الى الموسوعات والمعاجم التاريخية المتنوعة المصنفة فى لغات الافرنج اه مترجم

(٦٩) كانت تسمى فى أول الامر يبوس أو يبوش *Jebus* ثم سميت اورشليم معرب يُرُشَلِيم بالعبرانية واختلف العلماء فى أصل هذه التسمية فقال قوم انها يبوش شليم أو يبوس سليمان فوقع فيها الابدال والحذف وذهب آخرون الى أنها من يروشليم أى أساس السلام وقيل من يروش وشليم ومعناه ملك السلام وقيل من أور وشليم أى قرية السلام وقال فى

أن يرافقه فى زيارته لجميع الاماكن الدينية المقدسة ثم أعلن الاهالى بانهم فى أمان تام وأن أموالهم وكنائسهم ستكون محفوفة بالرعاية والاحترام وأن المسلمين لن يصلوا فى الكنائس النصرانية

ولكن الحرب كانت هى الحكم الوحيد اذا أبى الكفار الرضوخ للشروط التى يقترحها المسلمون فاذا دارت الدائرة على الكفار صاروا فى هذه الحالة فقط أرقاء للغالبين بعد أن يصرح الخليفة بذلك تصريحا خصوصيا

ولكن ذلك لاينبغى عليه حرمانهم الى الابد من الرجوع الى ربوع الحرية فان الحالة التى وقعوا فيها يمكنهم التخلص منها لان أبواب الرحمة لاتزال مفتوحة لهؤلاء المساكين اذ يجوز لهم ان يفتدوا أنفسهم بدفع مبلغ معين كما أن للخليفة أن يطلق سراحهم لوجه

شرح القاموس ماخلاصته وشلم ككتف وجبل أى بكسر اللام وفتحها اسم بيت المقدس بالعبرانية وهو ممنوع من الصرف للعجمة ووزن الفعل وهو بالعبرانية أورشليم ويقال أيضا أورى شلم وأنشد ابن خالويه

وقد طفت للمال آفاقه ✻ عمان فحمص فاورى شلم

ويقال لبيت المقدس أيضا ايليا وبيت المكياش ودار الضرب وصالحون وتسمى أيضا شليم وشلام . هذا ما أردنا تحقيقه من حيث التسمية فقط وأما تاريخها وجغرافيتها فليس من قصدنا التعرض لهما فى هذا المقام وانما ننبه القارئ الى كتابين لهما ارتباط بهذا الموضوع أحدهما الروض المغرس فى فضل بيت المقدس والثانى اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى اه مترجم

الله تعالى فقد ورد فى القرآن الشريف خطابا للرسول عليه الصلاة والسلام « فاذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشُدُّوا الوَثاق فاما مَنًّا بعدُ واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها الآية » (سورة محمد ٤٧ - آية ٥)

فمن ذلك تتضح ضرورة مراعاة هذه القواعد التى بسطناها حتى يتيسر استرقاق الانسان ومن خالف ذلك وهو عالم متعمد ارتكب اثما عظيما واستحق جزاء شديدا فقد ورد عن أبى هريرة (٧٠) رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه

---

(٧٠) اختلف فى اسمه اختلافا عظيما جدا لم يكن مثله فى الجاهلية والاسلام والارجح ما رواه هو عن نفسه قال كان اسمى فى الجاهلية عبد قيس فسميت فى الاسلام عبد الرحمن وهو الحافظ الكبير وأحد الاخيار المشاهير وكنى بأبى هريرة لهرة صغيرة كانت له حملها يوما فى كمه فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا فقال هريرة فقال يا أبا هريرة فلزمه وقد كان اسلامه فى عام خيبر ثم لزم النبى صلى الله عليه وسلم وواظب عليه فى العلم فكان لا يفارقه مطلقا وكان رضى الله عنه من أحفظ الصحابة وكان يحضر مالا يحضر سائر المهاجرين والانصار حتى شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بانه « حريص على العلم والحديث » وروى عنه أكثر من ٨٠٠ رجل من الصحابة والتابعين وقد ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه على البحرين ثم عزله ثم أراده على العمل فأبى عليه . قيل كان يسبح فى اليوم اثنتى عشرة ألف تسبيحة ويقول اسبح بقدر ذنبى وكان هو وامرأته وخادمه يقتسمون الليل للاشتغال بالصلاة وكان يصوم الخميس والاثنين ولما حضرته الوفاة بكى فسئل عن ذلك فقال أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وانى أصبحت على مهبط جنة أو نار لا أدرى أيهما يأخذ بى . توفى رحمه الله بالمدينة على الارجح فى سنة ٥٧ وقيل ٥٩ للهجرة اهـ مترجم

وسلم انه قال « قال الله ثلاثة (من الناس) أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى (أى أعطى العهد باسمى) ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه (وفى حديث عبد الله ابن عمر (٧١) عن أبى

---

(٧١) عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم وهاجر قبل أبيه فدعا ذلك بعض الناس للظن بانه أسلم قبل أبيه أيضا وهذا لا يصح كان رضى الله عنه كثير الاتباع لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انه ينزل منازله ويصلى فى كل مكان صلى فيه وحتى ان النبى صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس وقد أقام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ستين سنة يفتى الناس فى المواسم وغير ذلك قال مالك وكان ابن عمر من أئمة المسلمين وقال الشعبى كان ابن عمر جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه وكان شديد الاحتياط والتوقى لدينه فى الفتوى وكل ما تأخذ به نفسه حتى انه ترك المنازعة فى الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام اليه ومحبتهم له ولم يقاتل فى شئ من الفتن ولم يشهد مع على شيأ من حروبه حين اشكلت عليه ثم كان بعد ذلك يندم على ترك القتال معه وقد قال حين حضره الموت « ما أجد فى نفسى من الدنيا الا أنى لم أقاتل الفئة الباغية » وكان جابر بن عبد الله يقول « ما منا الا من مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمرو ابنه عبد الله » وأراد مروان بن الحكم أن يبايعه بالخلافة وقال له ان أهل الشام يريدونك قال فكيف أصنع بأهل العراق قال تقاتلهم قال والله لو أطاعنى الناس كلهم الا أهل فدك (قرية صغيرة بخيبر فيها نخل وعين) وان قاتلتهم يقتل منهم رجل واحد لم أفعل فتركه مروان وانصرف وكان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الحج وكان يكثر الصدقة وربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفا (من الدراهم) وكان اذا اشتد عجبه بشئ من ماله قربه لربه وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه فربما لزم أحدهم المسجد فاذا رآه ابن عمر على تلك الحال الحسنة أعتقه فيقول له أصحابه يا أبا عبد الرحمن والله ما بهم الا أن يخدعوك فيقول من خدعنا بالله انخدع له وقال نافع دخل ابن عمر الكعبة فسمعته وهو ساجد يقول قد تعلم يا رب ما يمنعنى من مزاحمة قريش على الدنيا

داود (٧٢) ورجل اعتبد محررا) ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه (العمل) ولم يعطه اجره»

الاخوفك وكان اذا قرأ هذه الآية «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله» بكى حتى يغلبه البكاء وكان يقول البر شيء هين وجه طلق وكلام لين روى عن النبي وعن جملة من أكابر الصحابة وروى عنه كثير من الصحابة والتابعين وتوفى سنة ثلاث وسبعين وكان سبب قتله ان الحجاج أمر رجلا فسم زج رمحه (أى الحديدة التى فى أسفله) ورجمه فى الطريق ووضع الزج فى ظهر قدمه وانما فعل الحجاج ذلك لانه خطب يوما وأخر الصلاة فقال له ابن عمر ان الشمس لا تنتظرك فقال له الحجاج لقد هممت أن أضرب الذى فيه عيناك قال ان تفعل فانك سفيه مسلط وقيل ان الحجاج حج مع عبد الله بن عمر فأمره عبد الملك بن مروان ان يقتدى بابن عمر فكان ابن عمر يتقدم الحجاج فى المواقف بعرفة وغيرها فكان ذلك يشق على الحجاج فامر رجلا معه حربة مسمومة فلصق به عند ازدحام الناس ووضعها على ظهر قدمه فرض منها أياما فاتاه الحجاج يعوده فقال له من فعل بك قال وما تصنع قال قتلنى الله ان لم أقتله قال لا أراك فاعلا أنت أمرت الذى نخسنى بالحربة فقال لا تفعل يا أبا عبد الرحمن وخرج عنه ولبث أياما وامات عن ست وثمانين سنة وقيل أربع وثمانين اه مترجم

(٧٢) هو أبو داود السجستانى المتوفى بالبصرة فى نصف شوال سنة ٢٧٥ هجريه على ما فى كشف الظنون وابن خلكان خلافا لدائرة المعارف التى أثبتت وفاته فى سنة ٢٨٥ سهوا وهو أحد حفاظ الحديث وعلمه وعمله كان فى الدرجة العالية من النسك والصلاح طاف البلاد وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين وجمع كتاب السنن وعرضه على الامام ابن حنبل فاستجاده وقال ابراهيم الحربى عن كتاب السنن هذا ما نصه «ألين لابى داود الحديث كما ألين لداود الحديد» وكان يقول كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب يعنى السنن جمعت فيه ٤٨٠٠ حديث ذكرت الصحيح ومايشبهه

وفضلا عن ذلك فقد كان المسلمون يرجعون فى النادر الى ماخولة لهم دينهم من الحق فى استعباد أسارى الحرب وكانوا يكتفون بضرب الجزية عليهم

فمن ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم صالح نصارى نجران (٧٣)

ومايقاربه ويكفى الانسان لدينه من ذلك أربعة احاديث أحدها قوله صلى الله عليه وسلم «انما الاعمال بالنيات» والثانى «من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه» والثالث «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لاخيه مايرضاه لنفسه» والرابع «الحلال بين والحرام بين وبينهما امور مشتبهة فمن ترك ماشُبِّه عليه كان لما استبان أترك ومن اجترأ على مايُشُكُّ فيه من الاثم أوشك أن يواقع ما استبان والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وقيل جاء سهل بن عبد الله التسترى فرحب به وأجلسه فقال له يا أباداود لى اليك حاجة قال وماهى قال حتى تقول قضيتها مع الامكان فقال قد قضيتها مع الامكان قال «أخرج لسانك الذى حدثت به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله» فأخرج أبوداود لسانه فقبله . وكانت ولادته رحمه الله فى سنة ٢٠٢ قال ابن السبكى عن سننه «وهى من دواوين الاسلام والفقهاء لا يتحاشون من اطلاق لفظ الصحيح عليها وعلى سنن الترمذى ولا سيما سنن أبى داود» اه مترجم

(٧٣) نجران مدينة باليمن تعد من مخاليف مكة (أى من كورها أى من أعمالها) قالوا بناها نجران بن زيدان بن سبأ بن يشخب بن يعرب بن قحطان ولكن العلماء ليسوا متفقين على هذا النسب . فتحت هذه المدينة فى السنة العاشرة من الهجرة صلحا على الفئ (أى الخراج) وبها نخيل وتشتمل على أحياء من العرب ويتخذ بها الادم وهى بين عدن وحضرموت عن صنعاء عشر مراحل . وفيها مكان يسمى كعبة نجران وهى بيعة بناها عبد المدان بن الريان الحارثى على بناء الكعبة وعظموها وكان فيها أساقفة مقيمون اه مترجم

(قريبا من اليمن) على جزية سنوية قدرها ألفا ثوب وكذلك صالح الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه نصارى بنى تغلب على جزية فرضها على كل رجل منهم توازى ضعف ما كان مضروبا على كل رجل من المسلمين ولم يخرج عمرو بن العاص (٧٤) رضى الله عنه فى مصر عن هذه الجادة الحميدة فانه اقترح على السكان أن يبقى لهم كمال حريتهم الدينية واقامة العدل للجميع بالقسط والانصاف من غير ما غرض ولا تشييع وعدم انتهاك حرمة المنازل والاملاك واستبدال الضرائب الفادحة الغير العادلة التى فرضها ملوك الروم بجزية سنوية قدرها ديناران (١٥ فرنكا) (٧٥) على كل واحد منهم

وفى أيامنا هذه نرى الحكومات الاسلامية تعامل أسارى الحرب بمقتضى أصول قانون الملل ولا تجرى عليهم أحكام الشريعة الدينية

---

(٧٤) هو من دهاة العرب ومن كبار الصحابة وأهم القواد فى صدر الاسلام وهو الذى كان واسطة فى جعل الخلافة فى يد الامويين وقد وصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر وسيرته مشهورة معروفة تراها فى جميع التواريخ التى كتبت على مصر فى الاسلام فلا حاجة لاطالة الكلام فى هذا المقام اه مترجم

(٧٥) لا شك أن المراد بوضع ١٥ فرنكا بين قوسين فى المتن الافرنكى ان هذه القيمة هى قيمة الدينار الواحد اه مترجم

فظهر مما تقدم بيانه ان الاسترقاق عند المسلمين ليس له إلا مصدر ومنشأ واحد وهذا المصدر يحصره فى حدود ضيقة مع أن مصادره ومنابعه عند الامم الاخرى كانت كثيرة متنوعة

ففى رومة مثلا كان الاسترقاق يصيب أسارى الحرب وأولاد الارقاء والاشخاص الذين قضت بعض أحكام القانون باستعبادهم ومما ينبغى التنبيه عليه فى هذا المقام ان النخاسين لم يصاحبوا قط الجيوش الاسلامية لسرقة أولاد المغلوبين واستعبادهم وتعريض نسائهم للعساكر لاجل قضاء الاوطار منهن كما كان ذلك حاصلا فى رومة

فان الديانة المحمدية لم تسمح قط بارتكاب أمر فظيع مثل هذا ولذلك يحكم العقل بداهة بان لاصحة لقول من يزعم بان نصوص الدين الاسلامى الشريف تؤيد وتبرر ما هو حاصل على قولهم فى أواسط أفريقيا من اصطياد الرقيق ومعاملتهم بالبشاعة والشناعة والفظاعة فان هذا الدين قد جاء بالعرف والنهى عن المنكر كما لا ينكر

(الفرع الثانى)

(فى معاملة الرقيق)

ان ما امتازت به الهيئة الاجتماعية فى بلاد المشرق هو انها

الرجل كان يزوج عبده

بقيت على حالها التى كانت عليها (٧٦) فالعبد هو على الخصوص خادم يعتبر كفرد من أفراد العائلة التى هو فيها فهو أقرب الى مولاه من الخادم عند أهل أوربا

ولايكاد الانسان يجد عند المسلمين ذلك الحد الفاصل الذى يجعل بين السيد وبين عبده بونا عظيما وفرقا جسيما فليس الاسترقاق موجبا لشئ من الهوان والصغار كما أن الرقيق ليس من الذين سقطوا عن درجة الاعتبار وحل بهم العار فلفظتهم الجمعية الانسانية واعتبرتهم خارجين عن دائرتها بل تجب معاملته بالرفق واللين فقد ورد فى الكتاب المبين «وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل (٧٧) وماملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا (أى متكبرا على

---

(٧٦) يريد بذلك أن معاملة العبيد بقيت فى هذا الزمان مثل ما كانت فى الايام السوالف وقد أثبت فى أول الرسالة ان معاملتهم كانت فى الشرق مقرونة بالتلطف والتعطف اللذين لامثيل لهما فى رومة وبلاد اليونان اه مترجم

(٧٧) ذى القربى صاحب القرابة والجار ذى القربى الذى قرب جواره أو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين والجار الجنب بضم الجيم والنون البعيد أو الذى لاقرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام «الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الاسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الاسلام وجار له حق واحد حق الجوار» وأما الصاحب بالجنب فهو الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فانه صحبك وحصل بجنبك وقيل هو المرأة وأما ابن السبيل فهو المسافر أو الضيف اه مترجم

الناس من أقاربه وأصحابه وجيرانه وغيرهم ولايلتفت اليهم) فخورا (أى يتفاخر عليهم بما أتاه الله) » (سورة النساء ٤ - آية ٣٦)

ومن تأمل فى الشريعة الاسلامية رأى فيها ما يدل على شدة الرغبة فى تخفيف الحد والعقوبة التى تصيب الارقاء قال تعالى « فاذا أحصن (أى الفتيات المؤمنات) فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب» (سورة النساء ٤ - آية ٢٥) (٧٨) فيالله تلك العناية بهذه الطائفة المستضعفة

ومن نظر الى الاحاديث النبوية الشريفة رآها مشوبة بالتعطف والحنان

انظر الى ما رواه الامام على كرم الله وجهه عن النبى صلى الله عليه وسلم «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» وعن طريق أم سلمة «اتقوا الله فى الصلاة وفيما ملكت أيمانكم» تر أن مراقبة المالك لله سبحانه وتعالى وخشيته منه فى معاملة عبده مجعولتان بمنزلة

---

(٧٨) اختلف العلماء كثيرا فى عدد آى السور وفى ترتيب الآيات والذى عول عليه المؤلف هو المصحف المطبوع فى وبانة عاصمة بلاد النمسا لتوافق ترتيب آياته مع الترجمة الفرنساوية ومع كتاب نجوم الفرقان فى أطراف القرآن المطبوع أيضا فى أوروبا الذى به يتيسر للانسان معرفة مواضع الآيات الكريمة فى أى السور بعد معرفته كلمة أو كلمتين من الآية التى يريد البحث عنها وأما نحن فقد اعتمدنا على النسخة التى كتبها الحافظ عثمان فى سنة ١٠٩٧ هجرية وطبعت أخيرا فى المطبعة العثمانية بدار السعادة العلية لكثرة تداولها بين المسلمين اه مترجم

المراقبة والخشية المفروضتين عليه فى القيام بواجب الصلاة وهى عماد الدين ومن أهم أركان الاسلام

وفضلا عن ذلك فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى مرضه « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وكانت هذه آخر كلمة نطق بها قبل وفاته عليه الصلاة والسلام (٧٩)

وقد جاء فى الحديث الشريف مافيه زيادة التصريح والتعريف فقد روى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة » وفى الاثر الكريم « لقد أوصانى حبيبى جبرائيل (٨٠) بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لاتستعبد ولاتستخدم » أو كما قال

فهل يصح فى شرع العقلاء بعد وقوفهم على هذه الشعائر الغراء أن يتهموا الديانة الاسلامية السمحاء بالتوحش والهمجية

---

(٧٩) راجع الجامع الصغير فى لفظة كان اه مترجم

(٨٠) جبرائيل لفظة عبرانية معناها قوة الله وهو علم ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة والتركيب المزجى على قول قال فى القاموس ان معناها عبد الله أو عبد الرحمن أو عبد العزيز وفيه أربع عشرة لغة أوردها صاحب القاموس وأشهرها جبريل بكسر الجيم وهى لغة الحجاز وبها نطق عليه الصلاة والسلام قال حسان ابن ثابت

وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس له كفاء

ومن أراد التوسع ومعرفة هذه اللغات فعليه بمراجعة شرح القاموس يجد كفايته وزيادة اه مترجم

وليس هذا كل مافى وسعنا ايراده فقد ورد عن صاحب ديننا الحنيف القويم أنه قال « اخوانكم (أى مماليككم اخوانكم) خولكم (بفتح الخاء المعجمة والواو أى خدمكم لانهم يتخولون الامور أى يصلحونها ومنه الخولى لمن يقوم باصلاح البستان أو التخويل التمليك) جعلهم الله تحت أيديكم (أى ملككم اياهم) فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس (أى من جنس كل منهما والمراد المواساة لا المساواة من كل وجه نعم الاخذ بالاكمل وهو المساواة كما فعل أبو ذر أفضل (٨١) فلا يستأثر المرء على عياله وان كان جائزا قال النووى (٨٢) يجب على السيد نفقة المملوك

---

(٨١) راجع أصل الحديث فى صحيفة ٣٢٠ من الجزء الرابع من شرح البخارى للقسطلانى طبعة ٦ فى مطبعة بولاق سنة ١٣٠٤ اهـ مترجم

(٨٢) بعد ان أطلت البحث والتسائل عن ترجمة حياته وكدت لا أكتب عنه شيأ توجهت الى الكتبخانة الخديوية فعثرت فيها على كتاب باللغة الالمانية اسمه (حياة الشيخ أبى زكريا يحيى النووى استخرجه من جملة كتب بخط اليد العلامة وستنفلد) وطبعه فى مدينة جوتنجن بالمانيا سنة ١٨٤٩ وقد اعتمد فيه على — ١ — الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية — ٢ — طبقات الشافعية — ٣ — درة الاسلاك فى دولة الاتراك — ٤ — مرآة الجنان — ٥ — تحفة الانام فى فضائل دمشق الشام — ٦ — العقد المذهب فى طبقات جملة المذهب — ٧ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . ثم أورد خلاصات عربية من كل من هذه الكتب وترجمها باللغة الالمانية وخلاصة مارأيته فيه بالاختصار أنه ولد فى سنة ٦٣١ وكان من أكابر العلماء فى الفنون عامة والفقه واللغة خاصة وكان يقرأ

وكسوته بالمعروف بحسب البلدان والاشخاص سواء كان من جنس نفقة السيد أو فوقه حتى لو قتّر على نفسه تقتيرا خارجا عن عادة أمثاله إما زهدا أو شحا لا يحلّ له التقتير على المملوك والزامه بموافقته الا برضاه) ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فاعينوهم » عليه لانه وردفى حديث آخر « ان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم » (٨٣)

وقد ثبّت الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الاقوال الجميلة المستعذبة

كل يوم اثنى عشر درسا فى فنون مختلفة وكان لا ينام الليل ويكتب حتى تكل يده ويعجز فيضع القلم ثم ينشد

لئن كان هذا الدمع يجرى صبابة * على غير سلمى فهو دمع مضيع

وكان لا يأكل فى اليوم والليلة الا أكلة واحدة ولا يشرب الا شربة واحدة ولم يتزوج وكان كثير السهر فى العبادة والتلاوة والتصنيف صابرا على خشونة العيش والورع وله ترجمة وافية فى شرح المنهاج . وبلغت مؤلفاته ٤٢ وتوفى سنة ٦٧٦ قبل أن يبلغ الخمسين اه مترجم

(٨٣) قال حجة الاسلام الغزالى فى الجزء الثانى من الاحياء الذى طبع فى بولاق صحيفة ١٩٩ فى حقوق المملوك مانصه * (فاما ملك اليمين فهو أيضا يقتضى حقوقا فى المعاشرة لابد من مراعاتها فقد كان من آخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم اطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون فان أحببتم فامسكوا وان كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم ») * اه مترجم

بقوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة » (٨٤)

ثم قوى ذلك أيضا بحكم صريح اذ نهى عن التمثيل بالعبيد وأوجب العتق على من فعل ذلك فقد روى لنا ابن جريج (ان زنباعا وجد غلاما له مع جارية له فجدع أنفه وجبّه (٨٥) فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال من فعل هذا بك قال زنباع فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما حملك على هذا فقال كان من أمره كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (للغلام) اذهب فأنت حر فقال يارسول الله فمولى من أنا فقال مولى الله ورسوله

وليتأمل القارئ الى سؤال المجدوع (مولى من أنا) حتى يقف على مقدار أهميته التى لا يراها الانسان لاول وهلة فان الاجابة التى أجابه بها عليه الصلاة والسلام هى تعهد أخذه على نفسه بالقيام بمؤنة المعتوق اذا لم يستطع نوال ما فيه سد رمقه ولذلك لما قبض عليه الصلاة والسلام جاء مولى الله ورسوله الى أبي بكر رضى الله عنه فقال « وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال « نعم تجرى عليك النفقة وعلى عيالك » فأجراها عليه وعلى عياله حتى

---

(٨٤) الخب بالفتح الخداع الحرب بضم الخيم والباء بينهما راء ساكنة ومعناها الخبيث وسيء الملكة بكسر الميم وسكون اللام الذى يسيء معاملة مماليكه اه مترجم

(٨٥) أى قطع مذاكيره التى هى أعضاء التناسل اه مترجم

قبض فلما استخلف عمر رضى الله عنه جاءه فقال وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نعم أين تريد » قال مصر قال فكتب عمر الى صاحب مصر أن يعطيه أرضا يأكلها (٨٦)

وقد كانت رعاية الرقيق والعناية بشأنه بالغتين أقصى درجات الشفقة والمرحمة فقد قال ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » وفى مذهب أبي حنيفة (٨٧) رضى الله عنه ان الحر يقتل بالعبد وظاهر حديث

---

(٨٦) أقول ان هذا شبيه باستبدال المعاش بأطيان المتعارف كثيرا فى هذا الزمان مثل ذلك التحرير ما ورد فى رواية أبي حمزة الصير فى قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم صار خافقال له مالك قال سيدى رآنى أقبل جارية له فجب مذاكيرى فقال النبي صلى الله عليه وسلم على بالرجل فطلب فلم يقدر عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأنت حر وهناك أحاديث كثيرة جدا تدل على أن المثلة من أسباب العتق اه مترجم

(٨٧) أبو حنيفة النعمان ولد سنة ٨٠ هجرية وأدرك أربعة من الصحابة ولم يلق أحدا منهم ولا أخذ عنه وهو أحد الائمة المجتهدين أصحاب المذاهب الاربعة المعتمدة ومذهبه شائع مشهور وهو مذهب الدولة العلية العثمانية وعليه الفتيا فى الامصار وأول من عمل بالرأى والقياس وقد طلب للقضاء مرارا كثيرة فلم يقبل وامتنع عنه مع ما أصابه من الاهانة كان رضى الله عنه عالما عاملا زاهدا عابدا ورعا تقيا كثير الخشوع دائم التضرع حسن الوجه والمجلس والثياب طيب الرائحة لانه كان يتعطر كثيرا الكرم حسن المواساة لاخوانه أحسن الناس منطقا وأحلاهم نغمة قال بعضهم «أقمت على أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه فاذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى (أى النهر العظيم) وسمعت له دويا وجهارة فى الكلام » وحكايته مع جاره الاسكاف مشهورة تدل على دمائة أخلاقه وحسن رعايته لحقوق المجاورة ومزيد اعتباره

ابن عمر ان الضرب واللطم يقتضيان العتق من غير فرق بين القليل والكثير والمشروع وغيره ولم يقل بذلك أحد من العلماء فهل يستنبط من ذلك أنه لايجوز مس العبد مطلقا . كلا فقد دلت الادلة وأجمع العلماء على انه يجوز للسيد أن يضرب عبده لالتمثيل به بل لتربيته وتأديبه ولكنه لايجوز له على كل حال أن يجاوز به عشرة أسواط

ولكن هنالك حالة يجوز فيها ضرب العبد وهذا اذا قصر فى أداء واجباته الدينية فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اضرب عبدك اذا عصى الله واعف عنه اذا عصاك» أوكما قال

نعم كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر من وصاية أتباعه بالعفو عن الرقيق فقد روى ابن عمر أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له الى كم أعفو عن عبدى فلم يجبه عليه الصلاة والسلام

عند الامراء والحكام وقيل « ان الفقه زرعه عبد الله بن مسعود الصحابى وسقاه علقمة ابن قيس النخعى وحصده ابراهيم النخعى وداسه حماد استاذ أبى حنيفة وطحنه أبو حنيفة » أى أكثر أصوله وفرع فروعه وأوضح سبله فانه أول من دونه ورتبه أبوابا وكتبا وتبعه مالك فى الموطأ وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط وقيل له بم بلغت مابلغت قال « مابخلت بالافادة ومااستنكفت عن الاستفادة » وقد جمع فيه سبط ابن الجوزى كتابا فى مجلدين كبيرين سماه الانتصار لامام أئمة الامصار توفى رحمه الله فى سنة ١٥٠ على الاصح ورجحوا أنه مات فى السجن لكونه أبى القضاء وقيل ان وفاته كانت فى اليوم الذى ولد فيه الامام الشافعى رضى الله عنه اه مترجم

بشئ فأعاد عليه السؤال مرة ثانية وثالثة ولم يجبه صلى الله عليه وسلم بشئ ولما سأله المرة الرابعة صاح فى وجهه وقال اعف عن عبدك سبعين مرة فى كل يوم اذا أردت نوال الاجر والثواب » أو كما قال (٨٨)

وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن تحقير العبد والاستهانة به بتذكيره ما هو فيه من الاستعباد فقد جاء عن أبى هريرة أنه قال قال عليه الصلاة والسلام «لايقل أحدكم عبدى أمتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى» وقد استند أبو هريرة على هذا الحديث فقال رضى الله عنه «لاتقل عبدى لاننا كلنا عبيد الله» ورأى رضى الله عنه رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له «احمله خلفك يا عبدالله فانما هو أخوك وروحه مثل روحك »

وقد جاء فى كلام الامام على (٨٩) كرّم الله وجهه ماهو خليق

---

(٨٨) لم أقف على نص لهذا الحديث سوى ماورد فى الاحياء فى صحيفة ١٩٩ من الجزء الثانى طبع بولاق * (قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كم نعفو عن الخادم فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة) *

(٨٩) ماذا عسانى أذكر من فضائله وقد ألف العلماء فيها تآليف عديدة لاتعد ولا تحصى وقد قال البغدادى صاحب خزانة الادب ولب لباب لسان العرب فى صحيفة ٥٢٧ جزء ٣ بعد أن أورد لعايسيرة جدا من ترجمته رضى الله عنه مانصه «ومناقبه العديدة وسيره الحميدة لايحتملها هذا المختصر» أقول ماهو هذا المختصر الذى يشير اليه البغدادى . هو خزانته التى فى أربعة أجزاء المطبوعة فى بولاق سنة ١٢٩٩ ويبلغ عدد صفحاتها ٣٤١٥ فقط اه مترجم

باسمه من العلوّ والسموّ وجدير به من كرم الاخلاق وحسن الشمائل فقد قال « إنى لأخجل من نفسى اذا استعبدت رجلا يقول الله ربى » أليس هذا الكلام صادرا عن نفس زكية أبية

وقد أوصى عليه الصلاة والسلام المولى بأنه اذ أتاه خادمه (حرا أو عبدا ذكرا أو أنثى) فليجلسه معه ليأكل أو فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فهلا يرى المنصف فى ذلك سعيا فى احكام التقريب واستكمال الاتصال بين السيد ومولاه

وقد ورد الشرع الشريف بالحث على تعميم التربية والتعليم ونشر أنوارهما وفوائدهما فى كل مكان على كل انسان لايستثنى من ذلك الارقاء ولا العبدان فقد قال عليه الصلاة والسلام «من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وتزوجها كان له أجران » فى الحياة الاخرى أجر بالنكاح والتعليم وأجر بالعتق (٩٠)

فهلا ترى فى ذلك دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على أن الشريعة الاسلامية لاتحث فقط على معاملة الرقيق بالحسنى بل تأمر أيضا بتهذيبه وتأديبه

---

(٩٠) ليقابل العقلاء المنصفون هذا الحديث بما قضى به القانون الاسود فى المستعمرات الفرنساوية فانه حرم حضور ذوى الالوان الى فرنسا للتغذى بألبان المعارف واقتطاف ثمرات التأديب والتهذيب (انظر صحيفة ٣٨ سطر ٢) اه مترجم

ونستشهد الآن بالتاريخ ونذكر بعض الحوادث الصادقة الصحيحة فنقول

لما كان أبو عبيدة (٩١) رضى الله عنه محاصرا بجيشه كله لبيت المقدس وقد ضيق على المدينة وأهلها رضى صفرونيوس البطريرك بالتسليم وطلب أن يتخابر فى الشروط مع الخليفة عمر ابن الخطاب نفسه فقبل الخليفة رضى الله عنه هذا الطلب

---

(٩١) ابو عبيدة بن الجراح يتصل نسبه مع بيت النبوة فى الجد السابع وهو فهر كان بطلا مشهورا وفارسا معدودا له أعمال عظيمة فى الفتوحات الاسلامية ولذلك لقبه الرسول عليه الصلاة والسلام بأمين الامة وشهد بدرا وقتل أباه يومئذ وأشهر أعماله كانت فى فتوح الشام وكانت له مع الروم هنالك مواقع وأخبار يطول شرحها ظهرت فيها شهامته وجسارته وخبرته بأمر الحروب وبقى فى الجهاد الى ان مات فى طاعون عمواس (قرية بين الرملة وبين بيت المقدس) وكان هينا لينا حليما وقارا رحيما كريم الاخلاق غير متصعب عاملا بالحق واشتهر عند الروم بحسن الشمائل وصدق المقال ولذلك واقصد فى دمشق صلحه فصالحهم وأمنهم على نفوسهم ورخص لمن لم يسلم اذا أراد أن يخرج من ديارة أن يخرج بجانب من أمواله وأعطاهم فرصة الامان ثلاثة أيام من حين خروج من يريد الخروج لا تلحقهم فيها جيوش الاسلام قال من وقف على هذه الواقعة من مؤرخى الافرنج «لو كانت أوصاف هذا الصحابى الجليل الذى كان أمير الجيش الاسلامى فى ذلك العصر مجتمعة فى أمراء جيوش الاعصر الجديدة المشهورة بالتمدن والتقدم لأفادتهم غاية المجد والشرف ونفت عنهم مثالب الجور فاجل أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن فى عهدنا هذا لم تبلغ درجة ذلك الامير الخطير الذى هو بين الفاتحين عديم النظير فكل منقبة من مناقب عدله وحلمه ووفائه تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة وتزرى بامرائه» اهـ مترجم

وجاء الى المقدس الشريف ومعه غلامه ولم يكن لهما الا ناقة واحدة فكانا يركبانها الواحد بعد الآخر الى أن اقتربا من المدينة وجاء الدور للعبد فأركبه الخليفة وسعى خلفه على أقدامه بهذه الحالة حتى وصل الى معسكر أبي عبيدة فخشى هذا ان أهالى بيت المقدس يحتقرون الخليفة لهذا السبب فقال له مامعناه انى أراك تصنع أمرا لايليق فان الانظار متجهة اليك فقال عمر « لم يقل ذلك أحد قبلك وكلامك هذا يجلب اللعنة على المسلمين وقد كنا أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزنا الله بالاسلام ومهما نطلب العز بغيره يذلنا الله تعالى » (٩٢)

ولما تولى أبو عبيدة هذا القيادة العامة على الجيوش الاسلامية فى بلاد الشام ارسل لافتتاح حلب مائة رجل من صفوة قريش (وهى قبيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم) وجعل رئيسهم زنجيا

وهناك شواهد أحسن من التى سبق لنا ايرادها فقد ورد فى التاريخ أن أسامة بن زيد كان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٩٢) وقد رأيت فى صحيفة ٢٣٧ من الجزء الثانى من ابن الاثير عند ذكر حوادث سنة ١٨ أن عمر ذهب الى الشام لتعليم الناس قسمة المواريث « فسار عن المدينة واستخلف عليها عليا بن أبى طالب واتخذ أيلة طريقا فلما دنا منها ركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه فلما تلقاه الناس قالوا أين أمير المؤمنين قال أمامكم يعنى نفسه » اه مترجم

وكان يحبه كثيرا وكان يقعده وهو صغير هو والحسن بن علىّ على ركبتيه ويلاعبهما ويقبلهما ويدعو لهما فلما كبر أسامة ورأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم استعدادا لقيادة الجنود أمّره على جيش أرسله فى السنة الحادية عشرة من الهجرة لفتح فلسطين وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما (وهما اللذان توليا الخلافة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام) فى هذا الجيش تحت امرته ولكنه اضطر الى العودة للمدينة المنوّرة لجملة أسباب منها مرض مولاه عليه الصلاة والسلام فدخل اليه وكان مريضا لا يتكلم وقد ثقل عليه المرض فجعل يرفع يده الشريفة الى السماء ويضعها عليه علامة للدعاء حتى اذا قبضه الله اليه وعلمت الاعراب خبر انتقاله الى دار البقاء نكصوا على أعقابهم مرتدين وخلعوا حلية هذا الدين فرأى أبو بكر رضى الله عنه ان أول واجب عليه هو الاهتمام بملاشاة هذه الثورة قبل أن يستفحل أمرها ويتفاقم شرها فعمل بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبقى أسامة على رأس الجيش وأمره نالزحف على الثائرين من أهل الردة ولكن الانصار قالوا لعمر قل لابى بكر أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة فلما أبلغه الرسالة أخذ أبو بكر بلحيته وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله وتأمرنى بعزله ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجنود وشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة

ياخليفة رسول الله لتركبن أولانزلن فقال والله لانزلت ولاركبت (٩٣) وما علىّ ان أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله . . . . . وعند الرجوع قال لأسامة إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل (٩٤) فأذن له ثم أوصاهم فقال لاتخونوا ولا تغدروا ولاتغلوا (٩٥) ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا وسوف

---

(٩٣) انظر كيف قدمه على نفسه فى المخاطبة وكيف ان أسامة راعى هذا الادب أيضا فى خطابه للخليفة فهذا دليل صادق على أن ما اصطلح عليه الافرنج الآن من أن المتكلم يؤخر نفسه عن غيره فيقول فلان وفلان وأنا فعلنا كذا مثلا هو من ضمن الآداب الاسلامية السنية وان كان المسلمون فى هذا الزمان لايعملون بهذه القاعدة الادبية الجميلة اه مترجم

(٩٤) انظر الى تلطف الصديق رضى الله تعالى عنه ورفقه فى الطلب الى أسامة اذ يقول (ان رأيت أن تعيننى بعمر فافعل) فجرى على أن ذلك الى رأى أسامة ناظرا الى أنه هو المولى أمره هذا الجيش من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فله وحده أن يتصرف فى رجاله ولم يلتفت الى مكان نفسه من الخلافة وانه اذا شاء أمر أسامة فائتمر وذكر الاعانة لبيان سبب الطلب وكان له أن يقول (ان رأيت أن تعطينى أوماشا كله) ولكنه رفق فوق رفق وجعل الاعانة من ناحية أسامة له رفق آخر وكان له أن يقول (ان رأيت أن تعطينى عمر لاستعين به) وكان يجزئ فى بيان السبب ولكنه قصد أن يبين له أن ترك عمر هو اعانة منه للمسلمين لاستبصارهم بآرائه فكان مايرجع على القوم من منافع رأى عمر هو من مآثر أسامة عليهم فتأمل اه مترجم

(٩٥) غل الرجل غلولا اذا خان وقيل هو خاص بالفيء أى المغنم اه مترجم

تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » الخ وأوصى أسامة بما أمر به صلى الله عليه وسلم (٩٦)

وعند ماجاء عمرو بن العاص لفتح مصر بعث الى المقوقس عظيم القبط وعامل الروم على مصر الوسطى وفدا تحت رئاسة زنجى اسمه عبادة بن الصامت (٩٧) ليختابر معه فى شأن الصلح فلما قدم الوفد على المقوقس تقدم عبادة فى صدر أصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال « نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره يكلمنى » فأجابوا « ان هذا أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا

---

(٩٦) هو أول من أسلم من الرجال وأول من خرج من ماله لاجل تعبية الجيوش الاسلامية وأول الخلفاء الراشدين وأعظم من وطد قواعد هذا الدين بثباته وصبره وقوة عزيمته ومن أراد التفصيل فليراجع كتب السير والتواريخ فهى مشحونة بفضائله ومناقبه رضى الله عنه اه مترجم

(٩٧) هو صحابى جليل شهد المشاهد كلها استعمله النبى صلى الله عليه وسلم على بعض الصدقات وهو من الخمسة الذين جمعوا القرآن فى عصر النبوة وأرسله عمر بن الخطاب بعد فتح الشام الى حمص ليعلم أهلها القرآن ويفقههم فى الدين روى عنه جماعة من أكابر الصحابة ومن التابعين وهو أول من تولى قضاء فلسطين وهو من الذين بايعوا النبى عليه الصلاة والسلام على أن لا تأخذهم فى الحق لومة لائم وتوفى سنة أربع وثلاثين على المشهور اه مترجم

والمقدم علينا وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الامير دوننا بما أمره وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله » فقال المقوقس « وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم وانما ينبغي أن يكون هو دونكم » فقالوا « كلا إنه وان كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة ورأيا وعلما وليس ينكر السواد فينا » وحينئذ اذ عن المقوس لسماع أقواله وطلباته (٩٨)

فمما أوردناه من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والشواهد التاريخية يحق لنا الامل بأن حضرة الكردينال لافيجرى يدرك أن الارقاء لهم في البلاد الاسلامية نفس الحقوق التي يتمتع بها الاحرار وانه لم يصب صوب الصواب حينما جاهر بـ «أن المسلمين يعتقدون ويعلمون بأن الزنجي ليس من العائلة البشرية وان مقامه يكون بين الانسان والحيوان بل ان بعضهم يجعلونه أدنى من الحيوان »

(الفرع الثالث)

(في نكاح الارقاء)

لايكاد الانسان يتمالك من الغيظ والحنق اذا ذكر الحدود والعقوبات التي فرضتها أمم الشمال على الرجال والنساء الذين

---

(٩٨) انظر القصة بتمامها والمحاورة التي جرت بينهما في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جزء أول صحيفة ١٣ وهو مطبوع في أوروبا سنة ١٨٥٥ اهـ مترجم

يتزوجون بالارقاء فانهم كانوا يقعون فى ربقة الرق والاستعباد

أما شريعة الوزيقوط فكانت من القساوة بحيث لم يسمع لها بمثيل اذ قد نصت « على أن المرأة الحرة التى تتزوج برقيقها أوبعتوقها تحرق هى وهو وهما على قيد الحياة »

فانظر الآن الى ماقرره الاسلام فيما يختص بهذا النوع من الانكحة قال الله تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا (أى غنى واعتلاء وأصله الفضل والزيادة) أن ينكح المحصنات المؤمنات (أى يعتلى نكاح المحصنات أو من لم يستطع غنى يبلغ به نكاح المحصنات الحرائر لقوله) فمما ملكت أيمانكم (من فتياتكم المؤمنات) » (سورة النساء ٤ — آية ٢٥) (٩٩) ثم قال عز من قائل فى هذه الآية أيضا « فانكحوهن باذن أهلهن (يريد أربابهن) وآتوهن أجورهن (أى أدوا اليهن مهورهن باذن أهلهن) بالمعروف (بغير مطل واضرار ونقصان) محصنات (عفائف) غير مسافحات (غير مجاهرات بالسفاح) ولامتخذات أخدانٍ (أخلاء فى السر) »

وقد قال تعالى فى سورة النور ٢٤ — آية ٣٢ (وفى الاصل ٢٩) « وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم (أى عبيدكم)

---

(٩٩) وفى الاصل آية ٢٩ وهو بحسب ترتيب القرآن المطبوع فى أوروبا كما سبقت اليه الاشارة وقد أكملت الآية ونقلت تفسيرها من القاضى البيضاوى اه مترجم

وامائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » (١٠٠) ولم يهمل النبي عليه الصلاة والسلام الحث على مثل هذه الانكحة والحض عليها واستوصى أمته بها كما سبق لنا بيانه

وانظر الى ماجاء فى التاريخ فان المأمون بن هارون الرشيد مع كونه ابن زنجية فقد نهض به الى مركز الخلافة ماالتصف به من العقل والعرفان فكان فى ذلك مربح له على أخيه الامين

وقد جعلت الشريعة الغراء للسيد تمام الحرية فى تزويج مماليكه الى من يشاء من الارقاء والاحرار ولم تجعل له حقا فى التفريق بين الارقاء بعد تزويجهم ولكنه لايجوز له أن يصرح لعبده وأمته ان يعيشا معا بغير زواج ويجوز له أن يفترش امائه ماعدا الاختين والام وبنتها والخالة وبنتها والعمة وبنتها وغيرهن من ذوى الرحم المحرم

والاولاد الذين يولدون من هذا الوطء يكونون أحرارا وشرعيين

---

(١٠٠) قال القاضى البيضاوى ماخلاصته «انه لما نهى عما عسى يفضى الى السفاح المخل بالنسب المقتضى (أى النسب) للالفة وحسن التربية ومزية الشفقة المؤدية الى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بأمر النكاح الحافظ له والخطاب للاولياء والسادة وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك عند الطلب وأيامى مقلوب أيائم كيتامى جمع أيم وهو العزب ذكرا كان أو أنثى بكرا كان أو ثيبا وتخصيص الصالحين لان إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه . ولا يمنع فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله غنية عن المال او هو وعد من الله بالاغناء اه مترجم

ويرثون فى أبيهم مثل ماترث أولاد المرأة المعقود عليها وهذه مزية ماوجدت قط فى اية شريعة أخرى

وللسيد أن يتزوج بأمته بعد أن يعتقها ويعطيها مهرا وفى هذه الحالة ترثه هى وأولادها فاذا أبت المعتوقة نكاحه فليس له أن يعيدها تحت سلطته أو أن يلزمها بنكاحه

(الفرع الرابع)

(فى العتـــق)

ان الديانة الاسلامية تساعد كل المساعدة على العتق فانها تدعو اليه وتحث عليه لانها تعتبره عملا مبرورا مقرونا بجزيل الاجر والثواب واليك الدليل قال تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم» الآية

وقد أوضح الله عز وجل أثناء كلامه على العقبة التى بين الجنة والنار طريقة اجتيازها فقال « فك رقبة » (سورة البلد ٩٠ - آية ١٣)

ثم أوصى المسلمين أيضا بهذا العمل الانسانى لتكفير ذنوبهم وسياتهم فقال تعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الاخطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة الى أهله» الآية (سورة النساء ٤ - آية ٩٢)

وقال تعالى فى سورة المائدة ٤ - آية ٨٩ وفى الاصل ٩١ «لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته ..... تحرير رقبة »

واذا كان رمضان وأفطر احد المسلمين فعليه ان يكفر عن ذلك باطعام مسكين ولكن اذا أفطر بالجماع كانت كفارته فك الرقبة(١٠١)

ولننظر الآن الى ماجاء فى الاحاديث النبوية الشريفة روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من اعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار » قال الفقهاء ويستحب أن يكون العبد سليما من العيوب

وعن البراء بن عازب (١٠٢) قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى من النار

---

(١٠١) هذا يمشى على مذهب الامام الشافعى اذ حكم المفطر عنده أنه اذا أفطر عمدا على غير الجماع وجب عليه القضاء فقط قبل أن يحل رمضان الثانى فاذا حل الثانى ولم يقض الاول لزمه مع القضاء عن كل يوم مد مما يطعم به أهله أما اذا أفطر عمدا بالجماع لزمه القضاء والكفارة وهى صوم ستين يوما متتابعة أو اطعام ستين مسكينا أو فك رقبة مؤمنة وبهذا تعلم أن اطلاق الاصل فى لزوم الكفارة عند الافطار على غير الجماع غير صواب اه مترجم

(١٠٢) البراء بن عازب هو أحد الانصار شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة غزوة وهو الذى افتتح الرى سنة أربع وعشرين صلحا أو عنوة فى قول أبى عمرو الشيبانى وشهد مع على بن أبى طالب الجمل وصفين والنهروان ونزل الكوفة ومات فى أيام مصعب بن الزبير اه مترجم

فقال أعتق النسمة وفُكّ الرقبة قال يارسول الله أو ليسا واحدا قال لا عتق النسمة ان تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها

وعن أبى ذر (١٠٣) قال قلت يارسول الله أى العمل أفضل قال ايمان بالله وجهاد فى سبيله قال قلت أى الرقاب أفضل قال أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها (١٠٤) قال الفقهاء محله فيمن أراد أن يعتق رقبة واحدة أما لو كان مع شخص ألف درهم مثلا فأراد أن يشترى بها رقبة يعتقها فوجد رقبة نفيسة ورقبتين مفضولتين فالثنتيان أفضل

---

(١٠٣) أبو ذر الغفارى أسلم والنبى صلى الله عليه وسلم بمكة أول الاسلام فكان رابع المسلمين أو خامسهم وهو أول من حيّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام وصحبه بعد الهجرة الى أن قبضه الله اليه وكان يعبد الله تعالى قبل البعثة النبوية وبايع النبى على أن لا تأخذه فى الله لومة لائم وعلى أن يقول الحق ولو كان مرا وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبى ذر » وانه قال « أبو ذر يمشى على الارض فى زهده عيسى بن مريم » روى عنه رضى الله عنه عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر (انظر حاشيتى ٦٨ و ٧١) وابن عباس وغيرهما من أكابر الصحابة روى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى « ياعبادى انى قد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادى انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا الذى أغفر الذنوب ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم الحديث » توفى أبو ذر فى سنة اثنتين وثلاثين اهـ مترجم

(١٠٤) لان عتق مثل ذلك لا يقع غالبا الا خالصا اهـ مترجم

ولم تقتصر الشريعة الاسلامية على ذكر العموميات فقط بل قد نصت أيضا على الاحوال الآتية

اذا كان العبد مملوكا لجملة شركاء فيجوز لاحدهم أن يعتقه عن حصته فاذا كان المعتق غنيا وجب عليه أن يقوم العبد قيمة عدل ويدفع الى كل شريك حصته حتى ينال العبد حريته بتمامها ولكن اذا لم يكن عنده من المال مايكفي لتحريره بأكمله عتق العبد بقدر حصته ثم عليه أن يسعى ويعمل للحصول على بقية حريته فقد جاء فى الحديث الشريف عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أعتق شركا له فى عبد وكان له مال يبلغ ثمن العبد قوم العبد عليه قيمة عدل فأعطى شركاءه حصصهم وعتق عليه العبد والا فقد عتق عليه ماعتق » وعن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « من أعتق شقيصا (نصيبا) فى مملوك (مشترى بينه وبين غيره) فخلاصه (كله من الرق) عليه فى ماله (بأن يؤدى قيمة باقيه من ماله) ان كان له مال والا قوم عليه فاستسعى (بضم التاء أى ألزم العبد) به (أى باكتساب ماقوم من قيمة نصيب الشريك ليفك بقية رقبته من الرق أو يخدم سيده الذى لم يعتقه بقدر ماله فيه من الرق والتفسير الاول هو الاصح عند القائل بالاستسعاء) غير مشقوق عليه (فى الاكتساب اذا عجز وقيل لايستغلى عليه فى الثمن) » ولننبه فى هذا المقام الى أنه لاينبغى الالتفات الى ديانة الشركاء أو الرقيق

ولا ارادتهم لان الشرع صريح ومساعد على العتق فلذلك يجب عليهم قبول العتق لان ظاهر الحديث « أنه لافرق بين أن يكون المعتق والشريك والعبد مسلمين أو كفارا أو بعضهم مسلمين وبعضهم كفارا »

وعلى كل حال فانه يجوز للعبد أن يفتدى نفسه بالمكاتبة فقد سأل ابن جُرَيْج الفقيه عطاء(١٠٥) فقال «أواجب علىّ (اذا طلب منى مملوكى الكتابة) اذا علمت له مالا أن أكاتبه » قال « ماأراه الا واجبا »

وعن أبى سعيد المقبرى قال اشترتنى امرأة من بنى ليث بسوق ذى المجاز بسبعمائة درهم ثم قدمت فكاتبتنى على أربعين ألف درهم فأذهبت اليها عامة المال ثم حملت مابقى من المال اليها فقلت

(١٠٥) هوابن جريج بضم الجيم المعجمة وفتح الراء وسكون الياء آخره جيم معجمة كما ضبطه ابن خلكان لابفتح الجيم المعجمة وكسر الراء وآخره حاء مهملة كما ضبطه المؤلف فى المتن الافرنجى سهوا وهو أحد العلماء المشهورين ويقال انه أول من صنف الكتب فى الاسلام ولد سنه ثمانين وتوفى سنة ١٤٩ أوسنة ١٥٠ أوسنة ١٥١ هجرية على خلاف فى الاقوال وأما عطاء بن أبى رباح فقد كان من أجلاء الفقهاء وتابعى مكة وزهادها سمع خلقا كثيرا من الصحابة وروى عنه جماعة من كبار العلماء واليه والى مجاهد انتهت فتوى مكة فى زمانها وكان أعلم الناس بالمناسك (قاله قتادة) وأذكرهم فى زمان بنى أمية (قاله ابراهيم بن عمرو بن كيسان) وكانوا يأمرون صائحا يصيح فى الحج « لا يفتى الناس الا عطاء ابن أبى رباح » وكان اسود أفطس أشل أعرج ثم عمى مفلفل الشعر فسبحان من يؤتى الحكمة من يشاء اه مترجم

هذا مالك فاقبضيه فقالت لاوالله حتى آخذه منك شهرا بشهر وسنة بسنة فخرجت به الى عمر بن الخطاب فذكرت ذلك له فقال عمر ادفعه الى بيت المال ثم بعث اليها هذا مالك فى بيت المال وقد عتق أبو سعيد فان شئت فخذى شهرا بشهر وسنة بسنة قال فارسلت فأخذته

ومن الجائز أيضا أن يعين الانسان على فك الرقبة

فعن عائشة رضى الله عنها أن بريرة جاءت تستعينها فى كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيأ فقالت لها عائشة ارجعى الى أهلك فان أحبوا أن أقضى عنك كتابتك ويكون ولاؤك لى فعلت فذكرت بريرة ذلك لاهلها فأبوا وقالوا ان شاءت أن تحتسب عليك فلتفعل ويكون لنا ولاؤك فذكرت (عائشة) ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم ابتاعى فأعتقى فان الولاء لمن أعتق ثم قام فقال «مابال أناس يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله تعالى من اشترط شرطا ليس فى كتاب الله فليس له وان شرطه مائة مرة شرط الله أحق وأوثق»

وقد عاون النبى نفسه عليه الصلاة والسلام سلمان الفارسى(١٠٦)

(١٠٦) سلمان الفارسى هو مولى رسول الله عليه الصلاة والسلام واحد الصحابة كان ابوه مجوسيا فاتفق أنه هرب منه يوما ولحق بالرهبان ثم قدم الحجاز وأسلم وكان من فضلاء الصحابة وزهادهم وعلمائهم وذوى القربى منه صلى الله عليه وسلم وهو الذى أشار على

على مكاتبته فغرس له بيده المباركة ثلثمائة نخلة وقال أعينوا أخاكم فأعانوه على دفع المال وقدره أربعون أوقية من الذهب لان المكاتبة كانت على غرس ثلثمائة نخلة وأربعين أوقية من الذهب وبذلك تم له نوال حريته

وعتق أم الولد يتم بمجرد افتراش السيد لها متى أقر بأولادها وألحق نسبهم به وفى حياة المولى تكون حالة هذه الأمة شبيهة بحالة الموصى بعتقها فلا يجوز بيعها ولا هبتها ومتى توفى نالت فوق ذلك حريتها بلا مقابل ولو ترك المتوفى ديونا عظيمة

واليك شاهد على تطبيق هذه القاعدة والعمل بها قالت سلامة بنت معقل كنت للحباب بن عمرو ولى منه غلام فلما توفى قالت لى امرأته الآن تباعين فى دينه فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال من صاحب تركة الحباب بن عمرو قالوا أخوه أبو اليسر كعب بن عمرو فدعاه فقال لا تبيعوها وأعتقوها

وهذه الاحكام المساعدة على العتق هى محترمة مقدسة حتى إنه عليه الصلاة والسلام أثبتها وقررها بمناسبة فراشه مع أمته مريم والدة سيدنا ابراهيم عليه السلام

النبي بحفر الخندق حين جاءت الاحزاب وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم « سلمان منا » وسكن العراق وكان يعمل الخوص بيده ويأكل من ثمنه وآخى النبي عليه الصلاة والسلام بينه وبين أبي الدرداء وروى عنه كثير من العلماء وقيل انه عاش ١٥٠ سنة توفى سنة ١٣٤ أو ١٣٥ اهـ مترجم

وكذلك حكم العتق فى الامة الغير المسلمة فانها تنال حريتها بمجرد افتراشها لمولاها

وقد جاء فى نصوص الشرع الشريف أحكام أخرى تنيل العبد حريته مثال ذلك اذا صار الرجل عبدا لآخر تجمعه واياه روابط القرابة والنسب سواء كان من الاصول او من الفروع لاية درجة كانت فانه يعتق عليه حتما واذا هرب العبد الاجنبى من بلاده وجاء الى دار الاسلام وأسلم نال حريته ولايخفى على من له المام بالتواريخ والسير ان كثيرا من العبيد قد التجؤا فى واقعتى الطائف والحديبية الى معسكر النبى عليه الصلاة والسلام فصرح صلى الله عليه وسلم فى الحال بأنهم عتقى أحرار ولم يلتفت قط الى مطالبة أسيادهم بهم

قال الله تعالى فى كتابه المجيد «ياأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بايمانهنّ فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهنّ الى الكفار» (سورة الممتحنة ٦٠ - آية ١٠)

ومن نظر الى صيغ العتق ورسومه فى الدين الاسلامى رآها أكثر بساطة وأشدّ سهولة منها فى الشرائع الاخرى. فيكفى فى العتق أن يقول الرجل لعبده «أنت حر لوجه الله تعالى» فيكتسب حريته بل اذا منح السيد بعتق العبد عتق عليه ولو لم يقبل العبد نوال حريته فانه يصير حرا رغما عن رفضه الحرية (١٠٧)

(١٠٧) أين هذا من قول القديس ايزيدوروس «انى لانصحك بالبقاء فى الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك» (انظر صحيفة ٤٩ سطر ٥) اه مترجم

(الفرع الخامس)

(خلاصة ما تقدم)

من الآيات القرآنية الشريفة والاحاديث النبوية الكريمة وأقوال الأئمة وشواهد التاريخ التى سردناها فى المطالب السابقة يتضح أن الديانة الاسلامية قد حصرت من غير شك ولا مراء حدود الاسترقاق وعملت على إنضاب منبعه اذ حتمت شروطا وفرضت قيودا لابد منها لوقوع الاسترقاق وبينت الطرق وأوضحت الوسائل التى يكون بها الخلاص من ربقته فاذا اتفق لشخص مع كل هذه الوسائط ووقع القضاء المحتوم عليه فأوقعه فى الاسترقاق فقد رأينا أن الشريعة الاسلامية لاتتخلى عنه ولاتتركه وشأنه بل تبسط عليه جناح حمايتها ولواء رعايتها فتعتبره جديرا بالشفقه خليقا بالمرحمة لما نراه فيه من الضعف والمسكنة ولذلك وردت فيها الوصايا التى تفرض على الموالى أن يعاملوا أرقاءهم كما يعاملون أنفسهم وأن يسعوا فى إسعادهم ونعومة بالهم وتأديبهم وتهذيبهم وتعليمهم وأن لايزدروا بهم ولا يضعوا من قدرهم وأن يزوجوهم أو يتزوجوهن تعجيلا لتخليصهم من ربقة الرق وايرادهم موارد الحرية

هذا وان العتق الذى جئت فقط على ذكر قواعده العمومية وأصوله المهمة على وجه الاجمال لهو والحق يقال من أفخر ما يفتخر به الاسلام

فان شريعتنا المحمدية قد سعت فى تقويض دعائم الاسترقاق وتدمير معالمه ولكن كيف العمل هل كان من الموافق المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عوائد العالم كله منذ ماوجد الاجتماع الانسانى وتوالت عليه الايام والاعوام والشهور والدهور ألا ان ذلك كان يجر وراءه بلا شك انقلابا عظيما فى نظام الاجتماع وفتنة كبيرة فى نفوس الامم والاقوام فلهذا جاءت شريعة الاسلام بهذه الغاية من طريق آخر تزول امامه الصعوبات وتتذلل العقبات بدلا من تهييج العقول واثارة الخواطر والافكار بالغاء الاسترقاق مرة واحدة فخوطب المسلمون بأن يتقربوا الى الله بعتق العبيد المساكين فى ظروف كثيرة وأحوال متنوعة

وحث النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا على السعى فى نوال هذه الغاية الجليلة ولذلك جاءت قواعد العتق فى غاية السعة ونهاية اليسر بحيث يتسنى دائما للرقيق أن يجد فيها طريقا يساعده على الخلاص من الاستعباد اذا طلب ذلك بل ولو لم يطلبه (١٠٨)

---

(١٠٨) قال الموسيو نكا فانكا للواحد أعضاء جمعية المعارف المصرية فى كتاب له اسمه (نظام الوراثة على كرسى الخلافة فى الدولة العلية) مطبوع فى الاسكندرية سنة ١٨٧٣ ماتعريبه (صحيفة ٢٣) أما الاسترقاق فلا حاجة لنا باطالة القول على المبادئ الحقة الصحيحة التى قررها القرآن الشريف فان فك الرقبة هو من أفضل الاعمال لدى المولى عز وجل وأجمل القربات لطلب الغفران عن ارتكاب السيئات والدول الاسلامية هى أول من ينكر ويحرم هذه التجارة القبيحة الشنعاء اهـ مترجم

(الفرع السادس)

(فى التطبيق والخاتمة)

قد أتينا فيما سبق على ذكر القواعد النظرية التى عليها الاسترقاق ولنبحث الآن بحثا مدققا عن الوجه الشرعى الذى يعامل به الزنوج الذين كانوا يردون علينا ويجلبون الينا من أواسط أفريقيا قبل عقد المعاهدة بين الانكليز ومصر فى ٤ اغسطس سنة ١٨٧٧

هل هؤلاء المساكين أرقاء حقا . هذا موضع تجوز الريبة فيه وتدخل الشكوك عليه لاننا اذا طبقنا نصوص الشريعة تطبيقا مدققا وبالحرف الواحد لكنا على اتفاق تام مع قواعدنا الدينية الحائمة على التقدم الساعية فى الارتقاء وقلنا انه يلزم لاسترقاقهم شرطان

الاول — أن لايكونوا يدينون بدين الاسلام فى وقت أسرهم

الثانى — أن يكون أخذهم بطريق الحرب

وقد كان يتفق وجود مسلمين بين هؤلاء الزنوج وكان لابد من اعتبارهم أحرارا حيث تقرر انه « لايجوز استرقاق المسلم المولود من ابوين حرين » وأما الآخرون الذين لايدينون بالاسلام فيشترط فى استرقاقهم الاسر فى حرب شرعية بعد الانذار والاشهار ويشترط أن تكون الحرب فى صالح الاسلام وبما ان أمثال هؤلاء الزنوج

كانوا يؤخذون سبيا واختطافا أو بطرق اخرى غير شرعية يقصد منها المنفعة الشخصية الخصوصية فلذلك لايصح القول بانهم حقيقة أرقاء

وفى هذا المقام قد يرد علينا اعتراض مهم وهو (بما أن هؤلاء الزنوج لم يكونوا حقيقة أرقاء فلماذا كنتم تفترشون الاماء وتجعلون منهن أمهات الولد) والسبب فى ذلك سهل بسيط وهو أن السواد الاعظم منا كان يفعل ذلك عن جهل ليس الا من غير زيادة ولانقص على ان البعض كفريق من العلماء كانوا يحتاطون قبل افتراش الاماء فيستعلمون أولا عما اذا كانت الشرائط المطلوبة قد استوفيت كلها والا لم يفترشوهن

فهل بقيت بعد ذلك حاجة تضطرنى الى اختتام القول بان الاسترقاق بالوجه الشرعى لايمكن تحققه ولا يتأتى حصوله فى هذه الايام وانه على ذلك يتسنى للحكومة المصرية بلا منازعة أن تنادى بحرية جميع الموالى الذين بوادى النيل حتى تكون قد أيدت وأوثقت عهد الغاء الاسترقاق وأنه ليحق لى بعد هذا بل يجب على أن أجاهر على رؤوس الاشهاد بأن حضرة الكردينال لافيجرى هو وكل من يرى رأيه ويذهب مذهبه واقعون بلا مُشَاحَّة فى أشد الخطاء بعيدون عن الصواب بزعمهم أن ديننا القويم يساعد على اصطياد الرقيق وان الاسلاميين يعتقدون ويقولون بأن الزنوج ليسوا من الانسان بل ان مقامهم أدنى من مقام الحيوان

الباب السادس

(الكلام على الرق فى مصر)

﴿من حيث العرف والاخلاق﴾

ولنأت الآن بكلام وجيز على الكيفية التى عومل بها الرقيق من حيث العرف والاخلاق والعادات فى مصر

اذا صرفنا النظر عن الاحوال الاستثنائية القليلة التى كان بعض الاسياد فيها يهينون عبيدهم ويسيئون معاملتهم بل ويعدمونهم حياتهم يجمل بنا أن نقول بأن هذه الاعمال لا يتأتى الآن تكررها ولا يمكن لاحد الاقدام عليها والفضل فى ذلك راجع لحكومتنا الحالية النظامية الدستورية ولعناية ولى نعمتنا الذى بسط جناح رعايته على جميع افراد رعيته

على اننا نقول أى بلد يخلو من خبثاء شريرين لا يرعون عهدا ولا ذمة فهل يصح للانسان أن يحمل آثام هؤلاء النفر القليل على عاتق أمة بأكملها

واذا صرفنا النظر عن هذه المغايرات النادرة واعتبرنا حالة الرقيق العامة رأيناها أفضل من حالة الخدم الآخرين فان سيد الرقيق كان يرعاه ويشفق عليه أكثر من غيره لكونه منقطعا لا عائلة

له وكان يأمره بما لايشعر بالشدة والعنت والعنفوان وما كان يسعى فى تحقيره واذلاله وكان كثيرا مايعتق العبد ليزوّجه أو الامة ليتزوّجها

وكثير من المسلمين يعتقون أرقاءهم بعد أن يخدموهم عددا معينا من السنين اطاعة لما أمرتهم به شريعتهم الالهية فانها أكثرت من وصايتهم بهذا العمل الخيرى الانسانى بل انهم يزوّجون الاماء بابنائهم ويمهرونهن بحسب ثروتهم ويربون اولاد أرقائهم ويعتقونهم ويسعون لهم فى وظائف ينالون منها الرزق وقد خرج من هذه الطائفة ملوك وسلاطين مثل كافور الاخشيدى الذى تولى على بلاد مصر من سنة ٩٦٦ الى سنة ٩٦٨ ميلادية وكثيرين غيره من الموظفين ذوى المناصب السامية والمقامات العالية ممن خدموا بلادهم بالصدق والامانة مثل آدم باشا الذى كان قائد الجيش المصرى ومثل الماس بك الذى كان ميرالايا فى الجيش المصرى المبعوث الى المكسيك فى امريكا على عهد المغفور له سعيد باشا وغيرهما من العدد العديد

ولا يجهل أحد ما كان للطواشية (الخصيان) من الشأن الاكبر والنفوذ المهم فى القسطنطينية وفى مصر القاهرة ففى بلادنا كان أعاظم القوم وسراتهم يتملقون ويتزلفون الى الماس اغا طواشى

والدة عباس باشا وخليل اغا طواشى سعيد باشا ثم خليل اغا المشهور طواشى والدة الخديو السابق وكلهم قد جاؤا من بلادهم فى أحقر الحالات وانكدها فساق الله لهم السعادة ورزقهم الغنى الوافر والثروة الطائلة (١٠٩)

ومتى طعن العبد فى السن أو أصابته عاهة من العاهات أعفى من كل الاعمال اذا كان قد رفض الحرية بعد ان عرضت عليه ولم يكن يشتغل الا بالعناية بأولاد سيده فاذا لم يتيسر له بعد العتق كسب القوت لسبب من الاسباب كان سيده يقوم بنفقته

وكان الرقيق على الدوام ينال مكافأة من الدراهم يعينها له سيده بحسب مقدرته وكثيرا ماينذر الانسان فك الرقبة اذا أناله الله حاجة يسعى فى طلبها

وأما العبيد البيض (وهم المماليك) فكانت حالتهم أحسن بما لايقدر اذ كانت المرأة تكاد تكون على الدوام مخصصة لان تكون زوجة الرجل أو ولده أو حظية أحدهما وكانت نساء

---

(١٠٩) كان اتخاذ الطواشية قبل الاسلام فان نارسيس وهو من أعظم قواد المملكة الرومانية الشرقية كان خصيا ومثله بوطيفار (قطفور) مولى يوسف عليه السلام ومثلهما أوريغانس مفسر التوراة الذى ولد بالاسكندرية فى سنة ١٨٧ ميلادية قد جب هذا كير نفسه لئلا تكون أخلاقه عرضة للشك والريبة وغيرهم كثيرون اه مترجم

السلاطين وملوك المشرق (الا فيماندر) وكبار الموظفين من هذه الطائفة

وأما الشبان منهم فكانوا يتربون مع أولاد ساداتهم ويتعلمون ويتأدبون معا على حد سواء حتى اذا بلغوا سنا معينة أعتقهم مواليهم وزوجوهم بناتهم وكانوا يصلون الى تولى المناصب الرفيعة فى ادارة الحكومة ففى أيام المماليك كانت رتبة البكوية لاتعطى الا للعبيد المماليك مثال ذلك على بك وابراهيم بك ومراد بك (الذين قاتلوا الفرنساوية واستبدوا على مصر وأهلها) فقد ابتاعتهم ساداتهم من الاسواق وهانحن نشاهد الآن عتقى محمد على وابراهيم باشا وخصوصا عباس باشا متقلدين المناصب السامية وحائزين للرتب الرفيعة والدرجات العالية ومتنعمين بالثروة الطائلة

وقد كان يتفق فى بعض الاحيان ان الاسياد والسيدات يتبنون مماليكهم من الذكور والاناث ولنا على ذلك شواهد كثيرة لاتخفى

وكثيرا ما كان الموالى يوصون لمماليكهم بجميع أملاكهم وأموالهم وكان العبيد من السودان يشتركون أيضا فى هذه المزية مثل المماليك ولنذكر لك مثالا واحدا وقع فى أيامنا هذه بدلا من الاستشهاد بأمور بعيدة عن ذكرنا ألم تترك المرحومة قادن افندى والمغفور لها اينجو خانم افندى هبات سنية وعطايا واسعة من أرض ودراهم لجميع عتقاهما وخدمهما بلا تمييز فى الالوان

وما كان للسودانيين مع مايلاقون من المعاملة بالحسنى أن

يعقدوا آمالهم على الظهور و بلوغ الدرجات العالية مثل ما كان ذلك مقدورا للمماليك ذوى اللون الابيض

ومن هذا كله يمكننا أن نستنتج أن المماليك البيض لم يكونوا أرقاء الا بالاسم

لايجهل أحد من الناس مابذلته انجلترة من المساعى فى ابطال الاسترقاق وانها لاجل نوال هذه الغاية الانسانية قد عقدت العهود وأبرمت المواثيق مع عدد عظيم من دول أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقية وبعد ان لاقت فى طريقتها صعوبات جمة قد فازت بالنجاح ونالت الأرب وقد اشتركت مصر فى ذلك وأبرمت معاهدة مع انجلترة فى ٤ اغسطس سنة ١٨٧٧ من مقتضاها أن الاسترقاق والنخاسة ملغيان فى جميع انحاء القطر المصرى ومن جملته السودان وقد عملت حكومتنا على مقتضى أصول الدين وقواعده من حيث الحض على العتق فلم تكتف بمراعاة نص هذه المعاهدة بل فعلت ماهو زائد عليها فوضعت أقلاما عديدة فى جميع الاقاليم لعتق من يطلب ذلك منها من الارقاء و جميع هذه الاقلام تحت ملاحظة الماهر النشيط الميرالاى شارل شفربك مدير عموم مصلحة الغاء الرقيق والنتائج التى نجمت عن هذا الترتيب ظاهرة لايصح نكرانها

ولنتمم الآن هذا البحث الصغير باسداء الشكر الجزيل لمولانا

الموفق وخديوينا الاكرم على مابذله من العناية العظمى والرعاية الكبرى فى إكمال هذا المشروع الخيرى ليجعل رعاياه راتعين فى بحبوحة النعيم والحرية أدامه الله مصدرا لاسعاد البلاد ومن فيها من العباد

ولما كانت مسألة الاسترقاق من المسائل التى شغلت بها أوروبا فى هذه الايام فقد عقدنا النية على أن نشتغل بها بنوع خاص ولنا الامل فى وجه الله الكريم أن يتيح لنا فى يوم من الايام اتحاف جمهور القراء ببحث مطوّل مستوفى على هذه المسألة ونسلك فيه الطريق الذى انتهجناه فى هذه الرسالة الا أنا نوفى المقام ونطيل الكلام فى جميع الابواب وخصوصا فى البابين الاخيرين ثم نضيف اليه مايأتى

اولا - فتاوى القضاة والعلماء فى البلدان الاسلامية المختلفة التى تحرم النخاسة تحريما ينبنى عليه تحريم ماهو واقع من الفظائع فى أفريقيا الوسطى فيعرف بذلك حضرة الكردينال لافيجرى أن علماء الدين عندنا لايتقاعسون أبدا عن ابداء الحق ولا يخشون فيه لومة لائم

ثانيا - أفكار كبار المؤلفين الذين كتبوا فى الاسترقاق

ثالثا - جدولا احصائيا ببيان العتق بمصر والاوقاف التى خصصت لهم بعد موت مواليهم

رابعا - كلاما وجيزا على الاسترقاق من حيث فن التدبير

والاقتصاد ومن حيث نتائج إلغائه فى بلادنا والوسائل التى ينبغى اتخاذها للمستقبل

ونتكلم فيه أيضا على النخاسة من حيث التاريخ والارتباطات الدولية فنأتى على ذكر كل اتفاق مهم أبرم لهذا الغرض ونقابل الاهم منها بالاهم ونخصص بابا لالغاء النخاسة والاسترقاق فى البلاد المختلفة وللنتائج التى حصلت بعدهذه الاتفاقات ونختم بحثنا ببيان بعض أوجه الخلاف الظاهرى بين نصوص الشريعة الاسلامية وبين شروط المعاهدة التى أبرمتها انجلترة مع مصر ونذكر من طرق التوفيق بينهما ماينـدفع به الاشكال ان شاء الله

وهنا ندعو جميع الذين تعنيهم هذه المسألة الى التفضل علينا بكل مايلوح لهم من الملحوظات على هذا الكتاب وما عندهم من الآثار واعانتنا بما لديهم من المعلومات والافكار حتى يتيسر لنا بحوله تعالى انجاز صنيعنا الكبير الذى عقدنا النية عليه والله الموفق لعباده وهو الهادى الى سواء السبيل

تم الكتاب

الملحقات

(يقول مترجم هذه الرسالة)

قد اطلعت على جملة فصول بخصوص هذا الكتاب فرأيت أن أذيل هذه الترجمة باهمها وأكثرها فائدة اعلاما بمقامه وتنويها بذكره

(الملحق الاول)

كان القاء هذه الخطبة الفريدة المفيدة على جملة جلسات عقدتها الجمعية الجغرافية الخديوية أولها فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٩٠ ولما كانت الجلسة التالية فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٠ قال الرئيس قبل أن يدعو الخطيب الى اتمام مقالته بأنه لم يتيسر له التصريح بالتكلم لمن له ملحوظات على القسم الاول من مبحث الخطيب لكون الوقت كان قد أزف ولذلك فهو يصرح بالكلام على هذا الموضوع لمن أراده من الحاضرين قبل أن ينتقل الخطيب الى القسم الثانى من بحثه الجليل

فقام حضرة الكونت زالوسكى أحد أعضاء الجمعية وأحد مديرى صندوق الدين العمومى وطلب أن يتكلم فقال ما تعريبه

قد قال حضرة أحمد شفيق فى القسم من رسالته الذى تلاه علينا ان الديانة النصرانية أشبهت شرائع السلف فى الاقرار على مبادئ الاسترقاق وأصوله بل قد استشهد على قوله بنصوص ونقول أوردها من الكتاب المقدس

سيداتى وساداتى - حاشا أن يكون قصدى فتح باب الجدال الدينى فى هذه الجلسة فان هذا ليس محله ولكن بما أن حضرة الخطيب الموقر لم يتردد فى الدخول فى موضوع من هذا القبيل فى معرض بحث لاعلقة له مباشرة بأعمال الجمعية الجغرافية الخديوية فأرى من مقتضيات الشرف والكرامة دحض قضية تناقض الديانة المسيحية والوصايا الانجيلية التى قامت عليها الكنيسة فى اشتغالها باصلاح حالة المجتمع الانسانى منذ قرون عديدة

فقد وقع حضرة أحمد شفيق فى خطا مبين أرى من الواجب علىّ التنبيه عليه واستلفات الانظار اليه وذلك أنه خلط النصرانية أعنى التعاليم المسيحية النصرانية بالشرائع التى لاقاها فى طريقه دين المسيح فى أوساط مختلفة وأعصار متوالية

قال مؤسس هذه الديانة « أعط لقيصر مالقيصر وأعط لله مالله » وبناء على ذلك التزمت الكنيسة التى هى أمينة ومفسرة لعقائد الايمان ووصايا الادب الآتى عن طريق الوحى بأن ترتضى بشرائع الهيئة الاجتماعية المنظمة لاحوال الناس كما انها ارتضت فى كل مكان وزمان بالنظامات الحكومية السياسية المتنوعة من ملوكية وجمهورية ومن مطلقة ودستورية وبديهى أن الاعتراف بالشرائع المعمول بها وبالحكومات المنظمة المشكلة لايعتبر اقرارا على الاصول والقواعد التى روعيت فى سن تلكم الشرائع وتنظيم هاتيكم

الحكومات وقد صدرت من البابا لاوون الثالث عشر براءة عامة في هذه الايام الاخيرة تذكّر بهذا المعنى ولم يقصد القديس بولس وغيره من آباء الكنيسة الذين ذكروا لنا بتوصية العبيد بالاذعان والامتثال لحالتهم الا تخفيف شدائد هذه الحالة عليهم واتخذ آباء الكنيسة لذلك وسيلة فعالة موافقة للطبيعة وللاعتقاد وهي أن المساكين الذين صاروا ملكا لمواليهم وشيأ من أشيائهم اذا قبلوا وتحملوا مضض الايام ومحن الزمان وهم صابرون يصيرون أهلا لسكنى الجنان والتمتع بالنعيم في دار البقاء فهل يمكن الانسان أن يعتبر الشفقة التي كان موضوعها العبيد باسم دين مواس كانواهم في الغالب أولَ من يقبل عليه ويدين به بمنزلة تثبيت للاسترقاق وتقديس له واقرار عليه وهل يصح القول بأن الملة التي تقول بأن جميع افراد الانسان هم أبناء الخالق وأنه يجب عليهم أن يعتبروا بعضهم اخوانا لبعض ليست هي الملة المنفردة بمناقضة الاسترقاق. ألا ان النصرانية قد رفعت مقام الانسانية في أقدس أسرارها الى اسمى الدرجات ولم تقرّ قط بجواز الاسترقاق بل يصح لها أن تطالب بحصة عظيمة من السعي في الغائه من الوجود فانها لم تفتر عن بث محبة الله والقريب (الأخ في الآدمية) في الافئدة والقلوب ولا عن التأثير في سريرة الافراد والامم ولا عن المناداة بمبادئ الحرية والاخاء ولنا في العدد العديد من القوانين الكنائسية والنظامات الصادرة من مقام البابوية دليل

صادق وبرهان ناطق بعناية الكنيسة عناية خصوصية بشأن الارقاء مثال ذلك من ابتداء سنة ١٨٤٢ رسائل البابا بيوس الثانى وبولس الثالث وأوربانوس الثامن وبنوا الرابع عشر وغريغوريوس السادس عشر ولذلك ظهر للكنيسة تأثير قوى فى بلاد النصرانية حتى ان هذه البلاد قد أخذت تدريجا فى تخفيف حالة أولئك الافراد من بنى الانسان المحرومين من حريتهم وشخصيتهم القانونية حتى آل بها الامر الى اعادة حقوقهم الطبيعية الاساسية الاولية اليهم

وقد رأينا من الذين لم ينكروا العمل الاحسانى الذى قامت به الكنيسة فريقا يلومها على شدة بطئها فى انجازه وكثرة توانيها فى انفاذه ولكن ألم تكن الكنيسة نفسها منفية مُهدرَة مضطهدة مدة أجيال طوال وهل كان فى وسعها امام العدد العديد من العبيد فى الدولة الرومانية وفى ممالك القرون الوسطى وفى المستعمرات لهذا العهد أن تحث على عتقهم وتدعو الى تحريرهم من غير أن يترتب على صنيعها هذا ارتجاج عام فى نظام المجتمع الانسانى

ولنذكر أن سپارتاكوس على رأس جيش من الارقاء قد أزعج رومة وخرب ايطاليا وان العنف الذى حصل فى أيامنا هذه فى تحرير الارقاء بامريكا قد أجج نيران حرب الانشقاق ألا ان الكنيسة لو تطرفت فى عملها لجعلت الهيئة الاجتماعية تحتفظ منها ولذلك

انتظرت بحزم وحكمة حلول الاجل المحتوم فوصلت الى غايتها وهى محافظة على شأنها واختصاصاتها

ورب معترض يقول ان تقدم المدنية وارتقاء الحضارة هو الذى أوجب بالضرورة الغاء الاسترقاق ولم يكن للدين فى ذلك دخل فأقول انى أحترم أفكار غيرى احتراما شديدا يوجب علىّ عدم الافاضة فى تصويب فكرى الذى هو فكر المذهب المعبر عنه فى المانيا بالتاريخى ومن مقتضى هذا المذهب أن الديانة النصرانية هى الدعامة الاولى للتمدن العصرى ولكن لى الامل فى أنى لا أرى أحدا يناقضنى اذا قلت ان نفس سلوك رئيس الاساقفة بالجزائر (يعنى الكردينال لافيجرى) الذى يجهد نفسه جهدا كريما فى الاخذ بناصر أرقاء أفريقية هو أو فى دليل على ما اتصفت به الديانة النصرانية فى هذا الموضوع

فأجاب حضرة أحمد شفيق على ملاحظة حضرة الكونت زالوسكى بأنه مستعد لبيان الاصول التى نقل منها ما ألقاه على الجمعية

ثم أراد أن يسترسل فى الرد عليه فرأى الرئيس أن التوسع فى الجدال ربما يخرج عن موضوع الخطبة ودعا حضرة شفيق بك لاتمام تلاوة مبحثه فأطاع حضرته حتى اذا لم يعد الوقت كافيا تأجلت تلاوة القسم الاخير الى جلسة أخرى ولما حضر فيها حضرة المؤلف أحضر معه نسخا مطبوعة فيها أسماء الكتب المسيحية التى

نقل عنها مانقل مع بيان أسماء مؤلفيها وتواريخ طبعها والمدائن التى طبعت فيها وخلاصة ماجاء فيها مما له ارتباط بهذا الموضوع (١)

(الملحق الثانى)

نشرت جريدة الاجيبسيان غازت جملة بمناسبة هذه الخطبة قالت فيها انها عدوانية فأجاب عليها المؤلف بفصل بعث به الى الجريدة المذكورة فنشرته فى العدد ٢٨٠٥ الصادر فى ٢٢ ديسمبر وهذا تعريبه

حضرة مدير جريدة الاجيبسيان غازت

تلوت فى العدد الصادر فى ١٥ ديسمبر جملة تختص بالجلسة الاخيرة التى عقدتها الجمعية الجغرافية الخديوية لم يتفطن صاحبها أثناء كلامه على خطبتى فى الاسترقاق الى المعنى الحقيقى الذى يستفاد من أقوالى ولذلك جئت أرجوكم أن تتكرموا بنشر اجابتى هذه فى جريدتكم الغراء

ان الذى حملنى على الشروع فى هذا البحث على الاسترقاق انما هو الخطأ الشائع فى أوروبا بخصوص الديانة الاسلامية اذ يزعم القوم أن نصوصها تساعد على ارتكاب الفظائع الحاصلة فى أفريقية الوسطى فلما أقدمت على هذا العمل رأيت من الواجب

---

(١) انظر مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية الصادرة فى مارس سنة ١٨٦١ نمرة ٦ من السلسلة ٣ صحيفة ٤٧٠ اه مترجم

علىّ أن أحيط علم الجمهور بخلاصة تاريخية على الاسترقاق منذ الاعصار الخوالى والقرون السوالف وجرّنى ذلك أيضا الى الكلام عليه فى الديانة النصرانية وحينئذ لم يكن قصدى أن أتهم هذه الملة وانما ذكرت بعض أقوال آباء وعلماء الكنيسة للاعلام بحوادث وقعت وأمور تمت ليس الا فلذلك ليس فى هذا المبحث شئ من العدوان لان غرضى الوحيد انما هو كما لايخفى ان أبرهن على أن الديانة الاسلامية لم تعتبر قط بنى الزنج بمثابة الحيوان بل انها تكثر من وصاية المؤمنين بمعاملتهم بالتى هى أحسن وانها تسعى فى الغاء الاسترقاق وتجنح الى ابطاله

وتقبل ياحضرة المدير مزيد شكرانى ووافر احترامى

أحمد شفيق

الحائز للدبلومة من مدرسة العلوم السياسية

ومن مدرسة الحقوق العليا بباريس ومن

أعضاء جملة جمعيات علمية

بفرانسا والمانيا

تحريرا بمصر القاهرة فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨٩٠

(الملحق الثالث)

رأيت فى عدد ٥١٤ من جريدة المؤيد الاغر الصادرة فى ٢٨ محرم سنة ١٣٠٩ (٢ سبتمبر سنة ١٨٩١) الجملة الآتية وهى بنصها

﴿كتاب الرق فى الاسلام﴾

هذا الكتاب الجليل النفيس هو أحسن وأفضل ماصنف فى الدفاع عن الديانة الاسلامية التى قام الكردينال لافيجرى وأشياعه باتهامها بانها هى التى تدعو الى النخاسة وتوصى أهلها بارتكاب الفظائع والقبائح التى يرويها عن أواسط أفريقية. ألفه بالفرنساوية حضرة الفاضل البارع أحمد بك شفيق السكرتير الخصوصى لسعادة ناظر الخارجية وألقاه فى جلسات متوالية على الجمعية الجغرافية الخديوية فكان له أحسن وقع وأعظم تأثير وقد أتينا على ماصادفه من النجاح والقبول فى أعدادنا الماضية وشرحنا أهم أقواله وملاحظاته وقد ألح كثير من الكبراء والفضلاء الذين يهمهم احقاق الحق وتبيان الواقع على حضرة الفاضل الالمعى الاريب أحمد افندى زكى مترجم أول مجلس النظار ومترجم شرف فى الجمعية الجغرافية الخديوية بنقل هذا السفر العديم النظير الى اللغة العربية فلبى الطلب وقام بهذا الواجب خدمة للدين والحق وعما قريب يتجلى

للقراء من أبناء العرب فيرون مافيه من شوارد الفوائد وأوابد الفرائد ويشكرون هذين الناضلين النجيبين على هذه الخدمة الجليلة

وانا نحيط علم حضرات القراء بقليل من كثير من النجاح الفائق الذى صادفته هذه الرسالة الفريدة فى بابها عند كبراء الافرنج الذين يقدرون الاشياء حق قدرها فقد بعث الموسيو ميسمر رئيس الارسالية الفرنساوية سابقا المشهود له بكثرة المعارف واتساع الاطلاع يهنئ المؤلف ويقول له « لقد أفحمت خصمك وان الحق لفى جانبك ولوأنك وضعت على كتابك الذى طبع على حدته هذا العنوان (رد لاحد المسلمين على الكردينال لافيجرى) لكان نال اشتهارا فائقا وسارت بذكره الركبان » وكذلك الموسيو ريبو أحد نواب فرنسا وناظر خارجيتها أرسل اليه يشكره شكرا جزيلا ومثله الموسيو اندرى لوبون (شقيق العلامة الفيلسوف جوستاف لوبون صاحب كتاب تمدن العرب) الموظف فى وظيفة ناظر القلم الخاص برئيس مجلس السناتو فى فرنسا فانه بعث اليه بعبارات الشكر الرائقة وقد كتب اليه حضرة الموسيو ماسيجلى أحد كبار مدرسى القوانين بمدرسة الحقوق بباريس يقول فيه « انى أشكرك على لطفك الكثير وكرمك الجزيل فى اتحافى بنسخة من كتابك على الاسترقاق وقد تلوته باهتمام زائد والتفات وافر وانى أهنئك على اتمام هذا الصنع الباهر الخ » وكتب اليه الموسيو موجل ناظر الارسالية المصرية

بفرنسا حالا يقول «انى لاشكرك من صميم الفؤاد على اتحافى بنسخة من بحثك المفيد الجليل الذى تحريت فيه الكلام على الاسترقاق ولم يكن لى علم به الا من بضعة سطور رأيتها فى بعض الجرائد أما الآن وقد تلوته من أوله الى آخره فقد وقفت على مكانته من الاهمية والخطارة وعلمت مقدار ما استوجبه من البحث والتنقير ولعمرى ان ذلك شئ عظيم وأمر خطير الخ» وكتب اليه الموسيو داجين السكرتير العام لجمعية مقارنة الشرائع ومطابقة القوانين يقول «قد وصل لنا كتابك على الرق فى الاسلام وانى أهديك الشكر الجزيل على لطفك فى اتحافنا بهذا العمل المفيد وسأحيط به علم أعضاء القسم الفرنساوى من جمعيتنا حتى يعينوا واحدا منهم ليقدم عنه خلاصة ننشرها فى كراسة جمعيتنا الخ» وأرسل له أيضا العالم الموسيو دوليل ناظر الكتبخانة الاهلية بمدينة باريس يشكره على تفضله بارسال نسخة من كتابه هذا الى الكتبخانة المذكورة وانه وضعه فيها وسجل اسمه فى دفاترها وقد كتب اليه الموسيو بوكارا أحد المفتشين بقومبانية قنال السويس يقول له «لقد سررت من كتابك سرورا عظيما فانه برهن لى على انك لم تنسنى وقد تلوته بعناية واهتمام وانك أصبت فى البدء بذكر خلاصة تاريخية وجيزة على الاسترقاق ولكنها جوهرية وتكلمت عليه عند جميع الامم فى الازمان القديمة والقرون الوسطى ثم استنبطت هذه النتيجة التى

تدل على اصالة رأيك واصابة فكرك وهى أن الاسترقاق عند جميع أمم المشرق كان مقرونا بتلطف وتعطف لايجد نظيرهما الانسان فى مدينة رومة أو فى بلاد اليونان وقد أوضحت أن الارقاء كانت معاملتهم بالحسنى فى مصر على الدوام وأكدت عن صدق الارادة فى تحسين حالتهم فى هذا الزمان أكثر مما قد كان ثم احتججت على دعاوى الكردينال لافيجرى الذى يقول (ان الزنوج عند المسلمين ليسوا من العائلة البشرية) وانى أجد احتجاجك صحيحا شرعيا وأستصوب كل الاستصواب مافعلته فى هذا الباب من الدفاع عند دينك وعن مليكك وياحبذا لو أن كل فرد من أفراد الفرنساوية يُوفَّق لان يفعل مثل ذلك بالنسبة لدينه وبلاده » ثم ختم كتابه بتكرار الشكر واعادة التهانى على ظهور هذا الكتاب من حيث شكله وموضوعه

وقد كتب اليه الموسيو بيجو المستشار الاكرامى فى ديوان محاسبة باريس يشكره على ارسال نسخة من كتابه وانه تلاه باهتمام كثير وتحقق بذلك أن دروسه التى تلقاها فى فرنسا سيستخدمها فى صالح بلاده وفائدة قومه الخ ثم كتب اليه صاحب الدولة رستم باشا سفير الدولة العلية فى لوندره يقول (وصلنى المكتوب الذى تفضلت بتحريره الىّ فى ١٢ الجارى شهر يوليو سنة ٩١ بقصد ارسال جملة نسخ من كتابك (الرق فى الاسلام) ولعمرى انه لابد أن يأتى خير جسيم

ونفع عميم من مثل هذا العمل الذى موضوعه الاثبات على أن الشريعة الاسلامية لاتقر على اصطياد الزنوج الحاصل فى بعض أقطار أفريقية وانى أشكرك على النسخة التى تفضلت باهدائها الىّ وسيحصل لى مزيد السرور من توزيع النسخ الباقية على الاشخاص وأرباب الجرائد الذين أرى فيهم الاقتدار على بث ماتضمنته بين جمهور الانكليز وتقبل ياحضرة البك أكيد احترامى وغاية اجلالى

هذا وما لبثت هذه الرسالة ان ظهرت فى أوربا حتى أقبلت الجرائد الافرنجية المهمة على تقريظها بما هى أهله بل ان بعضها مثل جريدة لاتوركى وغيرها قد نشرتها برمتها فى أعداد متوالية لانها لم تر وسيلة أفضل من ذلك لاحاطة علم قرائها بما حوته من المواضيع الشائقة والاقوال الصادقة

(الملحق الرابع)

وبعد ان ظهر هذا الفصل فى جريدة المؤيد جاء الى المؤلف مكتوب فى ٣٠ اغسطس سنة ٩١ من المسيو ارتو رروفى وهو من كبار العلماء فى فرنسا وله تآليف مهمة على مصر واليك تعريب هذا الكتاب

سيدى

لايسعنى الا أن أقدم لك الشكر والثناء على كتابك (الرق فى الاسلام) الذى تفضلت باتحافى بنسخة منه . هذا واذا كانت اقامتى فى مصر غير طويلة المدى وجب علىّ أن أتطلع الى معرفة كل مايتعلق بهذه البلاد التى لها فى فؤادى منزلة سامية قبل أن أبدى أفكارى الخصوصية على مايجرى فيها من الامور وعلى ذلك فانى أشهد بأن عملك الذى راعيت فى تصنيفه جانب الصدق والامانة قد جاء موافقا لكل ماتصل بى عن هاتيك الديار وكل ماسمحت لى الظروف بمشاهدته بنفسى . وقد روى لى بعض الذين نزلوا بمصر قبل أربعين سنة مضت أن استرقاق الزنوج ليس الا ضربا من الاستخدام أو شرطا للعمل يسرى على العامل طول حياته ويجوز فسخ هذا الشرط بالسهولة التامة ولا يتخلل هذا الاسترقاق شئ ينافى مبادئ الانسانيه وان استرقاق المماليك ليس الا نوعا من التبنى وكثيرا ماوصل بالارقاء الى مراقى الشرف والسعادة ولقد بلغنى نبأ زنوج

يقومون باطعام مواليهم حينما طعنوا فى السن وصاروا من المغضوب عليهم أو عبثت بهم أيدى الفقر والاحتياج وماقولك فى ذلك النادى الذى دخل فيه أحد أصدقائى وقيل له بخشوع وتبجيل أن انظر الى هؤلاء الذوات فكلهم من معتوقى الباشا فلان وياحبذا لو وُضع كتاب شاف مفصل فى تاريخ الخمسمائة سنة التى حكمت فيها المماليك على مصر فانهم كلهم من الارقاء قد اختارهم مواليهم من أجمل وأذكى الاطفال الذين جيئ بهم من بلاد الشركس أوغيرها

وقد شرح العلامة المقريزى كيفية تربية المماليك بقلعة الجبل بما يشعر بمقدار العناية الفائقة بهم ومزيد الالتفات الى شأنهم فانهم كانوا يرشحون على حسب قواهم العقلية للقتال أو السياسة أو الفنون والملاهى أو العلم والمعارف ولذلك بلغ عصر المماليك مبلغا عظيما من الحضارة والفخامة مع ما كان فيه من انتشار الفوضى والاضطراب فهم الذين ملؤا القاهرة بهاتيك الآثار الباهرة والقصور الفاخرة التى يؤمها الزوار من سائر الاقطار

وقد أتيح لى أن أتمتع برؤية هذه المناظر الرائقة منذ ٢٦ سنة أى قبل أن تشوبها شائبة أو يمسسها سوء . . . . . .

. . . . . .

وقد استغرب بعضهم أن السلطان قلاون لم يكثر من تشييد العمائر فقال لهم « نعم ولكنى أنشأت حولى قلعة من الاحياء

وستكفيني أنا ومن يخلفني غائلة الاعادى » يشير بالقلعة الى حلقته وحرسه وبعبارة أخرى دائرة المماليك التى حوله كل هذه امور يجمل ذكرها ويحسن ايرادها .....

.....

ثم لو أمعنا النظر فى حالة زنجى قد حصل فى القاهرة على عيشة راضية لحق علينا أن نتساءل كم من زنوج غيره قاسوا الاهوال وتجرعوا كأس الحمام أثناء سيرهم فى هذه الطريق التى توصلهم الى مصر

وقد وجد من الخصيان من سعد حظهم وتوفرت لهم أسباب الثروة والهناء مثل خليل أغا الذى ذكرته فى كتابك وقد كان قوى السلطان مسموع الكلمة لدى والدة الخديو السابق حتى حصل له ماحصل اذ دس له السم فى القهوة تخلصا من شره وعتوه ولكن كم من الفتيان قد هلكوا حتى توصل النخاسون على خصى واحد مثل خليل أغا هذا

وانا لنعترف بأنه شتان بين الاسترقاق فى الاسلام وبينه فى المستعمرات بأمريكا ..... الخ

(الملحق الخامس)

وجاء فى الجريدة المذكورة بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٩ (٢٥ نوفمبر سنة ١٨٩١) غرة ٥٥ مانصه

﴿الرق فى الاسلام﴾

قرأنا فى جريدة الرّيبو بليكان أورليانيز الفرنساوية الصادرة فى أول أغسطس سنة ٩١ مقالة ضافية الذيل خصصها محررها للمدافعة عن الدين الاسلامى وعن نسبته الى هضم الحقوق الانسانية بسبب حكمه على الرقيق وقد أردنا ترجمتها ليطلع عليها قراء جريدتنا الكرام قالت

يحسن بنا أولا أن نسأل قراءنا الكرام أن يسمحوا لنا باداء واجب الدفاع والذب عن الديانة الاسلامية المحمدية فيما يختص بالرق كجماجم الوساوس والاوهام التى علقت بأفكار أتباع بعض الفرق الدينية النصرانية فان مصلحة فرنسا السياسية من حيث هذا الموضوع متوقفة على رفض مزاعم الكردينال لافيجرى التى أخذ يبثها فى كل ناحية وصقع والتحرس من نفثات المرسلين الانكليزيين

وليس بخاف على أحد أن انكلترة لم تسع فى الغاء الرقيق ولم تظهر نفسها فى مظهر العدو الألد لهذه العادة الممقوته الا بسبب

انكلترا هي التي لا ابتدأت بمنع الرق وهي برتستانت
وهي أكبر من يشجع الرق

قلة اليد العاملة فى مستعمراتها وان الكنيسة الكاثوليكية لما تحركت عواطفها الدينية بعامل التشيع والتعصب جعلت مطمح انظارها ومرمى نواياها الغاء الاسترقاق من قارة أفريقية وكان لها من دراهم رعاياها التى امتلأت بها خزائنها أعظم نصير شد أزرها على مقاومة شريعة لها فى بناء التمدن الحالى اليد البيضاء وقد رميت زورا وافكاً بما هى براء منه حتى ان الكردينال لافيجرى زعم (أن المسلمين يعتقدون ان الزنجى ليس من العائلة البشرية والهيئة الاجتماعية الانسانية بل هو واسطة بين الانسان والحيوانات العجم وانهم يعلمون هذه المعتقدات لاطفالهم ويبثونها فى أذهانهم بل ربما برهنوا لهم على انه أخس مقاما من تلك الحيوانات)

ولقد تحققنا بالبراهين الدامغه ان الكردينال لافيجرى قد استعمل فى دعواه هذه طرق الغش والتدليس ولكى يجتذب تعضيد الفرق الدينية ماديا وأدبيا قد برقش راية دعوته بصبغة الدين فنهج منهجا مناقضا لطريقة تمثيل الحقائق بالصفة التى حقها أن تكون عليها وربما عادت هذه الخطة بالعواقب الوخيمة على فرنسا التى يصح أن يطلق عليها أنها دولة اسلامية

ولو نظرنا الآن الى نتائج مساعى الكنيسة الكاثوليكية فى طريق ابطال الرق لرأيناها على الضد مما كانت تومئ اليه مقدماتها فان جذوة الاسترقاق قد التهبت بدلا عن ان تخمد واتسع نطاق

الس الرهبة رقم

دائرته عن ذى قبل ولا غرابة فى ذلك لان هذا المذهب الذى قام بالدعوة اليه نصراء الانسانية غير مطابق لمقتضيات الطبيعة التى قضت أن يكون فى الخليقة سيد حر وعبد رقيق ولنا فى تعاليم القديس توماس الذى اجتهد فى نشرها البابا ليون الثالث عشر أعظم برهان على مانقول فانه كان يقول لتلامذته « ان فطرة الوجود قضت بأن يكون بعض الجنس البشرى ملكا للبعض الآخر » وكان يستند لذلك على النواميس الطبيعية والالهية التى حتمت أن يكون موجود أقل من موجود ماديا وأدبيا فيكون ذلك تابعا لهذا

وهذا المسيو بوفييه أسقف مدينة مان قد استحسن فى كتابه المسمى (بالنظامات الالهية) عادة الاسترقاق وصرح بأن الرقيق تجارة محللة ولم يجسر أحد من علماء الدين أن يثير على كلامه غبار الاعتراض وكذلك لم نجد من دافع عن العبيد أو ذب عن حقوقهم حينما كان ملوكا فى القرن الثامن عشر يشترعون وجوب حرمان العبيد من التمتع بالمزايا والامتيازات التى يتنعم البيض فى بحبوحتها

وليس على ماأظن لكنيستنا دخل فى ابطال الرق باملاكا الفرنساوية أو بالاملاك الاخرى التابعة للدول المختلفة بل الفضل كل الفضل للثورة الفرنساوية التى جعلت المساواة من ضمن مبادئها وخصصت لها سطرا فى قائمة مشروعها الانسانى

أما المنهاج الذى اتبعه فى شريعته النبى العربى محمد بن عبدالله

(صلى الله عليه وسلم) مما يختص بالرقيق فكان مناقضا لمشروع الكنيسة على خط مستقيم وذلك لانه فى العصر الذى بعثه الله فيه برسالته الى الخلق كان يصعب عليه التعرض لامر حلا فى أذواق الشرقيين عموما ومالوا اليه كل الميل فبقى مستمرا مقبولا ولكن كم من آية فى القرآن الشريف أوصت بحسن معاملة الارقاء وحضت على عتقهم وأمرت السادة أن يعلموهم ويرقوا أذهانهم ويدلوهم على مابه سعادتهم فى المستقبل وان يعتبروهم كاعضاء من عائلاتهم

ومسألة العتق كما لايخفى مما حتمه الدين الاسلامى على كل من تملك عبدا من العبيد بحيث ان من يخالف ذلك يكون قد عرض نفسه للعقاب فى الدار الآخرة ولا يحتاج العتق فى الشريعة الاسلامية الى أصول معقدة وعقود مشكلة كما هو الشأن فى القانون الرومانى بل يكفى فى وقوعه صدور لفظ دال عليه من فم المالك ولو على سبيل المزاح

ولقد جاءت طريقة ابطال الرق الآن موافقة كل الموافقة للشريعة الاسلامية ولذلك رضيها وعضدها الملوك والامراء المسلمون مثل سلطان زنجبار والخليفة الاعظم أمير المؤمنين وغيرهما لانها لم تخرج عما أمرت به الديانة الاسلامية فأى ذى ملكة وعقل يعضد لافيجرى فى مزاعمه التى قام بنشرها بعد أن علم أن الدين

الاسلامى غايته من الرق انقاذ العبيد من حضيض التوحش الى ذروة التمدن

ولهذا نكرر القول بأن المنهج الذى سار عليه فى دعوته هذه يجلب الاخطار العظمى على البلاد الفرنساوية لاننا كما لايخفى شديدو الارتباط مع أربعة ملايين من المسلمين فى بلاد الجزائر فقط فضلا عن البلاد الاخرى فلو نهضنا الآن لاثارة الدين النصرانى على الدين الاسلامى لهيجنا خواطر المسلمين وغرسنا فى قلوبهم بذور الحقد والضغينة علينا وعرضنا أنفسنا للمكائد التى تكبدنا فى السابق تأثيراتها السيئة

يستنتج من جميع ماتقدم أنه لايجمل بنا أن ندع أرباب الدين وقسس الملة المسيحية يتداخلون فى أمور سياسية لاتعنيهم وليس لها أدنى ارتباط بواجباتهم الدينية التى حقها أن لاتتجاوز جدران الكنيسة وزواياها ولا أن نتركهم يرتبكون مع أقوام نسعى نحن فى تحسين علاقاتنا معهم وهم يبذلون الجهد فى تكدير صفوها متذرعين بالنصرة للدين وتكدير صفو العلاقات بيننا وبينهم فى الحالة الحاضرة مما يعود علينا بالضرر

هذا وليتحقق القراء الكرام من أن جميع مانسب للديانة الاسلامية من التهم والفظائع التى تنفر من سماعها الطباع وتأباها

الافكار السليمة ليس لها خيال من الصحة أو ظل من الحقيقة بل كلها أكاذيب وأباطيل يدحضها التاريخ

ولم يكن الرق بالحالة التى هيجت أهل أوروبا وأشعلت جذوة غضبهم وسخطهم الا فى البلاد السودانية التابعة للامم النصرانية أما فى البلاد المستنيرة بنور القرآن الشريف فهو أقل شدة وأقرب الى المبادئ الانسانية فاذا أردنا والحق يقال أن نسعى فى ملاشاته بالكلية فالاستعانة بالوسائل الدينية لاتجدى نفعا

ويجب على فرنسا تجاه هذه المسئلة أن تختط طريقا غير تلك الطريق العقيمة ولن تبلغ أمانيها من ذلك الا بنشر المبادئ المحمدية بين رعاياها المسلمين وبهذه الواسطة تنبث هذه المبادئ فى عقول الوثنيين المجاورين لأملاكها ومستعمراتها فتهدأ أمواج الاسترقاق وتسكن زوابعه اه

الملحق السادس

رأيت فصلا نشرته جريدة الاوبسرافوتور الفرنساوية تحت عنوان

الاسلام والاسترقاق

فى عددها الصادر بتاريخ ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩١ وهذا تعريبه

اننا لنهتم فى فرنسا اهتماما شديدا بالغاء الاسترقاق من بلاد السودان وقد عملنا أعمالا كثيرة لقمع هذه العادة البربرية التى ترتبت عليها النخاسة ولا نزال نأتى بأعمال كثيرة بسبب انتظام ارسالياتنا وتعضيد جنودنا بأفريقية لها تعضيدا قويا

ولكننا لم ننفرد بهذا العمل الانسانى بل هنالك أمم أخرى اقتدت بنا ونسجت على منوالنا

ولذلك نرى من المفيد النافع أن نقف على اجتهاد غيرنا فى هذا الباب فاما نحن فقد أسعدنا الحظ فاطلعنا على الخطبة التى ألقاها أحمد شفيق بك السكرتير الخصوصى لسعادة ناظر الخارجية على الجمعية الجغرافية الخديوية وقد طبعها حضرته فى كراسة على حدتها عنوانها « الرق فى الاسلام » وليس حضرته مجهولا عندنا فقد أرسلته حكومته منذ نعومة أظفاره الى باريس فدأب على الاجتهاد حتى تحصل على أجل الالقاب وسبر غور المعارف التى يمكن انتحاف وطنه بها واستفادة أهليه منها وقد رجع الى بلاده وهو الآن

فيها فى وظيفة سامية وترك بين ظهرانينا حسن الذكرى وجميل الاحدوثة ولذلك فهو انما يزيد فى ميلنا لمصر وانجذابنا نحوها ولو اننا نأسف على رؤيتها غير مستقلة تمام الاستقلال ويجعلنا ننظر بزيادة الاهتمام الى مليكها الحالى وقد وفاه حقه من المدح والشكر وعطر الاندية بما هو خليق به من آى الحمد والثناء

نعم ان النخاسة قد ألغيت من مصر من سنين عديدة ولكن أحد شفيق بك أخذ على نفسه أن لا يبقى للاسترقاق فيها رسما ولا اسما غير أنه آلى على نفسه أن يبتدئ بدحض ماشاع فى أوروبا من أن الديانة الاسلامية تساعد على النخاسة فوفى هذا العمل حقه من العناية والدقة فى مؤلفه الذى نشير اليه

وذلك لانه ابتدأ بذكر خلاصة تاريخية على الاسترقاق عند جميع الامم وفى جميع الاعصار ثم دخل فى الموضوع فأثبت على أن الديانة المحمدية لاتقر على هذه العادة بل تسعى فى الغائها مرة واحدة ولذلك سرد الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة ثم الحوادث التاريخية ومنها ينتج أن « الديانة الاسلامية قد حصرت من غير شك ولا مراء حدود الاسترقاق وعملت على إنضاب منبعه اذ حتمت شروطا وفرضت قيودا لابدّ منها لوقوع الاسترقاق و بينت الطرق وأوضحت الوسائل التى بها يكون الخلاص من ربقته »

ثم قال «فان شريعتنا المحمدية قد سعت فى تقويض دعائم الاسترقاق وتدمير معالمه .... وهل كان من الموافق المبادرة بتحريم أمر امتزجت به عوائد العالم كله منذ ماوجد الاجتماع الانسانى وتوالت عليه الايام والاعوام والشهور والدهور ألا ان ذلك كان يجرّ وراءه بلاشك انقلابا عظيما فى نظام الاجتماع وفتنة كبيرة فى نفوس الاقوام فلهذا جاءت شريعة الاسلام بهذه الغاية من طريق آخر تزول امامه الصعوبات وتتذلل العقبات بدلا من تهييج العقول وإثارة الخواطر والافكار بالغاء الاسترقاق مرة واحدة فخوطب المسلمون بأن يتقربوا الى الله تعالى بعتق العبيد المساكين فى ظروف كثيرة وأحوال متنوعة

وحث النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا على السعى فى نوال هذه الغاية الجليلة ولذلك جاءت قواعد فى العتق فى غاية السعة ونهاية اليسر بحيث يتسنى دائما للرقيق أن يجد فيها طريقا يساعده على الخلاص من الاستعباد اذا طلب ذلك بل ولو لم يطلبه »

ونحن نعد أنفسنا من السعداء لقولنا واثباتنا أن ديانة غير ديانتنا تنظر الى هذه المسألة التى تشغلنا الآن بمثل العين التى ننظرها نحن بها وهذه السطور القليلة التى أتينا على سردها تجعلنا نتعشم أن يكون لنا فى المسلمين عضد ونصير لاخصم خصيم

وفضلا عن ذلك فان ماقاله حضرة أحمد شفيق بك يؤيده كتاب القبطان بانجر على الديانة الاسلامية وقد ظهر هذا الكتاب حديثا فقد روى هذا السائح المقدام مايدحض ظن الظانين بأن تعصب المسلمين هو العائق الاكبر للمسيحيين عن افتتاح أفريقية ويؤكد انه فى جملة مرار أصاب منهم مساعدة وعناية يشكرون عليهما

ولذلك فانا نهنئ من صميم الفؤاد حضرة أحمد شفيق بك على البيانات والايضاحات التى أوردها ونعضده على المهمة الجليلة التى أخذ فيها ٤

موريس بوترى

الملحق السابع

وقد جاء الى المؤلف من حضرة صاحب العطوفة قره تيودورى أفندى سفير الدولة العلية فى بروسل عاصمة البلجيكا فى ١٢ نوفمبر الماضى ماتعريبه

عزتلو عزيزى

.....

.....

.....

لاشك انك لاتستغرب عند ماتعلم بان تصنيفك الذى أظهرت فيه البراعة وراعيت فيه جانب الذمة قد حاز مايحق له من القبول التام

عند كل من يهتم بهذه المسألة الخطيرة التى شغل الناس بالجدال فيها الآن

أما أنا فقد درسته درسا مدققا وانى ابادر بيثك آيات التهانى الفائقة الصادرة من صميم الفؤاد ومما جعلنى مبتهجا مسرورا من تلاوته أن القواعد والاصول التى دافعتُ عنها بنفسى اثناء المناقشة التى وقعت لى شخصيا مع الكردينال لافيجرى وفى نفس المؤتمر الذى عقد اخيرا فى بروسل قد صادفت فى كتابك تأييدا وتعضيدا مع الآيات البينات والحجج الدامغات والشواهد التى لاتعارض والبراهين التى لاتناقض فان هذه الدلائل غير داخلة فى معلوماتى عن الديانة الاسلامية لان معلوماتى هذه هى بالطبع والضرورة غير مستكملة وقد كان فى هذه الدلائل دحض لجميع المطاعن الصادرة لاعن حق ولايقين مع مناقضتها (أى المطاعن) للدين المسيحى نفسه تمام المناقضة ولوأن القائم بها هو من امراء الكنيسة وقد تابعه اشياعه من غير ماروية ولاامعان فقذفوا بها على ديانة يجهلون اصولها وقواعدها وأنت تعلم أنهم من بعد ذلك التزموا بتعديل خطتهم وتقليل وطأتهم وهذا أحسن مايجب عليهم

وانى لمسرور لعلمى بانك مشتغل بتصنيف كتاب مستوفى فى هذا الموضوع وأنتظره بفروغ صبر لان فتاوى العلماء والقضاة والدلائل الاخرى التى قلت بانك ستوردها فيه يكون بها سدٌ لافواه أولئك

الذين يدعون بخدمة الله والكنيسة ويجعلون مصالحهم وفوائدهم فوق ذلك كله وأنا على يقين من انه لاتقوم لهم بعد ذلك قائمة ولايبدون أدنى اعتراض وانى أكون لك شاكرا اذا تفضلت بالحافى بنسخة من بعد طبعه ولاشك ان ذلك يكون قريبا ان شاء الله وانى أشكرك على ذلك مقدما من جميع جوارحى

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وقبل أن اختم هذا الكتاب يلزمنى ان احيطك علما بأنى قد اطلعت باهتمام زائد على محاضر الجمعية الجغرافية الخديوية التى تكرمت بارسالها الىّ وخصوصا كتابك الذى بعثت به الى جريدة الاجيبسيان غازت فهو لايصح الجدال فيه مطلقا واذكر لك من هذا القبيل امرا قد وقع لى وهو ان الحكومة البرتغالية قدمت مذكرة على (الغاء الاسترقاق والنخاسة فى الاراضى البرتغالية) وقد جاء فيها من الاغلاط الفاضحة والاوهام الفاحشة انه « مع احتلال الانكليز القطر المصرى فما زال به سوق للارقاء وفيه يشترى الوالى نفسه واكابر البلاد وأغنياؤها الارقاء الذكور لتشغيلهم فى أعمال الفلاحة والطواشية لحراستهم والاماء لحريمهم » (فتعجب) ولكنى ابطلت ذلك ودحضته بالحجج والبراهين حتى ذهبت امثال هذه الاقوال

ادراج الرياح بحيث ان هذه الجملة قد اسقطت هي وما يماثلها تلقاء احتجاجي الذي مزجت فيه بين الشدة والحق فلم يظهر لها أثر في المجموعة النهائية المتضمنة اعمال المؤتمر وهذا أمر محتم عليّ تحتيمًا لامناص لي من القيام به وقد اديته وفزت في ذلك بالسعادة واني لاكون ممتنا شاكرا اذا سنحت الفرصة فبلغت هذه الاحوال المسامع الخديوية العلية

ثم اني اكرر عليك الشكر والثناء على ما تكرمت به من ارسال كتابك الجليل الخ

الملحق الثامن

لما كنت في مدرسة الحقوق الخديوية في سنة ١٨٨٤ بعثت الى جريدة الطبيب الغراء بلغز في (العبد) وقد نشرته في الجزء الخامس عشر الصادر في ٥ تشرين أول سنة ١٨٨٤ وقد أحببت ايراده هنا لما فيه من المناسبة مع هذا الكتاب

لغـــز

ما تقول فضلاء العرب البالغون من الادب أقصى الارب في اسم ثلاثي الحروف عند العرب والعجم معروف يوصف به الاحرار

والعبيد (١) ويطلق على افراد المواليد فتارة يدل على جماد وأخرى على نبات وطوراً يذكر في الحيوانات وهو على ما قيل أشرف الاسماء وقد اختار الايدعي بسواه بعض الادباء يوهب ويباع ويعد من المتاع وان كان بعض الانواع يحرم بيعه بالاجماع فان فتحت عينه أظهر لك الغضب والطاعة في الوقت والساعة فان شددتها مع ذلك ولى عنك ونأى بجانبه منك وهو بعد حذف الاخير منه نوع من الشرب منهى عنه وان حُذف أوله فالخالك تجهله ذكره أبو الطيب في شعره فصدق في خُبره اذ من نكد الدنيا على الحر واذا قتها له المرّ ان تصحبه بعدوّ ألدّ ما من صداقته بدّ وان حذفت الوسط كان مانعا للغلط فان جئته بالتاء على طريق الالحاق كان عنوانا لأيام الفراق وقد يدل على الاستعداد بعد ان دل على البعاد فيا من جنى لباب الآداب أعرب عن لغز لبس جلباب الظلام وظلام الجلباب أعانك الله في المبدا والمآب

أحمد زكي

---

(١) قال العلامة أحمد فارس الشهير في كتابه «الجاسوس على القاموس» في صحيفة ٢٥ ما نصه من الغريب انهم ذكروا للعبد خمسة عشر جمعا ولم يذكروا للحر الا جمعين ونحو من ذلك مجيء عدة مصادر لشنئه أي أبغضه مع ان العبد والبغض لا يستحقان هذا الاعتناء وجاءت ألفاظ كثيرة مرادفة للكذب والباطل ولم يجئ للصدق والحق مرادف اهـ

وقد ورد حله فى العدد التالى

﴿لحضرة الاديب نجيب افندى حداد من بيروت الشام﴾

الغزت ياذا الادب فى العبد المعروف عند العجم والعرب فانه لفظ يوصف به الاحرار والعبيد فى جنب سلطان ذى العرش المجيد وهو اسم للنصل القصير العريض ولنبت من رياحين الروض لاريض وقد عده بعضهم أشرف الاسماء فى مقامات الحب والولاء حيث قال

لاتدعنى الا بياعبدها * فانه أشرف أسمائى

فان فتحت عينه التى هى الباء وافق مصدر عبد بكسرها اذا غضب ووافق الطاعة من قولهم عبد الله اذا أطاعه طاعة من رغب أو رهب واذا زدته مع ذلك تشديدا جاء بمعنى الشرود من قولهم عبد تعبيدا وان حذفت آخره فهو العب وهو مكروه شربا لقوله فى الحديث مصوا الماء مصا ولاتعبوه عبا وان حذفت أوله كان قافية لبيت احمد حيث أنشد

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدوا له ما من صداقته بد

وان حذفت الباء بقى العد الذى يتقى به الغلط لان أخذ المعدود بالمجازفة لايخلو من الشطط وان ألحقت به التاء فهو عدة أيام الطلاق التى يحل بها الفراق وبضم أوله يصير اسما للاستعداد والله أعلم وهو حسبنا فى المبدا والمعاد

الملحق التاسع

لا يخفى أن القرآن الشريف قد ترجم الى أغلب اللغات الافرنكية كلها بل ان له فى بعضها ترجمتين وقد اتفقوا على ان أحسن ترجمة له بالنسبة لبقية التراجم هى الترجمة الانكليزية ثم الفرنساوية ولبعضه فى الالمانية ترجمة منظومة بالشعر أقول وقد استخدم الموسيو لايوم أحد علماء فرنسا الترجمة الفرنساوية التى عنى بها الموسيو كازمرسكى فرتب القرآن على نمط منطقى بحسب المواضيع خلاف الترتيب المعهود فجعل جميع الآيات التى لها علقة وارتباط ببعضها فى باب واحد مثال ذلك جميع أحكام التوحيد وكل ما يتعلق به تراها بعددها وعدد سورها فى المصحف فى الباب الذى عنوانه (التوحيد) ومثلها كل ما يتعلق بالكرم والمروءة والقتال والديانات والقصص والطلاق والميراث والمعاملات وغير ذلك

وقد نقلت عنه جميع الآيات المختصة بالرق وبالخدمة وألحقتها بهذه الرسالة ليتيسر الرجوع الى التفاسير بكل سهولة واطلاع الطالب فيها على التفاصيل التى يريدها

هذه هى الآيات الواردة فى القرآن الشريف كلها بخصوص الرق والخدمة وعددها ٢٣ آية

سورة محمد ٤٧ - آية ٤	فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى
« « « « « ٥	إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها
« النحل ١٦ « « ٧٣	والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون

سورة النساء ٤ - آية ٤٠ { وبالوالدين إحسانا و .... و ..... وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا

« التوبة ٩ - « ٦٠ { إنما الصدقات للفقراء و ... و ... وفي الرقاب ....

« النور ٢٤ - « ٣٣ { ..... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا

سورة المجادلة ٥٨ - آية ٤ { والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا

« « « « « ٥ { فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا

سورة البقرة ٢ - آية ٢٢٠

ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم

« النساء ٤ - آية ٢٨

و (حرمت عليكم) المحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم

« « « - « ٢٥

ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات .....

« « « - « ٢٩

.... فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين

« « « - « ٣٠

بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم .....

سورة المؤمنين ٢٣ - آية ١	قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
« « - « ٦ «	إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
سورة المعارج ٧٠ - آية ٣٠	وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
« « « - « ٣٥	أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ
« الاحزاب ٣٣ - « ٥٠	قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا
« المائدة ٥ - آية ٩١	لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . . . .

سورة الزخرف ٤٣ - آية ١ ... ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ...

« النور ٢٤ - آية ٣٢ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله

« « « - « ٣٣ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم

الملحق العاشر

ترجمة حياة الكردينال لافيجرى

قد وقفت على فصول كثيرة بشأن هذا الرجل والكلام عليه وبعضها بمدحه وبيان فضائله والآخر بذمه وذكر مثالبه وقد أحببت ان أورد شيأ من أقوال الطرفين لاحاطة القراء الكرام ليكونوا على بيّنة من أمره

كتب الموسيو شارل سيمون ترجمة حياة الكردينال لافيجرى فى صدر كراسة عنوانها «محاربة الاسترقاق» وهى الكراسة نمرة ٢٢٠ من ضمن الكراسات الاسبوعية التى تصدر باسم المكتبة الاهلية الجديدة *Nouvelle Bibliothèque Populaire*

قال فيها ما خلاصته

ولد شارل مارسيال المان لافيجرى فى مدينة بايون فى ٣١ اكتوبر سنة ١٨٢٥ وأراد أبوه أن يخرجه فى علم القوانين ولكن أميال اتجهت الى الكهنوت فدخل بمدرسة سان سولبيس ثم عين استاذا للتاريخ الكنائسى فى مدرسة السوربون بعد ان نال رتبة الدكتورية فى اللاهوت واشتهر بفصاحة التعبير وحسن الالقاء

ولما وقعت الفتن فى سنة ١٨٦٠ فى بلاد الشام أرسل فى مأمورية الى بلاد المشرق وفى سنة ١٨٦٣ عين أسقفا لمدينة نانسى فى فرنسا وبعد ذلك بأربع سنوات انشئت لاجله وظيفة رئيس الاساقفة فى مدينة الجزائر ومن ذلك العهد ظهرت أعماله وشاعت فضائله ولما انعقد مجمع رومة فى سنة ١٨٧٠ كان من أول القائلين بعصمة البابا وترشح للانتخاب بالنيابة عن مقاطعة البيرنات السفلى فلم ينجح وخاب خيبة سياسية أخرى فى الانتخابات التى وقعت سنة ١٨٧١ وفى عام ١٨٧٤ أسس ارسالية الصحراء والسودان ثم نظم طغمة الاباء البيض فى الجزائر وبعد ذلك فى طرابلس وفى تونس وهو من أكابر رجال هذا العصر بل قليل منهم من تنجذب اليه النفس وتميل نحوه العواطف مثله وفى ملامحه اللطف والطيبة والثبات وهو من البلاغة والفصاحة بمكانة قل أن يناظره فيها غيره وقد أتى بكثير من الاعمال الخيرية التى تخلد له الشكر مدى الدهر وقد اكتسب رتبة الدكتورية فى الآداب وفى الحقوق وفى اللاهوت وهو من أفاضل الادباء وأكابر المحققين ولو أنه اشتغل بالامور الدنيوية لكان الآن متربعا فى أرقى المناصب وأسنى المراتب لانه جمع صفات السياسة والكياسة والدراية والتنظيم والترتيب وصدق العزيمة وثبات المقصد وغير ذلك من جميل الخلال

ولا تسل عما أتاه هذا الرجل من الاعمال لتقديم أفريقية فانه يجل عن الحصر ويكاد يعيب عن الذكر ولذلك فلا غرابة من أن العرب الذين قد خدمهم الكردينال خدما فائقة فى مدة القحط الذى وقع سنة ١٨٦٧ قد سموه المرابط الاكبر والولى الاعظم وجاهروا بأنه اذا كان غير المسلمين لابد من دخولهم جهنم (فى الكوشة) بنص القرآن فلا شك أن الكردينال لا فيجرى مستثنى من ذلك وقد ساعد على توطيد أركان السلام فى تونس أكثر من جيش فيه ١٠٠٠٠٠ مقاتل

هذا هو رأى غامبتا ومما يزيده اعتبارا أن غامبتا ما كان يخفى عداوته وكراهته للاعمال الكاثوليكية وقبل مجىء الكردينال لافيجرى الى تونس لم يكن بها مستشفيات ولا مدارس ولا تكايا للفقراء بل ولا مقبرة للنصارى فلم تمض سنتان حتى بدل الاوضاع وأذهب الاحقاد وهدأ الخواطر وجمع الكلمة وأسس كثيرا من المعاثر الخيرية والوطنية والدينية وجمع لها المال اللازم بنفسه من افراد الناس وأقام فى جميع انحاء تونس بالتأسيس والعمارة والترميم والتعليم والتنظيم وبعث بالارساليات الدينية الى أواسط أفريقية وشاد كنيسة كتدرائية (جامعة) مؤقتة فى تونس فى ظرف ستين يوما فقط وبنى المدرسة الجميلة المعروفة بمدرسة سان شارل وأوجد جمعانة وديرا فى مدينة تونس وأقام كنيسة كتدرائية فى قرطاجة وأكثر المدارس المجانية والمستشفيات والملاجئ الخيرية فى كل مكان وجال فى أقطار أفريقية كنهر فيض بالخيرات والبركات ولكن الصنيع الذى يخلد ذكره على مدى الادهار هو مشروعه الفائق الفاخر الذى غايته منه احداث العقبات فى طريق النخاسين واشهاره الحرب العوان عليهم وقد فاز فى ذلك فوزا عظيما اذ جعل الملوك والامم تنضم الى لوائه فى هذا الجهاد ولهذا المقصد ألقى خطاباته الطنانة الرنانة التى سارت بذكرها الركبان فى جميع أقطار أوروبا وهى فى غاية البلاغة بما حوته من الافكار السامية والحقائق التى تتصدع لها الافئدة اه ملخصا

وقد رأيت فى معجم المعاصرين *Dictionnaire des contemporains* ما تعريبه

لافيجرى هو من أحبار فرنسا وقد تحصل على رتبة الدكتورية فى اللاهوت واشتهر فى التعليم وصار مدرسا للتاريخ الكنائسى فى مدرسة باريس العليا *Faculté de Paris* وقد وظف فى وظائف شرف كثيرة فى معية البابا بروما ثم بعد ذلك صار عضوا فى المجلس الامبراطورى للمعارف العمومية ثم عين رئيسا لاساقفة الجزائر فاسس فيها مدارس أيتام كثيرة وخصصها لاولاد العائلات العربية التى برّح بها الفقر وعضتها أنياب الاحتياج وقد حاول نشر الديانة النصرانية فيما بين أولاد أهالى الجزائر فناوته الحكومة الحربية فيها وعارضته معارضة شديدة استوجبت وقوع جدال هائل بينه وبين المارشال ماكماهون (سنة ١٨٦٨) وهو حائز لنشان اوفيسيه دولا ليجيون دونور وله كتب ابتدائية وله كتب كنائسية

وقد اطلعت على أشياء كثيرة تخالف ذلك بالمرة ولو أن أغلب الساخطين على الرجل يعترفون بفضله وسع اطلاعه فمن ذلك خطبة ألقاها بمدينة شنتو *Cento* من أعمال ايطاليا فى يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٨٩١ حضرة الاستاذ بالبونى المدرس الآن فى المدرسة الطليانية بمصر القاهرة فاستخلصت منها ما يأتى . قال فى سياق كلامه

لافيجرى يساعد على ازالة اطلال قرطاجنة وتبديد معالمها ليأخذ ما يجده فيها من المخلفات والآثار القديمة ويرسلها الى فرنسا وأنه يسعى لنوال غاية سياسية مالية ولذلك استحوز على الارض التى لارسالية الكبوشيين *Capucins* وقد تأسست هذه الارسالية فى مدينة تونس منذ ٣٠٠ سنة ثم طرد الاسقف سوتر ليأخذ مركزه لنفسه واجتهد

فى وضع يده على الارض المخصصة للمقبرة القديمة التى باسم سانت انطوان وهى ملك المستعمرة الكاثوليكية فى تونس ملكا مؤبدا ثم طرد من بقى من رهبان الارسالية المذكورة واستبدلهم بآخرين من الفرنساويين وطرده للكابوشيين من تونس ليس من السياسة فى شئ ولكنه عمل يخالف الادب والدين مخالفة فاضحة وقد اشتهر هذا الرجل فى علاقاته مع النساء بما يناقى قواعد الادب وواجبات الحشمة بالمرة ومازال الناس فى رومة يذكرون الاسم الذى أطلق عليه فيها أيام كان نازلا بها فى صباه فقد عرف عند الخاص والعام بأنه زير النساء *coureur de femmes* فى ميدان اسبانيا وأنه ليطلب لنفسه أن يرتقى الى مقام البابوية فيكون أكبر أكابر النصرانية ويقال انه اذا نال هذه الغاية جعل مركزه فى أفريقية وجنوده من القساوسة الذين يقال عنهم انهم يسعون فى الغاء النخاسة قد أوغلوا فى الصحراء واقتربوا من أبواب بلاد التكرور (بلاد النجر) حيث تقع هذه التجارة حقيقة ولكن هناك أمر لا يفهمه الانسان فى أعمال هذا الكردينال التى يتخذها ضد الاسترقاق وذلك أنه يجتهد فى تحرير الارقاء فى البلاد الشاسعة القاصية على يد قسوس قد سلحهم بالبنادق والمدافع ومع ذلك نستغرب منه فى تونس التى نراه فيها حاكما مطلق التصرف يمكنه بكلمة واحدة تحرير عدد عديد من الارقاء والاماء وخصوصا الاماء فانهم مازالوا فى دور الاغنياء ومنازل الكبراء اذا أنه يترك الفخر فى البحث على انقاذ الارقاء فى الحاضرة (تونس) نفسها الى قنصل انجلترة وهو القادر على تمام ذلك من غير اتخاذ الرهبان المجندين ومن غير استعمال البنادق والمدافع ولا أقول ذلك جزافا بل انى بنفسى أخذت من قنصلاتو انجلترة جارية من ضمن ٢٩ جارية أعتقها القنصلاتو مرة واحدة ولا شك أن أوروبا تجهل ذلك ولا فيجرى يسكت عمن يخبره بمثل هذه الامور ولا غرابة اذا أن تحرر الارقاء فى تونس لا يستوجب انفاق الدرهم والدينار ولا يستلزم جمع القناطير المقنطرة لاجل الاستحصال على الممالك الافريقية بحجة انقاذ الارقاء من ربقة الاستعباد

وقد قابلت كثيرين من الذين عرفوه أيام اقامتهم الطويلة بتونس فأخبروني عما يأتي بعضه

هذا الرجل يشترى الارقاء من أواسط أمريقية ثم يأتي بهم لتونس ومن هناك يرسلهم الى مالطة فيجبرهم على تغيير الاسلامية واعتناق الديانة النصرانية وبعد أن يعلمهم فيها ويصيرهم أساقفة يدعوهم « الآباء البيض » يبعث بهم الى أواسط أفريقية ثانية لاجل الزام أقرانهم واخوانهم بترك ديانتهم والاقتداء بهم فى التمذهب بالنصرانية — وقد اشترى عربات لدفن الموتى وخيولا وبغالا ثم باع ذلك كله بأثمان باهظة الى القومسيون البلدى فى تونس فاصاب من ذلك ربحا عظيما — ومما يحكى عنه أيضا أنه منذ ستة أو سبعة سنوات كان له كروم يقوم بها رجل من الفلاحين ويعتنى بشأنها فطرده ووضع قسيسا فى محله ولجهل هذا بأمور الزراعة والعناية بالكرم فسد العنب ولم يأت بالخمر المعتاد الحصول عليه فغضب لافيجرى على القسيس المتفلح وعاقبه بعقوبة غريبة اذ ألزمه برعى الغنم والمواشى فى ضواحى سيدى بوسعيد فى المرسى — وأسس مدرسة سان شارل ثم باعها للحكومة فى تونس بربح عظيم جدا وله فى الجزائر مزروعات من الخرشوف والكروم يستغلها كانه رجل من الاهالى ليس منقطعا للدين وخدمته

وأهم المزايا التى فى هذا الرجل أنه على درجة عظيمة من الفهم والعرفان وأنه متحصل على رتبة الدكتورية فى اللاهوت والطب والحقوق والعلوم والفلسفة واذا خطب خلب الالباب وتملك العقول ولعب بالافكار كيفما شاء وفى وجهه سماحة وبشاشة تغران الانسان ولا تخبرانه بما انطوى عليه من سوء المقاصد ورذيل السجايا — والحق انه تاجر لا خادم للديانة — واذا عاداه أحد أشهر عليه الحرب العوان وواصل عليه الطعان حتى لا يكون له مخلص منه ولا مناص وقد أرسل رجلا من أشياعه الى مالطة وعينه فى وظيفة دينية على شرط انه يخصص له نصف وظيفتها ودخلها فتم الامر ولكن الرجل كان معه تعليمات سياسية أخرى فلم يتبصر فى كيفية انفاذها ومما يدل على

ذلك أنه قام ذات يوم على مائدة جمعت كثيرا من الناس ثم رفع الكاس قائلا لتحيى الجمهورية الفرنساوية فطردته الحكومة الانكليزية منها

وقد رويت لى أشياء كثيرة اجتزئ عنها ففيما سبق كفاية

هذا ما كتبه حضرة الفاضل المحترم الرئيس محمود أفندى أنيس
ملتزم طبع الكتاب

الحمد لله على من أسداها وأسناها ومنح أولاها ووالاها والسلام على نبيه أقوم وسائل السعادة وأقواها وعلى آله شموس العرفان فى رأد ضحاها وأصحابه نجوم الهداية فى سعود مجراها

وبعد فقد اتصل بنا منذ حين عن بعض الغربيين من دعاة محق الاسترقاق المبتلاة به أفريقيه من ذاهب الاعصار أنهم جنوا على الدين الحنيفى فألصقوا به مستنكرات ما وصفوا من ذلك وما هو لوا به ولرّوها من دعواهم فى جملة أصوله وقواعده ومن هذه تسلقوا الى قدح وتشنيع فكاد لا تقرع أسماعنا قارعة من هذه المفتريات إلا ولهت نفوسنا الى نهضة حرّ حمى الانف سن ذادة هذا الدين القويم يثور للحق بإباته فيدمغ الباطل ويكشط التهمة ويجلو ظلم العمايات بنور اليقين والا فقد فقأ بأصابع البينات عيون المكابرين ودرجت أيام وتلك الامانى بحالها فى النفوس حتى وقع فى خاطر هذا العاجز أن يكاشف بالمسئلة أحد الأجلة من أولئك السادة الذادة دفاعا عن الحوزة وأنفة للملة واذا قد قيل ان الله تعالى خص بفضل هذه الخدمة الشريفة كريما من الامائل أبيا وهو حضرة الهمام أحمد شفيق بك كاتم أسرار نظارة الخارجية تجرد للدفاع بعزم مذكور فأوقع بتلك الاباطيل دحضا وتزييفا وبيّن مكان الرقيق عند المسلمين وعند سواهم من الامم منتقيا للادلة من وجوهها المعتبرة مستثيرا للحقائق من مكامنها الصحيحة وجلا الحق فى صورته الحسناء وكتب ما كتب باللغة الفرنساوية

لينظره أولئك الغربيون فيعرفوا أية الامم كانت بالموالى أبرّ وأرفق ولسان شريعتها بمواساتهم ألين وأنطق وأنه قد ابتدر هذا السفر الجليل ذلك البليغ الفاضل أحمد زكى أفندى مترجم مجلس النظار فأخرجه الى اللغة الشريفة العربية مُخرج صدق مصوغا من البلاغة فى أجمل قوالبها وأجل مراتبها وأجلى أساليبها ومذاهبها وعلّق عليه حواشى حافلة ترفعه الى تعزيز الكمال وتقريب المنال وتم بذلك لحضرته منة تقرن الى مترادف منته على أبناء ملته فطالما أرانا مع تلك الشبيبة والفتوة قواما بنشر الحقائق ونصرها وولوعا بإيقاظ الهمم وانهاضها أبلغ الله تعالى به وأمتع فكان أطيب هذا الخبر وأزكاه وقد رجوت أن يكون لى سهم فى ذلك العمل المبرور فالتمست من المؤلفين الكريمين أن يهبانى طبعه لأبثه فى الناس فطوقانى حفظهما الله بمنة الاجابة الى السؤل وأصبحت الثالث المعزز أو المحب المتتبع نسأله تعالى حياطتهما ورعايتهما انه لا يضيع أجر المحسنين والعاقبة للمتقين

محمود أنيس

﴿ يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة الفقير الى الله تعالى محمد الحسيني أعانه الله على أداء واجبه الكفائى والعينى ﴾

سبحان من أعتق من رق الشهوات النفسانية خلص عبيده وجملهم بجلال الاحرار وحلاهم بحلى الابرار فانتهضوا لنصر الحق وتأييده نحمده سبحانه على ماهدانا ونشكره على ماأولانا (ونصلى ونسلم) على نبيه الاكرم ورسوله السيد السند الاعظم سيدنا ومولانا محمد الذى ختم الله به الرسالة وأنقذ به من الجهالة وهدى به من الضلالة وعلى آله وصحبه ومحبيه وحزبه (أما بعد) فلما اصطفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم من جميع خلقه بشيرا ونذيرا وداعيا اليه باذنه وسراجا منيرا أنزل عليه كتابه المتين وقرآنه المستبين فأعجز المعارضين × وقطع المعاندين × بين الحلال والحرام × وأوضح منار الاسلام لم يدع من أمر الملة الحنيفية السمحة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ولم يترك غامضة من أسرار هذه الشريعة المطهرة وحكمها الدقيقة ولطائفها الباهرة الا تضمنها واستقصاها واستبان كثير من اشاراته بالسنة النيرة والاحاديث القدسية والنبوية المؤيدة المحررة فالكتاب والسنة أساس هذا الدين القويم وعماد هذا الصراط المستقيم اشتملا من دقيق الحكم على ماتقصر دونه العقول يامن يتفهمهما

ومن لطائف الاسرار على مالا تحيط به النقول يامن يتأملهما ويعقلهما فغاصت الفضلاء فى بحورهما واستخرجوا من درّهما حتى تلألأت قلوبهم بما عثروا عليه ووصلت يدهم اليه وانتهلوا من صافى لجهما وابتهجوا بالتمسك بمنبلج حجهما اذ أشرقت فى نفوسهم شموس الحق اليقين فأدحضوا حجج المتمردين والمكابرين وغير خاف أن الحق أبلج والتمسك به لذوى العقول أنجح وأبهج وقد قيض الله سبحانه فى كل قرن لهذا الدين من يذب عنه ويكبح الرادين عليه والمنكرين ولعمرى لو انجلت من هؤلاء المعارضين والمعاندين والمكابرين مرآة العقول وتركوا عصبية النفوس وسلكوا طريق الانصاف وتأملوا مع التدبر ماورد فى كتب هذا الدين من معقول ومنقول لأذعنوا للحق وعرفوا حقيقة الحال ورفضوا كلمة الشقاق والمراء والجدال ولكن لوشاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك * ولما جرت فى هذه الاعوام باوروبا حادثة التكلم فى شأن الرقيق وطعن بعض الناس بذلك فى الشريعة الاسلامية بما لا يليق ومن أعجب العجب أن يطعن انسان فى شئ وهو يجهله ويقدح فى أمر وهو لا يعقله انتدب للردّ عليه وفوّق سهام الانتصار اليه من حلاه الله بين اخوانه بحلية الادب ووهب له من أكمل العقل والذكاء والفطنة فأجزل ماوهب نسيج وحده كمالا ولطفا وفريدة عقده نجابة وظرفا

من هو باجمل الثناء عليه حقيق حضرة أحمد بك شفيق السكرتير الخاص بالخارجية المصرية الاهل لكل رتبة سنية فانه حفظه الله ألف فى ذلك باللغة الفرنساوية رسالته التى أرسلت ثواقب الشهب وكشفت لكل بصير عن وجه الحق فى هذه المسئلة غواشى الحجب وكانت فى هذا المعنى أنموذجا لغيرها من الكتب

بديعة صدعت بالحق قائلة * يامن يكابر أنصف فالصواب بدا
انظر تر الملة الغراء مسفرة * عما تكابر فيه تستفد رشدا
وارجع الى الحق واترك ما تحاوله * من المراء تنل بين الانام هدى
ان الرجوع الى الانصاف محمدة * وأربح الناس عقلا من اليه غدا

جزاه الله عن جميل هذا السعى أجمل الجزاء وأجزل له فى دار الثواب جليل الحباء فانتهض لتعريب هذه الرسالة وأبرز لنا ما احتوت عليه من المحاسن والجمالة المنطيق الذى لايعثر له قلم ولا يتلعثم له مقول ومن اذا خط حبر واذا فاه سلب الالباب وحير بما فصل وأجمل الذكى الالمعى النحرير النبيه النبيل ذو القدر الخطير حضرة أحمد افندى ذكى مترجم أول مجلس النظار أتقن حفظه الله نسجها على أحكم منوال وأبدع طرازها على أجمل مثال ولما كانت فريدة فى خدرها وسطعت من خلل سجفها أشعة بدرها فاشتاقتها النفوس واستجلتها استجلاء العيون العروس بادر الى

طبعها رغبة فى عموم نفعها الجناب الامجد والهمام الاسعد
من ينعش بفكاهة حديثه كل سمير وجليس حضرة محمود افندى أنيس
بالمطبعة العامرة ببولاق مصر القاهرة فبرزت بحمد الله معجبة
بهذا الجمال متبرجة فى حلة البهاء والدلال ۞ فى ظل الحضرة
الفخيمة الخديوية والعواطف الرحيمة العباسية حضرة المليك الاكرم
والخديو الاعظم الجامع بين طارف المجد وتالده والمشيد لاركان
الخديوية على قواعد جدّ جدّه ووالده سلالة السادة السراة الاماجيد
وخلاصة الملوك الصناديد عزيز الديار المصرية وحامى حمى حوزتها
النيلية الذى بلغت رعيته بمن طلعته من هنى الخير جميع الامانى
أفندينا المعظم عباس باشا حلمى الثانى أدام الله لنا أيامه ووالى
على رعيته برّه وانعامه ملحوظا هذا الطبع اللطيف والشكل
الظريف بنظر من عليه جميل طبعه يثنى حضرة محمد بيك حسنى
وكان تمام هذا الطبع وكمال هذا البنع فى أوائل
رجب الحرام سنة تسعة وثلثمائة وألف من هجرة
سيد الانام عليه وعلى آله وصحبه أفضل
الصلاة وأتم السلام ما انبلج صبح
وانكشف غمام

فهرست الكتاب

صحيفه
١ مقدمة المترجم
٤ فاتحة الكتاب

الرق فى الاسلام

٧ توطئة

الباب الاول

الاسترقاق فى الازمان القديمة

٩ الفرع الاول الاسترقاق عند قدماء المصريين
١٠ « الثانى « « الهنود
١٢ « الثالث « « الآشوريين والامم الايرانية
١٤ « الرابع « « الصينيين
١٦ « الخامس « « العبرانيين
١٨ « السادس « « الاغريق وهم اليونان
٢٢ « السابع « « الرومانيين

الباب الثانى

الكلام على الاسترقاق فى القرون الوسطى

٢٨ تمهيد
٢٩ الفرع الاول الاسترقاق عند الغاليين
٣٠ « الثانى « « الجرمانيين
٣١ « الثالث « « الفرنج

صحيفه

٣٢ الفرع الرابع الاسترقاق عند الويزيغوط
٣٣ « الخامس « « الاوستروقوط واللومبارديين
٣٣ « السادس « « الانجلوساكسون

الباب الثالث

الاسترقاق فى الازمان الحديثة

٣٤ تمهيد
٣٥ القانون الاسود

الباب الرابع

الاسترقاق فى الديانة النصرانية

٤٥ تمهيد وكلام عام

الباب الخامس

الاسترقاق عند أهل الاسلام

٥٤ تمهيد وكلام عام
٥٧ الفرع الاول منبع الاسترقاق
٦٦ « الثانى معاملة الرقيق
٨٢ « الثالث نكاح الارقاء
٨٥ « الرابع العتق
٩٣ « الخامس خلاصة ماتقدم
٩٥ « السادس التطبيق والخاتمه

الباب السادس

صحيفه

٩٧ الرق فى مصر من حيث العرف والاخلاق

ملحقات الكتاب المترجم

١٠٦ الملحق الاول ترجمة رد الكونت زالوسكى
١١١ الملحق الثانى ترجمة رد المؤلف على الاجيبسيان غازت
١١٣ الملحق الثالث تقريظات بعض أفاضل الافرنج
١١٨ الملحق الرابع تقريظ الموسيو ارتور رونى
١٢١ الملحق الخامس كلام جريدة الريبوبليكان اورليانيز
١٢٧ الملحق السادس كلام جريدة الاوبسرفاتور الفرنساوية
١٣٠ الملحق السابع تقريظ صاحب العطوفه قره تيودورى افندى
١٣٣ الملحق الثامن لغزفى (عبد) وحله
١٣٦ الملحق التاسع الآيات القرآنية المختصة بالرق والخدمة
١٤٠ الملحق العاشر ترجمة حياة الكردينال لافيجرى
١٤٦ كلام حضرة الملتزم

فهرست

بعض المواضيع المشروحة فى الحواشى للمترجم

الحاء تدل على الحاشية والرقم تحتها يدل على عددها

حرف الالف	ح	صحيفه
ابن جريج	١٠٥	٨٦
أبو حنيفة النعمان . . .	٨٧	٧٣
أبو بكر	٩٦	٨١
أبو داود السجستانى . . .	٧٢	٦٣
أبو ذر	١٠٣	٨٧
أبو زكريا يحيى النووى . .	٨٢	٧٠
أبو عبيدة بن الجراح . . .	٩١	٧٧
أبو هريرة (صحابى) . . .	٧٠	٦١
(أتينا أثينة)	١٨	١٦
اركانزاس (ولاية بأمريكا)	٤٩	٤٢
الازمان (تقسيمها باعتبار التاريخ الى ثلاثة قديمة ومتوسطة وحديثة) . .	٤٤	٣٤
اسبرطة (مدينة)	٢١	٢٠
آشور (تحقيق على لفظها)	١٠	١٢
أفسس (والافسسيين)	٥٢	٤٦
أفلوطرخوس (انظر پلوترك)		
أمبراطور (تحقيق لفظى)	٣١	٢٧

	ح	صحيفة
الامم المتبربرة	٢٣	٢١
الامم المتبربرة (التى خربت مملكة رومة)	٣٤	٢٨
أنايتس (معبودة عند بعض القدماء)	١١	١٢
أنتيجوا (جزيرة)	٤٥	٣٦
الانجلوساكون (قدماء الانكليز)	٤٣	٣٣
أورشليم (انظر بيت المقدس)		
الاوستروقوط (أمة قديمة)	٤٢	٣٣
آيات القرآن (اختلاف العلماء فى ترتيب عددها)	٧٨	٦٨
حرف الباء		
باسيلوس القديس	٥٨	٤٩
البراء بن عازب (صحابى انصارى)	١٠٢	٨٦
بطرس الحوارى	٥٥	٤٧

	ح	صحيفة
بطريق (تحقيق على هذا اللفظ) !	٢٥	٢٣
بلوترك (بلوطرخوس - بلوترخوس - أفلوطرخوس)	٢٢	٢١
بولس القديس (ترجمة حياته)	٥١	٤٥
بوسويي (الخطيب الفرنساوي)	٦١	٥٠
بيت المقدس	٦٩	٥٩
حرف التاء		
تاشيتوس (مؤرخ لاتيني)	٣٨	٣٠
تاسيتوس (انظر تاسيتوس)		
تاقيطس (انظر تاسيتوس)		
تقديم المخاطب على المتكلم في المحادثة	٩٣	٨٠
توماس من مدينة اكوين (قديس)	٦٠	٤٩
تيطس (رفيق بولس) ...	٥٤	٤٧
تيموثاوس (تيموطاوس) ..	٥٣	٤٦
حرف الجيم		
جاماليك (جزيرة)	٤٥	٣٦
جابوس (فقيه روماني) ...	٣٢	٢٧
جبرائيل	٨٠	٦٩
الجواز (بسابورت) ...	٤٨	٤٢
حرف الخاء		
الخورنية	٦٥	٥٢
حرف الراء		
رومة (رومية)	٢٤	٢٢
حرف السين		
ساغس (ساقز - صاقس) (جزيرة)	١٩	١٩
السالى (القانون)	٤٠	٣١
ساموس (جزيرة)	١٩	١٩
سان دومينج (جزيرة) ..	٤٦	٣٧
سان سولبيس	٢	٤
سلمان الفارس	١٠٦	٩٠
سيبريانوس القديس ...	٥٦	٤٨
سيسرون (أبلغ خطباء الرومان)	٣٦	٢٩
حرف الشين		
شيشرون (انظر سيسرون)		
حرف الطاء		
الطواشية اتخاذهم قبل الاسلام	١٠٩	٩٩

حرف العين	ح	صحيفه
عبادة بن الصامت	٩٧	٨١
عبد الله بن عمر بن الخطاب .	٧١	٦٢
عطاء بن أبي رباح (الفقيه) .	١٠٥	٨٩
علي بن أبي طالب	٨٩	٧٥
عمر الفاروق ابن الخطاب .	٦٨	٥٩
عمرو بن العاص	٧٤	٦٥
حرف الغين		
الغاليون (أمم أوربية قديمة)	٣٥	٢٩
غريغوريوس الاكبر . .	٥٧	٤٨
حرف الفاء		
الفتشيون (عباد اوثان) .	٦٧	٥٧
الفرنج (أمة قديمة في القرون الوسطى)	٣٩	٣١
الفسح (انظر جواز)		
حرف القاف		
قبرص (قبرس)	١٩	١٩
قيقرون (انظر شيشرون)		
حرف الكاف		
كارولينا (ولاية بامريكا)	٤٧	٣٩
كبدوكية (مملكة قديمة) .	١٢	١٣
الكردينال	٤	٥
الكنيسة	١	٤
كومانة (مدينة)	٢١	١٣

حرف اللام	ح	صحيفه
لاروس (پيير)	٦٦	٥٢
لافيجرى (ضبط اسمه) . .	٥	٥
لقدمونة (انظر اسبرطة)		
اللومبارديون (ولومباريا)	٤٢	٣٣
لويزيانا (ولاية بأمريكا) .	٤٧	٣٩
حرف الميم		
مانو (المشرع الهندى) .	٨	١٠
ميسورى (ولاية بأمريكا)	٥٠	٤٣
ميلاس (نهر)	١٢	١٣
حرف النون		
نجران (باليمن)	٣٧	٦٤
النووى (راجع أبو زكريا)		
نيافة	٣	٥
حرف الهاء		
هاتى (جزيرة)	٤٦	٣٧
هيردوت (المؤرخ اليونانى)	١٣	١٣
حرف الواو		
الويزيقوط (امة قديمة) .	٤١	٣٢
حرف الياء		
يبوس (يبوش) انظر أورشليم		
يحيى النووى (راجع أبو زكريا)		

زيادات

(حاشية ٢٢ صحيفة ٢١) ويسمى فى كتب العرب القديمة أفلوطرخوس (انظر كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى وقد ترجمه دوساسى الى الفرنساوية وهو مطبوع فى آخر ترجمة مروج الذهب (جزء ٩) التى عنى بها العلامة باربيه دومينار

(حاشية ٢٥ صحيفة ٢٣) وقد رأيت فى صحيفة ٢٢٦ من الجزء الاول من الانس الجليل بتاريخ القديس والخليل على مانصه « والبطريق هو الامير والبطرك هو الكاهن » وعثرت فى الكتبخانة الخديوية على كتاب جليل بخط اليد اسمه (المواهب الاحسانية فى ترجمة الفاروق وذريته) للفاضل حسين بن عبد اللطيف بن محمد العمرى القادرى الدمشقى فرأيت فى صحيفة ٢٦١ مانصه « والبطريق الامثل وأما البطرك فهو الكاهن »

(صحيفة ٣٥) أطلق الافرنج لفظة الاسود على هذا القانون استهانة بالرقيق واذلالا لهم كما أفادنى حضرة المؤلف حفظه الله

(حاشية ٩٦ صحيفة ٨١) أبو بكر هو أول الخ

(حاشية ١٠٩ صحيفة ٩٩) الخصى مابور الذى أرسله المقوقس الى النبى صلى الله عليه وسلم

تصحيحات

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٣	٣	أوقات	أوقاتا
٤٧	٩	*Timothée*	*Tite*
٧٢	١٨	وسبئ	وسئ
٧٢	١٨	يسبئ	يسيئ
٧٧	١٣	متصعب	متعصب
٧٧	١٣	واقصد	قصدوا
٧٧	٢٢	بامرائه	بامرائه
٧٩	٧	مؤلاه	مولاه
٧٩	١٤	نالزحف	بالزحف
٧٩	١٥	لابى بكر	لابى بكر
٧٩	١٧	بعزله	بعزله
٧٩	١٧	أبوبكر	ابوبكر
٩٠	٢	الخطاب	الخطاب
٩٤	١٦	الحلافة	الخلافة
٩٨	٤	المسلمين يعتقون	المسلمين كانوا يعتقون
٩٨	١٢	قائدا الجيش	قائد اقى الجيش
١٠١	٨	طريقتها	طريقها
١١٠	١٤	لقاه	ألقاه
١١١	١٥	ونصوصها	نصوصها
١١٤	١٢	جوستاف	جوستاف
١١٨	٣	اربور رونى	اربور رونى
١١٨	٧	واذا كان	واذ كان
١٢٧	٢	الاوبسرافوتور	الاوبسرفاتور
١٢٧	١٧	الاتعاب	الألقاب

(بيان الكتب التى ترجمها المترجم)

الاربعة عشر يوما سعيدا فى خلافة عبد الرحمن الناصر الاندلسى	بمطبعة البيان
نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام ...	بمطبعة بولاق
رسالة فى المعارف العمومية بالديار المصرية	بمطبعة فرنكو اجيبسيان
رسالة فى التقويم العبرى	لم تطبع
توفيق التقاويم	على وشك الطبع
مصر والجغرافيا	« « «
الرق فى الاسلام	بمطبعة بولاق
تاريخ المنصرف	على وشك الطبع
حالة التعليم فى مصر والبلجيكا	جارى طبعه بجريدة الازهر

رسائل من تأليف المترجم

موسوعات العلوم العربية	طبع فى بولاق
أسرار الترجمة	على وشك التمام
أحوال الكلاب	« « «

Princeton University Library
32101 065593798